الهيئة العامة للإستعلامات
كتب مترجمة (٧٨٧)

BEGIN
A Biography



Eric Silver

منى ناصف

بيجين.. سيرة حياته

تأليف : إريك سيلفر

بيجين
سيرة حياته

اريك سيلفر

المحتويات

شـــــكر وعرفــــــان

يسعدنى أن أعرب عن امتنانى لاسرة مناحم بيجين ، ورفاقه فى السلاح ، وزملائه ، والعاملين معه ، ومستشاريه لمشاركتهم لى بذكرياتهم ومعلوماتهم عن هذه الشخصية المعقدة . واخص بالذكر شقيقته « راشيل هالبرين » التى ساعدت كثيرا فى الكشف عن خلفيته فى السنين الأولى من حياته .

ولقد قدمت لى كل من « سوزان هانيس رولف » و « يسرائيل ميـداد » مساعدة قيمة فى البحث فى المصادر العبرية ، وقد تكرما مشكورين بمراجعـة المخطوط قبل الطباعة وتصحيح أى انحراف من جانبى عن الحقيقة . كمـا قـدم « نرومان روز » ، من الجامعة العبرية ، و « ديفيد لاندو » من صحيفة الجيروسالم بوست اقتراحات بناءة فى تعديل نصوص الكتاب .

وقد قام كل من « شارون بارنيت » و « رالف ماندبل » بترجمة المقالات من الصحف والمطبوعات العبرية الاخرى . بينما قامت كل من « استرفالينشيا » و « باربرابيبرنو » بتفريغ شرائط التسجيل ونســخ المخطــوط على الالــة الكاتبة على التوالى .

وأنتهز هذه الفرصة لاشكر المديرين والعاملين بسجلات دولة اسرائيل ، ومعهد جابوتنسكى ، وادارة الملفات بصحيفة الجيروسالم بوست ، ومجمــوعة كويسيل من قصاصات الصحف العبرية بمركز أوكسفورد للدراسات العبرية العليــا ، والمركز الصحفى للحكومة الاسرائيلية .

واخيرا اقدم شكرى الى رئيس تحــرير صحيفة « الجارديان » لمنحــه اياى اجازة حتى استطيع انجــاز هذا الكتاب ، والى عميد واعضاء كليـــة ســـانت كاترين بجامعـــة أوكســـفورد لكرم استضافتهم لى اثناء المراحـــل الاولى من اعداد هذا الكتاب .

« اريــك ســيلفر »

الفصـــل الاول
وليـــد الصـــهيون

ان مناحم بيجين هو أكثر الرجال ثباتا على المبدأ .. ســـواء من حيث العقيدة او الاهداف او الايمان بأساطيره الخاصة . وبالرغم من أنه أمضى الجـــزء الاكبر من حياته فى اسرائيل ، فان جذور نزعته القومية اليهـــودية العنيدة الثابتة ترجع الى مسقط راسه فى « بريست ــ ليتوفيسك » حيث ولد فى ١٦ اغسطس ١٩١٣ ، كان الطفل الثالث والاخير لكل من « زئيف دوف » ، و « هاسيا بيجين » . ولطالما قدم الرجـــل الذى أصبح فيما بعـــد رئيســـا للوزراء فـــروض الولاء والاحترام لفلاديمير زئيف جابوتينســـــــكى بصفته « معلمه واستاذه » ، بيد ان معظم ذكرياته عن النشأة ، فضـــلا عن معظـــم اشاراته الى مشاعر الكبرياء والاعمال البطولية التى ظل يستشهد بهـــا حتى بعد نصف قرن من الزمان ، يمكن اسنادها الى « زئيف دوف » معلم بيجـــين ومثله الاعلى . أما « جابوتينسكى » فقـــد اضـــاف الى ما ســـبق اطـــارا ايديولوجيا وتنظيميا ، وأدى فكره المستنير الى اثـــارة حـــب الاستطلاع فى بيجين واصبح بالنسبة له نموذجا يقتدى به فى أسلوبه الخطابى ، وبطـــلا معبـــودا .

وكانت مدينة « بريست ــ ليتوفيسك » ، التى تعرف ايضا باسـم « بريسك » ، واحدة من مدن الحـــدود الموجـــودة فى أوروبا الشرقية والتى لم يكن من المعـــروف بالضبط ما هى الدولة التى تتبعهـــا . فقـــد كانـــت فى العصور الوسطى تقع فى صميم دوقية « ليتوانيا » . وخضعت ابان القـــرن العشرين لحكم روسيا وبولندا والمانيا . واليوم تعتبر المدينة عاصـــمة لاقليم « بريست » بجمهورية بيلوروسيا السوفيتية الاشتراكية . وقد نزحت أول جماعة يهودية الى المدينة واستقرت بها خلال القرن الرابع عشر وقامـــت بدور قيادى فى تنميتها وتطويرها لتصبح مركزا للتجـــارة والمواصلات . وعلى الرغم من أن اليهود مروا بفترات مختلفة تخللها حصولهم على امتيـــازات وتعرضهم للاضطهاد ، الا انهم برزوا كمستوردين ومصدرين وملاك للاراضى ومقاولين وكرجال علم ودين .

وكانوا يتصفون بالايمان العميق ولكن ايمانهم كان ذا صبغة دنيـــوية وكانت « بريســـت » معقـــلا لجماعـــة المتناجم الذين كانـــوا يرفضـــون التطرف وعندما طرد جميع اليهود الذين رفضـــوا التحـــول عن دينهـــم من ليتوانيا لم يشذ عن القاعدة سوى تاجر واحد فقط اعتنق المسيحية . وقد سمح لباقى اليهـــود بالعودة الى المدينة بعد ثمانى سنوات من ذلك التاريخ ،

عندما أعاد الدوق النظر فى الموضـوع . واصبح اليهـــود ، عنـدما ولد « مناحم بيجين » ، يشكلون ٧٠٪ من سكان المدينة . وبلغ عددهم علم ١٩٣٩ عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، حوالى ٣٠ الف نسمة . وقد وجـد بمدينة « بريسـت » عندما تم تحـريرها من قبضـة النـازية ، ما يقل عن ١٠ فقط من اليهود . وتفيد دائرة المعارف اليهودية بأن « عدد السكان اليهود (بالمدينة) بلغ عام ١٩٧٠ حوالى الفى نسمة . ولا يوجد بها معبد حيث تم تحويل آخرها فى عام ١٩٥٩ الى دار لعرض الأفلام » .

وكانت مدينة « بريست » ، التى عاش « مناحم بيجين » شبابه فيها ، مدينة يهـودية مزدهرة بالفعل ــ حتى لو أخذنا فى الاعتبـار اللون اوردى الذى قد تضفيه الذاكرة خلال خريف العمر على الذكريات الخاصة بمرحـلة الشباب ــ فهو يذكر أن المدينة : « كانت مليئة بالمعـابد والمعاهد الدينية . وكانت هناك مدارس يهودية تستخدم فيها اللغـة العبرية للتعليم . وكانت توجد بها حركات شبابية عظيمة تضم آلاف الاعضاء . وكنا نخرج فى عيـد « لاج باعومر » (عيـد لليهـود ــ ١٨ آيار) الى الشـوارع فى استعراضات تضم آلاف الاشخاص الذين يحملون الاعلام الزرقاء والبيضاء والذين يتفاخرون بيهوديتهم . وكانت الحياة الثقافية لليهـود غنية ، بما تذخر به من صـحف ومسارح ، فقد كانت لنا حياتنا المستقلة » .

ويمكن القول بأن مناحم بيجين « كان منذ ولادته صهيونيا بمعنى الكلمة وكانت الحكيمة التى أشرفت على ولادته هى جدة « اريل شارون » ، الذى أصبح فيما بعد جنرالا اسرائيليا ووزيرا للدفاع . وقد بعث الصـــهيونيون المحليون بكعكة على هيئة باقـة من الورد فى مناســبة الاحتفال بختانه بعـد ثمانية أيام من مولده . وكان « زئيف دوف بيجين » و « ثيودور شينرمان » جد شارون من بين الرواد الاوائل للحركة الصـــهيونية فى « بريست » عندما كانت تلك الحـركة مازالت فى مرحلة النضـــال من أجل اثبات الـذات ، وقـد قـام « زئيف دوف » و « شـيزمان » بكسر بـــاب المعبــد الرئيسى فى بريســت بالفـأس ، بعـد وفـــاة « ثيـودور هيرتـزل » مؤسس الصـــهيونية السياسية فى عام ١٩٠٤ ، عندما رفض الحـــاخام « حاييك سولوفيشك » السماح لهما باقامة الصلاة على روحه ، وأخـذا معهما مفتاح المعبد . لقد كان الحاخام يعتبر « هيرتزل » مفرطا فى العلمانية أكثر مما يجب ، ولكن الصهيونيين نجحوا فى اقامة القداس حتى بالرغم من أن ثلاثة أشخاص فقط هم الذين حضروه .

ولقد كان « زئيف دوف » عصاميا ، ولم يتعـد مرحلة التعليم الاساسى وهى مرحلة الدراسـة الاولية فى احدى المدارس الدينية التقليدية الخاصـــة بأطفال اليهود ، والتى التحق بها فى سن الثالثة وتركها بعد اربعة عشر عاما وهو يحمل دبلوم الدراسات الدينية . وقد أمضى حياته ملتزما باليهـــودية

ولكن دون تطرف . وتذكر ابنته «راشيل هالبيرين» انه كان يرتدى «التيفيلين» (وهى أربطة جلدية شعائرية يرتديها اليهود المتدينون كل صباح حول سواعدهم وجباههم ، ولكنه كان يفعل ذلك عادة داخل المنزل أكثر مما كان يفعله في المعبد . ولم يكن يتلو كل صلوات الصبح والعصر والمساء . ولم يكن يرتدى قبعة داخل المنزل الا عند مباركته للطعام . وكانت لحيته مشذبة كما كان يطلب من أطفاله ان يغسلوا أسنانهم أثناء صيام « يوم كيبور » — على عكس التقليد الارثوذكسى المتشدد — ولكن على شرط أن يحترسوا من ابتلاع الماء . فكان يقول لهم « انكم اليوم ستكلمون الرب » ، ولذلك يجب أن يكون فمكم نظيفا » . وعندما اضطرت « راشيل » ، التى تكبر « مناحم » بخمسة أعوام ، الى التوقيع يوم السبت على بعض الاوراق الخاصة بجامعة وارسو ، قال لها والدها انه يمكنها أن تفعل ذلك دون أن يكون فى ذلك اعتداء على السبت « مؤكدا لها أن المعرفة تعتبر بمثابة مسألة حياة أو موت ، ولذلك فعليك أن توقعى » .

ولقد اطلع — زئيف دوف — لاول مرة على الحضارة الاوربية بعد مغادرته للمدرسة الدينية بوقت وجيز ليعمل فى تجارة الاخشاب مع والده . فقد لمس كاتب حسابات المانى الجنسية يعمل مع والده ما لديه من قدرات ، وشجعه على الهرب للدراسة فى برلين . ولكن سرعان ما ادركه والداه وأعاداه اليهما وقاما بتزويجه على غير ارادته . ولم يدم زواجه أكثر من عام انتهى بطلاق « زئيف دوف » زوجته على الرغم من انه رزق منها بابنة . ومضى خمسة وعشرون عاما تقريبا قبل أن يفكر فى الزواج مرة ثانية . وكانت عروسه « هاسيا كروموفسكى » هى ابنة أسرة « ربانية » بولندية . وكان قد بلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما بينما كانت هى فى العشرين من عمرها . ولم تكن تتكلم الا باللغة اليدية ، (وهى لهجة المانية قديمة تتخللها كلمات عبرية وسلافية) ، ولكن ذلك لم يحد من تعطشها للمعرفة ، وتقول ابنتها « راشيل » لقد قرات أعمال جميع الكتاب العالميين العظام « باليدية » ، وكانت تتمتع بفضول عميق وذكاء حاد وشخصية قوية . وكانت تواقة طوال الوقت للمعرفة ولا شىء غير المعرفة(٤).

وكثيرا ما كانت تجارة الاخشاب تقود « زئيف دوف » للسفر الى الخارج ، وبصفة خاصة الى برلين . وتؤكد مسز « هالبرين » : « انه كان من أكثر المحبين للالمان » . وتقول : « اننى أذكر عندما كنت فى السادسة من عمرى ، فى بداية الحرب العالمية الأولى انه كان يصطحبنى فى نزهات سيرا على الاقدام ويقول لى « الا تعلمين أن الالمان قادمون ، ان لهم حضارة مختلفة عن الحضارة الروسية » . وكان يتحدث اللغة اليدية والعبرية والروسية فضلا عن الالمانية . وعندما تعلم ابناؤه اللاتينية فى مرحلة الدراسة الثانوية التقطها منهم . وكان « زئيف دوف » ، مثل أصغر ابنائه ، يحب التشدق بعبارات لاتينية أمام البسطاء . فقد ردد مثلا فى احدى المناسبات عندما طلب منه بعض

اليهود السذج أن يتوسط فى خلاف ما عبارة باللاتينية معناها « ان القانون قاس ، ولكنه القانون » ، الامر الذى أصاب اليهود بالذعر .

وكان « زئيف دوف » فى يهوديته ، يؤمن بمذهب الفعالية . (وهو مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الاجراءات الفعالة أو العنيفـــة لتحقيـــق الاغراض السياسية) وكان يرى أن العقيدة اليهودية والقومية اليهودية شىء واحـــد . وقد غرس فى ابنائه الشعور بالفخر ازاء انتمائهم لليهودية . وكانوا أثناء تعليمهم الجامعى يذكرون دائما أن لغتهم الاصلية هى العبرية ، عندما يطلب منهم تحديد لغتهم . وكان اكبر ابناء « بيجين » يرفض التحدث البولندية التى كان يحتقرها بصفتها لغة معادية للسامية (ويرفض «مناحم» ايضا حتى يومنا هذا استخدام تلك اللغة ، بالرغم من انه تلقى تعليمه فى مدرسة ثانوية بولندية ثم فى جامعة وارسو) .

وكان « زئيف دوف » يردد دائما على أسماعهم ، ويغرس فى عقولهـــم « المغزى الحقيقى » من قضية « بيليس » التى دار حولها « حملة تشهير دموية » والتى وقعت بمدينة « كييف » ، ابان خريف عام ١٩١٣ ؛ أى عام مولد « مناحم » كان « مينديل بيليس » ، وهو يهودى روسى يبلغ من العمر ٣٧ عاما ، قد قدم للمحاكمة بتهمة قتل ولد مسيحى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما ، تنفيذا لبعض الطقوس الدينية . وتمت تبرئة « بيليس » بعد أن أمضى عامين فى السجن فضلا عن شهر استغرقته المحاكمة ، بيد ان حملة التشهير استمرت تغذى الحملات المعادية للسامية فى جميع انحاء اوروبا .

وتقول مسز هالبرين : « ان والدنا كان يردد علينا مقالة محامى « بيليس » لموكله اثناء المحاكمة : اذا حكم عليك بالسجن لمدة ٢٥ عاما فى سيبيريا ، مع الاشغال الشاقة ، فعليك الذهاب بشجاعة . فان يهـــود اسبانيا ذهبوا الى حيث أعدموا حرقا وهم ينشدون « اشهدك يا اسرائيل » (وهى ترنيمة دينية تتضمن أركان الدين اليهودى) . وعندئذ قال المحلفون : « لقد شاهدنا الـــه اليهود » . وكان والدنا يروى لنا هذه القصة بتوكيد شديد » .

وثمة محاكمة اخرى كان زئيف دوف ، يشير اليها مرارا . وهى محاكمة الكابتن « الفريد درايفوس » ، اليهودى الفرنسى الذى ادين بالباطل بتهمـــة الخيانة فى سنة ١٨٩٤ . وكان والد بيجين يحمل عصا يعلوها مقبض من الفضة فى شكل رأس « أميل زولا » الذى ناصر «درايفوس» وتحته نص من كتاب زولا : « انى اتهم» . وكان « زئيف دوف » يسير بصحبة احد الاحبار فى احـــد الايام عندما حاول عسكرى بولندى برتبة رقيب ، أن يحلق ذقن الحبر — الامر الذى كان يعتبر بمثابة « رياضة » محببة منتشرة بين المعادين للساميـــة — ويقول « مناحم بيجين » فى هذا الصـــدد :

« لم يتردد والدى فى أن يضربه بعصاه على يده · وكانت عملية ضرب اى رقيب بولندى فى تلك الايام تعتبر ايذانا ببدء مذبحة · واعتقل الحبر والدى ، وسيقا الى النهر حيث هددهما بالقائهما فيه ، وضربا حتى سالت دماؤهما · وعاد والدى الى المنزل فى حالة سيئة ، ولكنه كان سعيدا · وقال انه دافع عن شرف الشعب اليهودى وعن شرف الحبر · ولذلك فقد انطبع فى ذهنى منذ الطفولة شيئان هما : تعرض اليهود للاضطهاد ، وشجاعة اليهود » (٧) · لقد قدم مناحم بيجين أقصى ماعنده من اجلال وتقدير وعرفان لوالده عندما قال : « لم اعرف قط رجلا اكثر شجاعة منه · ولقد عملت طوال حياتى بين اشخاص يتميزون بالشجاعة ، وربما كان هذا قدرا مكتوبا · ومع ذلك فاننى لن انسى ابدا كيف قاتل والدى دفاعا عن الشرف اليهودى » ·

وكثيرا ما عانت أسرة بيجين من العوز · وقد عمل « زئيف دوف » فى فترة ما بأحد البنوك ، ولكنه فقد وظيفته عندما كشف لصحيفة تصدر باللغة البيدية « عن فضيحة مالية » بيد ان الاسرة لم تشهد أياما عصيبة مثل تلك التى مرت بها ابان الحرب العالمية الأولى وفى اعقابها فقد كانت مدينة « بريست » تعتبر مدينة عسكرية ، وكان حكامها الروس يخشون غزو المانيا لها · ونفى « زئيف دوف » الذى كان يتباهى بميوله نحو ألمانيا ، الى سان بطرس بورج ثم الى وارسو ، تاركا وراءه زوجته وابناءه بدون عائل · وعندما تقدم الالمان نحو مدينة « بريست) قام الروس باجلاء جميع السكان عنها واحرقوها عن آخرها · واصطحبت « هاسيا بيجين » ابنتها وولديها للاقامة عند احد الاعمام فى قرية « دوركيتشين » بالقرب من مينسك بروسيا البيضاء .

وكان المنزل صغيرا ، يكاد يشبه الكوخ · أقامت أسرة « بيجين » فى غرفة واحدة ، وكثيرا ما كانوا يضطرون الى توفير مكان بها لمبيت العمات والاعمام القادمين من المدينة · وكان « مناحم » لا يزال طفلا صغيرا آنذاك ، ولكن شقيقته « راشيل » تذكر احداث تلك الفترة بوضوح · فقد تعرضت القرية بعد اشهر قليلة لنفس مصير مدينة « بريست » حيث احرقت عن اخرها عند تقدم الجيش الالمانى نحوها واجبر الفلاحون المحليون على مغادرة القرية ، وتعرض اليهود للتهديد بالذبح على أيدى جنود الفرسان الروس ·

وتقول راشيل عن تلك الفترة :

« لقد سمعنا بكاء القرويين · وقام الروس بطرد جميع المزارعين حتى لا يعملوا فى خدمة الالمان . والا يزودوهم بالاغذية · واذكر حتى يومنا هذا صوت نحيب الفلاحين · وفجأة اقترب أحد جنود القوزاق من النافذة المغلقة والمسدل عليها الستائر . والخاصة بحجرتنا · وكان ارتفاع النافذة لا يزيد

عن ارتفاع ارجل حصانه ولذلك فلم نستطع رؤيته ، ولكنه طرق بعنف على الباب وقال صائحا : « من يقيم هنا ؟ زيدى ؟ أم روسى » . وكانت كلمة « زيدى » هى صفة يطلقها الروس على اليهود تحقيرا لهم . وكان عمنا يتكلم باللهجة الروسية . فاقترب من النافذة ورد عليه قائلا : « روسى » ولا أعرف كيف اسعفته البديهة ، لكن لولا ذلك لقضى القوزاقى علينا » .

ثم تستطرد « راشيل » ..

« وفى احدى الليالى ، صدرت الينا التعليمات بالاتجاه الى الحقول لان القوزاق كانوا يشعلون النار فى قريتنا . وشاهدت بعينى أحد جنود القوزاق وهو يصب البترول ويشعل فيه النار . واتجهنا جميعا الى خندق كبير ، وكان البعض قد بدأوا فعلا فى حفر الخنادق — وكان كل اليهود تقريبا موجودين هناك . وساد الصمت التام ، ولم يسمح لنا بالتفوه بكلمة واحدة . وكان الالمان قد اقتربوا بالفعل ، فقد كانت طلقات مدافعهم على مرمى سمعنا . وعدنا فى الصباح الى منزل عمنا . فوجدناه قد احترق تماما . فاتجهنا الى منزل آخر . ووصل الالمان فى الصباح الباكر . كم كانت فرحة اليهود كبيرة برؤية الالمان . لقد كنا جميعا نفترش الارض ، وكنا اعدادا غفيرة . وقبل وصول الالمان كنا مضطرين الى دفع اتاوات لجنود القوزاق حتى لا يقضوا علينا . ولكن الالمان عاملوا اليهود معاملة رائعة » .

وبعد فترة قصيرة من ذلك الحين ، تمكن « زئيف » من شق طريقه الى القرية التى يقيم فيها أخوه . وتم لم شمل اسرة « بيجين » فى اعقاب تقدم الالمان وعندما مرت الاسرة ، مرة اخرى ، بأوقات عصيبة ، انتقلت الى قرية اخرى ثم الى مدينة كوبرين . وكان « زئيف دوف » يكسب عيشه عن طريق نسخ الالتماسات باللغة الالمانية للامبراطور . وتستعيد مسز « هالبرين » ذكرياتها عن تلك الايام العصيبة التى مرت بها الاسرة ، فتقول :

« لقد كنا نتضور جوعا ، ونتمنى كسرة عيش » وكنا نحن الخمسة نقيم جميعا فى غرفة واحدة . وكان الالمان — الذين كانت تربطنا بهم علاقات ودية للغاية — يصطحبون أمى كل شهر وبرفقتها الصغير « مناحم » فى عربة يجرها الخيل الى القرية حيث كانت تقوم هى وعمى بقطع الاشجار ، واحضار الاخشاب لنا للتدفئة . وكان والدى يبقى مع الاطفال . وكنت قد أصبحت فتاة كبيرة ، فتوليت رعايتهم . وكنا نحتفل بعودة أمى بعد غيابها الذى كان يمتد لبضعة أيام . اذ كان كل شىء معدا لذلك : لقد كان لدينا الخشب والبطاطس للطهى ، ويرجع الفضل لامى فى استمرارنا على قيد الحياة ابان تلك الحرب . لقد كانت ذات طبيعة رومانسية ، ولكنها كانت فى الوقت ذاته قوية وتتمتع بشخصية فى غاية القوة » .

وبعيت « بريست » تخضع للحكم الالمانى بعد الحرب ، ولكن لم يسمح للسكان بالعودة حتى عام ١٩١٩ . وكان « زئيف دوف » واحدا من أول اليهود العائدين ، تاركا اسرته فى « كوبرين » . ومرة أخرى عاد الى نسخ الالتماسات بالالمانية كوسيلة لكسب العيش . وكانت «راشيل » وباقى الأطفال يرتقبون زياراته الأسبوعية لهن فى عطلة السبت بفارغ الصبر .

كما تقول مسز « هالبرين » عن تلك الايام

« كان والدى يمتلك قبعة سوداء عالية ، من النوع الذى يرتدى فى المناسبات الرسمية .وفى احدى المرات ، خرج مناحم الصغير من المنزل ورأى احدى قريباتنا تجلس على الدرجات ، ومسحة من الحزن تعلو وجهها . فسألها : « لماذا انت حزينة ياعمة ؟ اليس معك نقود ؟ نحن ايضا لم يكن لدينا نقود ، الا أن ابى اصبحت لديه الآن قبعة عالية مليئة بالنقود » . فقد كانت أمى تحتفظ بالنقود فى القبعة . لقد كانت ظروفنا قبل ذلك صعبة جدا ، وقد اعتادت أمى أن تضع الولدين بعد ظهر كل خميس فى السرير حتى تستطيع أن تغسل ملابسهما ، ثم تقوم يوم الجمعة بكيها ليرتدياها بعد الظهر ويخرجا بها قائلين انهما اصبحا يمتلكان بدلا جديدة لقد كانت أمى قوية جدا ، ولكنها قالت لى انها بكت فى احدى المرات وكان ذلك عندما قام جار غنى بشراء كعكة من المخبز ، ولم يكن فى وسعنا شراء الكعك ، واتجه أخى الصغير اليه وقال : « أرجو أن تسمح لى بشمها ؟ وعندئذ لم تملك أمى منع نفسها من البكاء » .

وتحسنت الاحوال عندما انضمت أسرة « بيجين » الى « زئيف دوف » فى « بريست » وعين الأب فى منصب سكرتير عام الرابطة اليهودية الامر الذى ضمن له دخلا ثابتا وان لم يكن كبيرا . وعندما بدأ الأطفال الثلاثة يشبون ، ساهموا فى زيادة دخل الأسرة عن طريق اعطاء دروس خصوصية . لقد كان ذلك فى وقت ملىء باعادة التشييد والبناء والمؤسسات وشغل « زئيف دوف » فى وقت ما منصب رئيس مجالس ادارة سبع منظمات مختلفة فى وقت واحد . ولكن عندما عاد البولنديون ليحلوا محل الألمان فى حكم المدينة ، اتهموا جميع اليهود بانهم شيوعيون خطرون . ولقد كان بعضهم كذلك بالفعل . وساعد « زئيف دوف » سبعة عشر عضوا من الحزب الشيوعى على التخفى كطلبة فى المعاهد التلمودية وبعثهم الى بلدة « فيلنا » الأكثر امنا نسبيا . وظل شيوعيو « بريست » لسنوات طويلة بعد ذلك يطفئون سجائرهم كلما شاهدوه يتمشى اثناء عطلة السبت ، كرمز على تقديرهم له .

وقد حقق « مناحم » الشاب تفوقا فى العلوم الانسانية اثناء دراسته الثانوية فى مدرسة بولندية . وتمسك خلال تلك المرحلة أيضا بيهوديته ، فكان يرفض باصرار الكتابة فى ايام السبت . وقد رد مدرس اللغة اللاتينية على

ذلك بان اعطاه تقديرا بمرتبة ضعيف . وقال « مناحم بيجين » فى حديث ادلى به لشاب اسرائيلى ، بعد أربعة عقود من ذلك التاريخ : « لقد قلت للمدرس ان هذه هى معتقداتى ولن أغيرها ، ولن اكتب فى عطلة السبت تحت اى ظرف من الظروف . وبعد فترة هدأ ومنحنى الدرجات المرتفعة التى اعتدت الحصول عليها » .

وظل « مناحم بيجين » ارثوذكسيا فى معتقداته ، وان لم يبق ملتزما بمعتقداته المتزمتة . فكان يصر مثلا اثناء رحلاته كرئيس وزراء على تناول الطعام الشرعى اليهودى ، بينما اشترك فى السير فى جنازة أنور السادات التى جاءت يوم السبت . كما انه لم يعد يذهب الى المعبد كل يوم او حتى كل سبت . وهو لا يخفى انه كان يستمع الى الاذاعة أيام السبت (سواء اذاعة صوت اسرائيل او اذاعة بى . بى . سى العالمية) ومن المعروف انه علم بمذبحة بيروت فى سبتمبر ١٩٨٢ من خلال الاذاعة . وكان التزامه الدينى ينطوى على بعض التظاهر ، لا دراكه انه يمثل الحركة التى ينتمى اليها فضلا عن اسرائيل . فقد صام بمناسبة يوم الغفران ، اثناء اعتقال البوليس السرى السوفيتى له . كما انه عندما كان زعيما للمعارضة سنة ١٩٥٣ ، وصل الى جوهانسبرج فى وقت متأخر من يوم الجمعة ، نظرا لعطل اصاب الطائرة التى اقلته . واصيب خمسة آلاف صهيونى من مؤيديه الذين حضروا لاستقباله بالفزع عندما امتنع عن استخدام السيارة الليموزين التى تنتظره ، وامضى الليلة فى فندق المطار .

وعانى « مناحم » اثناء دراسته بجامعة وارسو ، من هجمات المعادين للسامية له كما عانى من فقره النسبى ، وقد ارسلت الحكومة البولندية له ، بعد توليه رئاسة الوزراء ، « البوما » يحتوى على المستندات الخاصة به والتى كانت محفوظة فى سجلات الجامعة .وحيث انه لم تكن هناك علاقات دبلوماسية قائمة بين بولندا الشيوعية واسرائيل الصهيونية ، فان الهدية وصلته بلا مقدمات من خلال السفارة البولندية فى لندن ومجلس نواب اليهود البريطانيين وقدم « بيجين » جزيل شكره الى البولنديين ، ولكن بالانجليزية . وكانت هناك من بين الخطابات والصور الموضوعة داخل ثلاثة وعشرين مظروفا ، مكاتبة تحتوى على التبرير الذى تقدم به طالب الحقوق لعدم استطاعته دفع المصروفات الدراسية فى موعدها ، وتفيد بان اسرته لاتستطيع اعالته وانه مضطر لان يعمل اثناء دراسته ؛ ووافقت السلطات على طلبه بدفع المصروفات على اقساط .

ويمكن القول ان « زئيف دوف بيجين » كان يتصف دائما بالتهور فى رفضه الخضوع للسلطات الحاكمة ، ايا كانت تلك السلطات . ومن حسن حظه انه نجا سنة ١٩١٤ من السجن او الموت على ايدى الروس نتيجة لموالاته الصريحة للالمان . وتعتقد ابنته ان السبب الوحيد لصفح الروس عنه هو انه

كان ينصب الشطرنج مع الضباط (وهى هواية أخرى ورثها ابنه عنه) . فمثلا ، كان قد التمس فى سنة ١٩٢١ ، بصفته مسئولا يهوديا ، من « جوزيف بيلصا دسكى » المدير البولنــدى ، أن يصرف تموين طوارىء للطائفـــة اليهودية . ورد عليه بيلصا دسكى قائلا انه سيرسل الطعام الى اليهود ، فى حالة واحدة فقط وهى قيام زئيف دوف ، بانشاء اسماء وعناوين اليهود المتلاعبين بالاسعار . ورمى « بيجين » الطلب فى وجه الماريشال قائلا له « ان اليهود ليسوا بمخبرين ، وانه يستطيع أن يطلب من بوليسه السرى اداء اعماله القذرة . وعندما وصل النازيون الى « بريست » سنة ١٩٣٩ ، اصر مرة اخرى على حقه فى التكلم نيابة عن اليهود . وسرعان ما ادرك « زئيف دوف » ــ الذى كان قد بلغ العقد الثامن من عمره ــ ان هؤلاء الالمان كانوا نمطا مختلفا عن اولئك الذين اعجب بهم ابان شبابه .

ولم ينج من الحرب ، من بين افراد أسرة « بيجين » ، ســـوى مناحم وزوجته « اليزا » ، وشقيقته راشـــيل وزوجهـــا المحلى ، « ياهوشـــوا » وهلك والداه وشقيقه « هيرتزل » الذى كان من علماء الرياضيات النابغين . وكذلك هلك طفل « راشـــيل » الصغير الذى تركته فى رعاية امهـــا . ومن المعروف أن « هيرتزل » الذى كان يكبر بيجين بثلاث ســـنوات ، قد تعرض فى سبتمبر ١٩٤٩ لحيلة قاســـية لعبها الالمـــان ضده . اذ انه كان واحـــدا من مجموعة من الشباب اليهـــود الذين أجبروا على الوقوف صفا واحـــدا ووجهه الى الحائط فى ساحة الســـوق . وقد وصف « هيرتزل » « لديفيـــد جوتان » ، أحـــد زملاء « مناحم » فى قيـــادة منظمة « بيطـــار » ــ وهى جماعة الشبيبة فى حركة جابوتينسكى ــ تفاصيل الواقعة وروى لـــه كيف أحاط الجنود بهم وهم يحملون مدافعهم الرشاشة ، ولكن عنـــدما صـــدرت اليهم الاوامر باطلاق النار ، اطلقوا الرصاص فى الهـــواء . وعندما ســـئل « هيرتزل » عمـــا كان يراوده أثناء ترقبـــه المـــوت ، رد قـــائلا « انـــه ركز تفكيره فى حـــل مســـألة جبر . ولـــم يتمكن من حلهـــا حتى انقضـــت فترة الانتظـــــار .

وتتضارب الروايات عن نهاية « زئيف دوف » ويفضـــل مناحـــم الرواية الاكثر دراميـــــة :

« لقد قيل لنا انه غرق فى نهر باج مع خمســـة آلاف يهودى آخـــرين حيث أخذوا الى النهر وفتحت عليهـــم نيران المدافـــع الرشـــاشة من كـــلا الجانبين . وقال الناجون « ان النهر صبغ فعـــلا باللون الأحمـــر من الدماء المراقة . وكان والدى ، بصفته سكرتير الطائفة اليهـــودية ، أول الهالكين . وقيل لنا ان اليهود بدأوا ــ بمبادرة منه ــ ينشـــدون نشـــيد « هيتلكفا »

(وهو النشيد القومى الصهيونى) وكذلك أنشـــدوا « انى مؤمن » . وهكذا مـــات والـــدى » .

وتستعيد راشيل هالبرين هذه الرواية على انها من الاساطير الشعبية :

« ان ما اعرفـــه ، وهو ما ذكره لى اصدقائى فى بريســـك ، ان الألمان اصدروا قانـــونا يحرم على اليهـــود دفن موتاهم . وذهب والدى لدفن أحـــد اليهـــود فى المدافن . واقترب منه أحـــد الالمان وسأله عما يفعـــل . فقـــال بالالمانية انه يدفن أحـــد الموتى ، فقتله الجنـــدى على الفـــور . وأنا لا أعرف شيئا عن باقى اسرتى . لقد هلكوا مع جميع اليهـــود الاخرين . ولكننى أعرف كل التفاصيل بشأن أبى . وأنا اعرف اسم اليهـــودى المتـــوفى وأنه قـــد دفـــن بالفعـــل .

ومهما كانت الحقيقة ، فان الروايتين كلتيهما تنطـــويان على نمـــط من البطولة تتفق وشخصية « زئيف دوف » ، فهو لم يكن من نوع الرجـــال الذين يساقون فى هدوء الى غرفة الغـــاز . ويرى « بيجين » أن الدرس الذى خرج به اليهود من تجربة « الهلوكست » ـــ أو الابادة الجماعية بالحرق ـــ يتلخص فى التحذير الذى وجهه « جابوتنسكى » الى يهود أوروبا : « اذا لم تضعوا حـــدا لشتاتكم فان الشتات ـــ أو الدياسبورا ـــ ستضع حدا لوجودكم » . وقال « بيجين » ، بصفته رئيسا للوزراء ، ان « الهلوكست » كان المحـــرك الرئيسى وراء كل ما عمله هو وجيله .

« كانت المحنة الحقيقية لحياتنا كيهود هى عدم قدرتنا على الدفـــاع عن أنفسنا ، على مدى قرون عديدة ، وابان جيلنا بصفة أساسية . ولا يجب أن يتكرر هذا مرة أخرى أبدا . ولذلك فقـــد قررنا أن نحمـــل السلاح وأن نقاتل من اجـــل التحرير ، حتى يكون لدينـــا دولة وجيش ـــ أى تـــكون لدينـــا وسيلة للدفاع القومى . ان هذا هو الدافـــع الاول لجميع تصرفاتنا . وان نضمن أمن الدولة اليهـــودية وأن نضمن حرمة وحصـــانة حدودها . وهو المحرك الثانى لسلوكنا ، سواء كان ذلك عنـــدما كنا فى المعارضة أو الان ونحـــن فى الحكم » .

ولا يوجد فرد واحد من صهاينة ما بعد الحرب ، ينكر فى مناقشـــة هذه النظرية . والامر الذى ينحصر فيه اعتراض البعض هو أسلوب « بيجين » فى تطبيقها ، وتشبيه جميع اعداء اسرائيل بالنازيين ، واعادة « الهلوكست » الى الاذهـــان كتبرير لحرمان عرب فلسطين من تحقيق طموحاتهم الوطنية ، وارهاب الساسة الاجانب والضغط عليهم . لقد خلط « بيجين » فى بعض الاحيـــان بالتقليل من شأن المأســـاة اليهودية ، الامر الذى اعطى منتقدى

اسرائيل ذريعة لانتهاك المحظور والقذف بفكرة « الحل النهائى » فى وجهه :

لقد ختمت مذبحـــة ٦ ملايين يهودى أوروبى على قلب « بيجين » بكراهية ابدية لكل ما هو المانى . ولقد قاوم ، بصفته زعيما للمعارضة خلال الخمسينيات والستينيات ، بمرارة وأحيانا بعنف ، فكرة اجـراء أى اتصـــال بين اسرائيل والمانيا الاتحـادية ، حتى تحت حكم « كونراد أديناور » ، المناهض للنازية . وقـــد حافظ ، أثنـــاء توليه رئاسة الوزراء ، على العلاقات الطيبة مع الساسة والدبلوماسيين الالمان ، فى أضيق الحدود ، وقاد حملة ثأرية ، لا داعى لها ، ضـــد المستشـــار هلموت شميت ، كما رفض الادلاء بأحاديث للصـــحفيين الالمـــان أو التحـدث بلغتهم . وتعتبر مشاعر العـداء هذه ازاء الالمـــان امـــرا شائعا بين اليهود البولنديين الذين نجوا من الحرب ، ولكن لا يســـع المرء الا ان يتساءل : هل كانت مشاعر « بيجين » ستصبح بمثل هذا العنف لو أن « زئيف دوف » لم يعلق كل تلك الامال على المانيا ؟ هل كان الابن يقـــوم بتخليد الشعور المؤلم بالاحبـــاط الذى اصيب به والده ؟

بيد أن أخته ، التى كانت فى سن تمكنها من تذكر الجنـــود الالمـــان الذين كانوا يغيثون اللاجئين اليهود فى الريف ابان حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، تسيطر عليها مشاعر متضاربة . فهى تعترف انها لا تستطيع حتى يومنـــا هذا ان تشعر بالكراهيـــة ، التى « من المفروض أن تســـيطر على اى يهودى ازاء الالمان » . فأنا أذكر الالمان الاخـــرين . لقد كانوا يمنحـــون كل الاطفـــال الحلوى والبسكويت . لقد كانوا نوعا مختلفا من الالمـــان ، وكان الزمـــن مختلفـــا » .

الفصل الثانى

عند اقدام المعلم

كان من المفروض ان تصبح حركة الشباب التى اسمها « جابوتنسكى » والمعروفة باسم « بيطار » والتى يسيطر عليها التيار الصهيونى الذين يدين بالقوة ، هى الحركة التى من الطبيعى ان تستهوى « مناحم بيجين » فى بريست — ليتوفسك . فبعد ان انتهى مناحم من دراسته الابتدائية فى مدرسة مزراحى اليهودية ، التحق بمدرسة ثانوية بولندية ثم بجامعة وارسو حيث حصل على ليسانس فى القانون وان لم يعمل اطلاقا فى هذا المجال . وكان « بيجين » الصغير الحجم يقود اى معركة تقع فى المدرسة أو الجامعة ضد زملائه فى الفصل الذين كانوا يمارسون العداء للسامية ، بأسلوبهم الخاص ، والذى كثيرا ما كان يتسم بالقسوة . بل بلغ بهم الحال انهم حاولوا فى احدى المناسبات تلطيخ شفتيه بدهن الخنزير .

يقول « مناحم بيجين » عن تلك الذكريات :

« عندما كنا نتعرض للهجوم ، كنا ندافع عن انفسنا . ولم يحدث مطلقا ان خضعنا لهم ولذنا بالفرار . وكنا نعود الى البيت ملطخين بالدماء ومضروبين ، ولكن يسيطر علينا الشعور باننا حافظنا على كرامتنا . وسرعان ما ادركنا ان هؤلاء البلطجية يتصرفون بأسلوب مهذب اذا ما رددنا على ضرباتهم بالمثل » .

ومع ذلك فان مما يدعو الى الدهشة ان ابناء « بيجين » الثلاثة — مناحم وشقيقه هيرتزل وشقيقته راشيل — انضموا الى منظمة « هاشومار هاتزيار » التى اصبحت فيما بعد حركة الشباب التابعة لحزب « المابام » اليسارى . وكان « زئيف دوف بيجين » أحد الكبار الذين تبنوا تلك الحركة . ولكن عندما انحرفت حركة هاشومار عن أهدافها كمنظمة كشفية ، واتجهت نحو الماركسية انسحب ابناء بيجين منها . وقال زئيف دوف لابنائه : « يجب عليكم أن تناضلوا اولا من أجل حريتكم الشخصية ، ويمكنكم أن تدافعوا عن حرية العالم بعد أن تصبحوا احرارا » .

وقد ظل مناحم عضوا فى منظمة هاشومار لمدة ثلاث سنوات . وذلك منذ ان كان فى سن العاشرة حتى الثالثة عشرة . ثم انضم الى « حركة بيطار » عندما بلغ الخامسة عشرة . ويقول بيجين : « لقد انبهرت بالصهيونية الشاملة لمنظمة « بيطار » ، وبهدفها الاسمى الخاص باقامة دولة يهودية معاصرة على أرض اسرائيل التاريخية . ولقد كانت حركة

« بيطــار » تعبر عن كل المبادىء التى تعلمتها من قراءاتى ومن استماعى للآخرين والتى آمنت بصدقهـــا ، ولم يراودنى أدنى شك فى أن هـــذه هى الحركة التى اريد ان اخـدم الشعب اليهودى من خلالها طوال حياتى .

وبعد عامين من التحاقه بتلك المنظمة ، اى فى عام ١٩٣٠ ، استمع بيجين لاول مرة الى خطـاب « لجابوتنسكى » ، وقد تأثر به تماما . ويقـول « بيجين » :

ان « جابوتنسكى » كان له أكبر تأثـير على حياتى . ولقـد أخـذت بآرائه ، وتلقيت عنه تعاليم الصهيونية . لقد تأثرت حياتى كلها به . ولقـد تأثر عملى اثنـاء انضمامى الى المنظمات السرية وكذلك عملى فى المجـال السياسى : فقد أخذت عنه ارادة النضـال من اجـل تحـرير الوطن وكـذلك التحليل المنطقى للحقائق فيما يتعلق بالامور السياسية .

بل ان « بيجين » ذهب الى ابعد من هذا . لقـد كان « جابوتنسكى » يحظى لديه بما يرقى الى مرتبة التقديس ، وكان زعيما دوليـا ، ومع ذلك كان اقـرب ما يكون الى صـورة الخطيب الصهيونى الناشىء والقـادم من الاقاليم . ويذكر بيجين :

« ان زئيف جابوتنسكى » كان يتمتع بنمط الفكر الشامل الذى لا يظهـر الا مرة واحدة على مدى أجيال . لقـــد كان بمثابة أرسطو او ليـــوناردو دافينشى أو ما يمونيدس معاصر (وهو فيلسوف يهودى اسبانى قديم) وبمعنى آخـر ان هؤلاء كانوا يتفوقون فى عدة مجالات وليس فى مجال واحـد فقط . لقـد كان جابوتنسكى خطيبا وكاتبا وفيلسوفا وكان رجـل سياسة وجنديا بارزا كما كان ضليعا فى اللغات . ولقد تفوق فى كل هذه المجـالات ، ولكنه لم يكن بالنسبة لنـا ــ نحن تلاميذه ــ مجرد معلم بـل انـه كان أيضـا رمـزا لآمالنـا » .

لقد اعترف حتى الد أعداء « جابوتنسكى » السياسيين ــ وكانوا كثيرين ــ بجاذبيته الجماهيرية . وكذلك الحال فيما يتعلق باصالته الفـكرية وغزارة كتاباته . بيد أن من المبالغة ان نقارن مستوى عبقريته وعبقـرية ليوناردو دافينشى . كان كسياسى يتمتع بالقدرة على كسب تأييد لآرائه حتى أولئـك الذين ينتمون الى أحزاب صهيونية أخرى . ومع ذلك فلم يحقق اثنـاء حياته ســوى أهداف قليلة . كان ينقصـه الصبر الذى يمكنه من كسب الحلفاء ، كما كانت تنقصه ايضا القدرة على التوصـل الى الحلول الوسـطى . وكان « جابوتنسكى » يرى أن التدرج بمثابة الكفر ... فكان يريـد قيام دولـة يهودية ، على أن يكون ذلك فى الحـال ، بل انه كان يرفض التفاوض على اقل من ذلك ، حتى لو كان ذلك على سبيل التكتيك .

ان حركة التصحيح التى اسسها جابوتنسكى والتى تعتبر اصل حزب حيروت الذى تزعمه بيجين فيما بعد ، تميل الى تصويره فى صورة الليبرالى الطيب على النمط الاوروبى القديم وعلى النحو الشائع ابان القرن التاسع عشر ، والذى يسمو فوق مستوى اعضاء جماعة « ارجون زفاى ليومى » الذين يتصفون بالفظاظة ، اى فى صورة المفكر المهذب . ولقد حظيت وجهة النظر هذه ، على عكس المتوقع ، بتأييد المستعمرين البريطانيين الذين كانوا قد سجنوه فى بادىء الامر ثم قاموا بنفيه من (الأرض الموعودة) . وقد قابله « هارولد بيلى » مساعد « ايرنست بيفين » لشئون الشرق الاوسط ابان احتلال ايام النضال الصهيونى — قابل جابوتنسكى — فى لندن عام ١٩٤٠ وذلك قبل بضعة اشهر من وفاة زعيم حركة التصحيح . يقول بيلى :

لقد قمت بزيارته فى المكتب المتواضع للمنظمة الصهيونية الجديدة : واذكر انى شعرت بنفور بصفة خاصة ازاء اتباعه من البريطانيين . اما جابوتنسكى نفسه فقد ترك فى نفسى ، على العكس من ذلك ، انطباعا بأنه قوة يجب ان يأخذها المرء فى الحسبان . فوجهت له الدعوة للحضور الى اوكسفورد ليلقى كلمة فى أعضاء منظمة « تشاتام هاوس » الموجودة هناك . ولقد تأثروا بلا ادنى شك بطلاقته ، بصرف النظر عن رأيهم فى آرائه . وقد بدا لى انه من نوع الجيل الثورى الذى كان موجودا عام ١٨٤٨ — أو انه كان شخصية تشبه الى حد بعيد « ميتزين » لكن فى عصر متأخر .

ولو أن « جابوتنسكى » سمع تلك المقارنة لاستساغها كثيرا خاصة وأنه كان من المعجبين المخلصين بايطاليا وبنهضتها القومية . بيد أن صفة الليبرالى لا تنطبق عليه تماما . فقد كانت فلسفته تنطوى على جانب مظلم . الدم والنار والحديد والتسلط ، والانضباط والتمسك بالرسميات . واستغلال الجماهير ، والتمييز العنصرى بصفته جوهر الامة .

وقد كتب « جابوتنسكى » فى أحد مقالاته الاولى تحت عنوان : « ان الانسان عدو للانسان » يقول :

« اننا نبنى احيانا آمالا براقة حول الاكذوبة التى تقول بأن شعبا معينا قد عانى الكثير ولذا فانه سيتعاطف مع آلام شعب آخر ويشعر بها . وان ضميره لن يسمح له بأن يبتلى الشعب الاضعف بما ابتلى به من قبل .. ولكن الواقع يؤكد ان هذه مجرد كلمات منمقة جوفاء .. والكتاب المقدس فقط هو الذى يقول لنا « أن الحاق الظلم بالغريب يعتبر اثما فانكم تعرفون شعور الغربة حيث أنكم كنتم غرباء فى أرض مصر .. ان مثل هذه الفكر لانسانية اطفولية لا محل لها فى الاخلاقيات المعاصرة » .

وبالمثل ، يمكن القول أن الليبرالية المعاصرة لا تتسع لمثل هذه الواقعية الصارخة ، حتى وان كان « جابوتنسكى » يصدر حكمه بناء على العالم الذى يراه حوله . وما قولنا فى تأكيده « ليست هناك قيمة فى العالم أعلى من الامة والوطن » ، أو قوله « ان أسمى مايمكن أن يحققه جمهور من البشر الأحرار هو ان يستطيعوا العمل معا فى دقة وتناسق مطلق مثل الآلة » ، وأنه « بدون الطقوس والشكليات لا توجد حرية » ، ما قولنا فى هذه الافكار ؟ ربما كانت نظرة « جابوتنسكى » المتشائمة ازاء الجنس البشرى لها ما يبررها (وقد استطاع أن يتكهن من خلالها بوقوع الهلوكوست) ولكنها على اى الحال تعتبر ابعد ما يكون عن الليبرالية . وهذا ينطبق بالمثل على موقفه من العرب الفلسطينيين ، حتى على الرغم من انه لم يسع الى طردهم .

لقد كتب سنة ١٩٢٣ يقول :

« من المستحيل أن نتصور امكانية التوصل الى اتفاق تلقائى بيننا وبين عرب أرض اسرائيل .. سواء كان ذلك الآن أو فى المستقبل المنظور .. ان كل أمة سواء كانت متحضرة او بدائية تؤمن بأن أرضها هى وطنها القومى ، الذى تريد أن تبقى مهيمنة عليه الى الابد . ولا يمكن أن تفكر مثل هذه الامة او تقبل بوجود سيد جديد أو حتى بوجود شريك لها .. وكل قوم يقاتلون المستوطنين طالما كان هناك بارقة امل فى التخلص من خطر الاستيطان الاجنبى . وهكذا يفعلون ، وهكذا سيفعل العرب المقيمون فى « أرض اسرائيل » ، طالما كانت لديهم بارقة أمل فى أن يتمكنوا من منع تحويل فلسطين الى « دولة اسرائيل » لقد كان « جابوتنسكى » أكثر صراحة من معظم الصهاينة المعاصرين له . لقد أعلن صراحة عن مضمون أفعالهم وسياساتهم ولكنه رد على المقاومة العربية بواسطة اقامة « جدار حديدى من الحراب اليهودية » لاجبار الفلسطينيين على الاعتراف بالمحتوم . وكان يرى أن « الاسلوب الوحيد للتوصل الى اتفاق فى المستقبل هو التخلى تماما عن اى محاولة حالية للاتفاق » . وقد قام مناحم « بيجين » فى حديث أدلى به بعد أن أصبح رئيسا للوزراء ، بصقل هذا المفهوم ، فقال « ان المقصود بالجدار الحديدى أنه لا يمكن تحقيق الصهيونية ما لم يقم بيننا وبين العرب حاجز من القوة . وسيحاول العرب منع هذا حتى لو أدى الامر الى اراقة الدماء . ولابد من وجود قوة دفاعية لمنع اراقة الدماء . لقد أعلن « جابوتنسكى » ايمانه بمنهج العدالة ، ولكننا اكتشفنا انه لابد من الدفاع عن العدالة ، بيد انها كانت عدالة فى أدنى مستوياتها فى دولة يهودية متطرفة لا تترك بارقة أمل فى أن يتمتع العرب بالسيادة على اى من ضفتى نهر الاردن .

وعندما اشترك بيجين فى معسكر صيف اقامته منظمة « بيطار » بالقرب من نيويورك ، بعد انقضاء اكثر من اربعة عقود على وفاة جابوتنسكى ، كان

من الواضح انه ظل على اخلاصه لاستاذه ، وتكريسه لمذاهبه ، وتخليــــده لاسلوبه الخطابى ، ابتداء من استخدام نبرات صوته لاثارة الشفقة وانتهاء بخفضها كختام كلامه . وكان يتمسك بما وصفه كاتب سيرة حياة «جابوتنسكى» ــ والذى كان يقيم معه فى منزله ــ « بتقديسه للاتيكيت » ممثلا فى الانحنــاء وتقبيل يد السيدات وارتداء البذلة وربطة العنق والحذاء اللامع ، وذلك فى وسط بلد الرواد الذين يرتدون القمصان المفتوحة عنــد الرقبــة وينتعلون الصنادل . بل انه استحضر روح غاريبالدى ، البطل الذى كان « جابوتنسكى » يبجله ، بالقاء محاضرة على جماعة من اعضاء البرلمان الايطـــالى الزائرين لاسرائيل ، عن زعيم حركة تحرير وطنهم . وقام « بيجين » ، عندما تخلى عن المعارضة لاول مرة لينضم الى حكومة الوحدة الوطنية على ابواب حرب ســـنة ١٩٦٧ ، بزيارة مقبرة « جابوتنسكى » على جبل هيرتزل بالقدس . وكان مثل جابوتنسكى مستعدا قبول عرب فلسطين ، على شرط الا يتجاوزوا حــدود مكانتهم ، وان كان قد اعترف بأن الضفة الشرقية للاردن لم تعد هدفا عمليا بالنسبة للدولة الصهيونية (لم ترفع جماعة « البيطار » خريطة جابوتنسكى التى تضم « كلتا الضفتين » من شعارها الا فى عام ١٩٨٠) . وربما لم يكن بيجين يتمتع ببريق جابوتنسكى وقدرته الاصيلة على اشعال الحماس ، بيــد انه كان اكثر مهارة منه فى فن الممارسات السياسية العملية . وقد استطاع التلميذ أن يغير مسار الصهيونية ويعدله لخدمـــة اسرائيل الحديثة ، وتحويلها الى مجتمع كان « الاستاذ » سيتعرف عليه بلاشك كمجتمع احلامه .

ولم يكن « جابوتنسكى » بالشريك السهل على الاطلاق . وكثيرا ما كانت الشخصيات الصهيونية الاخرى البارزة يجدونه متغطرسا . ولم يكن يرحمهم سواء فى كلماتهم المنطوقة أو المطبوعة . وكان متسلطا وقـــادرا على اثارة السخط ، ولكن بحلول عام ١٩٢٠ لم يكن هناك من يستطيع النيل من مكانته فى قيادة الحركة . وقد اكد الدور الذى لعبه كمؤسس للفيلق اليهودى فى الحرب العالمية الأولى وكاحد قادته ، انه رجل أفعال تماما كما انه رجل افكار ، وكرائد للدفاع اليهودى عن النفس فضلا عن كونه واعظا بارزا ، أن الامر الذى قاد « جابوتنسكى » لدخول متاهة الصهيونية هو مطلبه باقامة دولة يهودية الامر الذى كرس من اجله كل جهوده ، فقد كان ذا فلسفة (وحـــدانية) مما كان يستحوذ على اعجاب الشباب « بيجين » . وقد كان الاخرون مستعدين لتقديم تنازلات ، على الاقل بالنسبة لمواقفهم الدبلوماسية ومناهجهم قصيرة الاجل ، وان لم يكن بالنسبة لاهدافهم بعيدة المدى . وكان « جابوتنسكى » يرى ان مثل هذه التنازلات لا تنطوى على الخيانة فحسب بل على سوء التقدير ايضا . فقد كان يؤمن بأن قوة اليهود تكمن فى قوة قضيتهم المعنوية ، ومن ثم فلا يجب عليهم تمييعها ابدا ، خاصة وأن احدا لن ينخدع بذلك على أى الحالات .

وجاءت الخطوة الاولى فى يناير ١٩٢٣ عندما استقال « جابوتنسكى » من اللجنة التنفيذية العليا للحركة الصهيونية احتجاجا على ما اعتبره عدم مقاومة « حاييم وايزمان » لعملية « انكماش » التعهد البريطانى المتمثل فى وعد بلفور لعام ١٩١٧ . ولقد اسر لبعضهم بعد حديث دار والزعيم الصهيونى أن (وايزمان يعتقد أن منهجى هو منهج الخيالى العنيد ، بينما انا أشعر ان اسلوبه هو بمثابة التخلى عن الحق او التخلى غير المتعمد عن المبادىء) .

واسفرت تلك الخطوة عن تأسيس « حركة التصـــــــحيح » الملتزمة صراحة باقامة دولة يهودية تتمتع باغلبية يهودية على ضفتى نهر الاردن كلتيهما، تملك جيشا يهوديا للدفاع عنها . وظلت « حركة التصحيح » جزء لا يتجزأ من الحركة الصهيونية الى أن انعقد المؤتمر الصهيونى السابع عشر فى يوليو ١٩٣١ ببازل ، حيث جاوز « وايزمان » كل الحدود — ليس فقط من وجهة نظـــــر « جابوتنسكى » وحده — بقوله ان فكرة الدولة لم تكن مطلقا هدفا فى حد ذاته بل مجرد وسيلة الى غاية . وقد كلف هذا « وايزمان » زعامته للحـــــركة الصهيونية ، غير ان « جابوتنسكى » لم ينجح فى أن يستصدر بيانا واضـــحا يتضمن برنامجا سياسيا محددا . وعندما لم يعتن المؤتمر حتى بطرح القرار الذى تقدمت به حركة « التصحيح » للاقتراع ، اعتلى « جابوتنسكى » مقعدا وصاح قائلا « ان هذا لم يعد يشكل مؤتمرا صهيونيا » ومزق بطاقة عضويته .

وخرج « التصحيحيون » ، ولكنهم لم يكونوا قد أصبحوا بعد منبوذين . ولكن بعد ثلاث سنوات من خروجهم وقعت الصدمة التى ظل « مناحم بيجين » يحاول ، حتى بعد مرور نصف قرن من الزمان ، تطهير الحركة من آثارها ، ففى ١٦ يونيه ١٩٣٣ ، تناول حـــاييم آرلوسوروف رئيس الادارة السياسية بالوكالة اليهودية ، والنجم الصاعد فى الحركة العمالية الصهيونية طعـــام العشاء وزوجته « سيما » باحد فنادق تل ابيب . وقاما بعد ذلك بالسير على شاطىء البحر . ولاحظت مسز « آرلوسوروف » أن رجلين يتعقبانهما . وقد شهدت فيما بعد أن أحدهما كان اشقر طويل القامة يميل للضخامة ويتمايل فى مشيته مثل البطة . أما الآخر فكان قصيرا ونحيفا وله ملامح شرقية . وقالت ان الرجلين تصديا لهما . وقام الرجل الضخم بانارة مصـــــباح فى وجه « آرلوسوروف » وساله عن الساعة . فطلب منه « آرلوسوروف » بالكف عن مضايقتهما . فسحب الرجل الضئيل مسدسا واطلق عليه النار فاصابه فى بطنه وتوفى « آرلوسوروف » فى المستشفى بعد خمس ساعات . وذكرت « سيما » ان الرجل الذى هاجمهما كان يتكلم العبرية بدون اى لهجة اجنبية .

وقام البوليس البريطانى بنشر اوصاف الرجلين فى جميع انحاء فلسطين الخاضعة للانتداب البريطانى . وادت التحريات الى اتهام « ابراهام ستافسكى»

عضو منظمة « بريت هابيريونيم » الدموية المتطرفة التى تعمل على هدى حركة « جابوتنسكى » الدموية بفلسطين . وكانت منظمة « بريت هابيريونيم » قد ادانت « آرلوسوروف » كمتواطىء مع الاعداء لمحاولته ايجاد منفذ لليهود الألمان - الذين بدأوا يتعرضون لتهديد النازية الصاعدة - يستطيعون من خلال هذا المنفذ تصفية ممتلكاتهم والهجرة الى فلسطين دون التضحية بكل شىء . وكانت الفكرة التى تفتق عنها ذهنه هى أن يقوموا بشراء سلع المانية ويصدرونها ، ثم يحصلون ثمنها من البلد الآخر . وقد عاد « آرلوسورف » الى تل أبيب فى ١٤ يونيو ، بعد قيامه بعدة رحلات ذهابا وايابا بين برلين ولندن . وفى الوقت ذاته ، كان « جابوتنسكى » و « التصحيحيون » يشنون حملة على نطاق عالمى تدعو اليهود لمقاطعة السلع الالمانية . وقد نشرت مجلة « بريت هابيريونيم » ، يوم الجريمة ، مقالا تتهم فيه « آرلوسوروف » بالتحالف مع « هتلر » و « ستالين » . وقال المقال انه باع شرف شعبه .

واعتقل « ستافسكى » بعد ثلاثة أيام من وقوع الجريمة . وتعرفت « سيما آرلوسوروف » على صورته ، بصفته الرجل الذى كان يتمايل فى مشيته والذى اضاء المصباح فى وجه « آرلوسوروف » ، واتهمت عضوا متطرفا آخر فى « حركة التصحيح » وهو « زفى روزنبلات » ، بجذب الزناد . كما اتهم « أبا اهيماير » ، فيلسوف جماعة « بريت هابيريونيم » ، بالتواطؤ ، ولم يكن تعرف مسز « آرلوسوروف » على « روزنبلات » قاطعا بنفس درجة تعرفها على « ستافسكى » . وبعد انتهاء اجراءات الاتهام أمام قاضى المحكمة الجزئية ، احيلت القضية الى محكمة الجنايات العليا ، امام اربعة قضاة : اثنان بريطانيان، وواحد يهودى ، والرابع عربى . وقد تمت تبرئة « اهيماير » فى منتصف المحاكمة . وصدر حكم بتبرئة « روزنبلات » على أساس عدم وجود شهود آخرين يؤيدون ادلة « سيما » . وأدين « ستافسكى » وحكم عليه بالاعدام ، فاستأنف الحكم امام محكمة أعلى ، قضت بنقض الحكم واطلقت سراحه . فبموجب القانون التركى الذى كان معمولا به فى فلسطين حتى عام ١٩٣٧ ، لم تكن شهادة شاهد واحد كافية لصدور حكم بالادانة . وقد جادل الصهاينة من اعضاء « حركة العمل » ، بأن « ستافسكى » ادين بحكم الحقائق وتمت تبرئته بموجب نقطة قانونية . اما « التصحيحيون » فقد عبروا عن اغتباطهم لسيادة القانون . فالحكم بالبراءة أمر لا يمكن الرجوع فيه . وظل الطرفان على مدى عقود عديدة تالية يقدمون الادلة والادلة المضادة فى معركة حامية تصم الآذان .. واعترف اثنان من العرب اختفيا بعد ذلك ، وترددت وجهات نظر ووجهات نظر مضادة ، من فوق منابر بارزة ، وعلى لسان شخصيات عامة وهى على فراش الموت . واعتبرت حركة « العمل » أن « التصحيحيين » هم الذين قتلوا « آرلوسوروف » ، أما « التصحيحيون » فقد اعتبروا أن الطرف الآخر قد اثار اليهودى ضد اليهودى فى حملة تشهير دموية .

وقد فتحت قضية « آرلوسوروف » جرحا داميا ظل ينزف فى اوروبا وفلسطين ، حتى بعد ان طوى النسيان أحداثها الاصلية بمدة طويلة . ولقد أصيب « مناحم بيجين » بذعر حقيقى ازاء نشر كتاب جديد ، بقلم الصحفى الاسرائيلى « شابتاى تفيث » ، يعرض فيه وجهة نظر غير متعاطفة ، لدرجة انه قام فى مارس ١٩٨٢ بتشكيل لجنة تحقيق لتقصى الحقائق · وقال رئيس الوزراء لزملائه فى المجلس :

« ان القول بأن تسعة واربعين عاما قد مرت على تلك الاحداث . وأصبح من الصعب اعادة التحقيق فيها الآن ، يعتبر من سبيل عدم الادراك وتضليلا للجمهور ، وتشويها للحقيقة ، واستمرارا لترويج حملة التشهير الدموية ضد حركة صهيونية عظيمة وضد افراد ابرياء ، واستمرارا لظلم لم يسبق له مثيل فى التاريخ اليهودى فيما عدا ظلم غير اليهود لهم » .

وأمر « بيجين » ، الذى اكد شعوره بمسئوليته التاريخية ، بنشر المحاضر الكاملة للمناقشة التى دارت داخل مجلس الوزراء . وتناول بيجين المسألة وهو « يرتجف من الرهبة » . وتأجلت جلسات لجنة الاستماع لمدة عام آخر نتيجة لحرب لبنان . وجدير بالذكر انه لم يتبق على قيد الحياة من الشخصيات التى لها صلة مباشرة بقضية القتل سوى « زفى روزنبلات » . فقد قتل « ستافسكى » على ظهر السفينة « التالينا » ، التى كانت جماعة «ارجون زفاى ليومى » تنقل الاسلحة عليها ، وذلك عندما قصفها الجيش الاسرائيلى من فوق نفس شاطىء تل أبيب الذى شهد الحادث ·

وكان « بيجين » البالغ من العمر عشرين عاما ، قد دافع بذاته ، وبصفته من العناصر النشطة فى جماعة « بيطار » ، عن « جابوتنسكى » عندما تعرض لهجوم من بعض اليهود الذين قاموا بالقاء الحجارة عليه . وقد سئلت امه فى « بريست ــ ليتوفسك » ، اثناء وجودها فى أحد محال البقالة : « لماذا يختلط ابنك ، وهو الولد الطيب ، بأولئك القتلة ؟ » وكان « ستافسكى » صديق طفولة وجار « لبيجين » ، الذى أخذ مسألة براءته كقضية مسلمة . وقد قام « بيجين » بمواساة والدته « هاسيابيجين » ، بقوله « لا تبتأسى ، فانت تعلمين أن « ابراشا » لم يقتل أحدا · ولابد فللحقيقة أن تظهر » واصطحب « بيجين » والدة « ستافسكى » لمقابلة « جابوتنسكى » .

وقد كتب فى عام ١٩٨٢ يقول : « مازالت صرخاتها ورجواتها من « جابوتنسكى » لانقاذ ولدها ، ترن فى أذنى حتى اليوم · وقد قبل « جابوتنسكى » يدها ، وانهمرت الدموع من عينى الام . ولن تنمحى ابدا تلك الدموع من ذاكرتى » ·

وقد تعرضت الاقلية من حركة التصحيح فى فلسطين لنفس عملية الرفض الحادة التى تعرضت لها فى اوروبا ــ وان كانت قد أسفرت عن عواقب

اكثر تاثيرا على الحياة اليومية . فقد خسر مثلا « يعقوب مريدور » وظيفته ومنزله نتيجة لذلك وكان (مريدور) الذى أصبح فيما بعد يشغل منصب نائب « بيجين » فى القيادة العليا لجماعة « أرجون » - يعمل آنذاك عاملا فى فى منطقة تل أبيب . وقد وصف تلك التجربة أمام مجلس الوزراء عام ١٩٨٢ ، عندما كان يشغل منصب وزير التنسيق الاقتصادى بقوله :

جاءنى صاحب الدار الذى كان عضوا عاملا فى نقابة عمال الطباعة فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى للجريمة وقال لى مؤكدا بلا أدنى شك ، انها جريمة سياسية . ولم يكن قد مر سوى ساعات قليلة على وقوعها . ومع ذلك بدا الجو العام يسوده شعور بقرب وقوع مذبحة سياسية .. وأمرنى صاحب البيت بعد انقضاء يوم بترك غرفتى وبدأت بعد ذلك أواجه متاعب فى العثور على عمل » .

وقد واجهت أسرة « اريل شارون » المقيمة فى « كفار ملال » - وهى مزرعة تعاونية لصغار الملاك تتبع حركة العمل - وقتا عصيبا مماثلا بعد ان احتج والديه على وصم « التصحيحيين » بالقتلة . فقال امام مجلس الوزراء .

« أسفر الحادث عن وقوع صراع استمر عشرين عاما . وقد أخرجونى وانا صبى من المدرسة المحلية . فلم استطع تلقى تعليمى هناك . وظللنا طوال عشرين عاما ، حتى بعد حرب الاستقلال ، محرومين من الحصول على الرعاية الطبية عن طريق الصندوق المحلى للمرض .. ولم نستطع تسويق منتجاتنا من خلال منفذ المزرعة التعاونية .. ولا زلت أذكر والدى وهما يتناوبان الحراسة بجوار الطريق لحماية انتاجنا من محاولة اعضاء المزرعة التعاونية الآخرين افساده . لقد زرعنا وانتجنا . وشب الأطفال وسارت الأمور على ما يرام فى النهاية .. ولكن تم كل ذلك فى خضم من الصراع المستمر يسوده كراهية لا تنتهى » .

وقد ضاعف « ديفيد بن جوريون » ، وغيره من زعماء حركة العمل الصهيونية من اتساع الجراح عندما عقدوا مقارنة بين « جابوتنسكى » وهتلر « ووصفوا اعضاء » حركة التصحيح باليهود النازيين . وكان « بيجين » واثقا من أن هذا الشقاق ساهم كثيرا فى اتساع نطاق « آرلوسورف » . وكان يؤكد أنه لولا موجة الكراهية التى أثارتها قضية « آرلوسوروف » ، لتمكن جناحا الحركة الصهيونية من تجميع جهودهما فى سبيل العمل من أجل تهريب المهاجرين من أوروبا الى فلسطين بالطرق غير المشروعة ، ولربما أمكن انقاذ عشرات الالاف من اليهود .

وقد ألقى الفتى « بيجين » أول خطاب عام له عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره ، من فوق منضدة بالحديقة العامة فى « بريست - ليتوفسك

وكانت المناسبة هي احدى الاحتفالات الصهيونية التي ينظمها والده كل عام احتفالا بعيد « لاج باعومار » (عيد ١٨ آيار) . ولم يكن الخطاب واحداً من خطب « بيجين » الناجحة ، ولكنه سرعان ما أصبح واحدا من الخطباء المعتادين في الاجتماعات السنوية التي تقام احياء لذكرى « هيرتزل » . وقد استمع « اهرون زفي بروبيز » ، الذي كان يرأس الفرع البولندي لجماعة « بيطار » الى « بيجين » ـ الذي كان في الثامنة عشرة آنذاك ـ وهو يلقي احدى خطبه في عام ١٩٣١ . ويقول « بروبيز : « لقد كان رائعا وادركت لحظتها أن شابا يتمتع بمواهب نادرة يقف أمامنا » . ان شهادة « بروبيز » هذه تتسم بشهامة خاصة ، فبعد ثماني سنوات من ذلك التاريخ ، نحى بروبيز جانبا ليفسح المجال لربيبه . وقد وصل « بيجين » الى قيادة منظمة « بيطار » في حي « بريست » بينما كان لا يزال في مرحلة الدراسة الثانوية . وعندما التحق بجامعة وارسو ، لدراسة القانون ، اختاره بروبيز » لعضوية اللجنة العليا « للبيطار » . وقال عنه « بروبيز » حينذاك ، انه : منضبط ، ومحبوب من زملائه ، ويتمتع بالطموح » .

وقد سيطرت على جماعة « البيطار » ، مثلها في ذلك مثل « حركة التصحيح » التي انبثقت الجماعة عنها . آراء « جابوتنسكي » وأسلوبه وشخصيته . وقد تبعه « بيجين » في أنحاء أوروبا مستمعا الى خطبه ، دارسا أسلوبه ، مستوعبا لمبادئه . وكانت الحركة الشبابية لا تخفي ميولها العسكرية . فكان أعضاؤه يتدربون ويرتدون زيا عسكريا . ويقول « ديفيد جونان » ، وهو أحد معاصري « بيجين » : « لقد غرس « جابوتنسكي » فينا ضرورة أن نتعلم كيف نطلق النار » . وكان « بيجين » ، بصفته المسئول الأعلى عن تنظيم « بيطار » في بولندا ، يجوب انحاء البلاد ، ويلقي الخطب ، مداهنا وساعيا لاجتذاب اعضاء جدد . وبلغ عدد أعضاء الحركة ، بحلول عام ١٩٣٩ الى ٧٠ ألف عضو موزعين على ٧٠٠ فرع .

ويؤكد يزرائيل ايلداد وهو أحد المعاصرين « لبيجين » في جماعة « بيطار » ، والذي أصبح فيما بعد فيلسوف « عصابة شتيرن » والناقد اليميني العريق لبيجين :

« ان كلماته مهما بدت في اليوم ، فانها لم تكن مجرد كلمات خطابية جوفاء بالنسبة ليهود بولندا . لقد كانت تعبيرا دقيقا عن مشاعر الشعب اليهودي . ولم يكن أحد يتساءل آنذاك عن تكاليف اقامة دولة يهودية . انها كانت من وجهة نظرهم مسالة عادية خاصة بجمهورية تملك الملايين . وعندما كان المرء يتكلم عن الجندي اليهودي ، فانما كان يعبر عن مثل عليا . فاليهودي كان يلتحق كجندي في الجيش البولندي ، في الوقت الذي كان يكره فيه بولندا ولكن عندما كان « بيجين » ينطق بتعبير « جندي يهودي » كان الناس

يشعرون بالفخر ، فقد كانوا يرغبون فى ذلك من أعمـــاق قلوبهم • وكانت جماعة « الارجون » قد بدأت تمارس نشاطها فى فلسطين • وفى بولندا عندما كان المرء يتحدث عن الانتقام وعن انتهاء المذابح ، كان الشعور بالفخر يسيطر على الأولاد اليهود • وكان الشباب مستعدا للمعاناة والتضحية من أجل المثل العليا ، فالشباب لايتمتع بالصبر وقد أتاحت لهم منظمة «بيطار» و «الارجون» فرصة انتهاج الطريق الثورى • لقد فتحتا الطريق أمام مئات الالوف الذين لم يكن امامهم سبيل آخر •

وأدى نجاح « بيجين » فى تنظيم الشباب البولندى داخل « البيطار » الى قيام « جابوتنسكى » بايفاده الى تشيكوسلوفاكيا ، حيث كانت الحـــركة صغيرة وضعيفة . وبدأ « بيجين » يعمل من أسفل الى اعلا ووفقـــا لاقوال « بروبيز » كان يكتفى بتناول وجبة واحدة فى اليوم ، وكان ينام أحيانا فوق المقاعد الخشبية بالحديقة العامة . لقد كان يعمل فى اخلاص ، دون أن يكل أو يشكو . ويقول « بروبيز » متذكرا : « لقد أصيب فى احدى المرات اثناء وجوده فى وارسو بالتهاب رئوى • ونقلته زوجتى التى كانت تمرضه الى احدى دور النقاهة فى « أوتوك » حتى يسترد صحته • وعندما اتجهت لزيارته بعد يومين ، وجدته قد خرج وعاد الى العمل على الرغم من ضعفه الشــــديد • فالعمل كان يعنيه أكثر من أى اهتمامات شخصية اخرى •

واثناء أحد جولات « بيجين » ، دعا الدكتور « ليون ارنولد » المحـــامى والعضو البارز فى « حركة التصحيح » فى بلدة « دروبيز » البولندية الصغيرة، الى العشاء فى منزل حمــاه « زفى ارنولد » وهناك التقى بيجـــين بابنتى « زفى ارنولد » ، التوأمتين ، « اليزا » و « ليــا » والبالغتين من العـــمر آنذاك سبعة عشر عاما . وقد عمل « بيجين » لبضعة أشهر وقبل عـــودته الى وارسو لتولى رياسة حركة « بيطار » البولندية ، ككاتب لدى محـــام شهير بتلك البلدة . وتقابل « بيجين » و « اليزا » فى المعبد اليهودى الكبـــير « بدروبيز » حيث ارتدى كل من العريس والعروس الزى العسكرى لحركة « بيطار » ذا اللون البنى ، وان كان قد ارتديا بعـــد ذلك الملابس المدنيـــة فى الحفل الذى اقيم لوداعهما فى رحلة شهر العسل ، حيث ارتدت « اليزا » معطفا انيقـــا يصل الى الركبة وقبعـــة ملفتة للانظـــار ، بينما ظهر « مناحم » المـــائل الى النحافة والذى كان يلبس نظارة طبية على عينيه ، فى بالطو واق من المطر لونه شاحب يخفى تحتـــه تفاصيل جسمه . وكانت العـــروس فى التاسعة عشرة من عمرها بينما كان العريس فى الخامسة والعشرين . وجاء « جابوتنسكى » من باريس بالقطار لحضور حفـــل الزواج . ولقد استطاع « مناحم » اتمام هذا الزواج الذى دام حتى وفاة « اليزا » ، بعد ثلاث واربعين سنة من ذلك التاريخ ، تخطى كل الازمات الناجمة عن الفراق ، والنفى ،

والمخاطر ، والمشاكل السياسية الاسرائيلية . وقد شاركت « اليزا » زوجها في تمسكه بمعتقداته وعناده ، ولكنها كانت راضية بالبقاء في الظل الى جواره ولم تكن ، الا في النادر ، لتغفر لاحد يثير غضبه أو يخونه . وقد رزقا بثلاثة أبناء ، ولد وابنتين ، جميعهم من مواليد اسرائيل . وقد هلكت الاخت التوأم لاليزا في الهلوكوست ، تماما مثل معظم افراد اسرة « مناحم ».

وعلى الرغم من ان « بيجين » كان سعيدا بالجلوس عند أقدام « جابوتنسكى » ، فانه لم يكن مجرد واحد من متملقيه . بل ان التلميذ اصطدم و « المعلم » في مناسبتين مشهورتين . فقد احتج « بيجين » أثناء انعقاد المؤتمر العالمى السادس « لحركة التصحيح » في يناير ١٩٣٥ بمدينة كراكاو ، على محاولات « جابوتنسكى » ذاته .

وقال « بيجين » : « ربما تكون قد نسيت أن « بن جوريون » نعتك في احدى المناسبات بـ « فلاديمير هتلر » ، ولكننا لم ننس » .

ورد عليه جابوتنسكى بحدة قائلا : « انا لن انسى ابدا رجالا من امثال « بن جوريون » و « بن زفى » و « الياهو جلومب » لقد ارتدوا في يوم من الايام الزى العسكرى للفيلق (اليهودى) ، وأنا واثق من أنهم لن يترددوا لو دعت القضية اليهودية الى ذلك ، في ارتدائه مرة أخرى وان يقاتلوا تحت لوائه . ولو حدث ائتلاف ، فاننا سنترفع عن اثارة الخلافات التافهة . فنحن جميعا قد اظهرنا تمسكنا القوى بوطنيتنا الصهيونية » .

وقد جاء التحدى الثانى ، والاكثر خطورة ، اثناء المؤتمر العالمى الثالث « البيطار » ، الذى انعقد بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين في وارسو . فقد تعرضت الحركة آنذاك لشقاق هام بين أعضاء جماعة « ارجون زفاى لبومى » ذات الميول العسكرية والموجودين في فلسطين ، والذين كانوا يضغطون من اجل انتهاج سياسة انتقام ايجابية ضد الهجمات العربية على اليهود ، وبين « جابوتنسكى » الذى كان يعترض بشدة على مثل هذا الارهاب المضاد . وكانت جماعة « ارجون » تواقة الى شن حرب ضد البريطانيين ، أما « جابوتنسكى » فكان لايزال يؤمن بوجود قوى بريطانية من نوع آخر يمكن اقناعها باعتبار القضية اليهودية جزء من المصلحة الحقيقية للامبراطورية . وكان جماعة « ارجون » قد قامت بتنظيم خلايا خاصة بها داخل حركة الشباب اليهودى البولندية (البيطار البولندى) ، وفتحت مكتبا سياسيا في سويسرا . واقامت الجماعة معسكرات للتدريب العسكرى في بولندا بالتعاون مع الجيش البولندى ، الذى أغرته فكرة ترحيل مئات الالاف من اليهود بالسفن للقتال في فلسطين ، وبذلك يتم حل المشكلة اليهودية في بولندا (حيث كانت الطائفة اليهودية التى تضم ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ يهودى ، تشكل في أواخر الثلاثينيات ١١٪ من السكان وربما

كانت هذه احدى المرات النادرة التى اهتم فيها « جابوتنسكى » بالتكتيك بقدر اهتمامه بالمبدأ . فقد كان يريد الاحتفاظ بالنشاط المشروع لكل من حركة « البيطار » و « التصحيح » بعيدا عن العمليات السرية لجماعة « الارجون » ، وذلك على الرغم من انه كان الزعيم المعين لكل من الجناحين الاسياسى والعسكرى للحركة . وحاول « بيجين » ، الذى كان ينحاز الى العناصر الثورية النشطة وان كان يريد تجنب الدخول فى معركة بانه يجب الجمع بينهما معا تحت سقف واحد . فلابد لجماعة « الارجون » من أن تعمل من خلال « منظمة بيطار » .

وعندما طرحت المسالة للمناقشة بمؤتمر وارسو الذى انعقد خلال شهر سبتمبر ١٩٣٩ ، انتظر « بيجين » حتى حضر « جابوتنسكى » قبل أن يلقى كلمته . وقال ان الحركة الوطنية الاسرائيلية بدأت من خلال الصهيونية العملية ثم الصهيونية السياسية . وانهم يقفون الان على مشارف الصهيونية العسكرية التى ستندمج فى نهاية الامر والصهيونية السياسية . وذكر أن المسألة يمكن مقارنتها بما حدث بين « كافور » و « غاريبلدى » . فما كان « كافور » لينجح فى تحرير ايطاليا بدون « غاريبلدى » . ولقد قاطع « جابوتنسكى » « بيجين » مرارا ، مذكرا اياه بأن اليهود يفتقرون فى وطنهم الى القوة العسكرية البشرية . ورد عليه « بيجين » بقوله انه يجب عليهم الوقوف فورا فى وجه الخطط البريطانية الرامية الى ايجاد دولة فلسطينية تتمتع بأغلبية عربية وذلك بصرف النظر عن الاعداد والنتائج . واعلن : « حتى لو سقطنا فانه يكفينا اننا قاتلنا » . وأكد انه لابد لمنظمة « بيطار » ، وذلك ليصبح « رمزا لعملنا » ومعركتنا » (ولقد كانت مثل هذه الايماءات هامة جدا بالنسبة له) . وطالب بيجين بتغيير عبارة « سأشحذ سلاحى من أجل الدفاع عن بلدى . وإن احمه الا فى سبيل الدفاع » ، بعبارة « سأشحذ سلاحى من أجل الدفاع عن بلدى ، ومن اجل الاستيلاء على وطنى » . وجادل بأنهم كانوا يتوقون دائما الى القوة ، هذه القوة اصبحت موجودة الآن . واضاف : هناك ملايين الاشخاص ليس لديهم شىء يخسرونه . ومهمتنا تنحصر فى استخدام القوة الكامنة فيهم » . وتمت الموافقة على التعديل بعد تردد من جانب جابوتنسكى » ولكن ليس قبل ان يوجه الزعيم هجوما مضادا ساحقا ضد السياسى الشاب المبتدىء ، حيث قال :

« ان ثمة انواعا كثيرة من الاصوات .. ونحن نتحمل ضجيج الماكينات والعربات وما الى ذلك . ولكن لا يمكن أن نتحمل صرير الابواب لأنه لا يعود علينا بأى فائدة . والخطب الرنانة والتصفيق تشبهان صرير الابواب ليس لها فائدة او منطق . ولا يوجد فى « البيطار » مكان لمثل هذه الثرثرة . وأحيانا تكون هذه الاصوات مسلية ، ولكن يجب علينا ان نحذرها . وتعتبر الكلمات التى قالها مستر « بيجين » من هذا النمط الأخير ، ويجب علينا أن نكبت مثل هذه الاصوات بكل قسوة » .

لقد وضع « جابوتنسكى » كل ثقته فى الضمير الحى للعالم ، نظرا لعدم ثقته الكافية فى استعداداته العسكرية . واراد ان تقوم الدول الغربية بتوفير جنة فى فلسطين لآلاف اليهود المهددين فى أوروبا . وسخر « بيجين » من هذا التفكير لاستاذه القديم . وقد رد عليه « بيجين » بكل حـدة ، خلال نفس الشهر الذى كان « نفيل تشامبرلين » يتفاوض فيه مع « هتلر » فى ميونيخ من أجل التوصل الى « سلام (وهمى) يسود عصرنا » . حيث أعلن العضو البارز فى منظمة « بيطار » والبالغ من العمر خمسة وعشرين عاما : « لقد ملت ضمير العالم ، ولم تعد لعصبة الأمم اى قيمة . وشريكنا البريطانى يقودنا الى المشنقة ويلقى فى السجن بأفضل أفراد امتنا » . ورد عليه « جابوتنسكى » بقوله انه اذا كان هذا هو ما يشعر به « بيجين » ، فمن الأفضل له أن يغرق نفسه فى نهر الفستولا .

ويؤكد « يوحنا بادر » ــ وهو محام بحـركة « التصحيح » ، عاش فى الجيل الوسط بين جيلى « جابوتنسكى » و « بيجين ــ انه بالرغم من شعور الغضب الذى انتاب الزعيم ، فانه « سعد واغتبط » لمواجهة « الصبيان » له . وثمة روايات متناقضـة حـول راى « جابوتنسكى » فى « بيجين » . فقد قيل مثلا ، أنه اختاره خليفة له . ولكن من جهة أخرى ، تردد انه كان يحتقر تزمت « بيجين » والذى يشـبه تزمت ابنـاء الاقاليم ، وكذلك تقواه المفرطة (لقد كان « جابوتنسكى » بعيدا تماما عن هذا الجانب من التقـاليد اليهودية حتى انه كتب فى وصيته يقول : « اريد أن يدفن جثمانى أو يحرق ــ فالأمر سيان بالنسبة لى ــ حيثما يلحق بى الموت ») . ولم يزعم « بيجين » فى أى وقت وجود علاقة وثيقة بينهما . فقد كان يدرك تماما مدى الاختلاف بينهما فى السن والمكانة . وكان من الواضح ان « جابوتنسكى » كان يقدر « بيجين » كشخص قادر على التنظيم وكمرءوس موهوب ، ولكن لم يكن هناك أى دليل على انه يحاول صقله ليصبح خليفة له .

وانتهى مؤتمر وارسو بانتصار الشـباب . وتم تجنب الشـقاق بين جماعتى « البيطـار » و « الارجون » وفى ابريل سـنة ١٩٣٩ ، تم تنصيب « مناحم بيجين » رئيسا « لمنظمة بيطار » البولندية ، التى كانت بمثابة محطة توليد الطاقة بالنسبة للحركة الدولية ، وذلك بدلا من « بروبيز » ، الذى ترك منصبه فى هدوء تام . وقد أعلن الاتراك الشبان بلا رحمة أن « بروبيز » ممتاز بالنسبة للشئون الثقافية والمؤتمرات ، ولكن ليس بالنسبة لخوض المعارك وتولى الشئون السياسية (وقد اسس فيما بعد « مهرجان اسرائيل » ، الذى ظل يشرف عليه حتى وفاته عام ١٩٧٨) . واحتفل « بيجين » بترقيته بان تزعم مظاهرة ضد فرض قيود على الهجرة اليهودية . واتاح البوليس البولندى له أول فرصة لتجربة حياة السجن . واطلق سراحه بعد ثـلاثة اسابيع ، وهو حليق الراس . ولكن كانت وارسو والعالم باسره مشـغولا حينذاك بامور اخرى اكثر اهمية .

الفصل الثالث

هروب واعتقال

لم تكن المسألة التى تواجه يهود أوروبا ابان صيف عام ١٩٣٩ ، هى هل ستقع الحرب بقدر ماكانت متى ستقع . وكان الاهتمام الاول للحركة الصهيونية بجناحيها هو عملية انقاذ اكبر عدد ممكن من يهود المانيا فى اعقاب قرارات نورمبرج ، وان لم يكن قرار الحل النهائى قد صدر بعد . ولم تعد تنبؤات « جابوتنسكى » بقرب وقوع الهلاك تبدو وكمحاولة لاثارة الذعر . ولم يعد النداء الذى وجهه الى كل يهودى لأن ينجو بنفسه طالما كانت هناك فرصة ، يقع على آذان صماء . ولكن كانت الحواجز قد بدأت تقام والحدود تغلق .

وقبل يومين اثنين من غزو « هتلر » لبولندا ، عاد « مناحم بيجين » الى وارسو بعد ان رافق قافلة تضم النمسا من المهاجرين « غير المشروعين » تابعين لمنظمة « بيطار » ، حتى حدود رومانيا . وكان يسيطر عليه شعور بالاحباط ، حيث ان رومانيا كانت تسمح ، حتى تلك اللحظة ، بمرور اليهود المتجهين الى فلسطين عبر اراضيها ، ولكن بعد التوقيع فى موسكو على اتفاقية مولوتوف — ريبنتروب فى ٢٣ اغسطس لم يعد فى وسع الرومانيين تحمل المخاطر نيابة عن الغير . وتشتت جماعة المهاجرين من اعضاء « البيطار » ، وعادوا الى ديارهم . ولقى معظمهم حتفه فى معسكرات الموت أو بين صفوف رجال المقاومة البولندية .

وعندما دخل الجيش الالمانى بولندا فى أول سبتمبر من ذلك العام ، كان رد الفعل التلقائى « لبيجين » منبعثا من مشاعره كمواطن بولندى وكيهودى فى الوقت ذاته . ويسترجع يزرائيل ايلداد أحداث تلك الفترة قائلا « دعا بيجين » قيادة منظمة « بيطار » للاجتماع ، وطلب منا تحصين وارسو وحفر الخنادق . وقال لنا ان علينا اداء واجبنا كمواطنين بولنديين ، وأن نلتزم بالقوانين . وجاء الى مكتب البيطار فى اليوم التالى ، الشاعر يور زفى جرينبرج من « حركة التصحيح » . واندهش للمشهد الذى رآه امامه ، فصاح قائلا « ماذا تفعلون ؟ ان الروس قادمون . ويوجد لدى جماعة ارجون جوازات سفر فخذوها واذهبوا » . وذهب « بيجين » و « ديفيد جوتان » لمقابلة جنرال بولندى وعرضا عليهم تشكيل كتيبة يهودية لتقاتل مع الجيش البولندى ضد الالمان ، غير أن رده لم يكن مشجعا . وعندئذ فقط بدأ « بيجين » وغيره من قادة « بيطار » يغادرون « وارسو » فى جماعات صغيرة . وكانت قنابل الالمان قد بدأت تتساقط على العاصمة .

ورحل « بيجين » وزوجته « اليزا » بصحبة « ناتان يلين ـ مور » وزوجته « فريدا » ، اللذين كان قد تم زواجهما فى ٥ سبتمبر بواسطة الحاخام الاكبر شلومو دافيد كاهانا ، آخر حاخامات وارسو . وقد شهد « بيجين » وزوجتـه على عقد الزواج حيث كان « يلين ـ مور » واحداً من زملاء «بيجين » فى اللجنة العليا لمنظمة بيطار . وقد أصبح « ناتان يلين ـ مور » فيما بعد واحدا من الثالوث الذى قاد الحملة الارهابية التى شنتها « عصابة شتيرن » ضد الانتـداب البريطانى . وعندما أحكم اغلاق المصيدة ، اخذوا يروحون جيئة وذهابا سواء بواسطة القطار أو العربات التى يجرها الخيل ، أو على الاقدام ، ويختبئون لدى الموالين لحركة « البيطار » ، وهم يتحاشون القاذفات الألمـانية ويتجنبون الدبابات السوفييتية القادمة . وسادت الغـوضى والشائعات ، واحتشدت الأسر اللاجئة على جانبى الطرق واكتظت بهم القطارات ، وبهذا الضعف يسجل أول احتكاكات بين المدنيين ، الذين أصبحوا يبدون فى حالة من الانكسار يرثى لها . وكتب « بيجين » يقول فيما بعد : « كنا ننام ونحن نسير . كنا ننام أثناء سيرنا على أقدامنا » . واحتجز الروس « بيجين » لفترة وجيزة عندما اتهمته امرأة يهودية بأنه مدين لها بمبلغ من المال كانت قد دفعته له ليساعدها على الهرب عن طريق رومانيا . وسدد الدين . واشترى حريته .

ورفض الرفاق الأربعة الذين أصبحوا يعانون من الاعياء الشديد الالحاح عليهم بالبقاء فى مكان واحد ، حتى يمكن لاعضاء منظمة « البيطار » رعايتهم ، وان كانوا قد شعروا بامتنان لتمكنهم من الاحتفال بعيد رأس السنة اليهودية مع بعض الأصدقاء . واستطاعوا أن يصلوا فى النهاية ، وبعد أن أمضوا سبعة أسابيع على الطريق ، الى مدينة « فيلنا » التى كانت مركزا هامـا للتعليم والمشروعات اليهودية . وكان الروس قد استولوا على الجـزء الشرقى من الأراضى البولندية وأعلنوا « فيلنا » عاصمة لاقليم « ليتوانيا الحرة » .احتمعت قيادة منظمة « البيطار » البولندية بكامل هيئتها فى « فيلنا » . وسرعان ما انضم اليهم الآلاف من أعضائها . وأخبرهم « بيجين » أن « ليتوانيا » ستوفر لهم سبيل الخروج الى فلسطين . واستأجرت المنظمة منزلا ، وبعثت بافرادها للبحث عن مراكب لنقلهم عبر بحر البلطيق . ويعترف بعضهم عند استرجاعهم للماضى ، بأنهم كانوا سذجا ، فقد كان من المستحيل أن تدوم حرية « لتوانيا » ولكن كانت « فيلنا » تعتبر آنذاك رمزا للأمل .

ولقد تعرضت مصداقية قادة منظمة « البيطار » للاختبار عندما وصلتهم رسالة من « شيمشون جونيتزمان » ، رئيس حركة الشباب فى فلسـطين ، يبلغهم فيها أولا بأن « ابراهام شتيرن » ، قائد اكثر أجنحة جماعة « ارجون زفاى ليومى » عنفا قد قرر « العمل بمفرده » . ومن ثم ، ومنذ تلك اللحظة ،

اصبحت هناك قوتان سريتان تعملان من أجل تحقيق « الحق اليهودى » جماعة « ارجون زناى ليومى » أو « المنظمة العسكرية الوطنية » ، التى اصبحت تعرف باسمها المختصر « ايتزيل » المكون من الحروف الأولى لاسم المنظمة العبرية) ، وعصابة شتيرن « المحاربون من أجل تحرير اسرائيل » ، ـــ « لوحامى هيروت يسرائيل » (بالعبرية ، واختصارا « ليهى ») . والأمر الثانى الذى أبلغهم به فى رسالته ، وهو الأمر الأهم بالنسبة « لبيجين » ورفاقه فى فيلنا هو أن «كثيرين هنا (فى فلسطين) يعتقدون أنه لايجب على القبطان ان يغادر السفينة طالما ظلت طافية » . وفهم « بيجين » ـ بحساسيته المفرطة ازاء مسالة الكرامة ، تماما مثل حساسية « جابوتينسكى » ـــ ان المقصود بهذه العبارة هو اتهامه ورفاقه بالتخلى عن عشرات الآلاف من أعضاء منظمة «بيطار» الذين كانوا لايزالون موجودين فى بولندا .

ويسترجع يسرائيل الداد هذه الواقعة فيقول : « لقد استدعانا « بيجين » وقال لنا انه ربما كان (جونيتزمان) على حق ، وانه يريد أن يعود الى وارسو . ولكننا قررنا فى النهاية عدم العودة . وكانت حجة عدم العودة هى أن جبهتنا أصبحت موجودة الآن فى فلسطين ، التى هى وطننا الأم . ولم يعد هناك ما نفعله فى بولندا . وقد أصبح من المستحيل العمل هنا من أجل ترحيل مزيد من أعضاء « البيطار » الى فلسطين . ولذلك فقد استدعيناهم الى « فيلنا » لاخراجهم عن طريقها .

وكان « ديفيد جوتان » واثقا من ان بقاءهم فى « فيلنا » كان افضل ، كما كان يرى أن تفكير « جونيتزمان » خاطىء ويقول :

« أولا ، كنا نعتقد أن الانتقال اليها انما كان مؤقتا . وكنا على ثقة من أن الجيش البولندى بمساندة البريطانيين والفرنسيين سينتصر . وكانت حجتنا هى أن « ليتوانيا » ليست سوى دولة يمكن تدبير الخروج منها . وكنا هناك على صلة بالعالم الحر . وأرسلنا برقيات الى الولايات المتحدة ـ الى منظمة بروبيز وغيرها من المنظمات ـــ للضغط من اجل منحنا تأشيرات وتصاريح هجرة لأكبر عدد ممكن من أعضاء « البيطار » . وكنا فى حاجة الى تواجدنا فى مكان يمكن للبريطانيين أن يرسلوا اليه تصريحات للهجرة المشروعة .

وكنا قد قمنا بانفسنا ، كذلك ، بتزوير عدة تصريحات . فان الحصول على تأشيرة خروج من «ليتوانيا» كان يستدعى، على الأقل ، تقديم خطاب يفيد بأن لديك تصريح بالاتجاه الى مكان آخر . ولذلك فقد قمنا بتزوير مثل هذه الخطابات . كما أن القنصلية الهولندية فى « فيلنا » كانت تمنح تأشيرات للذهاب الى « كوراكاو » . وعندما أغلقت القنصلية ، قمنا بتزوير التأشيرات. وكان اليابانيون أيضا يمنحون تأشيرات خروج .

وقد سكت الروس عن كل هذه الأنشطة لانهم كانوا يحتاجون الى العملة الأجنبية ، وكانت اللجنة المشتركة (لجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركة) تزودنا بالمال اللازم • وكنا فى حاجة الى قاعدة ، وكانت « فيلنا » قاعدة مناسبة يمكننا العمل من داخلها • وكذلك كنـــا نجرى اتصـــالات مع الصيادين « الليتوانيين » فى ميناء « بالانجا » ، وقد منحناهم النقود لاننا كنا نعتقد انهم يستطيعون نقل الأشخاص بزوارقهم الى السويد .

والذى حدث ، أن الحرب لم تنته بسرعة ، كما ثبت أن قرار البقاء فى « فيلنا » ، كان غاية فى الأهمية • فان منظمة « البيطار » كانت تمثل الحركة الصهيونية البولندية الجماعية الوحيدة التى بقيت لتواجه « الحل النهائى ، بدون قيادة • ويذكر المؤرخ الاسرائيلى « يهودا بوار » ، الذى كان من أوائل مؤرخى « الهلوكوست » ، أن هذه الحقيقة هى السبب الأساسى وراء ما يصفه « بعقدة الهلوكوست » التى يعانى منها « بيجين » ، أو شعوره بالذنب لانه بقى على قيد الحياة • وقد كتب « بوار » يقول : « ان عدداكبيرا من الناجين ممن يمرون بتجارب مماثلة ، يعانون من شعور عميق بالذنب . بيد أن مثل هذا الاحساس بالذنب ليس له اى مبرر من وجهة النظر المنطقية .ويقدم لنا نظرية البروفيسور «بوار» تفسيرا مقبولا لتسلط «الهلوكوست» على تفكير «بيجين» ، والذى أدى به الى ارسال خطاب اثناء حصار الجيش الاسرائيلى لبيروت فى اغسطس عام ١٩٨٢ ، الى الرئيس « رونالد ريجان » ، جاء فيه « انى أشعر هـــذه الأيام وكأننى رئيسوزراء يملك سلطة توجيه جيش باسل يقف فى مواجهة « برلين » حيث يختبىء « هتلر » وحاشيته فى مخبأ عميق تحت سطح الارض وســط المدنيين الابرياء •

وقد ذكر باحث آخر فى دراسة له عن « الهلوكوست » ، وهو زئيف مانكوفيتز » ان هذه المقارنة التشبيهية تعتبر مضللة وخطيرة •
فكتب يقول :

« ان حرب النازى ضد اليهود لم يكن لها اساس واقعى » . وقد نبعت من كراهية بلا سبب وخوف من « اليهود » ، بصفتهم قوة شيطانية تعمل من أجل فرض سيطرتها على العالم • والحقيقة الرهيبة هى أن الشعب اليهودى كان ضحية للهلوســـة • بيد أن الشعب الفلسطينى ، هو الشعب الحقيقى ، وتطلعاتهم القومية حقيقية واقعة ، كما ان لهم أهمية رمزية حقيقية فى العالم العربى ، وبالمثل فان التعاطف والاعتراف السياسى الذى كسبه هذا الشعب فى أنحاء العالم يعتبر حقيقة ملموسة •

وكما عرفنا فان « بيجين » دافع فى عام ١٩٣٩ عن فكرة الرجوع الى وارسو • ومع ذلك « يسرائيل الداد » يعتبر واحدا من الذين يشكون فى

انه كان يعنى ما يقول فعلا . فان « بيجين » كان يملك آنذاك ، نفس القوة والمكانة اللتين كانتا تمكنانه في مناسبات أخرى من فرض رأيه على زملائه هذا ، اذا كان هو يرغب في ذلك .

ويقول الداد : « أنا لا أعرف حتى الآن ما اذا كان جادا فيما يقوله أو انه كان مجرد ايماءة ، مجرد مشهد تمثيلي . فلطالما شاهدناه يفعل ذلك حتى يومنا هذا . وأنا لا أعرف ما اذا كان يريد فعلا العودة الى وارسو » .

هذا وقد وجد قادة حركة « بيطار » البولندية وقتا كافيا فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، بالرغم من مشاغلهم العملية ، لمناقشة مسالة أوسع نطاقا كانت تمزق حركة « التصحيح » : هل يوقفون مؤقتا النضال ضد الحكم البريطانى فى فلسطين طالما ظلت بريطانيا تشن حربا ضد النازى ؟ أم هل يؤيدون سياسة « بن جوريون » التى تدعو الى الاشتراك فى الحرب وكأن « الكتاب الابيض » الذى يفرض قيودا على الهجرة اليهودية ، لم يصدر ؟ مع محاربة « الكتاب الابيض » وكأن الحرب غير قائمة ؟ وقد أصدر « جابوتنسكى » أوامره الى « الارجون » بوقف النضال . ورضخ « دافيد رازئيل » ، قائد قوات « الارجون » فى فلسطين للامر . ووفقا لاقوال « الداد » ، فان «بيجين» أدان عملية وقف القتال باعتبار انها بمثابة خيانة للقضية اليهودية . وكان يعارض وقف القتال .

وقاد « الداد » حملة فى مجلة « بيطار » التى كان يرأس تحريرها فى « فيلنا » ، من أجل « الحياد العدائى » ، ما لم يمنح البريطانيون اليهود جيشا خاصا بهم تحت راية نجمة داوود . ويتفق موقف بيجين هذا والموقف الذى اتخذه فى المؤتمر العام لمنظمة « بيطار » ، ولكنه عندما أعلن الحرب ضد الانتداب البريطانى بعد أربعة أعوام من ذلك التاريخ ترك انطباعا بأن دوافع اتخاذه لهذا القرار كانت أكثر من مجرد استجابة لمأساة يهود أوروبا عام ١٩٤٤

وقامت جماعة البيطار فى أحد أيام صيف عام ١٩٤٠ بتنظيم اجتماع فى الجامعة البولندية « بفيلنا » — والتى كانت تشتهر بأنها مستوقد للعداء ضد السامية — للاحتفال بثلاث مناسبات : احياء ذكرى وفاة « تيودور هيرتزل » أبو الصهيونية السياسية ، ووفاة « حاييم ناخمان بياليك » شاعر الاحياء العبرى ، والذكرى الخامسة عشرة لانشاء الجامعة العبرية فى القدس . وكان من المقرر ان يلقى بيجين كلمة فى تكريم هيرتزل . ولكن حدث فى منتصف الاجتماع ، الذى حضره آلاف الطلبة اليهود ، أن مررت ورقة الى المنصة . وجاء فى المذكرة : « لقد دخلت الدبابات الروسية المدينة » . وشحب وجه الاستاذ الذى كان يتكلم عن الجامعة العبرية واقترح أن يرحلوا جميعا بأسرع ما يمكن . ووقف « بيجين » معلنا : « سنواصل عقد

الاجتماع حتى نهايته وسنختمه بالنشيد القـــــومى « هاتيكفا » . وهب الحاضرون وانطلقوا يرددون النشيد القومى الصهيونى . ويقول « يسرائيل الداد » : « لن انسى ابدا تلك المرة التى رددنا فيها « الهاتيكفا »، . لقـــد ظننا جميعا ان هذه هى آخر مرة سننشد فيها « الهاتيكفا » بأوروبا .

وادرك قادة « البيطار » آنذاك ان الوقت بدأ ينفد . فان الكرملين لم يكن بصديق للصهيونية ، التى كان يحتقرها بصفتها « انحراف قومى » عن الطريق الثورى . كما أن « ستالين » كان لا زال الحليف القلق لهتلر . ولكن لم يكن لدى « بيجين » ورفاقه ما يردون به سوى أن يواصلوا ما كانوا يقومون به ، ويستمروا فى البحث عن منافذ لتهريب اتباعهم عبرها . وكانت « منظمة بيطار » تحتفظ بسجل لبطاقات عضوية افرادها الموجـــودين « بفيلنا » . وعندما وصل الروس قام احد الشبان ـــ ممن تولوا فيما بعد منصبا رفيعـــا بدولة اسرائيل بسحب بطاقته حتى لا ينكشف أمره . ففصـــــله بيجين من البيطار على الفور .

وتلقى اعضاء حركة التصحيح فى ذلك الصيف لكمة مزدوجة فلم يكد يمر أسبوع على دخول الدبابات السوفيتية الى ليتوانيا ، مما انهى اســــــتقلالها الهش ، حتى توفى « فلاديمير زئيف جابوتنسكى » فى الولايات المتحــــدة . وخاطر « بيجين » بحريته حيث اتجه الى « كوفنو » لالقاء مرثية بالمعبــــد اليهودى الرئيسى هناك ثم توفى بعد شهر من رحيل « جابوتنسكى » ، احد الاحبار البارزين فى « فيلنا » واشترك خمسة عشر من اعضاء البيطـــار فى جنازة الحبر التى اشترك فيها الآلاف من أعضاء الطائفـــة « الحاســـيدية المتطرفة » . وانسلخوا من الجنازة واتجهوا الى قبر شاب من المنظمة مات نتيجة للبرد القارس واصابته بالغرغرينا اثناء محاولته الوصول الى فلسطين. واقام « بيجين » صلاة الجناز عليه والقى كلمة قصيرة ثم رددوا جميعا نشيد « البيطار » ، بما يتضمنه من اعلان الايمان بأن اسرائيل سوف تقوم من بين الفساد والرماد . غير أن « بيجين » تأثر بوفاة معلمه بدرجة أكبر مما حاول أن يبديه .

وقد لفتت تصرفاته التى تنطوى على التحدى انظار البوليس السرى السوفيتى اليه . وتم استدعاء عضو بالبيطار الى مقر القيادة وسئل عما اذا كان يعرف « بيجين » وعندما رد بالايجاب قال له الضابط : « لقد القى كلمة رائعة بالمقابر اليس كذلك » ! وكان « ديفيد جوتان » من اهالى « فيلنا » وقد درس بجامعتها . وفى احد الايام ابلغه احد معارفه القدامى بانه وزملاءه ضمن القائمة التى وضعها الروس بأسماء المطلوب القبض عليهم . وقـــام البوليس السرى السوفيتى بزيارة منزل والديه ، بيد أن « جوتان » كان قد ذهب على سبيل الاحتياط ، الى مكان آخر لينام فيه . وبذلك اخذ زعمـــــاء

« البيطار » حذرهم ، وانتقلوا من « فيلنا » الى قرية « بافيلنيوس » القريبة ، حيث قاموا بتاجير غرف متفرقة فى بيوت الفلاحين .

وتلقى « بيجين » قبل مغادرتهم المدينة مباشرة استدعاء للحضور الى الغرفة رقم ٢٣ فى مبنى مجلس مدينة « فيلنا » بشأن موضوع « الطلب الذى تقدمتم به » وادى هذا الى تحذيره بدلا من ايقاعه فى الفخ . فلم يستجب لهذه « الدعوة المهذبة » ، ولم يكن ذلك فقط الا لانه لم يتقدم باى طلبات . وقد اختار « بيجين » الا يختبىء او يحاول الهرب . وفى كتاب « الليالى البيضاء »، الذى يعتبر من اول الكتابات الادبية عن الحياة فى معسكرات الاشغال الشاقة « الجولاج » والذى نشر فى عام ١٩٥٧ ، قال «بيجين» : « كان هناك سبب بسيط وراء الجزء الاول من قرارى . فقد قلت لنفسى ، اذا كانت الحكومة السوفيتية ترغب فى اعتقالى ، فليتعب عملاؤها انفسهم ويحضروا الى منزلى، فهذه هى مهمتهم ، ولماذا اختفى وكأن الارض ابتلعتنى » ؟

واضاف يقول بخبث : « أما السبب وراء الجزء الثانى من قرارى فلم يكن بمثل هذه البساطة ، ولا اريد ان اخوض فيه » . ولم يكشف « بيجين » عن هذا السبب الاخير الا بعد مرور عشرين عاما أخرى .

« لقد اظلمت الدنيا فى نظرى بعد وفاة جابوتنسكى . لم يكن « جابوتنسكى » بالنسبة لنا مجرد رئيس أو زعيم ، بل كان اكثر من ذلك ، فقد كان محل آمالنا ، وكنا نتطلع اليه ليخرجنا من العبودية .. لقد ضاع الامل ذاته ، لقد رحل عنا ولم يعد هناك أمل . ولذلك فقد كنت ممهدا نفسيا لان اعتقل بواسطة السوفييت لاننا اذا لم نستطع ، كما قلت اثناء تجمعنا حول قبر احد اعضاء « البيطار » ، أن نقاتل من اجل بلدنا فليس اقل من ان نعانى من اجله . وبصراحة تامة ، لقد كانت لحظة يأس متناهى . لم يكن املنا بصيص من الضوء . ولذلك فقد كنت فى حالة نفسية تجعلنى افضل الذهاب الى السجن . ولم اتكلم فى هذا حتى مع زوجتى . لقد قدم لى رفاقى النعيم .. ولكننى رفضته » .

وعلى اى الحالات فقد انتقل زعماء منظمة « بيطار » الى « بافيلنيوس » ، حيث استأجر « بيجين » و « اليزا » بعض الغرف فى منزل احدى الارامل . وقاسمهم مسكنهم كل من « الداد » (الذى كان يعرف آنذاك باسم « يسرائيل شيب ») وزوجته « بانيا » ، وشخصان آخران ، أحدهما زوج شقيقة مسز « بيجين » . وكان عملاء البوليس السرى السوفيتى يتتبعونهم كظلهم . بل ان « بيجين » كان يلهو بهم . فدعا « اليزا » للذهاب معه بالقطار الى « فيلنا » وقام بتعيين فريق من اعضاء البيطار لتتبع العملاء وكان العملاء يقتفون اثر « بيجين » وزوجته اينما ذهبا — وكان جواسيس بيجين يقومون بدورهم باقتفاء اثر العملاء . لقد كان الجميع يعلمون انها لعبة

لن تستمر طويلا . وسخر بيجين فى كتابه « الليالى البيضاء » من رجال البوليس السرى السوفيتى لافتقارهم الى المهارة التى يتميز بها المحترفون . فلقد كانوا مكشوفين تماما . ولكن ربما كان الامر ببساطة لا يسبب لهم اى شعور بالقلق . فلو أن قيادة « بيطار » غادرت « ليتوانيا » فالى غير رجعة ، اما اذا ظلوا بها فان رجال البوليس السرى سيستطيعون عندما يريدون ، أن يلقوا القبض عليهم .

وتحرك البوليس السرى فى ٢٠ سبتمبر ، أى بعد عشرة أيام من لعبة القط والفأر . وشعر « بيجين » بالارتياح عندما سمع الطرق على الباب ، فقد عرف أخيرا أين يقف . ودخل ثلاثة رجال ، وقطعوا على « بيجين » و « الداد » ، مباراة الشطرنج التى كانا يلعبانها . وسأل قائد القوة عن السبب فى تجاهل « بيجين » للاستدعاء الذى ارسل اليه بالحضور الى مبنى مجلس المدينة . ورد عليه « بيجين » قائلا : انه لم يكن لديه شأن والبلدية . وانهم اذا كانوا يريدون الاتصال به فانهم يعرفون أين يجدونه . وطلب منهم « بيجين » بلهجته الرسمية الشبيهة بلهجة المحامين ، أن يكشفوا عن شخصياتهم . وابرز قائدهم بطاقة شخصية تفيد بأنه من رجال المخابرات « اللتوانية » . وسألهم « بيجين » عما اذا كان معهم أمر كتابى بالقبض عليه ، ونفوا ذلك ولكنهم قالوا انهم جاءوا على اى الحالات لاعتقاله . وصمم « بيجين » ، متشبها « بجابوتنسكى » ، على الا يجبره أحد على التعجل ، وعلى أن يحتفظ بوقاره . وطلب من « اليزا » تقديم الشاى « لضيوفهم » وبدأ يستعد للرحيل .

يذكر « الداد » هذه المناسبة فيقول :

لقد ادى « بيجين » ، ما أصفه بمثابة مقطوعة موسيقية . فقام بتلميع حذائه وارتداء حلة وربطة عنق ، وكان فى منتهى التهذيب . وفى النهاية طلبوا منه الذهاب فقال لهم : « انا هنا فى بيتى ، فتفضلوا انتم أولا . والتفت الى قائلا : « اننا سنواصل مباراة الشطرنج » . وتلقيت فيها بعد رسالة يخطرنى فيها باننى فى وضع الفوز ولذلك فانه ينسحب . ولم يكن هذا صحيحا، فاننا لم نكن قد قمنا بتحريك القطع سوى خمس أو ست مرات . وقد سمحوا له بان يأخذ معه التوراة وكتاب آخر فقط . وبكت زوجتى . أما زوجته فلم تبك .. لقد كانت فى غاية القوة والتماسك » .

وبينما كان « بيجين » خارجا تحت الحراسة ، شاهد « ديفيد جوتان » وتبادلا نظرات تنم عن وقوع المحتوم وكأنهما يقولان : « حسنا ، لقد حدث المتوقع » وكان زملاء قائد منظمة « بيطار » واثقين من انه يواجه فترة سجن طويلة غير محدودة ، بالرغم من تأكيداته بأنه سيعود سريعا . ومع ذلك فقد وجدوا صعوبة كبيرة فى اقناع « اليزا بيجين » بالذهاب معهم الى فلسطين

بواسطة أوراق هجرة مزورة . ويقول « جوتلن » انها كانت تصـــــاب بالهستيريا .

« اوضحت لها ان السوفييت لن يحنقوا « بمناحم » فى « فيننا » وانهم سيرسلوه الى سيبيريا او اى مكان آخر مشابه . وان الحدود ستغلق فى القريب العاجل . وأكدت أن السبيل الوحيد للضغط من أجل الافراج عنه هو عن طريق اجراء اتصالات بالعالم الحر ، وبصفة خاصة بالولايات المتحدة . ولا يسعنا عمل ذلك الا من فلسطين أو استنبول » .

وفى النهاية أمكن اقناع « اليزا » بالرحيل . فسافرت برفقة « يسرائيل » و « باتيا » ، الى حيفا عن طريق « أوديسا » وتركيا . وكانت جماعتهم ضمن ٤٠٠٠ يهودى سمح لهم الروس بمغـــــادرة « ليتوانيا » عبر « أوديسا » و فلاديفوسك » ودفعت اللجنة المشتركة ، ألفى دولار عن كل فرد ســــافر عبر « أوديسا » وأربعة الاف دولار عن المجموعة التى سافرت عبر « فلاديفوسك » . واتجهت المجموعة الاولى الى فلسطين بينما سافرت المجموعة الثانية الى الولايات المتحـــــدة .

وأمكن ابلاغ « بيجين » ، فى زنزانته الكريهة الرائحة بسجن «لاكيشكى» نبأ فرار زوجته وذلك من خلال احدى الالغاز التى تقوم على التلاعب بالكلمات والتى يحتاج حلها الى جهد ذهنى مضن ولكن بمجرد ان تعرف الحل فانه يبدو لك فى غاية السهولة . فقد أرسل له بعض الاصدقاء لفافة تحتوى على بعض الملابس الشتوية الثقيلة . وعندما حل بيجين اللفافة وجد بداخلها منديـــلا مطرزا عليه بطريقة بدائية « أولى » . ولاول وهلة ، لم يفهم لماذا كتب اســم التدليل الذى يطلقه على زوجته بتلك الطريقة بدلا من هكذا : « آلا » . ولكن فى النهاية استطاع أحد زملائه اليهود بالسجن أن يحل له اللغز . فان كلمة « آولا » هى تأنيث للكلمة العبرية « أوليه » التى تعنى حرفيا « من يذهب الى اعلى » ولكنها ترمز ايضا الى « المهاجر الى فلسطين » . وقد تأكدت صحـــة هذا الحل للغز فى مايو عام ١٩٤١ عندما سمح لاقارب المسجونين بزيارتهم . وطلب « بيجين » السماح لزوجته بزيارته ، على احتمال ألا تكون قد رحلت بعد . وحضرت بدلا منها فتاة من جماعة « بيطار » بفيلنا ، تدعى « بولا دايتشيز وقالت له ان العمة « آلا » موجودة مع العم « شيمشون » . وفهم « بيجين المغزى المقصود فورا . فان العم «شيمشـون» هو «شيمشون جونيكزمان» ،زعيم « بيطار» فلسطين . ثم استطردت « بولا » تقول : ان والديه فى صحة طيبة وكذلك اخوته الموجودون مع العمة « آلا » . وحيث ان « بيجين » لم يكن لديه سوى أخ واحد فقد أدرك انها تعنى ان رفاقه قد نجحوا أيضا فى الفرار . وطلب « بيجين » من « بولا » ان تكتب خطابا الى العمة « آلا » وتبلغها فيه أنه فخور بهم جميعا ، « وقولى لها انى فى صحة طيبة واننى سأعود اليهم » .

وقد اعاد « بيجين » الى الاذهان اللغز المبني على التلاعب بلفظي «آلا» و « أولا » بعد أن طواه النسيان بمدة طويلة وذلك عندما أهدى نسخة من كتابه الليالي البيضاء الى « دافيد جوتلن » بعبارة تقول : الى « ديفيد الذي لولا ما اصبحت «آلا» هي أولا — اي ما أصبحت زوجته « آلا » مهاجرة الى فلسطين .

ولكن شاءت الاقدار ان يمر عليه عامان عصيبان قبل ان يتمكن من الوفاء بوعده ويعود اليهم مرة أخرى .

الفصل الرابع

الانتقال الى « الجولاج »

سأل « مناحم بيجين » نفسه بعد أن أمضى تسعة أشهر مسجونا فى مقر رئاسة البوليس السرى السوفييتي بفيلنا وبسجن « لوكيشكي » البارد ، لماذا ينتهي أمر الكثيرين ممن يحتجزهم البوليس السرى السوفييتي بالاعتراف ؟ وقد بحث « آرثر كوستلر » هذا اللغز ذاته في روايته عن عمليات التصفية الجسدية التى مارسها الكرملين ، والتي نشرت تحت عنوان « الظلام وقت الظهيرة » ٠ وكان جواب «كوستلر » على ذلك التساؤل هو أن قدامى البلاشفة ظلوا على ولائهم للثورة مهما ساورتهم المخاوف من تطرف ستالين واسرافه ٠ وقد أدركوا أن المرء الذي تنتابه الشكوك والريبة في سلامة الطريق الذى يسلكه الحزب انما يعرض الثورة للخطر وذلك فانه « يستحق » اصابته برصاصة فى مؤخرة راسه ٠ ولم يكن « روباشوف ، بطل كوستلر ، ضحية للبوليس السرىفحسب بل كان ضحية أيضا لمنطقه الشيوعى ٠

وخطا «بيجين» بسؤاله خطوة اخرى : لماذا يسلك المسجونون السياسيون الاخرون الذين يخلصون لمثل عليا أخرى غير الشيوعية ، نفس الطريق الى العدم ؟ وتوصل تفكيره الى أن السبب فى هذا يكمن فى « حائط الشك » الذى يقيمه البوليس السرى السوفييتى حول فريسته ، وهو الحائط الذى لا يحرمه فقط من حريته بل أيضا من جمهوره ، فيقول :

اذا ما أدرك المناضل أن خدماته لم تعد ذات قيمة ، وان أحدا لن يستمع لكلماته أو يعرف بالموقف الذى اتخذه ، كما أن احدا لن يتلقف تضحيته من بين يده ويتعلم منه كيف يضحى ، فان الخيط الذي يربط بينه وبين مثله العليا سينقطع فى الغالب ٠ وعندئذ سوف ينمحى تماما ادراكه الداخلى برسالته وسوف تتساءل نفسه المعذبة : من الذى سيعرف ؟ من الذى سيتبعنى ؟ من الذى سيحل مكانى ؟ ٠

ما اهمية معاناتى وما الهدف من العذاب الذى أقاسيه ؟ ٠

واضاف « بيجين » الى ما سبق عاملا اضافيا توصل اليه من تجربته الذاتية ، وهو الحيلة المعتادة التى يمارسها المحققون : حرمان المسجون من النوم ، وهو جزء لا يتجزأ من اى عملية استجواب يجريها السوفييت ٠ لقد كان البوليس السري يعمل أساسا خلال الليل ، ويتم اعادة السجناء الى

زنزاناتهم قبل موعد الاستيقاظ مباشرة · وبمجرد ان يغلبهم النعاس ، يحين وقت الاستيقاظ · وكان النوم محظورا اثناء النهار · وكانت الاوامر الصادرة الى الحراس تنص على مراقبة السجناء بدقة وتهديد كل من يغفو اثناء النهار بالسجن الانفرادى اذا تكرر منه ذلك ويقول « بيجين » عن هذه التجربة :

« يأتي الليل حاملا فى طياته ظلام الاستجواب الجديد ‥ المرة تلو المرة ‥ والليلة تلو الليلة ، طوال الاسابيع والاشهر ، طوال الزمن اللانهائى · يبدأ الضباب يتكاثف داخل رأس المسجون الذى يجرى استجوابه ‥ ويكاد الاجهاد يزهق روحه ، وتهتز ساقاه تحته ، ولا تصبح لديه سوى أمنية وحيدة مطلقة وهى : أن ينام ، كم يتمنى أن ينام ولو لفترة وجيزة ، أن يستلقى ولا يقوم أن يستريح وينسى . وان ينام ، أن يموت ، ان ينام ... العدم » . ان كل من جرب هذه الرغبة الجامحة يعلم أن الجوع والعطش لا يمكن مقارنتهما بها · لقد التقيت بسجناء وقعوا على الوثائق التى أمروا بالتوقيع عليها ، بهدف واحد فقط وهو أن ينالوا ما وعدهم المحققون به ـ النوم بلا ازعاج » ·

وقد عانى « بيجين » ، وفقا لاقواله ، من هذين النوعين من غسيل المخ » فقد وضع فى عزلة تامة الا من جيرانه المباشرين ، والبرقيات التى كانت ترسل بأسلوب النقط والشرط عبر جدران ومواسير السجن · ونادرا ما كانت تتاح له فرصة للنوم . وبدون محاكمة صدر ضده حكم بالسجن لمدة ثمانى سنوات بصفته « عنصرا خطيرا على المجتمع » · لقد ثار ضابط البوليس السرى السوفيتى واعلن غاضبا : « محاكمة . امنحوه منصة يمارس من فوقها مهارته الخطابية » ومع ذلك فان « بيجين » لم ينهار · وعندما اعترف فى نهاية الامر ، فانه فعل ذلك وفقا لشروطه الخاصة · فقد رفض التوقيع على مستند يقول : « اعترف بانى مذنب بتولى رئاسة منظمة « بيطار البولندية » واستطاع بعد ليلة متواصلة من المناقشات اللانهائية ان يقنع المحقق بالغاء الفقرة التى تشير الى الاعتراف بالذنب · واقتصر اقرار الاعتراف على تسجيل حقيقة بسيطة ومحددة بوضوح : « انى اعترف باننى كنت رئيسا لمنظمة بيطار البولندية » · لقد استطاع « بيجين » ان ينهك المحقق من خلال المناقشات المضنية ، تماما كما فعل مع كل من تباحث معهم فيما بعد · وصرخ المحقق صائحا وهم يقودون « مصدر عذابه » الى زنزانته : « اغرب عن وجهى ، فأنا لا أريد ان تقع عيناى عليك مرة اخرى ابدا !» ·

كيف استطاع بيجين ان يصمد ؟ ان كتاب « الليالى البيضاء » لا يجيب مباشرة على السؤال ، ولكن يمكن للمرء ان يستشف الاجابة من بين طياته لو انه قرأه بامعان · لقد تعامل « بيجين » مع تجربة الاستجواب ، بل ومع تجربة السجن بأسرها وكأنها مبارزة ذهنية أو مباراة شطرنج قاتلة · لقد كان يفكر : كيف يعمل النظام ؟ ما الذى يحاول المحقق الوصول اليه ؟ لقد

ساعدته هذه التساؤلات التي كان يوجهها الى نفســـه مثلما يحاول غيره أن يحل المسائل الرياضية ، على الاحتفاظ بعقله ، وبمعاييره ، واحترامه لذاته ٠٠ لقد حافظ على نفسه من ان ينقلب الى حيوان ٠

وحاول المحقق بما لديه من خبرة اعوام طويلة في السياسة الصهيونية ٠ ولكن كان « بيجين » عنيدا ومتزمتا ومتكبرا ٠ وعلى الرغم من انه كان يعلم ان الانتصار على المحقق لا قيمة له فقد رفض ان ييسر له بلوغ الهـــدف ٠ ورفض تلميذ « جابوتنسكى » الموافقة على أن الصهيونية ليست الا انحرافا قوميـــا برجوازيا ، وان زعيمه ، الذى كان قد توفى مؤخرا ، كان أداة للامبرياليـــــة البريطانية ٠ وكان صمود « بيجين » وروح المقاومة التى يتمتع بهما أمرا غريزيا فكان يناقش ويوجه المحقق ، بالرغم من ان هذا الاخير كان تلميذا بليدا ، وربما جعله يدفع ثمن جرأته ووقاحته غاليا ٠ لقد كان يتصرف تصرفا بطوليا غـــير علنى ومجرد من أى غرض سوى البطولة ذاتها ، تماما كما فعل « زئيف دوف، بيجين » عندما لكم الرقيب البولندى الذى حاول اجتذاذ ذقن الحبر ٠ لقـــد كان ينفذ مفهوم العزة والكرامة التى غرسها « جابوتنسكى » فى نفوس تلاميذه من فتيان وفتيات البيطار ٠ لقد كان الطرفان يتجادلان ، وهما يشعران بأن ثمة شيء يجبرهما على ذلك ٠ وكتب « بيجين » يقول : « كنت اشعر أحيانا انه قد نسى دوره كمحقق تماما كما نسيت انا دورى كشخص يجرى التحقيق معه »٠

ولكن كان التمرين الليلى على المجـــادلة يساعده أيضا على أن يستمر طافيا فوق السطح . وقال : « لقد كانت التحقيقات بالنسبة لى عبارة عن مناظرة بين عقيدتى ضد عقيدته ، فكان لدى ما اقاتل من اجل الدفاع عنه حتى داخل حجرة التحقيق كما كتب يقول عن عملية تحدى لاحقة : « انا اناضل ، ولذا فانا موجود » . ولم يتخل « بيجين » أبدا ، فى الوقت ذاته ، عن الامل فى اطلاق سراحه ، حتى فى اكثر اللحظات يأسا ، حينما فكر فى ارسال ورقة طلاق مشروطة الى زوجته « اليزا » . وكان السبب فى ذلك يرجع جزئيا الى أن « بيجين » رضخ رغما عنه فى النهاية لمحاولات المحقق فى أن يجعله يتاقلم . فقد وعده بمنحه فترة لاعادة تعليمه.وتساءل بيجين «هل سأعيش حتى نهايةفترة اعادة التعليم ؟ هل ساكملها واعود ؟ » يقول « ميرون شيسكين » ، رفيقه فى السجن والزعيم السابق لحركة التصحيح ، فى بولندا ، أن «بيجين» لم يفقد الأمل اطلاقا فى انه سيخرج كان كلانا يعرف أنه أينما ذهبنا فاننا سنذهب فى النهاية الى اسرائيل . لم تكن المسالة عقيدة دينية ، انما كانت شعورا راسخا فى نفوسنا . وكان « بيجين » يدرك ان نتائج الحرب الدائرة خارج جدران السجن ، مشكوك فيها ، وان اصدقاءه فى الغرب يبذلون الجهود من أجله . لقـــد كانت الثرثرة العامة بين رفـــاق « بيجين » فى الزنزانة تؤكد أن « هتلر » سيوجه مدافعـــه فى التريب العاجل نحو حليف « المصلحة »

السوفيتى . وترقب السجناء البولنديون تلك اللحظة فى ابتهاج ، بينما ترقبها اليهود فى فتور . ولكن المستقبل لم يكن مضمونا على الاطلاق . ولذلك فان الامر كان جديرا ببقاء المرء على قيد الحياة وجديرا بان يعمل المرء على كسب الوقت .

ولم يكن الوقوف وراء القضبان مسألة جديدة بالنسبة « لمناحم بيجين » فلقد دخل السجن البولندى قبل ذلك بعامين لتظاهره أمام السفارة البريطانية فى وارســـو . ولذلك فانه لم يصب بصدمة عندما احتجز فى مقر البوليس السرى السوفيتى أو وراء قضبان سجن « لوكيشكى » ، الذى نقل اليه بعد فترة وجيزة . وكان الظلام والفروق الكبيرة فى درجات الحرارة والبرودة ، والرائحة النتنة لجرادل القاذورات الموجودة فى الزنزانات المكتظة ، والسرير الصلب ، ووجبات الطعام غير المشبعة ، والسجان الفظ الذى يقوم بتنفيــذ الاوامر الخبيثة الصادرة اليه ، والعزلة عن الاسرة والصديق — كانت كل هذه أمور قد تعود عليها .

« لقد وجدت فى قفص « الآدميين » كل الاشياء المعتادة — مرتبة قش ، ورف ، ومنضدة عارية ، وكرسى بلا ظهر وغير متماسك ، واناء عميق صغير ، وبالطبع الجردل . وعلمة يعتبر سجن « فيلنا » شبيه « بسجن وارسو » ، ولا شك ان كل السجون الاخرى التى يقيمها الانسان لسجن اخيه الانسان ، لا تختلف عنها فى شىء . فلا يوجد جديد تحت الشمس . وربمـــا كان من الافضل الا يكون المرء سجينا مستجداً » .

وقد اكتشف ان الفرق الوحيد بين السجن السوفيتى وغيره من السجون هو ان سجين البوليس السرى السوفيتى كان يسأل نفسه « هل من المقدر لى أن اخرج ؟ » بدلا من أن يسألها : « متى سأخرج من هنا ؟ » وجاء أول التقاء لبيجين بالواقع ، عندما صادر حراسه الكتاب الوحيد ، باستثناء التوراة الذى سمح له باحضاره معه من « بانيلنيوس » . وكان الكتاب هو ســيرة حياة دزرائيلى بقلم اندريه موروا ، والذى كان قد بدأ قراءته بالانجليزية . وكعقاب له على تعامله مع السجن وكأنه مكتبة عامة يمضى وقته به فى القراءة اجبر على الجلوس لمدة ستين ساعة فى مواجهة حائط خال ، وركبتيه تضغطان على الحائط وعيناه تركزان على نقطة واحدة بلا حراك . لقد كان اسلوبا حاذقا فى التعذيب ، استطاع « بيجين » تحمله باسترجاعه لكل الاوقات الهامة البارزة فى حياته .ولقد كان ارتياحه بالغــا عند السماح له بالارتمـــاء على حاشيته ، حتى انه كاد أن يصاب بالهذيان .

وظل على مدى ثلاثة أشهر يشارك رجلين آخرين زنزانة واحــدة . كان احدهما ضابطا احتياطيا بالجيش البولندى ، فى منتصف العمر واعزب مولعا بالنظام بدرجة ضايقت حتى « بيجين » نفسه ، والآخــر كان ترزيــا

شابا اصبح فيما بعد جنديا برتبة مساعد عريف ، كما أصبح أثناء وجـوده بالسجن تلميذا « لبيجين » . وقد اثار هذا الشـاب دهشة الرجلين الأكبر منه سنا عندما عاد الى الكنيستة . وكان زميلاه البولنديان بالزنزانة لا يكادان يخفيان شعورهما بالعداء للسامية والمتأصل فى نفسيهما ، ومع ذلك فقد حزن « بيجين » على فراقه لهما . وفى هذا الصدد يقول بيجين :

« كانت توجد حواجز تفصل بيننا ، بل أننا كنا نتعارك ، ولكننا تمكنا من التعرف على بعضنا البعض ، وتعلمنا كيف نتفاهم ونتسـامح . وكنا قد اصبحنا بالفعل بمثابة مجتمع صغير ، له عرفه وتقاليده . ولم أمارس هنا التدريس الا قليلا ، ولكننى تعلمت كثيرا . ولقد مررت هنا بتجربة الاستجواب كما اتخذت هنا قرارا مؤلما .

وقد تم وضع « بيجين » خلال فترة انتظار انتهاء المحاكمة وصدور الحكم فى زنزانة جماعية تضم ستة عشر سريرا لينام عليها حوالى ستين سجينا . وكانوا ينامون على الأرض . وكان رفاقه فى هذه المـرة يتكونون من لص يهودى ، وضابط بولندى برتبة كولونيل يبلغ من العمر ٧٨ عاما ، ويعاقب بأثر رجعى لأنه كان قد حارب فى صفوف جيش القيصر . وكان معظم المسجونين الذين انهاروا تحت ضغوط الازدحام والجوع ، هم من أولئك الأشـخاص الأقوياء البنية ، الذين اعتادوا على الحياة فى الاماكن المفتوحة . اما المفكرون « الضعفاء والضعفاء البنية » ، كما وصفهم « بيجين » فى كتابته وهو يشعر ببعض الرضا عن النفس ، فانهم لم يمرضوا أو يشتكوا ، لقد بدا كان ارواحهم كانت بمثابة الدعامة التى تسندهم ، وتقوم بمهمة الدرع الذى يحمى أجسادهم . ولقد اشتركت المجموعتان فى اعلان الاضراب عن الطعام احتجاجا على عدم احداث اى تغيير فى نوعية طعامهم ألذى كان يتالف باستمرار من نوع من الحساء الخفيف غير الشهى المصنوع من الحبوب ويعرف باسم « كاشا » . ويصف « بيجين » هذا الحساء فى اكتئاب فيقول : « ان رائحته كانت تزكم انوفنا فعلا لقد كان حساء « الكاشا » كريها بالنسبة لنا ولم نعـد نتحمل تناوله مـرة اخرى » . وانتصر المضربون بعد بضعة أيام . ولأول مرة منذ شهرين متواصلين قدم لهم حساء مصنوع من أوراق الكرنب الفاسدة بدلا من « الكاشا » الكريهة .

وكانت تلك هى الفترة التى علم فيها « بيجين » ، من خلال « تليغراف » السجن ، بوجود « ميرون شيسكين » فى الزنزانة المجاورة وأبرق اليه زعيم « حركة التصحيح » ببولندا ، والذى يكبره بأثنى عشر عاما ، برسالة — عن طريق النقر على الحائط — يستفسر فيها عن صحة « جابوتنسكى » . وشعر « بيجين » بجرح وأسى لعدم معرفة « شيسكين » بنبأ وفاة « جابوتنسكى » ، ولكنه ابلغه به بعد فترة وجيزة . وذهل « شيسكين » ووضع قبعته على رأسه وتلا صلاة الجنازة . ولقد ردد زملاؤه فى الزنزانة كلمة « آمين » فى نهـاية الصلاة بالرغم من ان أحدا منهم لم يكن يهوديا .

وأثناء فترة عيد الفصح اليهودى ، اشترك « بيجين » و « شيسكين » فى زنزانة واحدة . ويقول « شيسكين » متذكرا :

« كنا نأخذ جرايتنا اليومية من الخبز ونغمسه فى القهوة ثم نضعه على النافذة ليجف ، وبذلك كنا نحصل على خبز « الماتزا » (أو الخبز اليهودى غير المختمر) وكنا نتلو صلاتنا : « ان هذا هو خبز بلائنا ، نحن اليوم عبيد ولكننا سنكون فى العالم القادم رجال أحرار ، ونحن اليوم موجودين هنا ، ولعلنا نكون فى العام القادم بالقدس » . وكنا نغنى بعد ذلك نشيد الحركة الصهيونية : وكنا نسمع اصوات ترد علينا من أماكن مختلفة بالسجن . ان المسجونين اليهود يرددون النشيد ، حتى بالرغم من حظر المظاهرات » .

وقد نجا الزعيمان الصهيونيان من العقاب بصورة او بأخرى . ولكن الحظ تخلى عن « بيجين » عندما سمعه احدالحراس اليهود يروى « نكتة »، وظن انه هو المقصود بها ، فاشتكى الى مدير السجن ، الذى سارع بالحكم على « بيجين بقضاء سبعة أيام فى الحبس الانفرادى . وقد قبل الحكم من وجهة نظر فلسفية ، فاعتبره دورة دراسية جديدة فى الاساليب التى يتبعها البوليس السرى السوفيتى وفى فن ولغة الحبس .

« لقد انقضت الايام السبعة ولياليها . لقد ادى الحبس الانفرادى الى اصابته بضعف شديد ، ولكنه تعلم منه الكثير . لقد تعلم من الحر الخانق أثناء النهار ومن البرد القارس فى الليل ، ومن القذارة والرائحة الخانقة الخاصة بالقفص الخالى من النوافذ ، ومن عدم وجود أى غطاء ، ومن الرطوبة والارض القذرة المصنوعة من الاسمنت التى كنت افترشها للنوم والتى كانت مرتعا للفئران — لقد تعلم من كل هذه الاشياء ان ثمة اماكن اسوأ حالا من زنزانة السجن ، تماما كما تعلم فيما بعد أن ثمة اماكن اسوأ من زنزانة الحبس الانفرادى » .

وقد استطاع « بيجين » أن يتحمل اسبوع الحبس الانفرادى الذى لم يتناول خلاله سوى الخبز والماء ، ولكنه لم ينس ابدا خيانة الحارس اليهودى الذى كان يعمل فى خدمة البوليس السرى . وقد ضم « بيجين » هذا الموظف المجهول الى قائمة « الابالسة » التى يحتفظ بها فى ذاكرته وتضم ايضا المحقق اليهودى ذا الكلام المعسول الذى حثه باللغة البديئة على أن يعترف « بالحقيقة » ، وكذلك المترجم الصهيونى الركيك الذى كان يتعبد عند ضريح لينين ، وساوم « بيجين » على النصوص التوراتية الخاصة بهيرتزل ، ثم الحلاق اليهودى الذى كان يعمل بالسجن والذى كان يؤدى الاعمال القذرة نيابة عن « سيده » بتهيئته « للزبائن » برواياته الساذجة عن الحياة فى معسكرات الاشغال الشاقة ، وكان هناك آخرون فى حياة « بيجين » من امثال أولئك المرتدين . ولم يتساهل «بيجين» معهم ابدا حتى عندما اصبح

رئيسا للوزراء فكان يستخدم تعبير « ذلك اليهودى المتكبر » ، بلهجة استنكارية فى وصف أى يهودى يحاول خطب ود العدو الفلسطينى او يحاول تلقينه درسا فى واجبه القومى . وكان هذا الاسلوب اسهل أحيانا فى الرد عليهم من مناقشة المسائل التى كانوا يثيرونها .

وعلى الرغم من أن فترة التسعة اشهر التى امضاها « بيجين » فى سجن « فيلنا » كانت فترة عصيبة ، الا أن الايام اثبتت انها لم تكن سوى تمهيد لنزوله فى « المكان الأسوأ من زنزانة الحبس الانفرادى » أو « ارخبيل جولاج » الذى وصفه « الكسندر زولشنتسن — فى رواية بهذا الاسم — بالجحيم السوفيتى » الذى يتلقف لرجال والنساء الموصومين لسبب او آخر ، بانهم أعداء الثورة ، فيطويهم النسيان ويتحولون الى ما يشبه الحفريات المتحجرة » . وبالرغم من أن اقامة « بيجين » هناك لم تدم اكثر من ثلاثة اشهر فانها تركت فى نفسه عداء ابديا للروس والشيوعية ، وحماسا للحرب الباردة ظل راسخا فى نفسه حتى ما بعد « الوفاق » بكافة اشكاله .

وبدات رحلة العذاب بحركة تمرد كان يمكن اعتبارها فى ظروف أخرى مجرد محاولة بسيطة للترويح عن النفس ، حيث رفض المسجونون الذين كانوا ينتظرون نقلهم أن يتناولوا طعامهم من المبصقات . وكان سجن «لوكشكى» مكتظا بدرجة انه لم يكن يحتوى عددا كافيا من الاطباق لكل المسجونين . ولكن المسجونين كانوا يرون أن المبصقات صنعت خصيصا لعملية البصق ، حتى لو لم تستعمل فى ذلك الفوضى وصمد المسجونين لمدة يومين . وكما حدث من قبل بالنسبة نلاضراب عن الطعام ، انتصر المسجونون ولكن بثمن باهظ : فقد حصلوا على عدد قليل من الاطباق والفناجين كانوا يضطرون الى تداولها من يد الى اخرى ، ومن فم الى آخر ، ومازالت بقايا الحساء أو القهوة عالقة بها . وكتب بيجين يقول فى ابتهاج ولكننا تناولنا طعامنا ، ولم نتناوله من المبصقات .

وكان « بيجين » واحدا من الفى سجين تم ترحيلهم فى اوائل شهر يونيو سنة ١٩٤١ من « فيلنا » الى الشمال . وكانت وجهتهم التى لم يكونوا قد عرفوها بعد ، هى معسكر « بيتشور » للاشغال الشاقة على نهر « بيتشورا » ، الذى يتدفق عبر منطقة التندرا الشمالية ليصب فى بحر « بارنتس » المتجمد الذى يقع جنوب الدائرة القطبية الشمالية مباشرة . وكانت الرحلة التى بلغ طولها ١٥٠٠ ميل اشبه ما يكون بالكابوس حيث تم حشرهم فى القطارات والبواخر النهرية التى استقلوها فى أعداد آكبر مما لو كانوا ماشية . فقد كانت كل عربة من عربات قطار السجن مصممة بحيث تسع اربعين شخصا أو ثمانية خيول ، وجنديى حراسة . بيد ان الروس تمكنوا بشكل ما من حشر ما يقرب

من سبعين سجينا في كل منها • وكانت كل عربة مزودة بفتحة ماسورة متجهة نحو القضبان تســتخدم كمرحاض ، وطابقين من الاسرة الخشبية المثبتة فى الجدران • فاذا اختار المرء النوم في الطابق الاعلى فانه يعانى من الحشر اما اذا اختار الطابق الاسفل فانه قد يتعرض للاختناق • وكان الهواء يدخل من نافذتين صغيرتين فى أعلا العربة . ولم يكن يتم فتح الباب الا ثلاث مرات فى اليوم : مرتان لاحصاء عدد المسجونين ومرة لاطعامهم وجبة واحدة لا تتنــوع عبارة عن خبز وسمك مملح . وكان السائل الوحيد الذى يدخل جوفهـــم هو ماء لم يسبق غليه ، يشربونه من جردل . وقد شاهد « بيجين » الحراس فى احدى المرات وهم يملأون الجردل من بركة راكدة يغطيها وحل لزج اخضر اللون . ومع ذلك فقد شربه .

واستغرقت رحلة القطار ستة أسابيع تقريبا تخللتها وقفات كانت تستمر عدة أيام لاسباب غير معروفة . وعلم المسجونون وهم فى الطريق أن المانيــا قد اعلنت الحرب على الاتحاد السوفيتي • وابتهج البولنديون واللتوانيون لان عدويهما سيشتبكان مع بعضهما البعض• ولم يكن « بيجين» يدرى أن الحرب الجديدة نحو الشرق والمنذرة بالشر ستؤدى قريبا الى منحه حريته . وكان الخط الحديدى محطما بعــد مدينة كوتلاس : « لقــد اهتزت بنا العــربات وكأننا فى سفينة تهتز فى وسط عاصفة هوجاء وأصيب كثير منا بدوار « تطلر » وقيء مستمر وأنهكت قوانا واستغرقنا فى النعاس • ولم يعــد أحد منا يتفوه بكلمـــة واحـــدة » .

وغادر السجناء القطار عند محطة صغيرة اسمها « كوشفا » ثم ساروا على الاقــدام لمــدة خمس ســاعات عبر حقول موحلة حتى وصــلوا الى معسكر الترحيــلات . وقام جنــود مدججون بالســلاح وكلاب متوحشـــة بحراستهم . وصاح أحد الضباط أن اي شخص يخرج من الصف سيتعرض لاطلاق النار عليه • وتجاذب « بيجين » ،أثنــاء المسيرة أطراف الحديث مع احـــد الجنود الذى اكد له في تهـــوة : « لا أحـــد يخرج من هنا حيا » . وشـــق المسجونون طريقهم من معسكر الترحيــلات عبر أراضى المستنقعات حتى ضفاف نهر « بيتشورا » ، حيث تم شحنهم على قاطرة سفينة نارية مع شحنة من القضبان الحديدية . وتعرف « بيجين » من حديث اجــراه مـــع حارس آخـــر ، على بعض ما ينتظره من بؤس . وقال له الحارس وهـــو يشير بإبهامه الى اللفـــافة التى يحملهـــا « بيجـــين » ، وتتضمن حاجياته المتواضعة « سترى ، انهم سيأخذونها منك » . ولم يفصح عمن يقصـــد بكلمـــة « هـــم » .

وقد تم نقل « ميرون شيسكين » و « ديفيد كرول » وهو صديق آخر لبيجين من التصحيحين : على نفس القطار المتجه نحو الشمال ، ولــكن فى

عربات مختلفة . وعند وصولهم الى معسكر « بيتشور » ، قام « كـرول » ، الذى يتصف بسعة الحيلة ، برشـوة أحد الضباط لوضع ثلاثتهـم معا فى مستشفى المعسكر . وقد كلفهم ذلك ثلاثة قمصـان من لفافاتهم الثمينة . لقـد أصبحوا فى منطقة « الليالى البيضـاء » حيث تكاد الشمس القطبيـة لا تغيب ابدا ، ويستمر الشتاء تسعة أشهر فى السـنة ، وكان على المرضى ان يركضوا مسافة ميل تقريبا وهم نصف عرايا فى درجـة حرارة تقـل عن الصفر حتى يصلوا الى مبنى الحمـام . وقيل لبيجين : « ستعتاد على هذا ، والا فانك ستموت » . وقد خشى « بيجين » فى اول ليلة له بمبنى المستشفى ، من أن يهلك ، وذلك عندما كاد يلتهمه جيش من البق الاحمـر وعن ذلك يقول :

« لقد ظلت اعداد هذا العدو الرهيب المصمم على امتصاص دمى ، تتزايد باطراد . وحاولت اللجوء الى استخدام تكتيكات مختلفـة لتضليله . فغيرت وضعى فى السرير ، ولكن لم تفلح هذه المنـاورة . فان العـدو أمسك بى ورفض التخلى عنى . ولم تغمض لى عين فى تلك الليلة . وقـد حـدث نفس الشىء لجميع المستجدين الاخرين ، أما المخضرمون فقد ناموا مثل الملائكة . لقد استطاعوا أن يعتادوا عليه » .

وبعد ان أمضى « بيجين » اسبوعا فى المستشفى ، بدأ تكليفه بالعمـل فى بناء الخـط الحـديدى الممتـد من « كوتلاس — فاركوتا » ، « بأمر من الحـزب والحكومة » . وكان زملاؤه فى العمل خليطا متباينا من الافراد ، فكانوا يتكونون من روس وبولنديين ، ولتوانيين ، ولتفانيين واستوانيين ، ورومانيين ، ويهود . وكان من بين الفئة الاخيرة مساعد رئيس تحرير مغضوب عليه بصحيفة برافدا ، يشـكو من مرض فى القلب وحـرارة مرتفعة ترفض النزول عن ٣٨ درجة ولكن سرعان ما أدرك « بيجـين » ان التمييز الهـام الوحيد هو ذلك القائم بين المسجونين السياسيين والمجرمين . وكان للمجرمين اليـد العليا حيث كانوا يتباهون بقوتهم الجسمانية ويرهبون المفكرين الحقراء . وعندما قام احـد المجرمين بسرقة معظم حاجياته أثنـاء نومه ، أدرك بيجين قصد الحارس . انهم فعـلا « أخذوها كلها » ، ولكن بالتقسيط !

وكان السجناء يقومون بنقل قضبان حديدية الى مسافة ربع ميـل من مركب ترسو عند نهر متشورا ، عبر جسر خشبى ضيق ثم عبر الحقـول حتى عربة سكة حديد منتظرة . وكانوا يعملون بمصاحبة فرقـة موسـيقى نحاسية تعزف الاناشيد التى تشدو بعظمة الانجـاز السوفيتى . وكانـت القضبان التى يحملها المسجونون — واحـد على كل كتف — تسلخ الجلد ، وتسبب آلاما مبرحة . ومما ساعد على مضاعفة الالم ، طول الناموس التى كانت تحوم طوال ساعات النهار الممتدة وعلى مدى أربع عشرة ساعة يوميا . ويشكو « بيجين » فى مذكراته قائلا : « ان الناموس يزن ويلدغ ، ثم يشرب

ويزن .. ليس هنك اى مهرب منه » . وكانت الظروف التى يعمل المسجونون فى ظلها أسوأ من الظروف فى السجن ، بالرغم من أنهم كانوا يعملون فى الهواء الطلق . لقد كان البرد قارساً بدرجة لا تحتمل . وكان الرجال يتقاتلون من اجل كسب مكان بالقرب من المواقد . وقد لقى اثنان من الفتيان اليهود كانا يشاركان « شيسكين » فى كوخه ، حتفهما نتيجة للتجمد من البرد . وكان العمل مضنيا بينما كانت الجراية اليومية اقل من أن تقيم الاود . وقال بيجين فى مذكراته « لقد شاهدت على ضفاف » البيتشورا « حيوانات تسير على قدمين » . وكسرا للملل ، كان يتم تبديل ورديات مجموعات العمل كل عشرة أيام من فترة النهار الى الليل . ونتيجة لهذا النظام لم تتح لهم أية فرصة ليوم من الراحة الاسبوعية » .

وفى صباح أحد الايام ، بينما كان « بيجين » فى طريقه الى العمل ، سأل أحد الحراس : « هل أنت بولندى ؟ فأخذ « بيجين » بدقته المعهودة يشرح له انه يهودى وان كان مواطنا بولنديا ، ولم يكن الحارس مهتما بمثل هذه الفروق الدقيقة ، فان لديه أخبارا يريد نقلها اليه . فقد سمع فى الاذاعة أن السلطات أصدرت عفوا عن جميع المسجونين البولنديين ، واتفقت الحكومتان البولندية والسوفيتية على اطلاق سراحهم حتى ينضموا الى القتال الدائر ضد الالمان . وتأكدت الشائعة ، عندما قرأ قائد المعسكر نص القرار فى « البرافدا » ولكن ذلك لم يكن سببا كافيا ، من وجهة نظر « العالم » البيروقراطى الموجود فى « الجولاج » ، للافراج عن البولنديين ولم يكن قائد المعسكر قد تلقى بعد تعليمات بذلك . وعلى هذا فيجب عليهم ان يعملوا ، حتى حصوله على تلك التعليمات ، من اجل تحقيق ما أصبح بمثابة « هدف مشترك » لقهر العدو الالمانى . وواصل « بيجين » وزملاؤه ، لعدة أيام أخرى ، اداء أعمال السخرة فى معسكر « بتشورا » للاشغال الشاقة ، وهم يحملون القضبان ويتضورون جوعا ويحكون جلودهم .

وبدلا من وصول الأمر بالافراج عن البولنديين ، تلقى قائد المعسكر أمرا بارسال مجموعة من الرجال الى معسكر آخر على النهر نحو الشمال ، حيث يمكن استغلالهم فى أعمال اكثر فائدة . واختار المسجونون البولنديون « بيجين » للاعتراض نيابة عنهم . فما فائدة ارسالهم الى معسكر الشمال لو كان سيفرج عنهم قريبا ؟ ولكن لم يكن القائد يملك من الأمر شيئا . وكان أقصى ما يستطيع أن يقدمه لهم هو أن يعدهم « اذا وصل الامر بالافراج عنكم فاننا سنأخذكم حتى من على السفينة لنرسلكم الى الجهة التى من المفروض أن تذهبوا اليها » .

وكان « بيجين » واحدا من ثمانمائة رجل حشروا على ظهر ناقلة بضائع ، ابحرت لمدة ثلاثة أسابيع على نهر « بيتشورا » ، ولم يكن فوقها مكان للوقوف أو التحرك أو حتى للجلوس ، بل كان على الشحنة الآدمية أن تنام ليلا

ونهارا فوق سراير خشبية ترتفع الى ثلاثة طوابق على جانبي جدران العنبر الذى تفوح منه رائحة كريهة خانقة . وكانوا يشربون من مياه النهر البـــاردة الأمر الذى أدى الى اصابة معظمهم بالاسهال · ولم يكف المرحاضان البدائيان لاستيعاب هذا الضغط عليهما · وتعرض المسجونون كذلك لهجـــوم جيوش القمل . واخـــذ المجرمون يتهكمون على المسجونين السياسيين ويجمعـــون الحشرات ويلقونها على وجوههم . ورجا مساعد رئيس تحرير البرافدا المغضوب عليه والذى كان واثقا من أن المجرمين يهدفون قتله ـ رجـــا « بيجين » أن يساعده على ترديد نشيد « الهاتيكفا » الذى يتذكر أجزاء منه منـــذ أيام شبابه فى « أوديســـا » .

وكانت محنة « بيجين » والبولنديين قد اقتربت من نهايتها ، وان لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لليهودى الروسى من « البرافدا » فقد وفى قائد المعسكر بوعـــده فعندما وصل أمر الافراج اخيرا بلغه الى ناقلة البضـــائع ، واصبح من المقرر اطلاق سراحهم قبل حلول أسوأ فترة فى شتاء الشمال القارس · وتردد صوت أحد الحراس داخل العنبر هاتفا : « بيجين » ثم بدا يردد الاسماء، الاسم تلو الآخر ، وفقا للترتيب الابجدى · وردد كل واحـــد منهم على النداء بترديد اسمه واسم أبيـــه ، وعلى راسهم « مناحـــم وولفوفيتش » · واعلن الحارس : على الذين ناديت اسماءهم ان يجمعوا حاجياتهم ، فقـــد صدرت الأوامر بالافراج عن البولنديين · ستصبحون أحرارا · وسيطرت الغـــيرة على أحد المجرمين من غير البولنديين ، فأشار الى « بيجين » وقال محتجـــا : « انه من « الزيد » (أى يهودى حقير) وليس بولنديا . وتجاهله « مناحم وولفوفيتش » ، فهذا لم يكن الوقت المناسب للحساسيات ·

الفصــل الخامس

الاتجــاه شرقا نحو المقاومة السرية

اخلى سبيل المسجونين البولنديين حتى يقاتلوا الالمــان ولكن دون أن يوجههم احد الى مكان مكتب التجنيد الذى يشرف عليه الجنرال « فلاديسلاف آنديرز » ، وتركوا ليتوصلوا الى المكتب بمفردهم . فقــد أقلهم الروس فى سفينة الى معسكر ترحيلات ، ومن هنـــاك منحوا أوراق الافراج عنهم من « الجــولاج » بلا اى تعقيدات . ومنح كل واحــد من البولنديين مبلغا من المـــال واطلق سراحه . وقد حصل « ميرون شيسكين » على مبلغ يكفيــه للقيـــام برحلة تستغرق ثلاثة أيام بالقطار الى « كوبيشيف » ، حيث حـــاول اقناع البولنديين بتشكيل كتيبة يهودية على نمط فيلق « جابوتنسكى » الذى اشترك فى الحرب العالمية الاولى ، ولكنهم قاموا بدلا من ذلك بتعيينه ضـــابط اتصال يهودى برتبة ميجور بمكتب « أنديرز » .

ولسبب غير مفهوم ، لم يتم الافراج عن « ديفيد كرول » صديق « بيجين » الاخـــر من « حركة التصحيح » ، والذى كان قد اسندت اليــه مســئولية الاشراف على مجموعة العمل ، وذلك على الرغم من انه جـــاء معهم الى معسكر الترحيلات . وظل « بيجين » يعتقد لسنوات طويلة بعد ذلك انــه استشهد فى الشمال النائى . ولكن فى أوائل الثمانينيات جاء يهودى روسى الى اسرائيل قادمـــا من منطقة جبال الاورال ، ليقـــــول : ان « كرول » « حى يـرزق » ، ويبلغ تحيـاته الى بيجين و « شيكسين » وأبلغهـم انـه « يطلب منهما ارسال شال من النوع الذى يستخدمه اليهود فى الصلاة . غير أن الزائر ابلغهمـــا بعد ذلك وقبل أن يتمكنا من تلبية طلبه ، أن « كرول » توفى فى حادث طريق .

ولم تكف النقود التى حصل عليها « بيجين » ، لسد احتياجاته مـــدة طويلة . فشق طريقا عبر برارى آسيا الوسطى السوفيتية بواسطة القطار ، الذى كان يركبه بدون تذكرة ، وينام على الارض الوعرة ، ويأكل كلما كانت تسنح له الفرصة وسط هذا « القطيع المشرد » من المسجونين السابقين الذين كانوا يتجهون على غير هدى نحو الجنوب أبان الأشهر الأخيرة من عام ١٩٤١ . لقد تعلم سر البقاء أثناء حياته فى المعسكرات : « انك تستطيع التعود على كل شىء » . وكان واضحا ان الجيش البولندى لا يهتم باليهود الذين كانوا قد أصبحوا مثل خيال المآتة ، مهما كان ما اثبتوه من قدرة على التحمل . ورفض طلب « بيجين » ، فواصل طريقه يحدوه الأمـــل فى العثور على أخته

« راشيل » وزوجها للذى كان قد تم ترحيله قبل اعتقـــال « بيجين » فى « فيلنا » .

وسمع « بيجين » فى احدى الليالى ، وهو ينعس عنـــد محطة سكة حديدية ، واحدة من « المتشردات » وهى تحكى عن مناجم النحـــاس فى « الاورال » ، وذكرت المرأة ، التى كانت تنتظر مثل « بيجين » أن تسنح لها الفرصة لركوب القطار بلا مقابل ، اسم « هالبرين » . وسألها « بيجين » دون أن يسمح لآماله بالتحليق عاليا ، عما اذا كان « هالبرين » هذا الذى ذكرته هو محلم من وارسو ، وعما اذا كان اسم زوجته ـــ بالصدفة هـــو « راشيل » . وشاء الحظ ان ترد على تساؤلاته بالايجاب . واســـتطاع « بيجين » بمساعدة تلك المرأة ، ان يصل الى أخته وزوجها واجتمع شملهم مرة أخرى فيما وصفه بكوخ « حقير مبنى من الطين فى بلدة أوزبيكية صغيرة، هى بلدة « دزيزاك » الواقعة فيما بين « طشقند » و « سمرقند » ولم يدم وجودهم معا مدة طويلة . فقد سمع « بيجين » أن الروس قد بدأوا مرة أخرى يلقون القبض على الزعماء السياسيين اليهود ولما كان ماضيه معروفا حتى فى أوزبيكستان ، فقد انتقل الى مدينة « مارجيلان » حيث كانت ترابط الفرقـــة التاسعة البولندية ثم علم من اخته بعد أسابيع قليلة أن « أشخاصا لا تعرفهم» قد جاءوا الى كوخها واستفسروا عن مكانه .

كان « بيجين » قد تقبل فى « مارجيلان » الميجور « شيسكين » واثنين آخرين من أعضاء حركة « البيطار » ، الذين قدموا له الطعام والمـــأوى . وبموجب اقتراح من « شيسكين » ، قاموا باستدعاء « يوهـــاتان بادر » محلمى حركة « التصحيح » الذى كان يعيش فى المنفى بروسيا . لقد كانت شبكة اتصالات « البيطار » ما زالت تعمل بكفاءة ! واستطاع « بادر » قطـــع مسافة ١٢٠٠ ميل سيرا على الأقدام ، والوصول الى مكان الاجتمـــاع بالرغم من تفشى وباء التيفود الذى قتل عشرات الآلاف من الناس وقد وجد « بادر » أن « بيجين » ، بفضل مضيفيه من أعضاء البيطار ، كان بحالة أفضل مما كان يتوقع . واستفسر « بيجين » ، الذى كان يرتدى « جاكتة » من الجلد وحذاء برقبة عالية ، عن كيفية الوصول الى فلسطين والقيام بثورة ضد البريطانيين . ويعود « بادر » بذاكرته الى الوراء فيقول « كان كلانا يوافق على أن المهمـــة الأساسية فى « ارتزاسرائيل » أى أرض اسرائيل التاريخية) هى محـــاربة الحكومة البريطانية . ومرة أخرى بدا واضحا أن « بيجين » لم يحد عن هدفه نتيجة لوجود بريطانيا فى حالة حرب مع النازى . بيد أن بادر أوضح أنه ليس هناك سبيل للحصول من السوفييت على تصريح خروج وانه من الافضل ان ينضم الى الجيش البولندى . وقال « بيجين » ، متأملا بعد مرور عقد من الزمان ، قام خلاله بالثورة : « لا أظن أنه قدم لاحد ، على مدى حياته كمحام ، نصيحة أفضل من هذه » .

غير أن « بيجين » كان محجما عن تعريض نفسه للكشف الطبى على الرغم من انه كان يدرك حكمة هذا الامر . فقد تعرض من قبل للرفض لاسباب صحية ، وشعر انه جرح فى كبريائه . بيد أن صديقيه الاكبر سنا « بادر و « شيسكين » اقنعاه بأن يحاول مرة أخرى . واعلن الطبيب فى هذه المرة ايضا عدم لياقته . وقال ان قلبه مريض ونظره ضعيف ، فكيف يكون جنديا لائقا ببولندا الام ؟ ولم يرض شيسكين بترك الامور عند ذلك . فتفاوض سرا والميجور « لنيك » رئيس أركان قائد الفرقة . واجرى الضابط البولنـدى اختبارا شخصيا لبيجين ، ثم أرسل مذكرة الى طبيب الجيش تتضمن تعليمات اليه باجازة لياقة الجندى المستجد للخدمة ولم يكن الطبيب قد نسى حـالة « بيجين » القلبية أو نظارته ولكنه تغاضى عن شكوكه . فاعلن صـحتها « القلب والرئة فى حالة ممتازة » . وحتى لو كنت قصير النظـر ، فانك ستتعلم فى الجيش كيف تصيب الهدف جيدا . وكان التحاق « بيجين » بالجيش البولندى ، بمثابة نقطة تحول فى حياته . فقد ادت به الى فلسطين والى قيادة منظمة « ارجون زفاى ليومى » . ولكن المسألة ابان عام ١٩٤٢ ، لم تزد عن كونها مقامرة . فلم يكن لدى زعماء « حركة التصحيح » الموجودين آنذاك فى « مارجيلان » اى تأكيد بأن جيش الجنرال « اندروز » سـوف يرسل الى « الارض الموعودة » . ويقول « بادر » : « لم تكن المسألة تزيد عن مجـرد اعتقاد شائع ،ولم تكن أية قرارات قد صدرت بعد » . ولكن المخاطرة أتت اكلها .

وكانت تجربة « بيجين » البولندية فى هذه المرة ، كسـابقتها ، غير مشجعة اطلاقا . فقد تلقى تدريبه المبدئى فى جو يسوده العداء للسـامية والاهانات والاذلال . وكان عزاؤه أن هذا الوضع لن يستمر طويلا . فارسلت وحدته جنوبا عن طريق ميناء « كرازلوفودسك » الى ايران والعراق ثم شرق الاردن . وكانت الضفة الغربية للاردن قد أصبحت فعلا فى نظر « بيجين هى « أرض اسرائيل » ... أرض الاجداد .

وكتب فى مذكراته فيما بعد يقول : « توقفت القافلة العسكرية لنستريح . وغادرت العربة وسرت الى مسافة قريبة عبر الحشائش واستنشقت ملء رئتى من هواء وطنى القومى » .

عين « بيجين » فى مايو ١٩٤٢ كاتبا فى القدس ، حيث عمل فى مكتب الميجور المسئول عن المدينة . وقد ظل بيجين جنديا عاديا الى أن أصـبح رئيسا لوزراء اسرائيل عندما قامت الحكومة البولندية فى المنفى بمنحه رتبـة بريجادير جنرال بأثر رجعى . والتقى « بيجين » وزوجته « اليزا » مـرة أخرى فى القدس حيث انتقل للاقامة بالحجرة التى تستاجرها بالدور الارضى

فى المنزل رقم ٢٥ شارع الفاسى بضاحية « زحافيا » الظليلة والمفضلة لدى اساتذة الجامعة والمعلمين والاطباء اليهود من الطبقة المتوسطة ، وحيث تسدد الاحاديث باللغات الالمانية والعبرية والانجليزية على السواء . وقد ولد اول ابنائهما « بنيامين » فى شهر مارس ١٩٤٣ .

وانغمس « بيجين » لفوره فى الشئون السياسية « لحركة التصحيح »، ولكنه ، على خلاف الجنود اليهود الآخرين ، رفض ترك الجيش البولندى ، وقال بيجين لشريكه القديم فى لعبة انشطرنج ، « يسرائيل الداد » ، والذى أصبح عضوا نشطا فى « عصابة شتيرن » : « لقد وعدت وعـــد شرف ، واقسمت يمينا . . ولن اترك الخدمة » . بيد انه عين رئيسا لحركة «البيطار » فى فلسطين ، « وهو ما زال فى زيه العسكرى . ولكنه سرعان ما استقال من هذا المنصب عندما علمت المباحث الجنائية البريطانية والمخابرات ، وبداوا يتحرون الامر . ومع ذلك ، كانت تجرى استشـــارته فيمـــا يتعلق بمشاكل « منظمة ارجون زفاى ليومى » ، وكان يزور معسكرات التدريب التابعـــة للمنظمة سرا . وبدا الحديث يتردد فعلا عن توليه قيادة المقاومة السرية على الرغم من افتقاره الى الخبرة العسكرية .

كانت « الارجون » قد وصلت الى درجة متقدمة من التدهور عندما وصل « بيجين » الى فلسطين . فقد ضاع منها الهدف بوفاة « جابوتنســـكى » ، وما تلا ذلك من انشقاق « افراهام » شتيرن عن الجماعة ، وفقدان قائـــدها الشاب الملهم « دافيد رازيئيل » ، الذى قتل فى مايو ١٩٤١ ، اثناء قيـــامه بمهمة سرية فى العراق بتكليف من البريطانيين .

وقد شـهد « ايثان ليفنى » ، الذى أصبح عام ١٩٤٣ ، رئيسا لعمليات منظمة ارجون ، بأن « المنظمة كانت فى غاية القوة عندما وقع الخلاف » .

« كان الجيش البولندى يزودنا رسميا بالاسلحة التى يبعثها لنا افراد شعبنا فى بولندا . وكان فى استطاعة الارجون استدعاء اربعة الويـــة ، أى حوالى أربعة آلاف عضو للقتال . وكنا نملك عدة آلاف من البنـــادق ، وعدة مئات من المسدسات ، وعشرات من المدافع شبه الآلية التى تمكنـــا بتهريبها من فنلندا ، وبضعة عشرات من المدافع الآلية البولندية الثقيلة ، كما كنا نملك قنابل نقوم بتصنيعها بأنفسنا . وكانت تلك الاسلحة تعتبر حديثة آنذاك .

« وعندما وقع الخلاف ، اختفت معظم هذه الاسلحة ، وانضم حـــوالى ثمانمائة رجل من بين اربعة آلاف رجل الى « شتيرن » . وبقى فى صـــفوف « منظمة ارجون » اقل من الف رجل . اما الباقون فقد تخلوا عن مواقعهم متذرعين بأنه لم يعد فى وسعهم الاختيار بين الجماعتين الموجودتين — وربما

كانوا صادقين فى زعمهم هذا . وكانت المأساة الكبرى هى ان احدا لم يكشف من مكان مخبأ الاسلحة . ولم يعد لدى « الارجون » بعد وقوع الشقاق سوى عدد ضئيل من الافراد النظاميين المتفرغين لا يزيدون عن الدستة تقريبا . أما الباقون فقد واصلوا العمل فى وظائفهم . وكان يتم استدعاؤهم للتدريب ولاداء مهام خاصة . وانضم ما يقرب من نصف عدد رجالنا ــ اى خمسمائة رجل ــ الى الجيش البريطانى فى الفترة بين عامى ٤٢ ــ ١٩٤٣ تماما كما فعل كثير من المنسحبين » .

هذا وقد خلف « يعقوب مريدور » « يزرائيل » ، حيث رقى من الصف الثانى من قيادة « الارجون » بعد الشقاق الذى وقع مع « شتيرن » . ويؤكد « ليفنى » أنه كان محبوبا : « وكان يترك انطباعا طيبا لدى المحيطين به ، وكان يبدو فى صورة « الصابرا » الحقيقى (من ولد فى اسرائيل) ، الذى تمتد جذوره عميقا فى الارض ، وبعيدا تماما عن صورة القادمين من الشتات . وكنا نعتبر « مريدور » ، آنذاك ، افضل الخيارات امامنا . ولكنه اصاب كل مواليد (فلسطين) والقادمين الجدد من اوربا بخيبة الامل . فقد وجــده « ليفنى » مفرطا فى الخيال :

« لقد أثبتت الايام أن مريدور ، لم يكن رجلا عمليا وكان يختار الذين يعملون معه من بين رفاقه ، ولكنه لم يكن موفقا دائما فى اختياره . وقــامت المؤامرات ، فى منتصف عام ١٩٤٣ ، داخل القيادة العليا .. ولم يســتطع « مريدور » أن يجمعهم حوله . لقد كان دائما ودودا ، وكان من بين القلة المتزوجة بيننا . وقد حاول أن يتصرف كأنه يرأس جماعة من الزملاء الذين يتساوون فى الكفاءة . وربما كان قد توصل الى استنتاج ذاتى بأنه لا يتمتع بالقوة والجاذبية الشخصية اللائقة بقائد اعلى » .

وصدق « دافيد جوتان » ، رفيق « بيجين » من « نيلنا » على هذا بقوله :

« لم يكن مريدور ، يتمتع بشخصية قوية لائقــة بالموقف . لقد كان صادقا ، ويتمتع بخبرة عسكرية واسعة ، كما كان محبوبا . ولكن الظــروف كانت تستدعى فى ذلك الحين وجود شخص يتمتع بزعامة شعبية . ولم يكن « مريدور » طموحا ، لقد كان شجاعا اثناء العمليات ولكنه فى الواقع مفرطا فى التواضع .

وتحولت الانظار ، بصورة متزايدة ، نحــــو « بيجين » ، ولكن كان لابد أولا من اخراجه من الجيش البولندى . ولمــا كان من الصعب اقناعه

بترك الجيش تلقائيا ، كما كان من الصعب تسريحه من الجيش بأسلوب شريف ، فان السبيل الوحيد الباقى كان العمل على أن يمنحه البولنديون اجازة طويلة الاجل ، مع احتمال مدها . واسندت هذه المهمة الى «مايك كاهان» المحامى البالغ من العمر ٤٠ عاما ، الذى قدم من وارسو . وقد وصل «كاهان» الذى كان من التصحيحيين فى وارسو ، الى فلسطين قبل بضعة اشهر من وصول « بيجين » . وكان مسئولا خلال الثلاثينيات عن الاتصال بالنظام البولندى الحاكم والذى كان يعرف كثيرين من اعضائه منذ أن كان فى المدرسة والجامعة ، كما كان وسيطا فى الحصول على جوازات السفر وتأشيرات الخروج لاعضاء « منظمة بيطار » ، فضلا عن أنه كان قد تلقى تدريبا عسكريا ، وكان من حقه ارتداء زى « الوحدة الخاصة » فى سلاح طلبة الكلية العسكرية . وقد تعرض هو ايضا الى الترحيل للعمل فى معتقلات الشمال الروسية ، قبل أن يفرج عنه لينضم الى الجيش البولندى . وتمكن « كاهان » عندما كان يخدم فى العراق ، ومن خلال معارفه السابقين ، قبل الحرب من ان يحصل على تسريح من الجيش لاسباب صحية . واتجه الى فلسطين مستخدما تصريح اجازة . أما بالنسبة لحلقة الاتصال التى كانت ستؤدى الى خروج « بيجين » من الجيش وانضمامه للمقاومة السرية ، فقد كانت مزورة .

فقد كان « كاهان » يزور بانتظام الادارة الاعلامية البولندية بالقدس ، حيث قابل « تريزا ليبكووسكى » ، التى كانت من الارستقراطية البولندية واحدى قريبات رئيس بولندا ، الجنرال « فلاديسلاف سيكورسكى » . وكانت « تريزا » مهتمة بالمسألة اليهودية ، فتولى « كاهان » تعريفها بالصهيونية .

وتبنى « كاهان » فكرة استغلالها فى القيام بحملة دعائية بولندية — يهودية مشتركة فى الولايات المتحدة ، يروج فيها لجهود « هيلليل كوك » وغيره من « التصحيحيين » هناك . واقترح كاهان ان يقوم البولنديون ، كجزء من هذه الخطة بتسريح بعض الجنود اليهود ويرسلونهم للقيام بجولة فى أمريكا . وفى ذلك الوقت ، عاد « ارياه بن — اليعازر » ، الذى كان أحد مندوبى الارجون فى الولايات المتحدة ، الى فلسطين ، حاملا معه « البوما » يتضمن صورا تبين كيف قام « التصحيحيون » بتجنيد نجوم المسرح والسينما فى حملتهم من اجل انقاذ اليهود من أوروبا التى تخضع للهيمنة النازية . وربما كانت الصور تبالغ بعض الشىء فى تقدير تأثير هؤلاء المندوبين ، بيد انهم حازوا اعجاب البولنديين ، فطلبوا تزويدهم بقائمة باسماء الجنود اليهود الذين يمكن ارسالهم الى الولايات المتحدة . وكان اسم « بيجين » من بينها ، ولكن بدا ان المؤامرة قد دفنت فى الرمال عندما رفضها البريطانيون .

الا أن الخطة أمكن انقاذها عندما نقلت قيادة الاركان العامة البولندية من العراق الى«ريحوعوت»، الواقعة بين القدس وتل ابيب. واجرى«كاهان»بعض الاتصالات مع كبار الضباط ممن كان يعرفهم في وارسو · ولم يحصل على رد فوري ، ولكنه تلقى في يوم خانق الحرارة من أيام خريف عام ١٩٤٣ ، دعـوة لتناول الغداء مع أحد الجنرالات (وهو الجنرال نفسه الذى دبر له مسألة تسريحه من الجيش) . وقال له الجنرال : « لقد صدقت اليوم على منح كل رجالك اجازة طويلة الأجل » · وكان « بيجين من بينهم ، حيث حصل على أجازة لمدة عام ، على شرط أن تبدأ المجموعة مباشرة في أداء مهمتها بالولايات المتحـدة ولقد اعترف كاهان فيما بعد قائلا : اننا لم نكن ننوى اطلاقا ، ارسال« بيجين » الى هناك · وعلى أى الحالات فان البريطانيين لم يسمحوا لهم بالسفر ، ولم يكترث البولنديون باستدعائهم مرة أخرى · ويقول « مريك كاهان » « لقد كان الضباط البولنديون متعاطفين مع منظمة « الارجون » .

ولم يكن طريق الوصول الى قيادة الارجون ممهدا تماما · فعلى الرغم من ان مريدور لم يكن يمانع فى أن يعمل تحت قيادة بيجين كنائب له ، فان غـيره من كبار الضباط كانوا يرون ضرورة اسناد هذا المنصب الى رجـل عسكرى واعترضوا على « بيجين » لانه وافد حديثا على البلاد وليس لديه خبرة فى تخطيط العملية أو كقائد ميدانى · بل أن بعض القـــــادة الاقليميين الذين شعروا بالاحباط نتيجة لعدم تحقيق طموحاتهم ، « تركوا » بعد أن اســـتولى « البيطار »البولندى التى كانت أكبر مصدر لتزويد الارجون « بالقوة البشرية » وخاصة بالنسبة للمستويات العليا . ولو كان « ارياه بن اليعازر » لم يغادر فلسطين ويسافر الى أمريكا عام ١٩٣٩ ، لاصبح منافسا قويا لبيجين حيث انه كان رجلا يجمع بين القدرة على الخيال والقـدرة على العمل · بيد ان « بـن ــ اليعـازر » كان يشعر بأنه ابتعد عن المسرح اكثـر من المطلوب وان عمله فى الخارج جعله ملفتا للانظار أكثر مما ينبغى . ولذلك فقد القى بكل ثقله وراء ترشيح « بيجين » · وكان « بن ــ اليعازر » قد عاد أساسا للبحث عن العلة فى عدم فعالية« الارجون » ، وكان تشخيصه هو افتقار المنظمة للزعامة · يقـول «ايتان ليفنى» فى هذا الصدد: لقد كان هو الذى اقتنع مريدور بضرورة الانسحاب ولقد استطاع ان يفعل ذلك بأسلوب ناعم مثل الحرير · كان « بن ــ اليعازر » الشخصية السياسية الوحيدة الاخرى التى كان « بيجين » يتعامل معها على أساس الندية كما كان يشاوره بشأن استراتيجيته الخاصة بالثورة ·

واتفقت الاغلبية العظمى من قادة الارجون مع « بن ــ اليعازر » على حاجتهم الى قائد يستطيع اشعال جذوة النار القديمة للمنظمة واحياء ثقتها بنفسها. ووفقا لاقوال « ديفيد نيف » العضو المخضرم فى « الارجون » ، والمؤرخ الرسمى

لها فان « المسألة لم تعد ، بحلول نهاية عام ١٩٤٣ ، مجرد مسالة تخطيط عمليات عسكرية ، لكنها كانت مسالة اتخاذ موقف . لقد حان الوقت لان يتولى الحركة رجل سياسة بدلا من قائد عسكرى محترف ، فان كل القرارات اصبحت تحتاج الى حساسية سياسية » . وكانت هذه المواصفات تنطبق تماما على « بيجين » ، فهو يحظى بالاعجاب ، وكانت سمعته الثورية تسبقه فى كل مكان ، كما انه كان يملك الادراك السياسى اللازم . أمـــــا المعرفة العسكرية ، فهو يستطيع الحصول عليها من غيره .

الفصـــل السادس

انتهاء الهدنة

قال « ايتان ليفنى » ،رئيس عمليات منظمة « ارجون زفاى ليومى » ، مناحم بيجين « فى نهاية عام ١٩٤٣ : » ان القرار الذى ستتوصل اليه سيتم تنفيذه · فاننى ورجالى على أهبة الاستعداد » وبذلك أصبح « بيجين » هو القائد الاعلى الجديد « لمنظمة الارجون » الذى أعلن من أول فبراير عـــام ١٩٤٤ ، التمرد على الحكم البريطانى ، دون أن يعوقه عن ذلك ادراكه أن « ليفنى » ما كان يستطيع أن يدفع الى الميدان بأكثر من ستمائة مقاتل مدرب وكان « بيجين قد كتب مسودة النداء المدوى الذى وجهه الى يهود فلسطين · بينما كان لا يزال نفرا فى الجيش البولندى ، أى قبل عدة اشهر من ذلك التاريخ · والان حان الوقت لطبعه فى منشورات ورفعه على اللافتات · ولـــم يكن الحلفاء قد أنزلوا بعد قواتهم على ساحل نورماندى ، وكانت بريطانيا لا تزال مشتبكة فى المعركة مع العدو المشترك ، ألمانيا النازية ، ولكن كانت الهدنة بين اليهود والبريطانيين قد انتهت فى نظر « بيجين » الذى اعلن : « ان كل فرد يهودى بوطننا القومى سيقاتل » · وكما رأينا من قبل ، فان « بيجين » لم يكن لديه ، على أية حال ، فائض من الصبر ليضيفه على تلك الهدنة · وقد أدى ما علمه عن المذابح التى تعرض لها يهود أوروبا ، وما شاهده فى فلسطين من تطبيق عنيد للقيود فرضها « الكتاب الابيض » ، الذى صدر عـام ١٩٣٩ ، على الهجرة اليهـودية ، ومن تصد قاس للمراكب المحملة باللاجئين ــ أدى كل هذا الى تقوية حدة مشاعره الفطرية التى كانت قد دفعته الى معارضة « جابوتنسكى » منذ ستة أعوام · لقـــــد آن الأوان للنضال و « لتحطيم الأبواب من الداخل » ·

وأعلن :

« لقد مرت أربعة أعوام على بداية الحرب ، وتبخرت كل الآمـــال التى نخرت بها صدورنا وكأنها لم تكن . ان أحدا لم يمنحنا مكانة دولية ، ولم يتم انشاء جيش يهودى ، ولم تفتح الأبواب المغلقة بهذا البلد · لقد أحكم النظام البريطانى خيانته المخزية للشعب اليهودى ، ولذلك لم يعد هناك أى أساس معنوى لبقائه فى أرض اسرائيل التاريخية ·

« اننا نعلن بلا أدنى خوف انتهاء الهدنة بين الشعب اليهودى والادارة البريطانية فى أرض اسرائيل ، والتى تسلم اخواننا لهتلر ، ان شعبنا يعلن

الحرب على هذا النظام ـ الحرب حتى النهاية • وتنحصر مطالبنا فيما يلي : نقل السلطة فورا داخل ارض اسرائيل التاريخية الى حكومة انتقالية عبرانية » .

لقد وصم « بيجين » البريطانيين بالتواطؤ مع هتلر • فان ما يعرفه كان كافيا لاقناعه بأنهم كانوا يشاركون ، على الاقل ، المعادين للسامية فى سلبيتهم وعدم اكتراثهم بمصير اليهود • وقد أدرك « بيجين » هذا على الرغم من عدم تمتعه بموهبة النظر الى الماضى من خلال منظور تحليلى والتى يملكها المؤرخون• ولم يكن يرى أمامه حلا بديلا للقتال • ومع ذلك أعلن « بيجين » ان قتـــال « الارجون » سيكون نضالا سياسيا بالأساليب العسكرية • فان « بيجين » رجل السياسة ، كان يفرض قيوده الخاصة : فمنظمة « الارجون » ، على خلاف « عصابة شتيرن » ، لم تكن تقاتل الامبراطورية البريطانية ، بل كانت حربها موجهة ضد الادارة فى فلسطين ، وليست ضد الحكومة والأمة البريطانية • وكان « بيجين » يصر ابان مفاوضات عام ١٩٤٤ التى دارت من أجل توحيد الجماعتين المنشقتين ، على ضرورة كف أعضاء « عصابة شتيرن » عن استخدام تعبيرات مثل « الحكم الأجنبى » و « الاستعمار البريطانى » فى دعايتهم . وعندما تساءل زعيما « عصابة شتيرن » ، « ناتان يلبين ـ مور » و «اسحاق شامير » عم يستخدمان من عبارات بدلا من ذلك ، اقترح « بيجين » استخدام تعبير « الحكم الظالم » •

ولم يكن اصرار « بيجين » المعتاد على ضرورة الدقة اللفظية ، والذى كثيرا ما كان يثير الغيظ ، يهدف الى مجرد الالتزام بعلم معانى الكلمات • فكان يرى أن مسئولية تنفيذ السياسة البريطانية المناهضة للصهيونية تقع أساسا على عاتق الادارة الفلسطينية • ولذلك فان الواجب يحتم توحيد القتال ضد الادارة فى القدس بدلا من الحكومة فى لندن التى يجب اقناعها بأن سياســة تلك الادارة تتسم بالافلاس ، وبالتالى فانهـــا ستجبرها على تغيير سياستها الجارية بأخرى أكثر تعاطفا تجاه قضية اليهود • وعند ذلك ستعترف لندن بأن اليهود هم القوة الفاصلة وستضع ثقتها فيهم وتعتمد عليهم بدلا من العرب. وغنى عن القول ، أن أعضاء « عصابة شتيرن » لم يتأثروا بمنطق « بيجين » •

وقد كتب « يلين ـ مور » يقول :

« حاولت ان اشرح له أن التصور بامكانية الفصل بين الادارة المحلية وحكومة لندن ، ليس الا وهما • وانه غير قائم على أساس من الواقع • ويجب علينا أثناء حرب التحرير ، ضرب الجهاز العصبى للحكم البريطانى فى لندن • ان « أرض اسرائيل » ليست لهـــا أهمية بالنسبة للامبراطورية البريطانية سوى انها قاعدة عسكرية لفرض الحكم البريطانى على دول المنطقة ، وكمحطة على الطريق الى المستعمرات والممتلكات التى تقع نحو الشرق •

وتمسك « بيجين » بموقفه مؤكدا أهمية التفريق بين التعبيرين . وذلك فى الاجتماع السرى الذى استغرق خمس ساعـــات مع « موشيه سنيه » ، الذى كان آنذاك نائبا لقائد قوات « الهاجاناه » الدفاعية ، والذى كان يعرفه منذ أن كان طالبا فى وارسو · وقال « سنيه » ، أثناء نقاشهما الذى امتــد طوال احدى ليالى شهر أكتوبر ١٩٤٤ ، « لقد قمت باعلان الحرب على انجلترا » فصحح له « بيجين » معلوماته قائلا : « ليس على انجلترا ، انما على الحكــم الظالم ، فان انجلترا ليست عدوا لنا ، ان هذا هو ما يقوله أعضاء « شتيرن » انهم يشنون حربا ضد العدو الانجليزى » ·

ولما كانت بريطانيا ، على هذا الاساس ، ليست العدو وكانت قواتهــا تحارب النازيين ، فقد فرض « بيجين » على رجاله الالتزام بضبط النفس : فعليهم أن يمتنعوا تماما عن مهاجمة أى أهداف عسكرية حتى تضــع الحرب فى أوروبا اوزارها ، وبالمثل ، لم يكن للارجــون اية مصلحة فى اغتيال افــراد الجنــود او الضباط او رجال الشرطة البريطانيين . وبدلا من ذلك فقــد جعل « بيجين » هدفه هو النيــل من مكانة بريطانيا ، وكان يقــول ان كل هجوم يعتبر من وجهة النظر السياسية انجازا ، حتى لو لم يكن ناجحــا عسكريا :

« لقد تعلمنا من التاريخ ومن المشاهدة ان نجاحنـــا فى تدمــير مكانة الحكومة فى « أرض اسرائيل » ، سيؤدى تلقائيا الى انهاء حكمــها . ومنذ تلك اللحظة فصاعدا لم نكف عن مهاجمة نقطة الضعف هذه . وظللنا طــوال ســنوات تمردنا نوجــه الضربات الى مكانة الحكومة البريطانية ، عمــدا ، ومن غير هوادة وباستمرار ·

«فان مجرد وجود مقاومة سرية لا تتأثر بالاضطهاد او بالشنق او التعذيب او الترحيل ، وان هذه المسائل لا تؤدى الى قهرها او اضعافها ، لابد وأن يؤدى فى نهاية الامر الى تقويض مكانة اى نظام حاكم استعمارى يبنى وجــوده على تصور غير واقعى لقدراته الشـاملة . ويعتبر كل هجــوم توجهــه المقاومة ويفشل النظام فى منع وقوعه ، بمثابة ضربة موجهة الى مكانته . وحتى لو لم ينجح الهجوم فانه يترك ندبة فى تلك المكانة ، وتبدأ تلك الندبة تتســع لتصبح شرخا يمتد مع كل هجوم لاحق » .

وأكد « بيجين » فى حديثه مع « سنيه » أن الهدف هو اجبار بريطانيــا على اعادة تقويم سياستها ، واضطرارها الى الجلوس الى مائدة المفاوضــات حيث لم يكن فى وسعها المخاطرة بتعريض نفســـها للاذلال فى نظر الدول العربية .

« ان هذا الشىء لن يستطيع البريطانيون ابتـــلاعه ، ولن يستطيعوا تجاهله · انهم يسكتون اليوم على هذا ولكن عندما تتصاعد موجـة نشـاطنا ،

فلن يستطيعوا ابتلاعه . وسوف تاتى اللحظة التى سيضطرون عندها الى التفاوض معنا : ان ما نقوم به سيؤثر على القرارات السياسية » .

وكان « بيجين » يؤدى « معزوفته » أيضا أمام متفرجين امريكيين . وقال ان الولايات المتحدة تريد مد نفوذها الى الشرق الاوسط وأكد ان اى انهاك لقوة بريطانيا فى المنطقة سيكون اضافة لصالح الامريكيين . وفى الوقت ذاته ، فان استمرار الاضطراب فى الشرق الاوسط من شأنه ازعاج الامريكيين بينما هم يحاربون اليابانيين . ولذلك فقد كانت لديهم مصلحة فى التسوية . واعرب « بيجين » لـ « سنيه » عن توقعه أن يستيقظ الراى العام الامريكى ، ويجبر بريطانيا على تغيير اتجاهها .

وبدا « بيجين » يمارس نشاطه فى فلسطين باندفاع كبير نحو تحقيق امانيه بالتاثير فى كل من العرب وزملائه اليهود على السواء . لقد كان يؤمن بأن الصهيونية ظلت طوال ٢٥ عاما فى خطأ جسيم ، حيث كانت تتعامل مع العرب على أنهم أعداء ، تاركة للبريطانيين فرصة التحكم من وراء الستار . وحاولت « جماعة ارجون » أن تبين فى عملياتها وفى المنشورات ، التى قامت بتوزيعها فى المدن والقرى العربية ، ان المعركة الدائرة انما هى معركة بين اليهود والبريطانيين . وعرضوا على العرب ، تمشيا مع مفاهيم « جابوتنسى » التمتع بالمساواة والحكم الذاتى ، طالما انهم يقبلون أن يعيشوا كأقلية فى دولة يهودية . اما اذا لم يرضوا بذلك ، فان اليهود سيثبتون لهم انهم يعرفون كيف يمارسون فن القتال . ولقد كان هذا اسلوبا تكتيكيا اكثر من كونه تفكيرا فلسفيا . ففى عام ١٩٣٨ لم يتردد « الارجون » ، تحت قيادة « رزائيل » فى الانتقام بوحشية من المدنيين العرب كرد على الهجمات العربية ضد اليهود، ولم تتردد ، وهى تخضع لقيادة « بيجين » اعتبارا من علم ١٩٤٧ ، فى مواصلة العمليات الانتقامية ضدهم .

ولقد صدم « بيجين » ، عندما كان وافدا حديثا نسبيا من أوروبا ، ازاء استكانة واستسلام « اليشوف » – اى طائفة يهود فلسطين . وتساءل فى مناقشاته مع « سنيه » : بماذا ضحى « اليشوف » ؟ انهم لم يساهموا الا بالقليل فى حملة جمع الأموال ، والتعبئة واعمال الاغاثة ، وكانوا يكتفون باغلاق حوانيتهم لبضعة ساعات قليلة فى مناسبات الحداد ، ولكن كانت المقاهى مفتوحة وكان اليهود منشغلين بتحقيق الارباح » . وأوضح أن « منظمة الارجون » تحاول ان تثبت لهم ان واجبهم يحتم عليهم القتال ، وان هناك شبابا فى سن صغيرة مستعدون لأن يضحوا بأرواحهم . وادعى « بيجين » بأن اليهود يساندونه ، على الرغم من كراهيتهم لحظر التجول وما الى ذلك

من اساليب العقوبات الجماعية « اننا نزكى مشاعرهم ونعدهم للحرب . وبنون الاعداد المسبق ، فان « البيشوف » لن يهبوا للكفاح فى اليوم المحدد . اننا نعدهم لهذا اليوم » .

وفكر « بيجين » « لسنيه » ، الذى جاء بصفته الممثل الشخصى « لديفيد بن جوريون » ، أن التنافس بين الجماعات العسكرية المختلفة يخدم هدفا مفيدا من حيث توزيع الادوار : « فالشيرنيون » يقومون بتنفيذ استراتيجية مبنية على الارهاب الفردى ، بينما يقوم « الأرجونيون » بتنفيذ عمليات عسكرية متفرقة فى حين تستعد قوات « الهاجاناه » للدخول بثقلها فى المعركة النهائية . الا ان هذه كانت نظرية افتراضية ربما كانت لها جاذبيتها فى وقت من الأوقات ، غير ان عام ١٩٤٤ لم يكن من تلك الأوقات . ورد عليه « سنيه » بحدة : « لو أن تقسيم الادوار هذا نبع من مفهوم سياسى موحد ، فربما أثمر ، أما وهو ينبع من ثلاث وجهات نظر مختلفة ، فانه لن يسفر عن ثمار طيبة » .

وبدأت « الارجون » عملياتها الهادفة الى تقويض المكانة البريطانية ، بقيامها فى مساء ١٢ فبراير بالقاء القنابل على مكاتب الهجرة فى القدس وتل ابيب وحيفا . لقد كان عملا رمزيا ولم يسفر عن أضرار تذكر أو أى ضحايا (باستثناء خفير عربى اصيب بصدمة بعد ان استدرج بعيدا عن موقع حراسته بواسطة اثنين من المحبين الهائمين ، وقفا يتطارحان الغرام داخل بوابة مبنى مجاور) .وكانت الرسالة التى نقلها « بيجين » عن طريق هذا العمل هى أن منظمة « الارجون » لن تسكت على ما تمارسه الادارة الحاكمة من صد لليهود عن « الارض الموعودة » بينما هم يساقون الى حتفهم فى أوروبا . وبعد اسبوعين من هذه الغارات تبعها رجال « الارجون » بالقاء القنابل على مكاتب « الضرائب على الدخل » فى ثلاث مدن رئيسية ، وبهجوم شنوه فى ٢٣ مارس على مقر قيادة المباحث البريطانية . ومهما كانت نوايا « بيجين » فانه اراق فى هذه العملية الاخيرة الدماء لاول مرة منذ أن تولى القيادة ، حيث قتل ستة من رجال المباحث ،بينهم أحد المفتشين ، واثنين من رجاله . وأثار هذا الحادث اهتمام البريطانيين والمجتمع اليهودى الفلسطينى « البيشوف » . وتكلم ضابط مخابرات بريطانى عن مخاطر « الهجمات المفاجئة » التى يشنها القتلة المتعصبون » الذين يستطيعون الانسحاب والاختباء داخل المدن المزدحمة : « وقال آخر انه بالرغم من ايمان « الارجون » بأن عليهم القيام بمهمة مقدسة وهى اخراج البريطانيين من فلسطين فان « هذا لا يعنى انهم غير مهتمين بالوسائل الكفيلة بتحقيقها ، فهم يجمعون بين المهارة والخبث بالاضافة الى الجرأة والشجاعة . وفرض حظر التجول والقى القبض على المشبوهين. واعيدت مرة أخرى عقوبة الاعدام ضد كل من يوجد فى حوزته أسلحة او من يقوم بوضع المتفجرات . وتعلمت جماعة « الارجون » درسا لم تعره اهتماما

وهو ان عمليات التخريب تعرض حياة الافراد للخطر مهما بلغت كفاءة المخربين او تلقوا تحذيرات بالتزام الحرص ، وتصاعدت حـدة الجراة والطمـوح فى الهجمات .. فاصابت فى هجماتها التالية محطة اذاعة وسـكك حديدية وحصون الشرطة .

وكانت جماعة الارجون ، فى ذلك الوقت ، بمقاتليها البالغ عددهم ستمائة مقاتل ، اقرب الى كونها جماعة ثورية منها الى جيش هجومى . ونادرا ما كان اعضاؤها العاملون يزيدون عن الفى شـخص . وكانت متماسـكة ومرنة ، ويربط بين اعضائها مشاعر الولاء الشخصى والانضباط الايديولوجى . وكقائد عسكرى مستجد ، فان « بيجين » تعلم بسرعة . وكان منذ البداية يحسن تحديد الهدف . ولم يشترك خلال العام الأول فى وضع التفاصيل التكتيكية ؛ ولكنه استطاع تدريجيا أن يصبح القائد العسكرى الاعلى داخل مقر القيادة ، وأن لم يكن كذلك فى الميدان . وكانت لديه ثقة متناهية فى رؤساء عملياتـه المتعاقبين ، سواء كان ذلك « ليفنى » أو « اميهـاى (أوجيدى) باجلين » وكان يوجه دائما الاسئلة المناسبة . ويقول « ليفنى » الذى كان يجتمع يوميا و « بيجين » .

« كان تواقا دائما الى معرفة التفاصيل ، ويغرقنى بوابل من الاسئلة . لقد كان « بيجين » يريد معرفة كل ما يجرى . فمثلا كان على أن اقوم بترشيح قائد كل عملية ، واسماء الذين يجب ترقيتهم ، وكنا نمزح ، مع انى ذو طبيعة منطوية . وكنت اقول له أسهل على أن اكرر نفس العمل من أن اقوم بشرحه له . اما هو فكان يؤمن دائما بالتفكير بصوت مرتفع والمشاركة فى عملية التوصل الى القرار . ونتيجة لتمرسـه على الانتقال من عملية الى عملية أخرى تزايد فهمه للمسائل العسكرية .

ثم يستطرد « ليفنى

« وكنت اقدم الاقتراحات ، ولكن كان « بيجين » واعضاء القيادة العليا الخمـاسية هم الذين يختارون الاهداف وكان « بيجين » يهتـم بما اقـوله بالنسبة للمسائل الفنية ، ولكنى ما كنت لارى ، مثلا ، ان من الملائم ان يكون هدف العملية الثالثة هو الهجوم على مقر المباحث الجنائية البريطانيـة . لقد بدانا تدريجيا من الصفر حتى كبرنا .وكان علينا أن نكتسب الخبرة ، فلم نكن قد قمنا بعمليات منذ أربع سـنوات ولكن « بيجين » كان يطالب فى اجتماعات القيادة العليا ، التى كانت تنعقد كل اسبوع ، بتحديد اهداف تترك انطباعا ضخما فى انحاء العالم . واحيانا كان يطالبنا بوقف العمليات ، ان الامر الذى كان يثير اعجابى ببيجين ، هو منطـقه التحليلى وقدرته على التحليل

السياسي ، لقد ساعدني ذلك على الاقتناع بامكانية نجاح حربنـــا ، وبالفرص المتاحة امامنا في المستقبل » .

وكانت « منظمة الارجون » ، مثل كل المنظمات الثورية السرية ، تواجه مشاكل داخلية متعلقة بالامن والموارد ، ومشاكل خاصة بالخيانات والتمويل والمؤن . ووفقا لشهادة « بيجين » نفســه وزملائه ، فانه كان يتردد كثيرا في اصدار حكم اعدام ضد الخونة الوشاة . وكانت هذه شخصية « بيجين » ، المحامي مع وقف التنفيذ ، والرجل الرحيم الذى يؤمن بقدسية حياة اليهود . ووفقا لاقوال « ليفني » فلم يعدم رميا بالرصاص أثناء قيادة « بيجـــين » للارجون ، سوى اثنين فقط من الخونة ، في حين صدر العفو عن عشــرة آخرين : « لقد كنت أؤيد صدور الحكم بالاعدام في احدى القضايا ، ولكــن « بيجين » قال لي : « لقد درست المحاماة ولن يقبل اى قاض مدني الادلة التي تقدمها للحكم بالادانة » ، ولقد اخذنا برأيه .

وقد ادى تردد « بيجين » الى افلات واحد من اكثر وشـــاة الارجون حياته بدون عقاب . وكان هذا الشخص هو « يعقوب شيليفنتس » ، عضو « حركة التصحيح » القادم من « فيلنا » والذى كان يشترك في حملة جمـــع التبرعات . وكانت له اتصالات قوية داخل « الارجون » . وقام « شيليفنتس » في مارس ١٩٤٤ عندما كان « بيجين » لازال يعيش في القدس واسرته ، بشراء هدية بمناسبة عيد الميلاد الاول « لبنيامين بيجين » . وحضرت الشرطة في اليوم التالى لاعتقال قائد الارجون ، الذى تصادف أن كان خارج المنزل . وكانت زيارة الشرطة بمثابة انذار فاختفى « بيجين » في « تل أبيب » . وكان واثقا من أن « شيليفنتس » أحضر الهدية خصيصا من أجل معرفة مكـــان سكن « بيجين » وقد قام فيما بعد بتقديم قائمة بأسماء قادة الارجون — ومن بينهم « بيجين » و « مريدور » و « بن — اليعازر » — الى المباحث البريطانية. وتم اعتقال « بن — اليعازر » بناء على ذلك البلاغ . ووقعت القائمة في يد الارجون .. فلم تكن « منظمة الارجون » هى الوحيدة التى تعانى من مشـاكل أمنية .

وعندما أوصى ضباط الارجون بتنفيذ العدالة الثورية في «شيليفنتس» اصر «بيجين» منحه فرصة للدفاع عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة له . واستدعى للمثول أمام محكمة من ثلاثة اعضاء . وعندما رفض الحضور استدعى مرة اخرى . ففر الى مصر . ورأى زملاء « بيجين » ان هذا الفرار يعتبر دليلا كافيا على ادانته ، بيد أن القائد لم يكن قد اقتنع بعد .

ويقول « بيجين عن هذه الواقعة » :

« لقد قلت انه ربما يكون قد خاف من توجيه هذا الاتهام الفظيع اليه ، وربما كان هذا هو السبب فى فراره الى مصر . وقلت ان من الضرورى أن نرسل له امرا بالعودة لمواجهة المحاكمة . وكان يوجد آنذاك جنود فى الجيش البريطانى من اعضاء الارجون . واتجه اثنان منهما لمقابلة « شيليفتس » فى احد فنادق القاهرة ليطالباه نيابة عنى بالعودة . فقام بتسليمهما الى الشرطة العسكرية .

وعندئذ فقط وافقت على أن يكون هذا دليلا كافيا على ادانته . وقام البريطانيون بابعاده عبر المحيط الى الولايات المتحدة . وقد كنا نعرف هذا . ويقال انه مازال موجودا فى أمريكا ، ولكننا لا نكترث بامره » .

ولما كانت القيادة الرسمية للحركة الصهيونية قد حرمت « الارجون » من الحصول على الاموال والمعدات ، فقد كان عليها ان تحاول الحصول عليهما من اى مكان . لقد كان لدى « ايتان ليفنى » فى مستهل عام ١٩٤٤ ، ستون مسدسا صالحة للاستخدام ، وثلاثة مدافع شبه آلية مسروقة من معسكر بريطانى ، وعدد من البنادق وبضعة مئات من القنابل اليدوية ، وطنان من المتفجرات . ولم تكن هذه الاسلحة تكفى للقيام بثورة . ومارس اعضاء « الارجون » من اجل الحصول على المزيد من الاسلحة عمليات السرقة والنهب والاغتصاب من اليهود الذين كانت المنظمة تتطلع الى قيادتهم فى يوم ما . وأمكن فى عام ١٩٤٥ الاستيلاء على ماقيمته٣٨الف جنيه من الماس اثناء غارة علىبعض الرسائل من الطرود البريدية كما استولوا على مبلغ مماثل تقريبا نتيجة لغارة على قطار يحمل أجور عمال السكة الحديدية . وقد قتل فى تل ابيب اثنان من المارة حاولا التدخل لمنع عملية سطو قام بها رجال مسلحون من الارجون على خزينة شباك تذاكر سينما « عدن » بالمدينة ويزعم « ليفنى » انهم كانوا يسرقون من البريطانيين كلما أمكنهم ذلك. ويقول « لقد صادرنا فى احدى المرات أموال بنك يهودى . وكنت قد اقترحت هذه العملية على « بيجين » الذى طلب منى أن استكشف الشركة التى تؤمن لديها البنك . وعندما اكتشفت أن شركة التأمين هى « لويدز » اللندنية ، وافق « بيجين » على العملية . ومهما يكن من أمر ، فان مخابرات « الهجاناه » حصلت على قائمة بأسماء « المساهمين » الذين يمولون « الارجون » ، وكانت تتضمن ٦٤٠ فردا وشركة ومؤسسة يهودية فى تل ابيب وحدها ، بما فى ذلك عدد من اعضاء الهجاناه ذاتها الذين تعرضوا للارهاب حتى يدفعوا .

وكان السبب الاساسى الذى ادى الى فشل اتصالات « بيجين » المبكرة مع « عصابة شترن » و « الهاجاناه » ، بصرف النظر عن الواجهة الايديولوجية هو : رفض قائد الارجون المشاركة فى السلطة او الاستسلام لراى احد آخر

لاينتمى الى صفوفه . لقد كان « صاحب فكر احادى » ، عنيدا ، يتمتع بثقة متناهية فى النفس . فليس هنك شىء أو مخلوق من حقه أن يتصور أنه يستطيع الوقوف فى سبيله ، حتى لو كان القيادة المحلية «لحركة التصحيح» التى حرص « بيجين » طوال فترة التمرد الذى قاده ، على الفصل فى ازدراء بينها وبين الارجون . فان « التصحيحيين » كانوا مهذبـــين اكثر من اللازم ، ومازالوا يتمسكون بسياستهم القائمة على التعاون مع بريطانيا فى زمن الحرب .

ووفقا لاقوال « يلين ــ مور » ، فان « بيجين » قدم انذارا نهائيا الى عصابة « شتيرن » ، معلنا ان عليهم ، كشرط لعودة الوحدة بينهما ، ان يعترفوا « بجابوتنسكى » كموجه للجيل . وكان « يلين مور » مثل « بيجين » قد تربى فى ظل « جابوتنسكى » ، ولكنه ، على خلاف « بيجين » ، تطور وبعد عنه ، ولم يعد « جابوتنسكى » هو مرجعه الاولى ، ولقد ابدى « يلين ــ مور » بعد عدة عقود من ذلك الحين ، نفس الروح الاستقلالية المبدعة عندما نادى بالتعايش السلمى مع الفلسطينيين العرب ، بينما كان « بيجين » لايزال يردد الاقوال التى أدلى بها « جابوتنسكى » امام « لجنة بيل » فى عام ١٩٣٧ . وكان « يلين ــ مور » و « شامير » يشـــعران فى عام ١٩٤٤ انهما لا يمكنهما السـجود لروح « جابوتنسكى » دون أن يخونا ذكـرى زعيمهما ، افراهام (أو ، يائير) شتيرن » . الذى قتل فى فبراير ١٩٣٢ عندما اطلق بريطانى الرصاص عليه . وكان « شتيرن » قد تمرد على دعوة « جابوتنسكى » ، عندما اشتعلت الحرب فى أوروبا ، بوقف اطلاق النار على البريطانيين . ولكن كما يقول « يلين ــ مور » ، ، كان وراء رفض « عصابة شتيرن » لشروط « بيجين » ، سبب عملى أهم من الاسباب المبدئية :

« اننا كنا سنضطر عند أى اختلاف فى الراى يقوم بيننا ــ ولا بد لمثل هذه الخلافات أن تقوم ــ أن نلجأ دائما الى تعاليم « جابوتنسكى » للبحث عن حلول لمشاكل لم يكن لها وجود فى عهده . واذا وقع أى اختلاف فى الراى فى تفسير آرائه المدونة ، فمن الذى يحق له حسم المسالة ؟ وسالت « بيجين » مستوضحا : « كيف يكون الامر اذا ظهرت خلافات فى الراى بين المنظمتين ؟ من الذى سيحكم بينهما ؟ ولم يتردد بيجين فى القول بأسلوب اشبه بالاشتراط : فى هذه الحال فان حق اتخاذ القرار يكون له . وعند ذلك وعلى الرغم من معرفتنا القديمة ببعضنا وتعاوننا معا على مر السنين ، فقد أصبت بالذهول . فقد كان « بيجين » واثقا كل الثقة من نفوذه المعنوى ، حتى انه لم يشـــك للحظة فى انه وحده هو صاحب الحق ، بلا منازع فى اصدار الاحكام » .

وقد اعترف « بيجين » فى حواره و « موشيه سنيه » نائب قائد قـــوات « الهاجاناه » ، بأن « بن ــ جوريون » هو الزعيم السياسى « لليشيوف » (يهود فلسطين) . واعلن ان الارجون لم تكن لديها الرغبة فى الحكم ، وانها

ستسير وراء راية بن جوريون بمجرد ان يعلن الحرب على الحكم البريطانى . ولكن حتى يحدث هذا ، فان اى تفكير فى أن للهاجاناه حق الاعتراض على نشاط « الارجون » ، مرفوض ولايمكن التوقف حتى يتم بحث احتمالات التعاون بينهما . واردف بيجين يقول لـ « سنيه » (اى سنيه) انما يتكلم معه لمجرد ان « الارجون » تقاتل ، ولو لم تكن المنظمة تقاتل لما اصبح لها ذكر . واكد ان الرضوخ « لبن — جوريون » قبل الاوان المناسب انما سيعنى القبول بالتصفية التلقائية للمنظمة . ولم يتأثر « بيجين » بالحجج القائلة بأن القيادة الرسمية وحدها هى المنتدبة من قبل « البيشوف » ، كما لم يتأثر بقول « سنيه » فى مجادلاته ان « بن جوريون » اكثر علما بما يجرى فى المحيط الدبلوماسى الاوسع نطاقا ، ومن ثم فانه اقدر على اتخاذ القرارات الاصوب بالنسبة للمصلحة اليهودية .

وقد تم لقاء الصديقين القديمين فى جو يسوده الشعور بأن ثمة ازمة وشيكة الوقوع . فقد لاحظت القيادة الرسمية ، سواء كانت مخطئة أو على صواب فى ذلك ، دلائل تشير الى تحسن فى الموقف البريطانى من التطلعات الصهيونية . واطلع « سنيه بيجين » على التلميحات التى أدلى بها « ونستون تشرشل » « لحاييم وايزمان بإجراء تقسيم جيد » بمجرد انتهاء الحرب . كما تمت اخيرا الموافقة على انشاء كتيبة يهودية ملحقة بالجيش البريطانى ، وهو الامر الذى طالما اجرى الصهاينة اتصالات ومارسوا الضغوط من اجل تحقيقه. وكان القلق يسيطر على « بن — جوريون » وزملائه ازاء احتمال ان تتعرض هذه الامال للاحباط نتيجة للحملة الارهابية . كما كانوا يخشون فى الوقت ذاته من الا يتوقف تمرد المنشقين عند الاضرار بالبريطانيين ، على الرغم من عدم وجود ما يشير فى تصريحات « بيجين حتى تلك اللحظة ، الى ما يؤكد مخاوفهم من حدوث ثورة كاسحة . بيد أن ردود « بيجين » لم تعمل على تبديد مثل هذه المخاوف . فقد أعرب قائد « الارجون » عن عدم ثقته فى انصاف الوعود التى يقدمها « تشرشل » وأعلن « بيجين » أنه لا يمكن وصف أى تقسيم خاصة اذا كان قاصرا على « أرض اسرائيل الغربية » بأنه « جيد » . وكان « سنيه » يشعر ، وربما أكثر من « بيجين » ، بتزايد حدة المطالبة بقيام « الهاجاناه » بوقف المنشقين عند حدهم . وقد انتهى الاجتماع بينهما ، كما جاء فى تقريره بنغمة يائسة : قلت له : « لا أعرف اذا كان هناك يهودى آخر يريد تجنب وقوع قتال بين اليهود وبعضهم البعض ، اكثر مما اريد .. وعلى هذا ، فانا أقول لك اننى أخرج من هذا الحوار وأنا أشعر باكتئاب تام .. فالخلاصة كانت واضحة تماما : « انهم يريدون فرض طريقتهم على الجميع » .

وكان « بن جوريون » قد أبلغ اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية، منذ وقت مبكر فى ابريل عام ١٩٤٤ بعدم وجود اى حل بديل « وعلينا أن

نقابل القوة بالقوة . ولا شك أن هذا القرار يعتبر كارثة ، ولكن وقوع كارثة محدودة كان افضل من نجاح مجموعة صغيرة فى فرض سيطرتها على « اليشوف » . واصبح كابوس القتال بين الاخوة حقيقة واقعة بحلول نهاية العام . فقد عقد اجتماع أخير بين « بيجين » و « الياهو جولوم » ، رئيس « موشيه سنيه » الذى كان قد عاد لتوه من مهمة رسمية الى لندن . وخرج « جولوم » من الاجتماع وقد ازداد اقتناعا بمدى فداحة الضرر الذى يلحقه المنشقون بالمساعى الدبلوماسية الصهيونية . واعلن فى مؤتمر صحفى : « اذا اضطررنا لاستخدام القوة ضد اولئك الذين يرتكبون هذه التصرفات الضارة المعتوهة ، فاننا لن نتردد فى ذلك » . واكد « جولوم » بعد اجتماعه العقيم مع « بيجين » ان على « اليشوف » ان يتخذوا كافة الاجراءات الكفيلة بوقف نشاط الارجون .

ولقد سبق السيف العذل فى ظرف اسبوع واحد ، اذ حدث فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤ ، أن قام رجلان مسلحان من عصابة « شتيرن » فى القاهرة باغتيال اللورد « موين » ، الوزير فى حكومة تشرشل لشئون الشرق الاوسط . ولم يكن « بيجين » وجماعته قد تلقيا أى انذار مسبق بالعملية ، على الرغم من أن الجماعتين كانتا تمران بمرحلة اتصالات ايجابية بينهما . ودفعت منظمة « ارجون » ، بدلا من « عصابة شتيرن » ثمن مقتل « لورد موين » . فقد اجتمعت اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية فور انتشار النبأ وقررت دعوة « اليشوف » الى نبذ جميع أعضاء هذه العصابة المخربة والمدمرة ، وحرمانهم من المأوى والملجأ وعدم الاستسلام لارهابهم وتقديم كافة المساعدات اللازمة للسلطات من أجل وقف اعمال الارهاب وتصفية المنظمة المسئولة ، فان بقاءنا فى حيز الوجود يتوقف على هذا . وكتب « الياهو جولوم »يقول : « لم يعد هناك مجال لمناقشة أساليب القضاء على وباء الجرائم الارهابية . وأصبحت الحاجة الى منع هذه الجرائم فورا تتصدر كل الاعتبارات الاخرى ، وتستدعى اتخاذ كافة الاجراءات الكفيلة بمساعدة السلطات على وقف هذه الجرائم .

لقد تركت تلك الفترة التى اصبحت تعرف باسم « السيزون » (موسم الصيد) ندبة جديدة فى نفسية « مناحم بيجين » . لقد كان الامر يبدو وكان قابيل وهابيل قد بعثا من جديد فى العصر الحديث . واذا لم يقتل الاخ اخاه ، فانه يترك وظيفته ويفصل ابناءه من مدارسهم . ووفقا لما جاء فى سجل التاريخ الرسمى للهاجاناه قام « المتطوعون » اليهود باحتجاز عشرين رجلا لاستجوابهم كما تم التحرى عن واحد وتسعين آخرين بدون القبض عليهم . وسلمت اسماء ما يقرب من سبعمائة شخص ومؤسسة كانت لها علاقة بالاعمال الارهابية والابتزاز الارهابى ، فضلا عن أسماء بعض المساهمين المتطوعين أو المرغمين على تمويل «الارجون » الى المباحث الجنائية البريطانية ويقال ان ثلاثمائة منهم قد اعتقلوا بموجب هذه القوائم . وتنفيذ

تقديرات أخرى بأن عدد المقاتلين من « الارجون » والمؤيدين لها الذين سلموا الى انبوليس بلغ الف شخص . وقد أمكن خلال « موسم الصيد » (او السيزون) الذى استمر على مدى ٧ أشهر القبض على كل القيادات العليا تقريبا واحتجز رجال « الهاجاناه » أحد هذه القيادات وهو « ايلى تابين » رئيس مخابرات « الارجون » ووضعوه فى الحجز الانفرادى من شهر فبراير حتى اغسطس عام ١٩٤٥ بمستوطنة « عين حيروت » . وكان محتجزوه يريدون انتزاع المعلومات منه . وكانوا مستعدين فى سبيل ذلك لان يضربوه ويعلقوه على الحائط وان يلكموه فى أسنانه حتى تتخلع ثم تركه مسلسلا فى قذارته ويوهموه بانهم سوف يعدمونه . وعندما انتهى « الموسم » فى شهر يونيو ، شعروا فى بداية الامر حرجا شديدا منعهم من اطلاق سراحه فورا .

وقد تمكن «بيجين» نفسه من مراوغة جماعة المطاردة . وقال « شيمون افيدان » ، الذى قاد « موسم الصيد» : اجريت عدة محاولات للايقاع ببيجين، ولكنها فشلت جميعا . وكنا كلما نبلغ المكان الذى تصلنا الاخبار بوجوده فيه نجده قد تركه . وكان من بين المكلفين بالبحث عنه ، «ماثير باعيل» القائدالشاب لاحدى وحدات الهاجاناه والذى أصبح فيما بعد العضو اليسارى بالبرلمان . ووصلت أنباء الى « باعيل » ورجاله تفيد بأن « بيجين » سيتناول غداءه وهو متخفى بأحد المطاعم فى شارع الانبياء بالقدس يقول باعيل » صدرت الى الاوامر بالقبض عليه واحضاره الى «عين حيروت» ، حيث أتلم «الهاجاناه» سجنا صغيرا . وانتظرنا عند المطعم أربعة أيام ولكنه لم يحضر . وكنا نتناول الطعام فى المطعم بالتناوب . فكان أربعة منا يدخلون بينما كان الخامس ينتظر فى الخارج مع سائق التاكسى » .

وقد سأل بيجين ، عندما اصبح رئيسا للوزراء ١٩٧٧ زميله عضو البرلمان ، عما اذا كانت هذه الرواية صحيحة ، فرد عليه « باعيل » بالايجاب وأكد له انه لوكان قد أمسك به ، لما أمكنه الافلات منه .

« وماذا كان سيحدث لو حاولت المقاومة ؟

« كنا سنضربك .

« واذا كان هناك أشخاص مستعدون لحمايتى

« كنا سنضربهم ايضا . اما اذا استسلمت ، كنا سنضعك فى سيارة التاكسى ومعك ثلاثة أشخاص يمسكون بذراعيك . وكنا سنضع نوعا من الكمامة فى فمك ونلقى بك فى حقيبة السيارة ونغلقها عليك لو اننا شككنا فى أنك ستسبب لنا متاعب » .

واضاف « عيل » كنوع من المواساة ان مهمته كانت تقتضى على اى حال تسليمه حيا ــ ولكن ليس للبريطانيين . وقلم رئيس الوزراء عندئذ واحتضنه .

ولم يـكن الغموض فى المسألة ينصب على السبب فى فشل « باعيل » فى القبض على « بيجين » ، بقدر ما كان فى السبب الذى دعا الهاجاناه الى الاعتقاد بأنه سيحضر الى القدس . فان قائد « الارجون » ظل ، فى الواقع ، مختبئا تحت اسماء مختلفة من ربيع عام ١٩٤٤ حتى نهاية التمرد ، بمنطقة تل ابيب وكان أول ملجأ له هو فندق السافوى المتواضع الذى يقع بين شارع « الينبى » وشاطىء البحر ، وحيث نزل تحت اسم « مناحم بن ـ زئيف » . وقد قامت جماعة ارهابية فلسطينية جاءت عن طريق البحر بعد ثلاثين عاما من نزول بيجين بالفندق ، بالاستيلاء عليه . وكانت حالة الفندق قد تدهورت كثيرا ودمر نصف المبنى المصنوع من الاسمنت عندما اقتحمته فرقة هجومية اسرائيلية وقتلت جميع الارهابيين باستثناء واحد منهم فقط . وكان « بيجين » قد اختار ذلك الفندق لعدم حصوله على فرصة كافية من الوقت للبحث عن مكان افضل ، وايضا عملا بالمبدأ القائل بأن « أكثر الاماكن ظلاما هـو ذلك الواقع مباشرة تحت المصباح » . وقد ترك « السافوى » بعـد ان نجـا باعجوبة . فقد قاد مدير الفندق فرقة تفتيش بريطانية متخطيا بحذر الغـرفة رقم ١٧ التى لم يكن يعرف شخصية « بيجين » الحقيقية ، ولكنه شعر أنه غادر الفندق بغرض قضاء اجازة : « هذه هى كل الغرف عندى » .

وانتقل « بيجين » من الفندق بعد ذلك ، وبصحبته زوجته وابنـه الى منزل منعزل فى القطاع اليمنى فى « بتاح تيكفاه » . وكتب يقـول عن تلك الفترة : ان الظروف هناك كانت صعبة ، وكان المنزل مهملا . وكانت الريح تعصف ليلا ونهارا من خلال نوافذه المحطمة . وفى المساء كان الطقس باردا والظلام حالكا . فلم يكن هناك كهـرباء أو تدفئة مركزية . ولكن من دواعى سروره أنه كان ينام على ملاءات تم شراؤها خصيصا للمندوب السـامى البريطانى ، سير « هارولد مك ـ ميتشل » الذى كان « الارجـون » قد وضعوا خطة فى يوم ما لاختطافه . كان البيت الصغير غير مريح ، وبالاضافة الى ذلك كان معرضا للمخاطر وكانت العائلات البولندية تبدو واضحة وضوح النهار فى وسط اليمنيين من ذوى البشرة السمراء ، ولم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ التساؤلات تتردد حول الغريب الذى لا يخرج أبدا الى العمل .

وتولى « الارجون » نقل « بيجين » واسرته الى منطقة « حاسيدوف » ، وهى منطقة عمالية على اطراف « بتاح تيكفاه » حيث انتحل مناحم لنفسه اسم « يسرائيل هالبرين » . وكثيرا ما كان المسكن يتعرض لانقطاع الميـاه ولم تكن الكهرباء قد ادخلت اليـه بعـد ، بيد أن « بيجين » ، الذى كان ما زال فى مرحلة « الاختفـاء المفتوح » كان يجد عزاء فى الحقول وحدائق البرتقال وخضرة الحدائق والاشجار الكثيفـة . وقدمت عائلة « هالبرين » نفسها على أنها عائلة بولندية لاجئـة . وعرفت « اليزا » سبب عـدم

خروج زوجها الى العمل بأنه عاكف على الدراسة ليتقدم الى الامتحان فى القانون الفلسطيني . وفكرت ان اللجنة المشتركة وهى جمعية خيرية يهودية هى التى تتولى مساعدتهم حتى يتخرج . وكانت القيادة العليا للارجون تجتمع فى المطبخ على ضوء مصباح الجاز او الشموع . وكانت العائلة تتنزه سيرا على الاقدام فى أيام السبت فى حدائق البرتقال .

وتعرضت عائلة « بيجين » أثناء اقامتها فى منطقة « حاسيدوف » لاول تجربة لها مع عمليات التفتيش الشامل التى يقوم بها الجيش البريطانى . ففى فجر يوم ٥ سبتمبر ١٩٤٤ تم تطويق بلدة « بتاح تيكفا » ، التى كانت مشهورة بايواء الارهابيين ، وفرض فيها حظر التجول . وقرر « بيجين » وواحد من ضباط قيادته الذى أمضى الليلة معه أن ليس هناك اى مغزى من فرارهما للاختباء فى الغابة لان ذلك من شأنه أن يلفت نظر الجيران اليهما ، ان لم يكن نظر القوات ، ومن ثم يصبح القبض عليهما أمرا محتوما . وقررا ان يتصرفا بأعصاب هادئة ويتمسكا بمظهر البراءة فجلس القائدان على سلم المنزل وهما يتفرجان على الدبابات والمدرعات البريطانية اثناء مرورها عند آخر الشارع . وأسرت جارتهم مسز « سيجل » فى انزعاج لمسز « بيجين » قائلة : « ليس هناك ما يزعجك يا مسز « هالبرين » .أما انا ففى حوزتى احدى بطاطين الجيش بالمنزل » . وزال الخطر بحلول الظهر . ورفع حظر التجول ، وقد تجاهل الجيش لسبب غير معروف حى « حاسيدوف » .ولكن عندما امتد التوتر الذى سبق « موسم الصيد » ، الى المنطقة بدا الحى اقل امنا وبدا الناس يتطفلون فى فضول ، وحان وقت الانتقال الى تل أبيب .

واختفى « يسرائيل هالبرين » من الوجود ، وجاء « يسرائيل ساسوفر » اليهودى الارثوذكسى الملتحى الذى يرتدى طاقية سوداء ، للاقامة فى شارع « ياهوشا بن نان » الواقع بين مذبح البلدية ومأوى كلاب البلدية . واضافت الذقن عشر سنوات الى عمر « بيجين » .وكان قد فسر للجيران عدم حلاقته لذقنه خلال الشهر الاخير من اقامته فى « بتاح تيكفا » بأنه فى حالة حداد . وكان اثناء وجوده فى « تل ابيب » يذهب للصلاة بانتظام فى المعبد المحلى ، مثل اليهود المتدينين وكان الجيران يرتابون فى أنه واحد من الطلبة « المستديمون »فى المعاهد الدينية ، والذين لا يزالون ابدا أى عمل ويعيشون من ريع مهور زوجاتهم . ورزق بيجين اثناء اقامته وعائلته فى شارع « يهوشا بن ــ نان » ، بثانى أطفاله . وكانت فى هذه المرة طفلة اسماها « هاسيا » ، تيمنا باسم امه . وسجل المولودة باسم : « هاسيا ابشتاين » ، نسبة الى يسرائيل ايشتاين ، احد اصدقاء « بيجين » المقربين ، والذى اضطر الى القيام بدور الاب السعيد وزار « اليزا » وابنتها فى المستشفى .

وكاد البريطانيون يكتشفون مكان اختبار « بيجين » فيما بين المذبح ومأوى الكلاب ، مرتين : المرة الاولى عندما مسحوا شارع «يهوشا بن ـ نان» بالانوار الكاشفة ، وجابوا الشارع جيئة وذهابا بحثا عن مخبىء الاسلحة . ورابط « بيجين » مترقبا فى منزله ، ولكن أحدا لم يطرق بابه . وانتهتعملية التفتيش بحلول الفجر . كان هذا فى أواخر عام ١٩٤٥ ، اما المرة الثانية فجاءت بعد ذلك بعام تقريبا عندما نسف فندق « الملك داوود » فى القدس .

وفى هذه المرة الاخيرة كان من الواضح أن الجيش يعرف جيدا ما الذى يبحث عنه . واختبأ « بيجين » فى غرفة صغيرة سرية تحت سقف المنزل أعدها « يعقوب مريدور » خصيصا لمواجهة مثل هذه الطوارىء . وشعر « بيجين » أن التفتيش عنه أخذ يقترب . وعلم من الراديو الذى تركته « اليزا » مفتوحا عاليا عن عمد حتى يسمعه ، ان حظر التجول سيستمر عدة أيام ، وأن التفتيش سيمتد الى كل منزل وكل ركن . وعسكرت جماعة من الجنود فى حديقة منزل « بيجين » واصطحبوا « اليزا » مع طفليها لاستجوابها . وادعت انها لا تعرف الانجليزية . وقالت من خلال مترجم ان زوجها ذهب الى القدس . واعادها رجال الشرطة البريطانية الى منزلها . ولكن عاد رجال الجيش مرة اخرى لتفتيش المنزل ، حيث قاموا بفتح الدواليب والبحث تحت الاسرة ، والنقر على الجدران (بل انهم نقروا على المكان الذى يختبىء فيه « بيجين ») . وظل بيجين محشورا فى ملجئه الضيق لمدة ثلاثة أيام مضنية بلياليها خلال حرارة شهر اغسطس.وقد اعادت هذه الفترة الى ذهنه تجربة الحبس الانفرادى التى مر بها فى « فيلنا » ويقول بيجين :

« كان هناك بعض نواحى التشابه بين التجربتين ، ففى سجن « لوكشيكى » كان الطقس حارا نهارا ، باردا ليلا . اما هنا فان الحرارة كانت لطيفة ، وخانقة نهارا » . وكانت الارض هناك من الحجارة اما هنا فكانت من الخشب . وكانت عظام المرء هناك تصرخ من الالم ـ ولم يكن الالم هنا اقل حدة . وكان المرء لا يجرؤ على التحرك اطلاقا . وهناك كانت الحاجة ماسة الى الطعام ، وهنا الى الماء . وفى هذا الصدد يقول :

لقد كانت هذه هى أسوأ محنة أمر بها : لقد عانيت من عدم وجود الماء . ومن عدم تناول الطعام فى « لوكيشكى » وفى غيره من الأماكن وقد تعلمت هنا لأول مرة معنى الحرمان من الماء وعانيت من الجوع والعطش ـ انهما تجربتان قاسيتان من الأفضل الا يتعرض المرء لهما . ولكن اذا كان لى خيار فى الامر لاخترت الجوع بلا تردد . فالعطش الممتد رهيب ..

وبدأت اشعر بالدوار . وبدأ الجفاف يشمل جسمى . ومما زاد من عذابه أن الجنود المرابطين فى الحديقة أخذوا يدلفــون الى المنزل ، طالبين الحصول على شراب . ولكنهم انصرفوا فى اليوم الرابع ، فدقت « اليزا » على المخبأ بيد المكنسة . واحتفل بيجين بخروجه من سجنه الاختيارى بأن اغرق راسه فى اناء ملىء بالماء البارد ، المرة تلو الاخرى ، وهو يشرب . « لم استطع ان اصبر ، فقد كنت اشعر بجفاف تام . كان كل ما احتاج اليه هو المــاء .. المـــــاء » .

اعترف فيما بعد الجنرال سير « افلين باركر » ، القائـــد العـــــام البريطانى أن اسلوب التطويق والتفتيش لم يسفر الا عن نتائج ضئيلة جدا ، وقـــــال :

« عندما أنظر الى الوراء ، لم أجد اى أسلوب آخر كان يمكن استخدامه فى معالجة المشكلة . وعندما ذهبنا الى تل أبيب كان « بيجين » موجودا هنك مختبئا داخل دولاب . وكان يوجد مساعد عريف وثلاثة جنود يرابطـــــون فى حديقة بيته ، ولكنهم لم يفتشوا المكان بدقة . ان هذه هى واحدة من مشاكل حملات التفتيش ؛ اذ يجب عليك أن تعتمد على أفراد من الرتب الدنيا ، فاذا اخطأوا يمكن ان تنهار العملية بأكملها » .

واقامت عائلة « بيجين » فى المنزل الكائن بشارع « بهوشوا بن — نان » لمدة عامين تقريبا ، ولكنه بدأ هو الاخر يفقد عزلته . وأظهـــــر البريطانيون اهتماما متزايدا بالحى ، وكانت منظمة « الهاجاناه » قد علمت بمسألة لحية « بيجين » . وأوصى رجال أمن « الارجون » بضرورة انتقاله مرة أخـــرى . وحلق « يسرائيل ساسوفر » ذقنه وجاء الدكتور « جونا كونيجشوفر » ليقيم فى المسكن الذى يقع عند ملتقى شارعى « روزنبوم » و « يوسف الياهو » ، بالقرب من مسرح « حابيما » فى قلب تل أبيب . وقد استوحى « بيجين » هذا الاسم الذى يعطى انطباعا بأن صاحبه من اليهود الالمان المحترمـــين ؛ من بطاقة تحقيق شخصية عثر عليها فى مكتبة عامة . ووضعت صورة « بيجين » على البطاقة ، وقد علا وجهه فى هذه المرة شارب . وكان من المقرر أن يصبح هذا الانتقال الذى تم فى أوائل عام ١٩٣٧ ، آخر تنقلات « بيجين » ، ابان فترة ممارسته للعمل السرى . وولد « لبيجين » اثناء وجود العائلة فى المنزل الكائن بشارع « روزنبوم » ، ابنة ثانية هى « لياه » . وتم تسجيلها هى ايضا تحت اسم « ابشتاين » . ولم يتوان البريطانيون ابدا عن بحثهم عن « الارهابى الاكبر » . وعرضت جائزة قيمتها الفان من الجنيهات الاسترلينية لمن يساعد فى القبض عليه (كانت الجائزة على راس « ناثان يلين — مور » من عصابة شتيرين لا تتعدى الف جنيه استرلينى فقط) ولكن لم يخنه أحد .

لقد سبب « موسم الصيد » (١٩٤٤ ــ ١٩٤٥) لبيجين توترا شديدا مما اثر على قدرته على التقدير السليم وعلى التحكم فى مقاتليه من الشباب . لقد سببت لهم مسألة اختطاف اليهود وخيانتهم ألمــا وشعورا بالخـــزى ، وكانت مشاعرهم تدفعهم الى الرد على العدوان بمثله . وقد عكس منشور لاذع كتبه « بيجين » فى فبراير عام ١٩٤٥ ، تحت عنوان « سنعاملك بالمثل ياقابيل » مدى ما شعر به من مرارة :

« لقد استخدمت كل قوتك ياقابيل ، ولكنك لم تستغلها عندمــــا كان الملايين من اخوانك يموتون وعيونهم متجهة نحو « صـــــهيون » ــ أرض « صهيون » المغلقة الابواب ، أرض « صهيون » التى تستعبدهــا حكومة شريرة ، انك لم تبد قوتك هـــذه عندما تم ترحيـــل الناجين من المقصلة ، ولم تكشف عنها لتحطم الابواب التى أوصدها « الكتاب الابيض » فى وجههم .

« لقد عمدت يا « قابيل « الى تعبئة ثروة الامة ولكنك لم تنفقها من أجل الاغاثة ، ولمساعدة أسر الجنود ، ولا من أجل تنظيم الهجرة المجانية من دول الابادة . انك تختلس أموال الشعب عشرات الآلاف من الجنيهات ، وتنفقها على المخبرين والمختطفين وعصابات الواشين . لقد اخترت لنفسك حليفا ؛ ياقابيل . ان حلفاءك هم نظام الحكم الظالم القائم فى الوطن والمباحث الجنائية البريطانية ــ النازية . انك تسلم اخوانك الى هؤلاء الحلفاء .. انك تسلمهم الى الايدى الملطخة بدماء ملايين المبعدين عن أبواب الوطن ليدخلوا أفـــران « ميدانيك » ..

« انك تمارس ياقابيل الخطف حيث تقتحم فى ظلام الليل بيوت العبرانيين بواقع عشرة ضد واحد ــ وتوجه الضربات حتى تسيل الدماء .. انك تقتلع من تعتبرهم « مشكوك فيهم » مستخدما الحيلة والخداع باسم الشرطة وبكل قسوة ، وتنقلهم الى جهات مجهولة ، لتعذبهم بأساليب لجستابو فى القلب المظلم لحدائق البرتقال ، ثم تقوم فى النهاية بتسليمهم الى حليفك ، المباحث الجنائية البريطانية ــ النازية ، ليمارس المزيد من التعذيب ضدهم وليقوم بنفيهم الى « اريتريا » ..

ومع هذا فان « بيجين » اختار لنفسه الالتزام بضبط النفس . اذ انه كان واثقا من أن الوقت سيحين عندما تضطر « الارجون » و « الهاجاناه » الى الى القتال جنبا الى جنب . وكان يرى أن اشتعال حرب أهلية واسعة النطاق من شأنه تبديد كل احتمالات قيام مثل هذا التعاون ، بل ان من شأنه تبديد حتى احتمالات قيام دولة يهودية . ولم يكن من الملائم ان ينتهج المـــرء فى ذروة « موسم الصيد » سياسة « لمرض الرأى » . ويقدر يعقوب (يول) أمرامى ، الذى خلف « ايلى تلفين » فى منصب مدير الاستخبارات ، عدد معارضى وجهة

نظر بيجين تلك ، بنصف عدد أعضاء القيادة العليا . ولكن استطاع منطق « بيجين » أن يسود في النهاية . بل انه أصدر منذ وقت مبكر يرجع الى شهر نوفمبر من عام ١٩٤٤ تعليمات مشددة وواضحة الى اتباعه تتضمن :

« محظور عليكم رفع ايديكم أو استخدام السلاح في وجه الشباب العبراني ، لانهم اخواننا وغير مسئولين عما يحدث ، كما انهم يخضعون لتوجيه خاطيء للتحريض .ولكن سيأتي اليوم الذى سيدركون فيه خطاهم فيقفوا الى جانبنافيوجه الغاصب الاجنبي.ان سلوككم هو سلوك الوطنيين الذين لايحيدون عن هدفهم ، وهذا سيساعد على زيادة سرعة انفصالهم عن الذين يستغلونهم ويثيرونهم ضدنا ، وعندئذ سيحظى المحرضون تماما بعكس ما كانوا يسعون اليه . ولن تكون هناك حرب بين الاشقاء ، وسيأتي اليوم الذى سيهب فيه الشعب .. رغما عن اولئك الذين يضعون العراقيل .. ليقف صفا واحداً ، وهذا هو المهم .. ان هذا هو السبيل الوحيد لانقاذ يهود فلسطين من الحرب بين الاشقاء ، ولانقاذ البلاد من الخراب ، وللحفاظ على نقاء رأيتنا ونزاهة سلاحنا ، ولرفع اسرائيل عاليا في نظر الغرباء . وهذا أيضا — صدقوني — هو الطريق الى النصر » .

ووافقت قيادة الارجون على مضض . وربما تكون معرفة زملاء «بيجين» أن قيام حرب سافرة بين « الارجون » و « الهاجاناه » الاكثر عددا وعتادا سينتهي بلا أدنى شك بدمار منظمة الارجون ـ ربما تكون هذه المعرفة قد أثرت أيضا على استمالتهم الى الموافقة . بيد أن العامل الاساسي الذى حسم الموقف تمثل في النفوذ الفريد الذى يتمتع به القائد . وكانت النتيجة أن ساد الانضباط ولم يرد أعضاء « الارجون » على أى محاولات استفزازية . ويعترف « يعقوب أمرامي » الذى كان قد اعترض على سياسة ضبط النفس ، « بأن الايام أثبتت في النهاية أن » بيجين » كان على حق . فبعد مضى ثمانية أشهر من ذلك الحين ، انضمت قوات « الهاجاناه » الينا في القتال ضد البريطانيين .

واسفرت حملة المطاردة عن توجيه ضربة خطيرة للارجون ولكنها لم تكن قاضية .فقد عاد« الياهو جولوم » ـ المؤرخ الرسمي للهاجاناه — ونقض فيما بعد قوله السابق بأن « موسم الصيد » قد كسر شوكتهم نهائيا » . وفي الواقع فان « الارجون » و « عصابة شتيرن » ظلتا مشلولتي الحركة طوال السبعة اشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية . وقد تجنب الشتيرنيون قسوة «موسم الصيد»بأن اوقفوا تلقائيا عملياتهم بعد اغتيال اللورد «موين».واعترف«يعقوب مريدور » ، الذى تم اعتقاله في خريف عام ١٩٤٥ وترحيله الى شرق افريقيا قائلا باستثناء توزيع المنشورات فاننا لم نقم بأية عمليات خطيرة » . ولكن

« بيجين » استطاع أن يراوغ « الصيادين » وسرعان ما وجدت « الارجون » قادة جدد من الشباب ليحلوا محل أولئك الذين كادوا يقعون فى الأسر ٠

وكسبت « الارجون » في الوقت ذاته ، تعاطف الرأى العام اليهودى في فلسطين نحو تجنب الانتقام ٠ ولم يستسغ أعضاء « الهاجاناه ٠ كثيرا عملية المطاردة لدرجة ان التقارير الرسمية تعلن ان الذين شاركوا فى « موسم الصيد » كانوا من المتطوعين الذين لبوا نداء القيادة الوطنية ٠ وأكد « موشيه سنيه » فيما بعد أنها لم تكن بأى حال من الاحوال حملة نفذتها «قوات الهاجاناة» ويقول « سنيه » عن ذلك :

« لم تتخذ مطلقا أى مؤسسة تابعة للهاجاناه أى قرار بشأن حملة المطاردة ، كما لم يصدر أى قرار الى أى مؤسسة للهاجاناه » بتنفيذ المطاردة لقد طرحت اللجنة التنفيذية العليا الموضوع على لجنة العمل الصهيونية حيث تم اتخاذ القرار ، ثم عرض الموضوع بعد ذلك على مجلس الهستدروت الذى أصدر قرارا فى هذا الشأن ٠ ولم تأخذ « الهاجاناه » المسالة على عاتقها ٠ بل كان هناك أفراد تم تجنيدهم على أساس شخصى لتنفيذ « المطاردة » . ولم يحدث مطلقا ان ناقش مجلس الهاجاناه ، هذه المسألة أو تلقى أمرا فى هذا الصدد أو اصدر أمرا بشأنه .

وقد أعرب « سنيه » عن أسفه ازاء التعاون مع البريطانيين ووصفه بانه كان بمثابة « خطأ فادح » . ومع ذلك فقد قبله فى جبينه . ويزعم نائبه . « يسرائيل جاليلى » ، انه هو نفسه عارض تسليم المنشقين الى المباحث البريطانية ٠ وكانت المشكلة التى تواجهها « الهاجاناه » هى انها لم تكن تملك الجهاز القضائى أو التحكيمى اللازم للتعامل معهم بنفسها ٠ ووفقا لأقوال « جاليلى » فان السبب الرئيسى الذى منع تعبئة « الهاجاناه » ، ككيان مستقل فى هذه العملية هو ان مبادئها الاساسية تنص على انها كيان عالمى فالهاجاناه لم تكن « الجيش الاحمر » لحركة العمل ، بل كانت قوات الدفاع عن يهود فلسطين . وكانت المؤسسة المتحكمة فى « الهاجاناه » تتيح ولو من حيث المبدأ على الأقل ، فرصا متكافئة لكل من حركة العمل والأحزاب الصهيونية اليمينية واحزاب الوسط . وكان موقف شركاء « حركة العمل » من «الارجون» و « عصابة شتيرن » متكافئا على أحسن تقدير . ولم يكن « بن — جوريون » راغبا فى أن يخسر ولاء هؤلاء الشركاء ٠

ولكن ، من الناحية العملية فان الهاجاناه وقوتها الضاربة التى تعرف باسم « البالماخ » هما اللذان نفذا حملة المطاردة ٠ وقد اعترف أحد الاعضاء العاديين ممن تكلموا فى الندوةالتى عقدت علم ١٩٦٦ حول هذه المسالة والتى تكلم أمامها أيضا « سنيه » أن الاوامر صدرت اليه ووحدته فى «ريحون صهيونه»

من قائده المباشر بتنفيذ عملية المطاردة ضد احـد أفراد الحركات السرية ثم ضربه · ولابد أن هذا هو نفس ما حدث فى أماكن أخرى ، على الرغم من الفروق الدقيقة على السياسـات الائتلافية الصهيونية .

وانتهى « موسم المطاردة » أو « الصيد » ، بانتهاء الحرب فى أوروبا واقتراب موعد الانتخابات البريطانية ، وأصيبت القيادة الرسمية بخيبة الامل ازاء عدم ابداء تشرشل أى ميل الى مكافأة اليهود على مساعداتهم · وتقـول السـجلات التاريخية للهاجاناه بمنتهى الوضـوح والصراحة : « الاجـراء الذى اتخذ ضد المنشقين كان من وجهة نظر اعضـاء الهاجاناه ضرورة مريرة ومؤسفة · وظلت الكراهية التى سادت بين الأشقاء خلال تلك الأيام البائسة ، راسخة لفترة طويلة بعد ذلك فى صميم « الييشوف » · أما « مناحم بيجين » فهو لم يغفر ولن ينسى أبدا ·

الفصـــل السابع

مأساة الأخطاء

لقد كان عام ١٩٤٥ بالنسبة « لمناحم بيجين » هــو العام الذى أثبت صحة توقعاته . فقد أحبط البريطانيون ـ فى ظل الحكومات المحافظة والعمالية على السواء ـ آمال رجال من أمثال « وايزمان » و « بن جوريون » ، ممن كانوا لايزالون يأملون فى امكانية التوصل الى حل سياسى ويسدون آذانهم عن سماع ضجيج المطالبة باقامة دولة يهودية فى فلسطين . وثبت ان شكوك « بيجين » كان لها أساس من الصحة تماما . ونتيجة لهـــذا ، تحققت نبوءة أخرى من نبوءاته ، تتعلق « بالهاجاناه » . وهذه النبوءة كانت قد أثارت أزمة الثقة الوحيدة التى تعرض لها أثناء توليه قيادة منظمة « ارجون زفاى ليومى » . فقد اقترحت « الهاجاناه » اقامـــة جبهة مشتركة مع منظمـــة « ارجون » و « عصابة شتيرن » أى شن حملة متحدة للمقاومة الايجابيـــة ضد الحكم البريطانى .

وبدات بريطانيا تتكيف بانتهاء الحرب فى أوروبا ، مع حقيقة انهـــا لم تعد قوة عالمية مهيمنة . فاقتصادها مجهد نتيجة للحرب التى استمرت ستة اعوام . وبمجرد أن فترت نشوة النصر ، بدا عالم ١٩٤٥ مختلفا عن العالم فى سنة ١٩٣٩ ، وان لم يكن أقل خطورة منه . ومهما يكن القرار الذى تتخذه بريطانيا بشأن ادعاءات اليهود والعرب المتناقضة بشأن فلسطين ، فان القادة البريطانيين لايمكن ان يتجاهلوا تأثير هذا القرار الذى يتخذونه على علاقات بريطانيا مـــع الولايات المتحـــدة والاتحـــاد الســـوفييتى والدول العـــربية والاسلامية ، أو مع مصادرها التقليدية للبترول فى الخليج والعراق . وكانت الرياح المعاكسة قد بدأت تهب ضد اتخاذ قرار بحل بسيط للمشكلة موال للصهيونية ، حتى قبل الانتخابات العامة فى يوليو . فان تعاطف « وينستون تشرشل » تجاه القضية اليهودية لم يكن راسخا فى أحسن الاحوال . وادى اغتيال اللورد « موين » الى تحييد هذا التعاطف . ولذلك فلم يعترض عندما قدم وزير خارجيته « أنتونى ايدن » ، النصح لمجلس الوزراء قائلا : « اذا خسرنا الصداقة العربية ، فان الامريكيين والروس سيســـارعون للاســـتفادة من اخطائنا » .

الا أن معظم الزعماء الصهيونيين ظلوا واثقين من أن الاحتمالات ستكون أفضل لو تولى العمال السلطة . فقد تعهد الحزب فى المؤتمر الذى عقده فى ديسمبر عام ١٩٤٤ «ببلاكبول» ، بأنه سوف يلغى القيود التى فرضها الكتاب

الابيض لعام ١٩٣٩ على الهجرة اليهودية الى فلسطين كما انه سوف يؤيد انشاء وطن قومى لليهود هناك . ولكن الحزب بدأ يتراجع عن تعهداته خلال اسابيع قليلة من وصوله الى الحكم . حيث قامت وزارة المستعمرات بابلاغ « حاييم وايزمان » فى ٢٥ أغسطس بأنه لن تحدث أية زيادة فى حصة الهجرة التى تصل الى الف وخمسمائة مهاجر يهودى شهريا . ولقد كان هذا القرار ضربة ماحقة اصابت النفوذ الشخصى « لوايزمان » بصفته نصير اجراء حوار مع البريطانيين ، كما اصابت حركة العمل الصهيونية فى فلسطين ، التى راهنت بالكثير على العلاقة الخاصة التى تربطها بحزب العمال البريطانى . وجاءت نقطة التحول المباشرة فى تلك العلاقات عندما وقع اختيار « كليمنت آتلى » على « ارنست بيفن » ، الزعيم النقابى العمالى ووزير العمل ابان الحرب ، ليكون وزير خارجيته بدلا من « هيو دالتون » ، ذو الميول الصهيونية . ولكن ربما ما كانت السياسة البريطانية قد تغيرت لو كان الاختيار قد وقع على « دالتون » فيما عدا أن وزارة الخارجية كانت ستجد صعوبة اكبر فى اقناعه بالتخلى عن برنامج الحزب المعلن قبل الانتخابات :

وكان « دالتون » ، الذى أصبح وزيرا للخزانة ، مدافعا متحمسا عن القضية الصهيونية . ولم يكن « بيفن » حديث العهد بشئون السياسة الخارجية ، كما كان يسود الاعتقاد العام ، كما لم يكن رجلا يتصرف بدافع من عواطفه بدلا من عقله . فقد كان ضليعا فى الاوضاع العالمية وكان قد درس جيدا وضع بريطانيا فى العالم . وكان الصهيونيون يعتبرونه خلال الثلاثينات حليفا لهم . حشد جهوده أثناء اشتراكه فى حكومة «تشرشل» الائتلافية من أجل تعبئة القوة العاملة لصالح المجهود الحربى . ويشك « هارولد بيلى » الذى كان مستشاره الاول فى وزارة الخارجية لشئون الشرق الاوسط ، أن يكون لدى «بيفن» علم بقرار « بلاكبول » ويقول : لقد تم التخلى عن سياسة الحزب منذ البداية . وكنت أحيانا أتساءل عما اذا كان « بيفن » ، يدرى شيئا عنها . أما عن وجهات نظر أولئك الزملاء الذين كانوا مهتمين بمثل هذا القرار ، من أمثال « دالتون » ، و « كريبس » ، فان « بيفن » كان يرفضها بشدة لانه كان يعرف انهما يخضعان لمحاولات قوية من جانب الصهاينة للتأثير عليهما » .

ومر « بيفن » بمرحلة « امتصاص » من جانب وزارة الخارجية التى قامت بمنحه فكرة موجزة عن الموضوع واقنعته بأن الصهيونية مجحفة بالعرب وضارة بالنسبة لبريطانيا ، وأن اقامة دولة يهودية عند « نقطة التقاء » مواصلات بريطانيا مع الهند واستراليا والشرق الاقصى ، فضلا عن مواصلاتها مع مصدر البترول الرئيسى الذى يغذى الامبراطورية من شأنه أن يعرضها جميعا للخطر وحاول وزير الخارجية أن يسلك طريقا وسطا يجمع بين ترضية العرب وعدم اغضاب الامريكيين . ولم يندهش « مناحم بيجين » لعدم تعاطف «بيفن»

ازاء مأساة اليهود الأوروبيين الناجين من الحرب أو لعـــدم استجابته لحجج الصهاينة الذين يحاولون التأثير عليه من وراء الستار · فلقد كان يتوقع كل هذا منذ البداية ويؤمن بأن على اليهود ، اذا كانوا يريدون الحصـــول على دولة الاستيلاء عليها بأنفسهم .

ومع هذا ، اذا أراد المرء أن يصدق شهادة « بيلى » وغيره ، وأن يعتقد أن « بيفن » لم يكن يحمل مشاعر معادية للسامية ، فانه يصعب عليه أن يفهم مدى عدم احساس البريطانيين بالمعاناة اليهودية . وقد شعر « بيفن » و « واتلى » ، بالضيق ازاء الضغوط الامريكية التى اعتبروها نتيجة لاثارة المشاعر فى الداخل بدون وجه حق ضد الرئيس « هارى ترومان » . وقد ضاعف من هذا الضيق احجام « ترومان » عن المشاركة فى الاعباء المالية والعسكرية الناجمة عن فرض أى حل للمشكلة الفلسطينية . وكان البريطانيون أيضا يشعرون بقلق ازاء تأثير اتخاذ قرار موال للصهيونية ، على تسعين مليون مسلم فى الهند ، ولم يكن قد تحدد مصيرهم بعد ، وعلى الاطماع السوفييتية فى تركيا واليونان وايران . وفضلا عن هذا فان العسكريين البريطانيين فى فلسطين ذاتها ، كانوا يحذرون رؤساءهم من صحوة عربية جديدة · ويقـــول المدافعون عن سياسة « بيفن » انها كانت تهدف مصلحة بريطانيا أكثر من مصلحة العرب · بيد أن هذا كله لا يفسر لنا السبب فى اغماض زعماء حزب العمل اعينهم عن ادعاء الصهيونيين بأن يهود أوروبا جديرون بصفة خاصة بتعاطفهم معهم ، ان لم يكن وقوفهم بضمائرهم معهم وان فلسطين هى الملاذ الطبيعى للاجئين ·

ويؤكد « بيلى » أن « بيفن » كان يشعر بأنه يتعرض للضغوط الامريكية من جهة ، كما يتعرض زملاءه فى مجلس الوزراء لمحاولات التأثير عليهم من جانب المنظمة الصهيونية فى بريطانيا العظمى من جهة أخرى . وكان يرفض كل هذا بشـــدة » .

ومهما كان من حسن النوايا التى انطوت عليها سياسته ، فان هذا الشعور بالاستياء الذى سيطر على وزير الخارجية دفعه للادلاء بتصريحات لم يكن لها تأثير طيب سواء بالنسبة للمصلحة البريطانية أو سمعته الشخصية . فقد كان ينظر الى العالم من منظور بريطانى ديمقراطى اشتراكى · فهو يرى أن بريطانيا دخلت الحرب من أجل تأمين أوروبا لمصلحة الديمقراطية · واصبح اليهوديستطيعون العودة ، كغيرهم ، لاستئناف حياتهم العادية ، بعد أن تم القضاء على « هتلر » . ولم يكن يدرك مدى عمق الشعور بالصدمة الذى يسيطر على اليهود . فلقد كانوا ضحايا برنامج ابادة شاملة كاد أن ينجح حيث هلك ستة ملايين يهودى لا لأى ذنب اقترفوه سوى انهم يهود .

وقال « بيفن » : صحيح انهم تعرضوا لافظع المذابح وعمليات الاضطهاد ولكن التجـربة انتهت ونجـا عدد منهم . ويجب الآن اغاثتهم ومساعدتهم

ومعاونتهم على العودة للاستقرار فى المانيا ، والتغلب على المخاوف والتوترات الناجمة عن مثل هذه التجربة .

ثم قام وزير الخارجية ، بعد ذلك ، باقتباس عبارة قالها « اتلى » دون ان تلفت نظر احد . فقال ان اللاجئين اليهــود فى اوروبا ، يجب الا يحاولوا « الضغط من اجل الوصول الى مقدمة الطابور » . واعلن ان بريطانيــا لم تعدهم بدولـــة يهودية فى فلســطين وانمـــا وعدتهم بوطن قــومى . واكد « أن الفرصة لازالت سانحة لتحقيق هذا طالما كان هناك اعتراف بأن عبء انقاذ الشعب اليهودى لا يجب أن يقع على فلسطين وحدها . وكانت الاساءة الاخيرة التى ارتكبها وزير الخارجية هى مهاجمته امريكا اثناء انعقاد مؤتمر حزب العمال فى « بورنماوث » خلال شهر يونيو التالى ، بسبب مطالبتها فتح فلسطين امام هجــرة ١٠٠ الف يهودى : « ارجو الا يساء فهمى فى امريــكا لو قلت انها تقدمت بهذا المطلب بنية صافية تماما . فانا اعرف انهم لا يريدون فى نيويورك وجود اعداد كبيرة من اليهود عندهم » . ولم يكن هناك اى لبس فى فهم المغزى من كلامه .

لقد كانت بريطانيا تواجه مهمة مستحيلة . فقد اقنعت وزارة الخارجية « اتلى » و « بيفن » بانتهاج سياسة تقوم على تعليق مسألة فلســـطين . بيد أن ديناميكيات الواقع جعلت ذلك امرا مستحيلا . فان اليهود الذين صدموا عندما انكشفت لهم فظائع « بيلسين » و « اوشفيتز » ، سيطرت عليهم حالة من اليأس القاتل . وامام عدم الاكتراث البريطانى بمأساتهم ، تضاءل الامل فى أن يختار يهود فلسطين ويهود العالم ، انتهاج سياسة معتدلة . وفى الوقت ذاته بدأ صوت العـــرب فى فلسطين يرتفع بعد أن ظلوا فى سبات لمدة خمسة اعوام . وبدأ مديرو وزارة الخارجية يشعرون أن الامور تزداد تعقيدا بصورة تفوق امكانياتهم على معالجتها .

كان « بن جوريون » ، الزعيم المنتخب « لليشوف » (يهود فلسطين) يشعر دائما بقدر أكبر من عدم الثقة فى النوايا البريطانية من « حاييم وايزمان » الرئيس المتقدم فى العمر للحركة الصهيونية العالمية . وقد كتب « بن جوريون » سطرا واحدا فى مذكراته بعد أن تجول فى شوارع لندن المدمرة نتيجة للغارات ، ولكن كان يسودها فى ذات الوقت الشعور بالابتهاج العارم حيث ان ذلك كان هو يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، أى يوم النصر . سجل « بن جوريون » بمذكراته فى ذلك اليوم سطرا واحدا يقول : « يوم النصر ــ يــوم حزين ، حزين » . فاليهود لم يكونوا قد كسبوا الحرب .لقد قتل منهم ستة ملايين ، ومازال امامهم أن يدخلوا معركة للحصول على دولة ــ وبنهاية شــهر سبتمبر اصبح « بن جوريون » واثقا من أن الوسائل الدبلوماسية قد وصلت الى طريق مسدود . فاستقل الطائرة من لندن واتجه الى باريس . وفى اول اكتوبر بعث من هناك

ببرقية مكتوبة بالرموز ، إلى « موشيه سنيه » قائد الهاجاناه ، تأمره بتنظيم تمرد مسلح ضد بريطانيا . وقد أصدر « بن جوريون » الأمر على مسئوليته الشخصية ، دون اخطار « وايزمان » وكانت معارضة « بن جوريون » لاستخدام العنف بمثابة سياسة مرحلية منها مبدئية . ويقول كاتب سيرة « بن جوريون » ان هذه البرقية تجاوزت كل ما كان قد اعلنه من قبل أمام زملائه فى لندن :

« لم يحاول « بن جوريون » إيهام نفسه بأن النضال المسلح يمكن أن يؤدى الى اخراج بريطانيا من فلسطين ، وانما كان يأمل فقط فى أن يؤدى إلى إثارة موجة من التعاطف العميق بين الرأى العام العالمى تدفع بريطانيا إلى تغيير سياستها . ولذلك فقد أعلن فى مؤتمر صحفى عقده بباريس ، وهو يضع هذا الهدف نصب عينيه أن « تصرفات الحكومة البريطانية تعتبر مواصلة لسياسة هتلر العدائية » .

وكانت أول مشكلة واجهها « سنيه » فى فلسطين هى كيفية الاتصال « ببيجين » . فإن حملة المطاردة (أو السيزون) لم تكن قد انتهت تماما الا بالكاد . كما أن الاتصال بينهما كان قد انقطع منذ حوالى عام . وقرر « سنيه » أن يبدأ اتصالاته من خلال « عصابة شتيرن » . وتولى « ناتان يلين — مور » الذي كان قد نجح فى عملية « الشتيرنيين » من اخطار حملة المطاردة بانتهاج سياسة تنطوى على مزيج من الرضوخ والتهديد — تولى مهمة تسليم الدعوة لبيجين ، الذى أسعده كثيرا أن « بن جوريون » قد بدأ أخيرا يتكلم ويتصرف مثله واعرب قائد الارجون عن استعداده للتعاون — ولكن كالمعتاد ، بناء على شروطه هو . فقد رفض « بيجين » على الفور ، اثناء اجتماع سرى ضم كلا من « سنيه » و « يسرائيل جاليلى » من الهاجاناه ، و « يلين — مور » من « عصابة شتيرن » ، إقتراحا بحل الجماعتين المنشقتين وانضمامهما الى « الهاجاناه » .

وقال « بيجين » : اننا نحتاج الى قيام جبهة مشتركة فى مواجهة البريطانيين . وطالما التزمت « الهاجاناه » بالقتال ، فان الجبهة المشتركة ستكون قائمة . ولكن اذا تخلت « الهاجاناه » عن الحملة العسكرية ضد البريطانيين ، فاننا سنواصلها .

وكان « بيجين » مدركا مدى تعقيد موقف « الهاجاناه » . فانها كانت بمثابة قوات الدفاع التابعة للوكالة اليهودية ، التى تعتبر قانونا الممثل المنتخب « لليشوف » . فإذا مارست « الهاجاناه » اعمالا غير مشروعة ، فانها تعرض بذلك المكانة القانونية للمنظمة الام للخطر وستضطر « الوكالة اليهودية » الى أن تختار ، فى وقت ما ، بين الإنحراف الى العمل السرى او اعادة تأكيد شرعيتها عن طريق اجبار « الهاجاناه » على الإلتزام بالقانون . أما بالنسبة « لبيجين » فانه كان يرى أن قوة موقف الارجون تكمن فى انها تعتبر اصلا

منظمة عمل سرى ولم يسبق لها ان ادمجت فيه هذا مطلقا . ولقد اوضح منذ البداية ان « الارجون » ستواصل القتال حتى خروج البريطانيين من ارض اسرائيل ، مهما بلغ أمد الحرب » .

واقر « سنيه » و « جاليلى » منطق « بيجين » ، ولكنهما اصرا على ضرورة ان تصبح « الهاجاناه » الشريك الاكبر فيها لصبح يعرف باسم « حركة المقاومة العبرانية » . ووفقا « لجاليلى » ، تم التوصل الى تفاهم دون المساس بكرامة الشريكين الاصغر :

« لم تكن القضية هى ان يعلنا صراحة » اننا نعترف بسلطة الهاجاناه » ونكن أن يكون من الواضح للجميع باننا نتمتع بحق الاعتراف (أو الفيتو) . وبمعنى آخر الا يقوم أى احد بأى عملية الا فى حدود الموافقة الضمنية عليها . وكان الهدف هو منعهم من القيام بأعمال نعتبرها ضارة ، سواء كان ذلك من وجهة نظر التوقيت السياسى أو من حيث الخطة العملية . ولقد كان من المهم بصفة خاصة منع تنفيذ العمليات الخطيرة التى قد تؤدى الى ان تتسبب منظمة ما فى تعثر منظمة أخرى » .

واعترف كل من « بيجين » و « شمول كاتز » المسئول الاول عن الدعاية فى « الارجون » ، بتمتع « الهاجاناه » بسلطة الاعتراض ؛ غير ان المنشقين تمسكوا بحقهم فى حرية سرقة الاسلحة من البريطانيين و « مصادرة » الاموال من أماكن اخرى . وقد اظهر الهجوم الذى وقع على فندق « الملك داوود » فى يوليو ١٩٤٦ مدى ضعف قبضة الشريك الاكبر . فكان « بيجين » ، اذا لم يقتنع بالمنطق وراء قرار اتخذته « الهاجاناه » يشعر بأن له مطلق حرية التصرف وفقاً لتقديره الشخصى . وكانت المشكلة هى عدم وجود قدر كبير من الثقة المتبادلة بين الجماعات التى تشكل الجبهة المشتركة ، بالرغم مما كان لهذه الجبهة من تأثير بالغ فقد استمرت الشكوك القديمة قائمة ، ولم يكن هناك احساس بدوام التعايش السلمى بين هذه الجماعات ، ناهيك عن التزاوج بينها . فلم ينس ، مثلا أعضاء « الهاجاناه » و « عصابة شترن » ، السنوات الاولى من فترة الاربعينيات عندما كانت منظمة « الارجون » ، وقبل عهد « بيجين » ، تتعاون مع البريطانيين ، فتشى بالشترنيين . أما « الارجون » و « الشترنيون » فلم ينسوا موسم « المطاردة » .

ويقول « جاليلى » :

« لم يكن هناك ما يدعو للاعتماد على الارجون .. ولا نقصد « بيجين » شخصيا ، لاسمح الله ، فانه شخص نستطيع الاعتماد عليه . ولكنه كان رجلا يتأثر كثيرا بمن يعملون معه ، خاصة اذا حاولوا ان يشرحوا له الامور بمنطق فنى أو عملى . ولكننا لم نكن نعلم من هم بطانته كما أن احدا لم يكن يعرف من

هم بطانتي . فما كان في وسع المرء ان يعرف المحرضين مسبقا ، ولكن فقط بعد أن يقوموا بالتحريض ، ومن المستحيل ان تعرف قبل ذلك . قد تظن ان هؤلاء اليهود لا يثقون في بعض ويخافون بعضهم البعض . نعم ، ان هذا حقيقي » .

واستمرت الخلافات الايديولوجية والتكتيكية ، وان كان العائق الخاص بعدم محاربة البريطانيين اثناء مقاتلتهم « لهتلر » ، قد أصبح غير ذي موضوع فالهاجاناه ، كانت أكثر تدقيقا من الارجون فيما يتعلق بمسألة الاعتداء على الارواح في حين كانت « الارجون » بدورها تعترض على أسلوب « عصابة شتيرن » في استغلال الاغتيالات كسلاح مشروع . وكانت « الهاجاناه » تتطلع دائما نحو القيادة السياسية المنظورة . وكانت تحرص على تبرير عملياتها سواء على أساس كونها ردا يتناسب وحجم الاستفزاز البريطاني او انها جزء من الهدف الاخر لمقاومتها السرية ، الا وهو الهجرة غير المشروعة . فمثلا ، قامت قوة من « الهاجاناه » بقيادة « اسحاق رابين » باطلاق سراح ٢٠٨ يهود من أحد معسكرات الاعتقال البريطانية في « اتليت » ، جنوب حيفا ، وذلك في ١٠ اكتوبر من عام ١٩٤٥ ، اى قبل ابرام اتفاق « المقاومة العبرانية » . وكانت أهدافها المفضلة هي الهجوم على نقط المواصلات ، خاصة السكك الحديدية ومراكز خفر السواحل .

ومع هذا فقد عملت « حركة المقاومة العبرانية » ، منذ أكتوبر عام ١٩٤٥ حتى شهر يوليو عام ١٩٤٦ ، بقدر معقول من التنسيق . وقد تدمرت الجبهة بسبب كارثة الهجوم على فندق « الملك داوود » ضمن أمور أخرى . ووفقا لاقوال « بيجين » فان أسعد أيام حياته كانت هي أيام وحدة العمل بين المنظمات الثلاث . اذ أن أحلامه باقامة جبهة مشتركة لم تتحقق خلالها فحسب ، بل انه ورجاله لم يعودوا يعتبرون خارجين على القانون . لقد ظل طوال أربعين عاما يفرق في التعريف بين « الارهابيين » و «المقاتلين من أجل الحرية» . ولم يكن ليرضى أن يضحى بالمبادىء في سبيل الاحتفاظ بمظهر الاحترام ، ولكنه كان يشعر براحة أكبر عندما كان يستطيع التوفيق بين الامرين :

« لم يكن هناك اعتراف رسمي بنا في عهد « حركة المقاومة » ، ولكننا مع ذلك كنا نتمتع بالاعتراف . ورفع من على كاهلنا جزء من المسئولية — حتى لو كان ذلك جزءا ضئيلا فقط . والشعب كله كان يقف وراءنا » .

هذا ، وقد وجهت « حركة المقاومة العبرانية » ضربتها الاولى ابان ليلة ٣١ اكتوبر والاول من نوفمبر سنة ١٩٤٥ . واسفرت الهجمات عن نجاح « البالماخ » في اغراق ٣ زوارق دورية شرطة في حيفا ، ويافا ، ونجحت الهاجاناه في نسف الخطوط الحديدية عند ١٥٣ نقطة في جميع انحاء فلسطين واصابة منشآت السكك الحديدية في القدس وتل ابيب بالاضرار . بينما نجحت

« الارجون » فى تدمير قاطرة واصابة ست قاطرات أخرى باضرار وذلك فى غارة جريئة على رصيف البضائع ومحطة « اللد » . وكانت عصابة « شتيرن » هى الوحيدة التى فشلت فى تحقيق أهدافها الطموحة للغاية ، فقد انفجرت شحنة ناسفة قبل الاوان وقبل النجاح فى غرسها بخزان للبترول فى معمل التكرير بحيفا ، وشنت « الارجون » و « شتيرن » طوال فترة الشتاء ، وفى اطار بنود الاتفاقية ، غارات على الشرطة البريطانية وعلى منشآت الجيش والطيران بحثا عن الاسلحة . وقد خسر البريطانيون فى احدى الليالى وبالتحديد فى ٢٧ ديسمبر عشرة قتلى واثنى عشر جريحا . واستؤنف الهجوم المشترك مرة اخرى فى ٢٥ فبراير عندما نجحت « منظمة الارجون » فى تدمير حوالى عشرين طائرة من السلاح الجوى الملكى البريطانى وهى مرابطة فى مطارات اللد » و « قصطينا و « كفر سركين » ، مما اسفر عن خسائر يتراوح تقديرها ما بين ٧٥٠ الف جنيه استرلينى ومليونين من الجنيهات الاسترلينية . واستمرت الغارات على السكك الحديدية والشرطة طوال شهر مارس . ونجحت « عصابة شتيرن » فى ليلة ٢٦ ابريل فى اثارة غضب البريطانيين وحنقهم الى اقصى حد ، عندما قامت باغتيال ستة جنود مظليين وهم نائمون على اسرتهم بمعسكر فى تل أبيب . كما اصيب اربعة آخرون بجراح . واعلن الليفتنانت جنرال « جون دارسى » القائد العام للقوات ، فى تقريره الذى رفعه الى رئيس الاركان فى لندن ، انه لن يتمكن من السيطرة على رجاله اذا وقعت هجمات مماثلة اخرى عليهم ، وبخاصة أن بعضهم قد اتجهوا فى حالة هياج شديد الى شوارع « نيتانيا » . وشنت « المقاومة العبرانية » آخر عملياتها خلال شهر يونيو ، حيث تسببت « الارجون » فى الحاق خسائر قيمتها مائة الف جنيه استرلينى فى مخزن عربات السكك الحديدية ، ونسفت فرق المتفجرات التابعة للبالماخ « عشرة طرق ومعابر جديدة من بين الاحدى عشر طريقا ومعبرا التى تربط فلسطين بجيرانها . بيد أن « عصابة شتيرن » أصيبت بخسارة فادحة أخرى عندما قتل احدى عشر من رجالها وأسر عشرون منهم فى طريق عودتهم من غارتهم على ورش السكك الحديدية فى حيفا .

وكان لدى البريطانيين عام ١٩٤٦ ، ثمانين ألف جندى وعشرين ألف شرطى مرابطين فى فلسطين التى لم يزد عدد اليهود فيها عن ستمائة الف نسمة تقريبا . ومع ذلك فلم يستطع البريطانيون ان يردوا على حملة التخريب والارهاب التى قادها خمسة آلاف أو نحوها من مقاتلى « حركة المقاومة العبرانية » ولقد كتب « جيه . بوبريل » يقول فى الدراسة التى أجراها حول « الارجون » و « عصابة شترين » : « لقد أصبح الانتداب بمثابة دولة عسكرية تخضع لحالة حصار مستديم وعلى الرغم من حجم الحامية ، ومعداتها ، وعزيمتها فانها عديمة الفعالية ، تهزم نفسها بنفسها » . وكانت الفرقة السادسة المحمولة جوا تشكل القوة البريطانية الرئيسية ، ولكن لم يكن لافرادها من

المحاربين القدامى فى (« نورثاندلى » و « آرنهيم » من ذوى « البيريهات الحمراء » ، أى خبرة بكيفية التعامل مع العصابات الذين يختفون داخل المدن المزدحمة التى تزودهم بملاذ ملائم تماما . وكان الجيش عاجزا عن الحركة ، فلم يكن من المتصور شن حرب شاملة ضد يهود فلسطين . فى أعقاب تعرضهم للابادة الجماعية او (الهولوكوست) ٠ وعلى أى الحالات فان الامريكيين ما كانوا سيتحملون على ذلك . واستمر الجدل يدور فى حلقةمفرغة : فالادارة فى القدس كانت ترى أن الحل الوحيد هو التسوية السياسية . وايد الجيش هذا الرأى ، ولكنه لم يكن مستعدا لان يتعرض لتمريغ انفه فى التراب ، حتى يتم التوصل الى مثل تلك التسوية واستطاع مارشال « بيرناردى مونتجمرى » ، رئيس الاركان العامة للقوات الامبريالية ، أن يقنع مجلس الوزراء بالتحرك وذلك بعد « ليلة الجسور » ، وقيام الارجون باختطاف خمسة ضباط بريطانيين من أحد أندية تل ابيب كرهائن حتى يتم اطلاق سراح اثنين من رجالها محكوم عليهما بالاعدام . وقال بعد ان زار فلسطين ان الجيش مستعد تماما لشن « حرب ضد هذا العدو المتطرف الماكر » ٠ وأكد مجلس الوزراء أنه لم يعد يستطيع السكوت على وضع انخفضت فيه سلطة الحكومة الى الحضيض ٠ وقد ادرك البريطانيون بذلك الوقت ، أن العدو لم يعد هو مجرد شرذمة القاتلين التابعين « للارجون » عصابة شتيرن » ٠ وصدرت التعليمات الى السير « آلن كاننجهام » ، المندوب السامى البريطانى ، تفوضه بسحق « العناصر الاكثر تطرفا » داخل الوكالة اليهودية ، الذين كان من المعتقد انهم يدبرون الحملة الارهابية من خلال « الهاجاناه ».

وبدأ البريطانيون يوم ٢٩ يونيو ١٩٤٦ فى تنفيذ العملية التى اطلق البريطانيون عليها أسم « عملية أجاثا » بينما وصفها اليهود « بالسبت «الاسود » وتم تعبئة كل الجنود ورجال الشرطه الموجودين من أجل اقتحام مقر رئاسة الوكالة اليهودية ومكاتبها الاخرى فى القدس وخمس وعشرين مستعمرة فى أماكن متفرقة من البلاد ، وتم أعتقال ٢٧١٨ يهوديا من بينهم شخصيات بارزة « موشيه شارت » ، « والحاخام » يهودا ليب شتيمان » ، وعثر على ترسانة اسلحة تابعة للهاجاناه فى كيبوتز ياجور ، والى جنوب شرق حيفا . وفرض حظرالتجول فى المناطق اليهودية بفلسطين . ومع هذا فان العملية لم تحقق النجاح الساحق الذى كان ــ مونتجمرى ــ يسعى اليه . فان اهم شخصية ، وهى بن جوريون ، كانت موجودة فى باريس بعيدا عن مناله . واختفى « موشيه سنيه » ، قائد « الهاجاناه » بعد أن وصله تحذير فى اللحظة الاخيرة ٠ ونجح نائباه « يسرائيل جالليلى » و ، « اسحاق سده » : مؤسسى « البالماخ » ، فى أن يتواريا عن الانظار ، بينما ظلت منظمة « الارجون » و « عصابة شتيرن » دون مساس وقد كانت هذه واحدة من المرات الوحيدة التى لم يأسف فيها « بيجين » على افتقار المتشككين الى قواعد رئيسية فى

« الكيبوتزات » و « الموشيفات » — أي القرى الجماعية والتعاونية التابعة لحركة العمل . فلم يستطع البريطانيون العثور على مخابئهم . وكان الفشل الاساسي « ليوم السبت الاسود » هو انه لم ينجح فى ذاته فى دفع « وايزمان » وغيره من المعتدلين الى تشكيل قيادة بديلة ، كما انه لم ينجح فى تقويض وحدة « حركة المقاومة » . وساد معظم يهود فلسطين شعور بضرورة الرد بشكل ما . وكانت المشكلة هى كيف يكون هذا الرد . واقترحت « جولدا مائير » التى كانت واحدة من الزعماء السياسيين القليلين الذين احتفظوا بحريتهم — اعلان العصيان المدنى . ولكن كان « موشيه سنيه » و « مناحم بيجين » يتطلعان الى القيام باعمال اكثر ابهارا من ذلك .

كان « بيجين » معنيا بالتأثير النفسى الذى تركه يوم « السبت الاسود » على يهود فلسطين ، أكثر من اهتمامه بالاثر الاستراتيجى . ولم يكن ذلك اليوم قد نجح فى تحييد « الهاجاناه » و « البالماخ » ، على الرغم من خسائرهما فى الارواح والعتاد . وكانت هناك دواع أكبر من أى وقت سابق لقيام جبهة مشتركة نشطة ، تضم كلا من « الارجون » و « عصابة شتيرن » . ولكن كان « السبت الاسود » استعراضا مذهلا للقوة البريطانية . وخشى « بيجين » أن يؤدى ذلك الى غرس بذور الانهزامية بين اليهود ، حيث أن الانهزامية تعتبر أمرا قاتلا بالنسبة لاى حرب تحرير . « كنا ندرك أن الطريق الوحيد لاستعادة الثقة اليهودية بالذات هو عن طريق شن هجوم مضاد ناجح » .

وكان قائد « الارجون » يحتفظ فى جعبته بالخطة المناسبة فكان قد سبق فى أوائل العام أن اقترح عليه مدير عملياته ، الواسع الحيلة ، « جيدى بلجلين » ، قيام المنظمة بتخريب فندق « الملك داود » الذى يأوى جناحه الجنوبى ، مقر رياسة الادارة البريطانية ، مع وجود مقر للشرطة العسكرية وفرع التحقيقات الخاصة فى جناح ملحق به . أما باقى الفندق ذوى الادوار الستة ، الذى كان المستثمرون المصريون اليهود قد افتتحوه عام ١٩٣٢ ، بصفته أول فندق حديث فخم يقام بالقدس ، فقد كان ملتقى للشخصيات البارزة فى حكومة الانتداب حيث تتناول الكوكتيل وتدبر المؤامرات . وكان من بين تلك الشخصيات البارزة «تشيبسى تشانون» الذى نزل فى الفندق عام ١٩٤١ ، بصفته عضوا فى البرلمان ، ووصف الفندق بأنه « يعتبر بلا جدال افضل فندق فى العالم ، بعد الريتز ، فى باريس » . وكانت « الهاجاناه » قد استخدمت حق الفيتو فى ربيع عام ١٩٤٦ ضد خطة « باجلين » على أساس انها استفزازية أكثر من اللازم . ولكن عندما عاد « بيجين » يعرض الخطة بعد يومين من السبت الاسود ، باركها « سنيه » . وتم تبنى « عملية مالونتشيك » (كلمة « مالون » تعنى « فندق » بالعبرية ، ثم اضيف اليها صيغة التصغير باللغة « اليدية » — وتم بعد

ذلك اختصارها ، كاحتياط أمن اضافى الى « عمليات » تشيك » كجزء من «الليشوف » الانتقامى الثلاثى الشعب : فاسند الى « عصابة شتيرن » تدمير مبنى « اخوان ديفيد » المجاور والذى يستخدم كمقر لمكتب الاعلام الحكومى ، بينما يقوم « الهاجاناه » بالاغارة على ترسانة الاسلحة فى « بات جاليم » بحيفا ، واستعادة الاسلحة التى استولى عليها البريطانيون فى « ياجور » . وكان الاسم الحركى « الكودى » للعملية التى ستنفذها « عصابة شتيرن » هو « عبدك وفداك » ، أما بالنسبة لغارة الهاجاناه فكان « استعادة الممتلكات المفقودة » ويبرر « سنيه » موافقته على هذه العمليات على أساس انها تتفق ومبدأ « العين بالعين » — فهى تشن هجوما على الحكومة البريطانية فى مقابل هجوم شنته على الحكومة اليهودية . وقد صدقت لجنة « اكس » السرية العليا ، التى كانت تشرف على « المقاومة العبرانية » ، نيابة عن الوكالة اليهودية ، على الخطط الثلاث دون اطلاع اعضائها الخمسة على التفاصيل حيث اخطروا فقط بأن « مبنى حكوميا هاما » سيتم ضربه ، ولكن لم يشيروا الى اسم المبنى بالتحديد .

ويتفق كل من « بيجين » و « جاليلى » على أن الهدف من تدمير فندق « الملك داود » كان اذلال البريطانيين وليس قتلهم . ويقول جاليلى الذى كان نائبا « لسنيه » وشريكه فى السكن آنذاك ، « كان الهدف هو تخريب مبنى يستخدم مقرا للسكرتارية ولقيادة الجيش وكان ذلك ردا على « السبت الاسود » ولقد كان عملا جريئا ، جسورا وينطوى على مخاطرة بالغة ويوجه ضربة الى المركز العصبى . ولم يكن الهدف منه هو تدمير الفندق ذاته . كما لم يكن الهدف منه . بكل تأكيد ، هو أن يسفر عن وقوع ضحايا » وقد صدرت الاوامر الى « باجلين » منذ البداية بمنح افراد السكرتارية والناس الموجودين بالفندق ، فرصة كافية لمغادرته .

غير أن هناك ثغرة يصعب سدها بين كل من تقارير « الارجون » و « الهاجاناه » ، حول المشاورات الفنية التى دارت بين « باجلين » واسحاق سده ، فوفقا لاقوال « بيجين » ، اقترح « بيجين » منح البريطانيين فرصة زمنية لمدة ٤٥ دقيقة ، بينما اقترح « سده » خمس عشرة دقيقة فقط . ولكنهما اتفقا بعد ذلك كحل وسط منح البريطانيين مهلة لمدة ثلاثين دقيقة . ويؤكد أعضاء « الارجون » ان « سده » ضغط على « باجلين » لزيادة قوة الشحنة الناسفة التى ينوى غرسها فى « بدروم » الفندق . ويقولون أن « الهاجاناه » كانوا يريدون ضمان عدم اتاحة فرصة كافية للبريطانيين لنقل مئات من الوثائق المدنية التى استولوا عليها من مكاتب « الوكالة اليهودية » .

وقد نفى « جاليلى » هذا التقرير كلية (كان هو و « بيجين » الوحيدين الباقيين على قيد الحياة ابان الثمانينيات ، وبطبيعة الحال وكما هو معتاد

بالنسبة لمثل هذه المؤامرات ، لم يتم تسجيل اى تفاصيل كتابة) . ويصر على أن « الهاجاناه » لم يكن لديها أى مصلحة فى وقوع انفجار مدوى . بل انها كانت تنظر الى العملية أساسا كرمز فقط . وكان « سده » مهتما الى اقصى حد بتقليل احتمالات حدوث اصابات بين الاشخاص لدرجة انه اقترح توقيت القنابل لتنفجر بعد الظهر عندما يكون معظم العاملين قد انصرفوا الى بيوتهم (وهذه نقطة لا يدور حولها جدال) اما عن الوثائق فان « جاليلى » يرفض فكرة انها كانت عاملا دخل فى حسابات « الهاجاناه ». وليس هناك شك فى أن كلا من « الارجون » و « الهاجاناه » كان لديهما بعد وقوع الحادث ، دوافع قوية تجعلهما يحاولان تخفيف قدر المسئولية التى يتحملها كل منهما . بل ليس من المستغرب أن يكونا قد مارسا أساليب الدعاية السوداء ضد بعضهما البعض ، أو على الاقل أن يكون كل منهما قد حاول اضفاء اكبر قدر من البريق على الدور الذى اداه . وربما كان مما يؤكد صحة ادعاءات « الهاجاناه » الى حد ما ، التصريحات التى أدلى بها البريطانيون بانهم لم يحصلوا تقريبا على شىء من وثائق الوكالة اليهودية يزيد عما كانوا يعرفونه من قبل ، وربما كان ابسط سبب وراء ذلك هو عدم توفير مترجمين للعبرية يثقون بهم (أى من غير اليهود) . ولقد جاء فى صحيفة « باليستاين ترانيجيل » ، (المثلث الفلسطينى) ، نقلا عن رجل شرطة يهودى انهم : « لم يكن لديهم أحد يستعينون به فى العمل ضد « الهاجاناه » سوى اشخاص من امثالى — ممن كانوا يدينون بالولاء للهاجاناه . وكنا نفرز جميع الاوراق ، ولكننا ، اذا عثرنا على ورقة تدين « الوكالة اليهودية » ، أو تضربها : كنا نلقى بها فى المرحاض ونغرقها بالماء . وبعد يومين أصبحت جميع مواسير الصرف فى مقر رئاسة المباحث الجنائية البريطانية مسدودة تماما .

وفى أول يوليو ، تلقى بيجين الاوامر بتنفيذ « عملية تشيك » ، وواصل باجلين عمله فى تنقيح خطته التفصيلية للتسلل الى قاعة « ريجانس » للطعام بالفندق ، عن طريق مدخل الخدم وطرقة « بالبدروم » تمر بطول الفندق . ولكن طلبت الهاجاناه فى ١٧ يوليو من بيجين تاجيل التنفيذ ، وذلك لاسباب لم يطلع عليها أبدا . وكان « سنيه » قد حظى بزيارة من « ماير وايزجال » ، المساعد الشخصى النشط والمخلص جدا « لحاييم وايزمان » . ويبدو أن وايزمان كان يعلم ان ثمة شيئا ما يدبر ، وان كان لم يطلع بالتحديد على ما هو هذا الشىء . وحاول وايزمان ان يستغل آخر قطرة من النفوذ لديه ، فى محاولة بطولية أخيرة لفرض سيطرته على اتجاه الاستراتيجية الصهيونية . وأعلن وايزجال هو يقرأ من بيان مكتوب :

« اننا نقف على حافة هاوية .. واذا ما واصلتم تنفيذ عملياتكم فلن

هذا سيكون بمثابة اعلان الحرب على بريطانيا العظمى . وانا واثق من ان بريطانيا لن تسكت وبذلك سنخسر كل ما كافحنا من أجله . ومازلت أشغل منصب رئيس الحركة الصهيونية ، ومن المعترف به عامة فى الانظمة الديمقراطية أن الرئيس يكون القائد الاعلى للقوات المسلحة ٠٠ وانا استخدم الان سلطتى هذه . وانا آمرك أن توقفوا فورا جميع العمليات التى تقوم بها الجمعيات السرية الثـــلاث » ٠

وهدد وايزمان بالاستقالة فورا وبان تكون استقالته مسببة اذا لم يخضع « سنيه » لهذا الانذار النهائى . واصر على أن اقل مايرضى به هـو تأجيل كل العمليات الى حين اجتماع اللجنة التنفيذية العليا « للوكالة اليهودية » فى اغسطس التالى بباريس ، لبحث افضل اسلوب لمواصلة النضال ٠ وعلى الرغم من أن « سنيه » لم يشارك « وايزمان » فى مخاوفه ، بل على العكس كان تواقا للعمل ، فانه لم يجد امامه مفرا من الرضوخ . فهذه أول مرة يتدخل فيها الزعيم المسن بطريقة مباشرة فى شأن من شئون « الهاجاناه » ٠ ونصح « جاليلى » « سنيه » بالاتجاه فورا الى « لجنة اكس » ، ويقول « سنيه » : « ان هذا كان خروجا على الاساليب المشروعة . وكنا نستطيع مجاراته ونقول لوايزمان انه يستطيع الاتصال بين جوريون ٠ ولكن كانت المسالة أخطر من ان نماطل فيها على اسس التمسك بالاجراءات الشكلية . فكان لابد من عرضها على « لجنة اكس » ، وكان لابد للجنة ان تتخذ قرارا بشانها . وشرح « سنيه » للجنة بدقة اعتراضـــات وايزمـــان ، وان لم يحـدد لها المبنى الذى ســـيتم ضربه . وعـــدل احد اعضـــاء اللجنـــة ــ وهـــو « ليفى اشكول » الذى اصبح فيما بعد رئيسا للوزراء ــ عن موقفه ، وبذلك سحبت الموافقة على تنفيذ العمليات الثلاث .

ولم يكن « بيجين » يعلم شيئا عن هذه الاتصالات المتبادلة . واكتفى « سنيه » بأن طلب التأجيل ٠ ولم تجد « عصابة شتيرن » بأسا من الانتظار ٠ أما « بيجين » فكان قلقا . فكلما زادت الفجوة الزمنية ، قلت احتمالات الاحتفاظ بسرية عملية « الملك داود » . ووافق مرتين على منح « سنيه » مهلة أخرى ، ولكن بدأ صبره ينفد . وكان قائد « الهاجاناه » يسلك طريقا ملتويا ووعرا فى محاولته التنسيق بين قادته السياسيين والارجون ٠ ومن الواضح ان « سنيه » كان يأمل فى تغيير السياسة الرسمية بمجرد أن يتحدث مع « بن جوريون » قبـــل انعـــقاد اللجنـــة التنفيذية العليـــا فى باريس ، ولكنه لم يكن يثق ببيجين بدرجة تكفى لان يطلعه على الحقيقة ووفقا « لجاليلى » ، فانه لم يكن يرغب فى ازعاج قائد « الارجون » :

«لم يذكر الحقيقة كلها ٠فاولا وقبل كل شىء ، فهو لم يكن مضطرا لذلك٠ ولم يكن مضطرا لان يطلع بيجين على أسرار الحركة الصهيونية : أى اسرار تنظيم « البيشوف » . ولكن كان هنك سبب اكثر خطورة . فهو لم يكن يرغب

فى تثبيط همة « بيجين » . فلو ان بيجين شعر بالاحباط نتيجة لاطلاعه على حقيقة ان الحركة الصهيونية قد بدأت تنسحب من النضال للتوصل الى نتائج بعيدة المـدى » .

واسفرت مراوغات « سنيه » عن تحقيق النتيجة التى كان يحاول تجنبها بالذات . فقد قام قائد « الهاجاناه » فى ٢٠ يونيو بابلاغ « بيجين» بأن «الوكالة اليهودية » تستعد لاعلان سياسة عدم التعاون مع البريطانيين وذلك فى ٢٥ يوليو . وكان هذا سببا آخر »فى عدم تنفيذ اى عمليات قبل ذلك التاريخ .ولم يستجب « بيجين . وبعث « سنيه » فى صباح ٢٢ يوليو بآخر نداء وجهه اليه فى جملة واحـدة : « يجب ان تمتنع مؤقتا عن تنفيـذ عملية القدس » . ولكن كانت « الارجون » قد كفت بالفعل عن تلقى اى اوامر .

وكانت القنابل المخبأة فى اربعة اوعية لبن ، قد وصلت الى القدس فعلا . وكان هناك كثيرون ـ فى الارجون و الهاجاناه « وعصابة شتيرن ـ يعرفون بخطة الملك داود حتى انه لم يعد ممكنا تجميدها لفترة اطول . وكان بيجين يرى انه قد حصل فعلا على موافقة « الهاجاناه » على عملية « تشيك » . ولم يكن احد قد ابلغه بالغائها ويقول يعقوب امرامى ، الذى خلف « ايلى تافين » كرئيس لمخابرات الارجون ، ان المنظمة ضاقت ذرعا بتأجيلات « سنيه » .

« لم نكن نعلم شيئا عن انذار وايزمان ، ولكننا كنا ندرك ان وايزمان يعارض فكرة النضال ضد البريطانيين وانـه يحاول التقليل من شـأن هذا النضال . وكنا نظن أنهم انما يريدون مجرد التأجيل . وكنا نعتقد بدرجة اكبر على حقيقة انهم كانوا طلبوا منا اصلا تنفيذ العملية ، ولم نر ان هناك سببا يدعو للتأجيل . ولم يقدم « سنيه » اى تفسيـر .

هذا وقد امتنع بيجين من جانبه عن الخوض فى المسألة اكثر مما ذكر فى كتابه «التمرد»الذى لم يحاول فيه تبرير أسباب رفض مطلب قائد «الهاجاناه».

وفى الساعة الثانية عشرة و٣٧ دقيقة من بعد ظهر الاثنين ٢٢ يوليـو من عام ١٩٤٦ ، انفجرت شحنة ناسفة من مادة « تى . ان . تى » وزنها ٣٥٠ كيلو جراما ، داخل مطعم « الريجانس » ، الذى كان خاليـا فى ذلـك الوقت ، وذلك قبل موعدها المحدد بست دقائق . ودمرت الدعائم الوسطى الموجودة تحت الجناح الجنوبى بفندق الملك داود ، وانهارت خمسون غرفـة من غرف مكاتب الادارة المدنية والعسكرية البريطانية ، محدثة صوتا مدويا وسط سحابة من الدخان وتراب الاسمنت . وتطايرت قطع الحجارة فى الطريق الرئيسى الذى يطل عليه الجناح ، لتقتل المارة وتصيبهم بالعاهات . وقذفت الانقـاض المتطايرة باحد المسئولين البريطانيين وقذفت به ليرتطم بحائـط مبنى « جمعية الشبان المسيحيين » المقابل للفندق ، ويخترقه بجسمه تاركا وراءه رأسـه

المنزوعة من اثر قوة الانفجار ودماءه المتناثرة على الحائط . وظل عمال الانقاذ يستخرجون جثث الضحايا من تحت الانقاض حتى بعد أسبوع من وقوع الحادث واعلن فى ٣١ يوليو الحصر النهائى لعدد ضحايا العملية التى اسفرت عن ٩١ قتيلا من بينهم : ٢٨ بريطانيا ، و ٤١ عربيا ، و ١٧ يهوديا ، واثنان من الارمن ، وروسى واحد ، ويونانى ومصرى . وبلغ عدد المصابين ٤٦ شخصا . وكان اكثر من نصف القتلى من الكتابيين ومن موظفات الالة الكاتبة والسعاة وغيرهم من صغار الموظفين فى السكرتارية وفى الفندق . وصدم « مناحم بيجين » ازاء فداحة الاصابات ، ولكنه سارع بالدفاع عن رجاله ، وظل حتى بعد ٤٠ عاما من وقوع الحادث ، يلقى بمسئولية حجم الخسائر على البريطانيين . فهم لم يكترثوا بالتحذير الذى ابلغ تليفونيا الى تحويلة تليفونات الفندق . واعلنت اذاعة « الارجون » السرية الحداد على الضحايا من اليهود — الذين اختصتهم بالذكر تمشيا مع اسلوب بيجين فى التمييز . وامتنعت الاذاعة عن اعلان الحداد على القتلى البريطانيين ، حيث ان بريطانيا لم تعرب عن حزنها على الستة ملايين يهوديا الذين هلكوا فى محرقة النازى . واعلنت « اننا سنواصل السير فى طريقنا — طريق المعاناة ، وطريق النضال — ونحن نطوى صدورنا على هذا الحزن وهذا الغضب ازاء مأساة اليهود المؤلمة » ويبدو أن «الارجون» لم يلاحظوا ان معظم القتلى لم يكونوا يهودا أو بريطانيين بل كانوا عربا . وكما يقول « ثيرستون كلارك » : بالنسبة للارجون ، فان العرب لم يكن لهم أى وجود ، بل كانوا كالاشباح غير المرئيين » .

وأصبح من المعروف الآن بصورة مؤكدة ان الارجون قد قاموا فعلا بتوجيه الانذار ، ولكنه لم يبلغ للسلطات البريطانية بأسلوب يوحى بالجدية ولا قبل فترة كافية تسمح للعاملين باخلاء الفندق قبل انفجار الشحنة الناسفة . ان ما وقع فى ذلك اليوم الحزين اثناء فترة تناول طعام الغداء كان بمثابة مأساة جاءت نتيجة لسلسلة من الاخطاء . ولكن لا يمكن اعفاء « منظمة الارجون » وقائدها من المسئولية الكاملة . فمهما كانت قلة تجاربهم السابقة ، لا يمكن تصور تنفيذ اى عملية تخريب على هذا النطاق الضخم دون ان يوضع فى الاعتبار احتمال وقوع خطأ . فمن شأن القنابل مثلا أن تنفجر قبل موعدها ، كما أن الرسائل قد تضل الطريق فلا تصل الى وجهتها المحددة . وكانت القدس قد تعرضت آنذاك لانتشار موجة من الانذارات الكاذبة وكأنها وباء . ولم يكن هناك ما يضمن عدم التعامل مع الانذار الذى وجهه « الارجون » على انه واحد من تلك الانذارات الكاذبة . كما كان من المعروف جيدا أن يوم الاثنين يعتبر أكثر أيام الاسبوع ازدحاما بالعمل بالنسبة للسكرتارية حيث انه يأتى فى اعقاب أيام الاجازة الاسبوعية للمسلمين واليهود والمسيحيين ولذلك فان معظم العاملين لم ينصرفوا لتناول الغداء قبل الساعة الواحدة بعد الظهر . وكان هذا هو السبب وراء اقتراح « الهاجاناه » تنفيذ العملية فى الوقت

متأخر من النهار حتى ولو أدى ذلك الى زيادة المخاطر التى يتعرض لها فريق « جيدى باجلين » .

لقد أبلغ التحذير الى الفندق تليفونيا بواسطة « أدينا هاى » البـــالغة من العمر ستة عشر عاما والتلميذة باحدى مدارس القدس التى كانت تتولى نقل رسائل الارجون . وبدأت « أدينا » فى اجراء اتصالاتها بمجرد ان انسحبت فرقة التخريب من « بدروم » الفندق . وتقول ان قائد العملية اعطى الاشارة التى سبق الاتفاق عليها تقول « أدينا » :

« دخلت حانوتا قريبا من فندق الملك داود ـ وكان محلا للعطور أو لبيع النظارات ـــ أو ربما كان يجمع بين الامرين ، واتصلت بالفندق . وقلت بالعبرية والانجليزية : « هنا المقـــاومة اليهودية .. لقد غرســـنا القنابل بالفنـــدق ، فالرجا اخلاء الفندق فورا .لقد أنذرناكم ، ثم هرولت عبر شارع الملك جورج . وكان يوجد آنذاك كشك للتليفون حيث توجد حاليا حديقة عامة . واتصلت بالقنصلية الفرنسية وابلغتهم ان ثمة قنبلة ستنفجر فى فندق الملك داود وطلبت منهم فتح النوافذ حتى لا تحدث اضرارا . ثم اتجهت الى شـارع يافا بالقرب من محطة الاتوبيس القديمة ، واستخدمت التليفون الموجود بمحل لبيع البويات واتصلت بصحيفة « بالستاين بوست » وابلغتهم بالعبرية اننا قمنا بزرع قنابل فى فندق الملك داود ، واننا حذرناهم هناك . وطلبت من الصحيفة تحذيرهم مرة اخرى واتجهت بعد ذلك الى معسكر اليهود ، وعندما وصلت الى محطة البوليس هناك ، تردد صوت انفجار هائل ، لقـــد كان هذا هو صوت انفجـــار فندق الملك داود .

ويمكن القول ان من المستحيل اتمام مثل هذه الرحلة ، حتى لو قامت بها فتاة مراهقة فى عجلة من أمرها ، فى مدة تقل كثيرا عن نصف ساعة ، اذا اخذنا فى الاعتبار المكالمات التليفونية الثلاث التى اجريت خلالها . وثمة دلائل مستقلة تؤكد أن المكالمات الثلاث قد تمت بالفعل . ويقول « نعيم نيسان » ، رئيس الخدم فى فندق الملك داود ، انه استدعى الى تحويلة التليفونات بالفندق :

« كان عامل التليفونات شاحب الوجه تماما . وقال ان امراة اتصلت به وابلغته ان ثمة قنبلة فى الفندق . وطلبت منه ان يهدأ والا يثير الرعب . وهرعت الى المدير ، مستر (ملكس) « هامبيرجر » ، الذى قال لى أن من السهل جدا على اى شخص ان يعلن ان قنبلة توجد بالفندق . فقلت له : لماذا المجازفة ولماذا لا يبلغ السلطات . والتقط سماعة التليفون وأدار على الفور رقم مقر القيادة البريطانية . ثم قال لى : « لا تقل لأحد . فان أحدا لن يغادر الفندق » . وكان قد سأل البريطانيين : « هل اخلى الفندق ؟ » . ولم اسمع الرد ولكنى اعتقد انهم ردوا بالنفى ، وان هذا هو السبب فى طلبه منى عدم ابلاغ احد ،

وان احد لن يغادر الفندق . واتجهت بعد ذلك لاستئناف اعمالى بعيدا عن قاعة « الريجانس » وكنت فى موقعى هناك عندما وقع الانفجار .

ولم يوجه « نيسان » ، فيما بعد ، اي اسئلة الى « هامبرجر » حول هذا الموضوع : « انه لم يتحدث ابدا بعد ذلك من المسألة ، ولم يحدث ابدا ان اثرتها معه مرة أخرى . فهو في غاية التشدد » . وكان « نيسان » يهوديا عراقيا ، عمل من قبل لدى الاسرة المالكة في بغداد . وقد تزوج ، بعد الحادث باربع سنوات ، من « ادينا هاى » ، ولكن لم تكن له اي صلة « بالارجون » . وهو كان على صلة بعم « ادينا » ولكنه لم يحدث ان قابلها الا بعد فترة طويلة من الحادث . ويؤكد « اميل سوتير » المدير المساعد بالفندق ، صحة رواية « نيسان » فى مضمونها . وكان « اميل » قد استبعد صدق التحذير فى البداية على اساس انه خدعة . ويعترف « سوتير » وهو مسيحى سويسرى متزوج من بريطانية ، بأن عمال التليفون اخطروه ثلاث مرات بالتحذير .

وقد تأكدت ايضا صحة الانذارات الاخرى ، حيث اثرتها كل من « البالستاين بوست (او الجيروسالم بوست حاليا) ، والقنصلية الفرنسية ، بل ان عامل تحويلة الصحيفة قام بإخطار الشرطة . وقد عثر على تلك الرسالة مسجلة في سجلات المباحث الجنائية . وقد بعث جندى فرنسى كان يخدم فى قوات حفظ السلام للأمم المتحدة بجنوب لبنان ، عندما أعيد فى عام ١٩٨١ نشر رواية « ثارستون كلارك » عن أحداث ذلك اليوم — بعث برسالة الى « ادينا نيسان » يبلغها فيها أن والده كان قنصل فرنسا بالقدس علم ١٩٤٦ ، وانه يذكر كل تفاصيل الحادث منذ ايام طفولته .

وبالقاء نظرة تحليلية على الماضى ، نجد أنه من الواضح أن البريطانيين كانوا سيتصرفون بسرعة اكبر ازاء التحذير لو أن « ادينا هاى » اتصلت تليفونيا بالسكرتارية مباشرة ولم تكتف بالاتصال بتحويلة تليفونات الفندق . ولم يكن رقم السكرتارية سرا . ولكن كانت « منظمة الارجون » تعتقد أن اجراء مكالمة واحدة هو أنضل طريق لتحذير كل من الفندق والسكرتارية فى آن واحد . وكان « اسحاق افينوم » ، قائد الارجون المحلى بالقدس الذى تلقت منه « ادنيا » الاوامر ، يعتقد أنه مجرد ابلاغ التحويلة يكون بمثابة اطلاق جرس الانذار ، وانه بمجرد الضغط عليه يتم نقل التحذير الى كل من ادارة الفندق والبريطانيين فى آن واحد . ولكن ، على خلاف ظن « الارجون » ، من الواضح أن عمال التحويلة لم تكن لديهم سلطة اطلاق الانذار على مسئوليتهم الشخصية .

ويظل التساؤل معلقا : لماذا لم يقم البريطانيون باخلاء السكرتارية عندما علموا بالانذار من « همبورجر » ومن الشرطة ؟ ان ابسط رد على هذا هو ان الاوان كان قد فات . ولكن المسألة تنطوى على ما هو اكثر من ذلك . فان

« مناحم بيجين » ظل يروى في الاحاديث التي أدلى بـها حتى وقت قريب ـ وكان آخرها فى عام ١٩٧٦ ـ أن السير « جون شو » ، سكرتير عام الادارة البريطانية ، تلقى التحذير ورد قائلا فى غطرسته المعتادة : « اننى موجود هنا لاصدار الاوامر الى اليهود ، وليس لتلقى الاوامر منهم » . وكانت هذه الرواية قد نقلها يسرائيل جاليلي ، عضو الهاجاناه ، الى « بيجين » فى ظرف ايـام قليلة من وقوع الكارثة . ويقول « جاليلي » بدوره عن صحفى أمريكى (توفى بعد ذلك) وقد رفع « شو » دعوى تشهير ضد صحيفة لندنية يهودية صـغيرة منذ فترة طويلة ترجع الى عام ١٩٤٨ ، عندما قامت بنشر الخبر . وقد اقسم « شو » وسكرتيرته انهما لم يتلقيا اى انذارات . وقد سحبت الصحيفـة زعمها بدلا من الدفاع عنه ، حيث انها لم تستطع العثور على اى شهود اثبات . وتقول « جوزفين » ، زوجة « شو » ان الخبر مختلق تماما بهدف الاسـاءة الى سمعة السير « جون » ولتخفيف جزء من المسئولية عن كاهل الارجون ، ولكن ليس هناك اى دليل ايضا يثبت هذا الادعاء . ويسلم « شمويل كاتز » ، مدير دعاية « بيجين » ، فى تسجيله لتاريخ كفاح « الارجون » ، « بامكانية استبعاد » الرواية الخامسة برد « شو » على الانذار .

ومع كل هذا ، فان شخصا ما بالادارة البريطانية تلقى الانذار ، وهناك الكثير من المعلومات التى تؤكد أن شيئا ما قد وقع خطأ . وربما كان هذا هـو سبب المشكلة . فان « باجلين » ورجاله كانوا قد دخلوا الى « بدروم » الفندق متخفين كعمال عرب . واثناء اعداد قنابل المتفجرات فى قاعة « الريلجنس » للطعام شاهدهم ضابط بريطانى برتبة « ميجور » فاطلق الانذار . واثنـاء الارتباك الذى وقع ، اطلق احد رجال « الارجون » النار عليه . وابلغ الحادث الى رجال الامن البريطانيين ، ولكن ساد اعتقاد خاطىء بأنه اشتبك مع بعض اللصوص العرب . وقام رجال « الارجون » بعد ذلك بتفجير شحنتين صغيرتين فى « طريق جوليان » ، وهو الشارع الرئيسى الذى يقع عنده فندق الملك داود، لاجبار البوليس على اغلاق الشارع مما يضمن عدم زيادة عدد الاصـابات المحتملة . وانفجرت القنابل قبل موعدها ، مما زاد من الارتباك العام . وسمع سير « جون شو » هذه الانفجارات من حجرة مكتبه بالدور الرابع ، فعبر الممر الواقع خارجها لتقصى الامر ، وتوصل الى ان المسألة لا تزيد عن كونهـا واحدة من الحوادث « العادية » المألوفة فى عام ١٩٤٦ . ورأى أن البوليس بوسعه معالجتها حيث ان لديه اشياء اهم من ذلك يؤديـها . ومن الواضح ، كذلك ، أن التحذير الذى وجهته « ادينا هاى » ، من خلال شبكات اتصـال الفندق والامن ، لم يتم تقييمه على اعتبار انه حدث منفرد ، بل على اساس انه جزء من الفوضى التى كانت تسود القدس حيث كانت اصوات الانفجـارات والطلقات والهرج والمرج من الامور المعتادة . واذا كان قد وقع اهمـال من جانب البريطانيين فيما يتعلق بالامن ، فانه لم يتجاوز نطاق الاخطاء البشريـة

المسموح بها . ولقد دفع البريطانيون ، والعاملون لديهم ، وزوارهم ثمنـــا فادحا للغاية مقابل هذا الخطأ .

بيد انهم قضوا على الجزء الاكبر من مشاعر التعاطف التى حظوا بهـا فى بداية الامر ، وذلك عندما وصل انى الصحف والصهاينة خطـــاب دورى أصدره القائد العلم الجديد للقوات البريطانية ، الجنرال سير « افلين باركر » ، الى قواته . وكان سير « باركر » قد كتب الخطاب الذى ندم فيما بعـد على اصداره ، فى ثورة من الغضب ، ولكنه استغل كقرينة تؤكد اسوأ الشـكوك السائدة ازاء النوايا البريطانية ، فقد اعلن :

« يجب على جميع الجنود البريطانيين الامتناع عن اقامة اى عـــلاقات اجتماعية مع اليهود ، ويجب الا تجرى اى اتصالات معهم خارج نطاق الالتزامات الرسمية فقط ، وان يكون ذلك فى اضيق الحدود الممكنة . وانا ادرك ان هـــذه الاجراءات من شأنها اثارة بعض المتاعب بالنسبة للقوات ، ولكنى واثق مـــن انهم لو فهموا تماما الاسباب التى دفعتنى الى اتخاذها فانهم سيدركون انهـــا لائقة ، وانها كفيلة بمعاقبة اليهود بأسلوب يكرهه هذا الجنس اكثر من شىء آخـــر ، الا وهو تغريمهم ماليا واظهار احتقارنا لهم » .

وقد ضاعفت عملية « الملك داود » من كراهية الجمهـــور البريطانى « للارهاب اليهودى » . ولكنها ساعدت فى الوقت نفسه على زيادة ايمـــان الحكومة بحتمية التوصل الى حل سياسى . فان الكرامة البريطانية تأثرت فعلا كما تأثرت معها ارادة الاستمرار فى حكم فلسطين . أما داخل المعسكر اليهودى فان هذه العملية كانت بمثابة توقيع حكم باعدام المقاومة المشتركة . فأجبـــر « موشيه سنيه » ، أكثر قادة « الهاجاناه » ثورية ، على الاستقالة . ووافق « بن جوريون » فى باريس على العودة الى الوسائل الدبلوماسية التى شملت الموافقة رسميا على قبول مبدأ التقسيم . وتوقفت الهاجاناه تقريبا عـــن كل عملياتها التخريبية لمدة سبعة عشر شهرا . وكمـــا توقـــع « بيجين » فان « الارجون » و « عصابة شتيرن » ، وجدوا أنفسهم مضطرين الى مواصلة الطريق بمفردهم ، دون الحصول على معونة من أحـــد . وكانت هـــذه هى احدى التوقعـــات التى اثبتت الايام صحتها ، دون أن تترك لديه اى شـــعور بالاغتباط ازاء انتصار رأيه .

الفصل الثامن

« النفس بالنفس »

كان لعبارة « فلينتقم الله لدمائهم ! » ، التى جاءت فى البيان الذى أصدره مجلس الوزراء الاسرائيلى فى ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢ ، فى نهاية اجتماعه الاسبوعى ، صدى مدويا . وأحدث هذا الدعاء باستنزال اللعنة ، هزة عنيفة فى اعضاء السلك الصحفى بالقدس الذين كانوا يشعرون بالتعب المعتاد الذى يسيطر عليهم فى عطلة نهاية الاسبوع ، وايقظهم من اغفاءتهم بعد ظهر يوم الاحد المذكور . لا يمكن أن يكون هناك سوى رجل واحد يستطيع ان يكتب مثل هذه العبارة : « مناحم بيجين » الذى يتولى رياسة وزراء اسرائيل طوال الخمس سنوات السابقة . وعلى الرغم من أن البيان بدأ بالموافقة على اجازة لسفير مخضرم ، ثم اشارة غامضة الى استعراض المسائل الدبلوماسية والامنية ، فان هذا الاجتماع لمجلس الوزراء لم يكن اجتماعا عاديا . فقد جاء فى الفقرة الثالثة من البيان اعلان عن اصدار مجموعة جديدة من الطوابع البريدية ، الامر الذى كان من الممكن اعتباره ، فى ظروف اخرى ، بمثابة مسألة غير مثيرة للاهتمام تماما كما كان الحال بالنسبة للبنود التى سبقته . ولكنها كانت طوابع تثير الشعور بالورع بنفس درجة اثارتها لاهتمام هواة جمع طوابع البريد . اذ ان هذه الطوابع العشرين صدرت « تخليدا لذكرى شهداء الجيل الذى اسس دولة اسرائيل » . وقد تضمنت المجموعة ، من اجل المحافظة على المظاهر ، شخصيات وطنية بارزة من امثال « حنا سنيش » ، شاعر « الكيبوتز » الذى أعدمه النازى بعد أن تقفز بالمظلة الى داخل اوروبا المحتلة ، و « ايلى كوهين » الجاسوس من دمشق . ولكن أحدا لم يندهش عندما ظهرت على عشرة طوابع من ضمن العشرين طابعا ، صور المناضلين من « الارجون » و « عصابة شتيرن » الذين اعدمهم البريطانيون شنقا ، ورجلين فجرا نفسيهما اثناء وجودهما داخل زنزانة المحكوم عليهم بالاعدام .

لقد كان قائدهم القديم يدفع الدين الذى فى عنقه لهم . فهؤلاء الاشخاص كانوا بالنسبة « لمناحم بيجين » آخر الشهداء ، وأبطال ملحمته الشخصية ، وكان « بيجين » يضعهم على منصة تسمو فوق كل منصة اخرى لغيرهم من المقاتلين فى صفوف « الارجون » الذين سقطوا فى ميدان المعركة ، والذين يحمل لهم فى نفسه كل تقدير . ان اولئك هم الرجال الذين قال عنهم ، وهو يفيض فى التعبير عن اعجابه بهم فى كتابه « التمرد » ، انهم اجتازوا الاختبار :

« ليست هنك معركة مجيدة ، ولا هجوم عاصف . ولكن هناك فقط التفكير والتأمل — التفكير فى الوقت الذى أخذ ينفد مع كل دقة من دقات

الساعة . والتفكير فيها وراء الزمن . ان الايام تمر بطيئة وطويلة ولكن الليالى أطول . والوقت يمتد ويتيح فرصة أطول من اللازم للتأمل . ويطوف بالذهن ذكرى شيء ما او شخص ما . ذكرى صوت أم مسنة ، أو زوجة شابة ، وهو ياتى من بعيد ولكن بوضوح كامل . ان الملابس الحمراء التى يدثره بها الجلاد ، تذكره على الدوام بأن أيامه اصبحت معدودة ، وأن الشمس التى تسطع خارج زنزانته المظلمة لا تعمل على محو الليل وانما تعمل على زيادة اقتراب الظلام الأزلى . ان المرء لا يستطيع هنا كبت غريزة حب البقاء . فان الصراع المؤلم يستمر معها ، فهو يبدأ صباح كل يوم من جديد وكل ساعة وكل دقيقة ، ويستمر يدور فى ذهنه عندما يخلد الى النوم وعندما يقوم من نومه وفى غدوه ورواحه وفى وحدته عبر زنزانته المغلقة » .

لم يكن الامتحان مجرد اختبار فى الشجاعة ، وانما فى الانضباط والالتزام ويشرح « يعقوب أمرامى » ، مدير مخابرات « الارجون » ، هذا الامر قائلا : « لقد ذهبوا الى المشنقة لانهم لايعترفون بالحكم البريطانى ، وكان بعضهم على الاقل يستطيع ان ينجو بجلده لو انهم قبلوا السلطة القضائية للمحاكم البريطانية ولم يجبرهم أحد على الرفض ، وكانت لديهم حرية اختيار مطلقة . فقد مزق « دوف جرانير » ، وهو أكثر هؤلاء الشهداء اخلاصا ، توكيلا رسميا كان قد وقعه يفوض فيه أحد المحامين باستئناف الحكم . لقد كان هؤلاء شهداء بمعنى الكلمة : رجال اختاروا الموت فى سبيل هدف . كانت تضحيتهم تشكل جاذبية خاصة بالنسبة « لبيجين » الرومانسى والمعتقدى ، القائد والمتفرج فى وقت واحد . لقد كانوا يتصرفون وكأنهم شخصيات خرجت من بين صفحات رواية بقلم « جابوتنسكى » ، حيث يقومون بتوجيه قضاتهم ثم ينشدون « الحاتيكفا » (نشيد الحركة الصهيونية) وهم يقفون عند المشنقة . وعندما توفيت « اليزا بيجين » فى نوفمبر من عام ١٩٨٢ ، دفنت عند جبل الزيتون بالقرب من مقابر « مائير فينشتاين » و « موشيه برازانى » ، اللذين خدعا الجلاد بأن فجرا قنبلة يدوية مهربة اليهما فى سجن القدس المركزى . وكان « بيجين » قد طلب فى وصيته التى كتبها بعد انتخابه رئيسا للوزراء فى علم ١٩٧٧ ، أن يدفن هو وزوجته بجوارهما .

وكان « بيجين » بصفته قائدا للارجون يقدر أرواح المقاتلين حق قدرها . فكان يصر قبل تنفيذ اى عملية على ان تتضمن خطة للهروب قابلة للتنفيذ . ومع ذلك فقد كان يضع فى اعتباره احتمال أن يتعرضوا احيانا للمقاومة ، وأن يموت بعضهم أو أن يصابوا بعاهات ، بينما يعتقل آخرون بل وقد يتعرضون للنفى أيضا . وهذا هو ثمن « التمرد » . فلذا كانت المعركة ذات قيمة فانها تكون جديرة بالتضحية . وكان « بيجين » يرفض السكوت على الاذلال بواسطة المشنقة او السوط . فقد عانى اليهود فى شتاتهم بالمهجر فى

صمت من مثل هذا الاذلال ، ولكنهم لن يسكتوا عليه فى وطنهم القومى . ولم ينس « بيجين » عندما كان طفلا واجبر على مشاهدة تنفيذ عقوبة الجلد العلنى فى زعماء اليهود « ببديست ـ ليتوفيسك » ، بناء على أوامر احد الجنرالات البولنديين ، ويقول « كنت آنذاك فى السابعة ، ولكن بشاعة هذا المنظر المهين لم يمح من ذاكرتى مطلقا » .

وكانت عمليات الشنق والجلد بالسياط من الاساليب التى اعتاد البريطانيون على استخدامها من أجل قمع حركات التمرد بالمستعمرات وان كان ذلك فى الحالات القصوى . وكانوا ينفذون الاعدام فى أعداد من عرب فلسطين تفوق عدد اليهود . ولكن لم يرد على البريطانيين بالمثل ، من بين الجماعات المتمردة ، سوى « منظمة أرجون زفاى ليومى » . وقد تمكنت المنظمة من وقف عمليات الشنق والجلد التى مارستها السلطات البريطانية بممارستها الشنق والجلد بالسياط ضد الضباط وضباط الصف البريطانيين أنفسهم وردت على الاهانة بالمثل ، ليس ضد الجنود كأفراد فحسب بل ضد النظام ككل . وما زال الالم الناجم عن تلك الاهانة قائما حتى اليوم . ويتردد ان « مارجريت تاتشر » قالت بعد مرور ثلاثة عقود على تلك الاحداث ، لرئيس وزراء آخر فى الكومنولث ، انها لا تستطيع مطلقا مصافحة رجل مسئول عن شنق اثنين من الجنود البريطانيين برتبة سيرجنت (ومع هذا فقد استقبلت مناحم بيجين فى مقر رئاسة الوزارة فى داوننج ستريت) .

وقد اثمر أول تهديد وجهته الارجون ، فقد القى القبض على كل من « ميشيل آشيل » و « يوسف سمحون » ، عضوى المنظمة ، وهما فى طريقهما الى المستشفى بعد أن اصيبا اثناء اشتراكهما فى غارة مسلحة وقعت فى ٧ مارس عام ١٩٤٦ ، ضد احد معسكرات الجيش بصرافند . وكانت فرقة من « الارجون » قد تسللت الى القاعدة العسكرية متخفين فى زى جنود مظلات بريطانيين ، ولكن اكتشف أمرهم عندما طمع احد أفرادها وحاول انتزاع مدفع آلى من طراز « فيكرز » من فوق احدى الدبابات . وانسحبت الفرقة فى غير نظام . وصدر الحكم بالاعدام ضد « اشيل » شاعر الارجون ، و « سمحون » وردت المنظمة على ذلك باختطاف ستة من الضباط البريطانيين : خمسة من احد نوادى تل أبيب والسادس من القدس . وقد تمكن الاخير من الهرب ، مما سبب « لبيجين » الشعور بالخزى الابدى . وفرضت السلطات حظر التجول فى تل ابيب ، وبدأت عملية التفتيش من بيت الى بيت وأعلن « بيجين » أن الارجون سترد على « الشنق بالشنق » . وجرت المفاوضات بين الطرفين من خلال الوسطاء اليهود . واطلقت « الارجون » ، كتعبير عن حسن النية ، سراح اثنين من الضباط المحتجزين واعطيت كل واحد منهما جنيها كتعويض عن أى أضرار لحقت بهما . واعلن الضابطان انهما لقيا معاملة طيبة . وعندما تم استرداد عضوى

« الارجـــون » ، التى الرهائن البريطانيون الباقون فى وسط تل أبيب ، وهم محشورون داخل صندوق شحن . وخرجوا منه ، وهم يرتدون زيهم العسكرى الانيــق الذى كان قد تم كيه ، مما أثــار سخرية وضحك المــارة . لقــد عقــدت « الارجـــون » صفقة ولم تتراجع عن تنفيذها .

ولكن لم تكن للعملية التالية نهــــــاية سعيدة مماثلة ، وان كانت قد أسفرت عن تحقيق نصر آخر « للارجـــون » . فقد صدر حكم ضد « بنيامين كيمتشى » المقاتل فى الارجـــون البالغ من العمر سبعة عشر عاما ، بالسجن لمــدة خمسة عشر عاما مع جلــده ثمانى عشرة جلدة عقابا لــه عن حمــل الســلاح . وردت « الارجـــون » على ذلك باعلان : « اذا استخدمتم السوط ضدنا ، سنستخدم السوط ضـــــــدكم » . ومع ذلك تم جلد « كيمتشى » ونفــذ « بيجين » وعيده ، حيث تم اختطــاف ضابط بريطانى برتبة ميجـــور وثلاثة ضباط صف من تل أبيب ونيتانيــا وريشون لوزيون . وتلقى كل واحــد منهم ثمانى عشرة جلدة قبل الافراج عنهــم . وقــد اكــد البيــان الذى صدر وهو يحمل شعارا يصور ضفتى الاردن وبندقية وتحتها فقــــرة تقول « ليس أقل من هذا » : ان المنظمة لن ترد « بالســـوط فقط مســتقبلا ، اذا استمرت عناصر القهــر فى جرائتهــا التى تهــدف الى الحــاق الاهانــة الجسمانية بالشباب اليهودى وشرفه القومى والانســـانى ، بل اننــا سنرد بالنــار » . وابتلع البريطانيـــون كبرياءهم . فأعفى شــاب آخــر من « الارجـــون » كان قد اعتقل مع « كيمتشى » من عقوبــة الجــلد . ولــم يوقع البريطانيون بعد هــذا عقوبة الضرب بالســـوط على أى من اليهـــود أو العرب طوال المــدة المؤلمــة الباقية لهم فى « الارض الموعـــودة » ومهمـــا يكن من أمر ، فقــد تحققت امنية احــد الجنـــود البريطانيين ، كتب عبارة على أحد ملصقات « الارجون » التى تحذر جميع ضباط الجيش البريطـــانى من احتمالات تعرضهم للجلد بالسوط .. كتب يقول : « لا تنسوا الضابط الذى يرأسنى برتبة سيرجنت — ميجور » .

أما استخدام حبل المشنقة فقد احتاج الى جهد أكبر لايقافه . اذا احتاج الامـــر الى تنفيذ الاعدام شنقا فى سبعة من رجال « بيجين » قبل أن يتــم ايقاف مثل هذا الحكم . كما استدعى الامر ان يلحق بهم اثنان من الجنـــود البريطانيين برتبة سيرجنت ، تم تنفيذ الاعدام فيهما شنقا بمقصـــلة أقيمت خصيصا لهذا الغرض ، لا لاى ذنب ارتكباه سوى كونهما بريطانيين موجودين بفلسطين فى ذلك الوقت . وكانت حكومة « اتلى » والادارة البريطانيـــة فى القدس ، فى وسط هذا الجـــو من الارهاب الذى يزداد جراة ، تقعـــان تحت ضغوط مكثفة من الراى العـــام لاستعراض قوتهما . ومن ثم فقــد أصبح « دوف جرانر » المهاجر اليهودى المجرى البالغ ثمانية وعشرين عاما

والذى أصيب بجراح مرتين اثناء خدمته فى الجيش البريطانى رمزا لروح التحدى المميزة للارجون ، وللاصرار البريطانى .

وقد القى القبض على « جرانر » فى أعقاب غارة مسلحة على مركز شرطة « رمات جان » فى ٢٣ ابريل ١٩٤٦ وكانت فرقة من الارجون قد دخلت المبنى متخفية كجنود بريطانيين جاءوا لتسليم مجموعة من المعتقلين العرب . وعندما لم يعثروا على مفتاح خزينة الاسلحة ، قاموا بنسف الباب ، مما نبه حامل مدفع برن يقف على سطح المبنى وأحد رجال الشرطة الذى اجرى اتصالا تليفونيا طالبا النجدة . وفقدت « الارجون » فى هذه المعركة غير المدبرة ، ثلاثة من رجالها . وتحطم فك « جرانر » عندما أصيب برصاصة فيه ، وكاد أن يفارق الحياة عندما عثر عليه رجال الجيش . واجريت له سلسلة من العمليات الجراحية ، واصبح لائقا للمثول امام القضاء حيث جرت محاكمته فى يناير سنة ١٩٤٧ بالقدس . ووجه « جرانر » اثناء شرحه للاسباب التى تجعله يرفض حق المحكمة فى مقاضاته ، اتهاما الى بريطانيا بتحويل « أرض اسرائيل التاريخية » الى قاعدة عسكرية وباغتصابها من الشعب اليهودى « لذلك فلم يعد هناك اى اساس قانونى لحكمكم ، الذى أصبح لا يقوم الان سوى على مبدأ واحد فقط : القوة الغاشمة ، الممثلة فى استخدام السلاح وسيادة الارهاب المتخفى فى صورة القوانين المزعومة . لقد صيغت هذه القوانين بواسطة حاملى الحراب . وهم يصدرونها ثم يطبقونها بما يتناقض مع الحقوق الاساسية للانسان ويتعارض مع ارادة الشعب المحلى والقانون الدولى » .

وعندما أصدر القضاة العسكريون الحكم عليه بالاعدام شنقا ، رفع صوته مرددا النشيد الصهيونى وهو يقف فى قفص الاتهام . وكان « جرانر » يفضل الحياة على الموت ، ولكن على أن يكون ذلك وفقا لمبادئه ، وليس لمبادىء قضاته . وكان المعتقلون من رجال « الارجون » يعرفون جيدا الفرق بين الاستشهاد والانتحار . وكانوا يودون أن يتم انقاذهم أو مبادلتهم ، ولكن على الا يكون المقابل هو التماس الرأفة . واصدرت « منظمة الارجون » انذارا ، وان كان اقل تحديدا من الانذارات السابقة : ان اعدام أسرى الحرب يعتبر جريمة قتل مع سبق الاصرار . ونحن ننذر نظام الحكم البريطانى بإراقة الدماء ردا على ارتكاب مثل هذه الجريمة » . وكان رد فعل « بيجين » المبدئى ، مرة أخرى ، هو اختطاف رهائن بريطانيين . فاختطف الميجور هـ . أ . كولينز ، الذى قيل انه ضابط مخابرات ، ولكنه كان فى واقع الامر ضابطا متقاعدا يشتغل فى الاعمال الحرة ، وذلك اثناء تناوله الشاى بمدينة القدس . واختطف كذلك القاضى « رالف ويندام » من قاعة المحكمة فى تل أبيب . ويبدو أن عملية الاختطاف

الاخيرة أزعجت البريطانيين أكثر من الاولى ، وان كان من المشكوك فيه أن السبب فى ذلك هو صلاته بالطبقة الارستقراطية ، كما كان يزعم « بيجين » ، وبدات الحكومة تحاول كسب الوقت بعد أن كانت قد قررت في بداية الامر تنفيذ حكم الاعدام علي « جرانر » بصرف النظر عن العواقب . فاعلنت تأجيل تنفيذ الحكم الى أجل غير مسمى لاتاحة الفرصة له لتقديم التماس الى « المجلس الملكي الخاص » . وكان هذا الاعلان بمثابة نقطة تحول فى القضية وكانت جماعة « الارجون » تواجه تفوقا عدديا . وقرر « بيجين » ان استمرار احتجاز الرهائن لن يحقق شيئا ، خاصة وأن المخبأ الموجود به القاضي « ويندام » ، لم يكن آمنا علي الاطلاق ولكن عندما اتضح أن البريطانيين كانوا لا يزالون مصممين على شنق « جرانر » وثلاثة آخرين — هم « يحيل دريزنر » ، و « مردخاى الكوشي » و « الايزر كاشاني » — لم تدبر « الارجون » عملية الانقاذ بسرعة كافية . وكانت البلاد كلها تخضع للقوانين العسكرية ، ونقل الرجال الاربعة المحكوم عليهم بالاعدام من القدس الى حصن عكا ، حيث اعدموا فى ١٦ ابريل عام ١٩٤٧ ، تحت ستار قانوني من الدخان . وقبل بعد أسبوع واحد « فينشتاين » و « برازنى » ، من الارجون و « عصابة شتيرن » ، على التوالي ، بتفجير قنبلة يدوية ، تم تهريبها اليهما داخل برتقالة . وكانا ينويان أن يصحبا معهما الجلاد الى القبر، ولكنهما رجعا عن ذلك عندما أصر حاخام السجن علي مرافقتهما حتى حبل المشنقة .

وقد حققت « الارجون » ، ابان صيف ذلك العام ، اكبر انتصاراتها ، اقتحام حصن عكا ، الذى كان يبدو منيعا منذ عهد الصليبيين — ولكنها عانت أيضا من آلام تنفيذ أحكام اعدام أخرى واتخاذ القرار الصعب بشنق الجنديين اللذين يحملان رتبة سيرجنت واللذين تحتجزهما المنظمة . وتمت عملية اقتحام الحصن الكائن فى وسط المدينة العربية ، عن طريق تنفيذ خطة معقدة لاختراقه من الداخل والخارج . وقد بلغ المجموع الكلى للمسجونين الذين هربوا من الفجوة التى فجرت فى الجدار الحجرى السميك ٢٥١ سجينا منهم ١٣١ عربيا ، والباقى ١٢٠ من اليهود . ولكن كانت الخسائر فادحة فى المقابل ، حيث قتل خمسة عشر يهوديا اثناء المطاردة كما القى القبض على خمسة آخرين . وكان من بين القتلى «ميتشيل اشيل » الذىكان قد نجا من حبل المشنقة منذ عام مضى وقدم ثلاثة من المعتقلين الجدد — وهم « اشفالوم جيب » ، و « مائير ناكار » و « يعقوب ويز » — الي المحاكمة بتهم عقوبتها الاعدام . وقال أحدهم للقضاة :

« اننا نعلم أن هذه المعركة ستسفر عن نتيجة واحدة . فان شعبنا سيحصل علي حريته وسيجلو المستبد عن الارض . ولهذا فاننا نحتفظ بهدوئنا.بل الاكثر من هذا فاننا سعداء . فليس هناك سعادة أكبر من ان نهب حياتنا من اجل مثل

اعلى ، وان نعلم ونعلم بما لا يترك مجالا للشك ، اننا من بين أولئك الذين يلعبون دورا مباشرا فى سبيل تحقيقه » .

وادرك « بيجين » أنه يجب على « الارجون » ان تأخذ رهائن من رتب عالية ، حتى يستطيعون انقاذهم • ولكن منذ تنفيذ عمليات الاعدام السابقة أصبح البريطانيون على حذر ، مما جعل تنفيذ ذلك أمرا صعبـــا • واضطر «الصيادون» فى نهاية الامر الى الاكتفاء باختطاف اثنين من جنود المخابرات برتبة سيرجنت ، أثناء عودتهما الى مسكنيهما سيرا على الاقدام وهما يرتديان الملابس المدنية بعد ان قضيا ليلة فى مصيف ناتانيا بدون تصريح • وتمت عملية الاختطاف عن طريق ضرب السيرجنت « كليفورد مارتن » و « ميرفن بيس » بالهراوات وتخديرهما بالكلورفورم ثم نقلهما بسرعة الى مخبأ أعد خصيصا لهذا الغرض أسفل مصنع لصقل الماس بناتانيا » . وكان حارس سجنهما هو «جيدى باجلين» رئيس عمليات الارجون . وأعلن البريطانيون تحديد اقامة جميع سكان المدينة اليهودية ، وتم استجواب ١٤٢٧ شخصا منهم ، ولكن بقى الجنديـــان فى زنزانتهما الخانقة بمرحاضها المصنوع من قماش سميك والاوكسجين المعبأ.ونفذ حكم الاعدام فى ٢٩ يوليو عام ١٩٤٧ ، فى المسجونين الثلاثة من منظمـــة الارجون ــ « جيب » « نكار » و « نيس » ، حيث اقتيدوا الى حبل المشنقة فى عكا . وفى ظرف ساعات قليلة من ذلك ، لحق بهم كل من السيرجنت « مارتن » والسيرجنت « بيس ». وتولى « باجلين » بعد التشاور مع « بيجين » ، مؤكدا له امكانية تنفيذ العملية وتم شنقهما بواسطة عارضة خشبية فى سقف مصنع الماس المهجور . ثم نقلا الى غابة صغيرة من أشجار الكافور حيث تركت جثتيهمـــا تتدليان من شجرتين • ووضع « باجلين » لغما بالقرب من الشجرتين على أمل ان يقتل جنديا ثالثا حتى يتحقق التعادل ، ولكن عندما تأخر البوليس فى العثور على الجثتين اخطرت منظمة « الارجون» الشرطة بمكانهما ، مع تحذيرهم من وجود الغام فان « باجلين » كان يخشى ان يصيب اللغم اى جندي يهودى قد يشترك فى مهمة البحث وبناء على التحذير ، فان البريطانيين سحبوا الجثتين مستخدمين الحبال والخطاطيف ، معتقدين ان الجثتين ذاتهما ملغومتان . ومما زاد من بشاعة عملية استرداد الجثتين بالنسبة لفرقة الانقاذ العسكرية والشرطة والصحفيين والمصورين الحاضرين ، ان الجثة الاولى عند انزالها لمست اللغم الذى زرعه « باجلين » ففجرته وتطايرت اشلاؤها • أما الشجرة التى تحمل الجثة الثانية فقد اقتلعها الانفجار من جذورها واصيب ضابط برتبة كابتن من سلاح المهندسين الملكى كان يشرف على العملية ، فى وجهه وكتفه .

تردد صدى عملية شنق الجنديين فى جميع انحاء العالم ، مثلما حدث لعملية الانفجار فى فندق « الملك داود » وعملية الهروب من حصن عكا . ومع هذا فقد كان « مناحم بيجين » الذى صدق على العملية ، متحفظا بصورة غريبة

ازاء هذا القرار . وكتب يقول فى مذكراته التى نشرت فى كتابه « التمرد » :
« وفى اليوم التالى تم شنق البريطانيين . لقد عاملنا عدونا بالمثل . ولقد حذرناه مرارا وتكرارا . ولكنه تجاهل تحذيراتنا باصرار . لقد اجبرنا على الرد عليه بأسلوب « الشنق بالشنق » . وكانت ايام ساد الظلام نهارها كالليالى الخالية من النجوم » هذا هو كل ما قاله فى المساحة التى تقل عن صفحة واحدة والتى خصصها لعملية الشنق ، عن هذا القرار أما باقى المساحة فقد ملأها بتوجيه اللوم للبريطانيين لتنفيذهم « احكام الاعدام » التى لا معنى لها » .

بيد أن قرار قتل الجنديين لم يصدر ببساطة ، فقد بذل « بيجين » جهودا فائقة فى مشاورات مع زملائه بالقيادة العليا للارجون ، على الرغم من عدم وجود ما يفيد بأنه كان يعارض قرار الشنق . ويعتقد « يعقوب أمرامى » أن « بيجين » لم يكن يعرف تماما ما يجب عليه عمله . يقول « أمرامى » :

« لقد سأل الجميع عن آرائهم ، ولم يكن يريد أن يؤثر على الآخرين عن طريق اعلان موقفه . وأنا شخصيا كنت اؤيد القرار . وقام بمشاورة ستة او سبعة منا — مثنى وفرادى . ولم يكن هنك من يعارض القرار . وأنا لا أنفى أن البعض كانت تراودهم المخاوف . لقد كانت المسألة نسبية . وكان رأى البعض قاطعا ، بينما كان هناك آخرون لديهم بعض الشكوك ولكنهم قالوا نعم. وكان « بيجين » ، يريد أن يسهل المسألة على اى احد يريد أن يقول لا ، أو يعبر عن أى تحفظ .

« وكانت مشاورة كل اعضاء القيادة العليا بهذه الصورة ، عملا غير عادى ، وكانت القرارات تؤخذ عادة بواسطة موافقة اغلبية الاعضاء الموجودين . ولم أسمع « بيجين » يعترف مطلقا بعد ذلك بأنه كانت لديه بعض الشكوك . ولو أنه كان لا يوافق على القرار لعارضه بكل قوته ويدافع بقوة عن وجهة نظره . ولم يكن هنك آنذاك ، اى دليل على أنه كان يعارض القرار . وكان « بلجلين » اقوى المؤيدين لقرار الشنق — فان البريطانيين شنقوا رجاله هو » .

وجدير بالذكر أن احد الدارسين الاسرائيليين اكتشف بعد خمسة وثلاثين عاما أن والدة السيرجنت « مارتن » كانت يهودية مصرية . وكان والده قد تزوجها اثناء عمله فى السودان كموظف مدنى من وزارة المستعمرات . ووفقا للشرائع اليهودية فان هذا الامر يجعل السيرجنت يهوديا . وقد سئل احد أعوان « بيجين » ، الذى كان قد أصبح رئيسا للوزراء ، عما اذا كان هذا سيؤثر فى مصير السيرجنت ، لو انه كشف عن تلك الحقيقة آنذاك . وكان رده « فى الغالب لا » . فان تنظيم الارجون السرى قد سبق له ، على أى الحالات ، اغتيال يهود آخرين ممن اعتبرهم خونة .

ومهما يكن من أمر ، فان عملية شنق الجنديين البريطانيين حققت الهدف منها ، فلم يتم بعد ذلك اعدام أى ارهابى يهودى وان كان قد تم قتل خمسة من اليهود الابرياء عندما هاجمت جماعات من الجنود والشرطة البريطانيين في تل ابيب كرد فعل لعملية الشنق . واغلق « بيجين » صفحات القضية على أساس افتراض ان اعدام الجنديين البريطانيين قد انقذ أرواح عشرات من رجاله ورجال « عصابة شتيرن » خلال العام الاخير للانتداب البريطاني .

ولكن ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن « بيجين » كان يصر باستمرار ، منذ ان تولى رئاسة مجلس الوزراء ، على رفض مطالب زملائه من اليمينيين باعدام الارهابيين العرب . فقد حصل على كفايته من عمليات الاعدام ، كما انه كان يعلم جيدا قيمة الاستشهاد .

الفصــل التاسع

الخــروج من عش « الدبابــــير »

كان شنق كل من السيرجنت « مارتن » والسيرجنت « بيس » بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير بالنسبة للرايين العــام والبرلمانى فى بريطانيا . وكان رد الفعل المبدئى هو الغضب . فاجتاحت المظاهرات المعادية لليهــود فى لنــدن وليفربول ومانشيستر وجلاسجو وغيرها من المــدن البريطانية . ولكن سرعان ما تحولت الكراهيــة الى تساؤل : هل فلسطين تستحق فعــلا هذه التكاليف الباهظـــة التى يدفعهــا البريطانيون بأرواحهم ومكانتهـــم ومصالحهم ؟ لقد أخــذ الرد على هذا التساؤل يتبلور ابان صيف عام ١٩٤٧ ليصبح نفيا جازما .

واعترف سير « آرثر جريتش – جونز » ، وزير المستعمرات بمجلس العموم فى ١٢ أغسطس ، بأن « ثمة موجــة شــديدة من التساؤل تســود الجمهور البريطانى حول الاعباء والتكاليف التى تتحملها بريطانيا ، والمأساة الناجمة عن استمرار بريطانيا فى تحمل هذه المسئولية الدولية » . وكان هناك شــبه اجماع كامل بين أعضاء مجلس العموم ، الذين تم استدعاؤهم من اجازاتهم الصيفية لمناقشة مسألة شنق الجنديين ، على المطــالبة بانسحاب مبكر للقوات البريطانية . وقال « ونستون تشرتشل » فى خطاب وجهــه فى قصر « بلنهايم » الى أعضاء حزب المحافظين المعارض والمجتمعين هناك :

« ان (بريطانيا) تحتفظ بحوالى مائة الف جنــدى بريطانى فى فلسطين ونبدد من الاموال التى نحصل عليها بصعوبة ثلاثين مليون جنيه استرلينى ، او ربما أربعين مليون جنيه سنويا هناك ، .. وليست هنــاك اية مصلحة بريطانية فى استمرار الانتداب فى فلسطين . ولقــد بذلنا طوال ثلاثــين عاما تقريبا جل طاقتنا من اجل القيام بمهمة شريفة فرضناها على انفســنا تلقائيا . وقد طالبت الحكومة منذ عام باخطار الامم المتحــدة باننا نرفض تحمــل المزيــد من الاهانات والخسائر . ولكن الوزراء اكتفوا بفتح افواههم فى بلــه وتــردد بصورة مخزية فى اتخاذ القرار ، ومازالوا لا يفعلون شيئا ســوى ترك افواههم مفتوحة حتى الآن » .

وقد بعث « هيودالتون » ، عضو الوزارة العمالية ، برســالة الى « كيمنت آتلى » ، رئيس الوزراء ، يقول له فيهــا :

« اننى واثق تماما من أن الاوان قد حان تقريبا لكى نخرج كل قواتنا من فلسطين . فان الاوضاع الموجودة هناك حاليا ، لا تكلفنا غاليا من حيث الافراد والاموال فحسب ، ولكنها ، كما يعلم كلانا ، لا تشكل اية قيمة حقيقية من وجهة النظر الاستراتيجية ـ وعلى اى الحالات لا يمكن الاحتفاظ بقاعدة آمنة فوق « عش دبابير » ـــ وفضلا عن هذا فان بقاءنا هنا يعرض شبابنا لاقصى التجارب بلا داعى حقيقى ، مما يولد مشاعر معادية للسامية بسرعة مذهلة » .

وجاءت قوة ضغط الراى العام ، عقب شنق الجنديين البريطانيين ، على رأس قائمة الاسباب التى سردتها « اليزابيت مونرو » ، الخبيرة البريطانية فى شئون الشرق الاوسط ، وراء حدوث « التحول الضخم » فى موقف بريطانيا ، فتقول :

« ان الراى العام البريطانى اعتاد طوال سنين عديدة ان يتخطى اى عقبات تعترضه فى فلسطين ، وكان ينظر الى « الاضطرابات » و « العنف » هناك ، تماما كما كان ينظر الى « الاضطرابات » فى ايرلندا ـــ اى كتجربة مؤلمة على الرجل الابيض أن يتحملها كجزء من أعبائه ، ولكن هذا الاتجاه تغير فى الاول من أغسطس سنة ١٩٤٧ ، وكان السبب فى هذا التغيير هو تنفيذ الاعدام شنقا فى جنديين بريطانيين شابين برتبة سرجنت ، على يد الارهابيين اليهود الذين ارتكبوا هذا العمل كاجراء انتقامى . فلهجة جميع التعليقات التى ترددت فى الداخل ازاء هذا العمل تختلف تماما عن التعليقات على الاعمال الارهابية السابقة ، والتى اسفر بعضها عن خسائر أفدح فى الارواح ـــ كعملية نسف فندق « الملك داود » مثلا . وقد نشرت الصحف المصورة فى صفحاتها الاولى صور الرجلين المشنوقين ، وساد شعور بالاستياء العام ازاء استخدام الجثتين كشرك متفجر ، بل ان الراى العام الحر عبر فى عدة مدن بريطانية عن استيائه فى صورة ثورات محدودة من المشاعر المعادية للسامية » .

وادى هذا الحدث بسرعة الى تصعيد المشاعر المناهضة لامريكا ، وذلك فى فترة غير ملائمة على الاطلاق . « وقدم وزير الخارجية البريطانى تحذيرا فى الثانى من أغسطس الى السفير الامريكى لويس دوجلاس ، يفيد بأن بريطانيا التى « تشعر بالاحباط وخيبة الامل نتيجة للقيام بمهمة الانتداب ، التى لم تحظ بالامتنان عليها ، قد تضطر الى التخلى عن هذه المسئولية » وكان الموقف فى فلسطين يعمل على تسميم العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا .

وكانت الحكومة قد بدأت بالفعل فى اتخاذ الخطوة الاولى نحو انهاء الانتداب ـــ على الرغم من اتهام تشرتشل لاعضاء الوزارة بالبلادة ـــ قبل

خمسة اشهر من اعدام الجنديين . فقد المح « برنست بيفين » فى مجلس العموم يوم ١٨ فبراير السابق الى « ان السبيل الوحيد الباقى الان امامنا هو رفع المشكلة الى الامم المتحدة لاتخاذ قرار فيها » . فقد ادرك وزير الخارجية ان بريطانيا لن تستطيع ارضاء اى من العرب او اليهود — وانها لا تملك امكانية فرض حل من جانبها . وكان بيفين ، ما زال محجما عن الاعتراف بافلاس سياسته والتخلى عن الانتداب ، غير ان بريطانيا تقدمت فى شهر ابريل بطلب الى الامم المتحدة لتشكيل لجنة خاصة لدراسة الاحتمالات القائمة فى فلسطين وتقديم تقرير بنتائج دراستها الى « الجمعية العامة » فى الخريف . ويعتقد « هارولد بيلى » مستشار وزير الخارجية « بيفين » لشئون الشرق الاوسط ، ان هذه المبادرة صدرت اساسا عن « اتلى » اكثر من ان تكون من بنات افكار وزير الخارجية . واصدرت « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين » فى ٣١ اغسطس ١٩٤٧ ، توصياتها بانهاء الانتداب البريطانى وبانشاء دولتين منفصلتين واحدة يهودية واخرى عربية . وفى ٢٩ نوفمبر وافقت الجمعية العامة على التقسيم باغلبية الثلثين .

ولم يكن هذا هو الحل الذى كان « مناحم بيجين » و « الارجون زفاى ليومى » يسعون الى تحقيقه . وكان « بيجين » قد عقد اجتماعا سريا فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٧ مع « اميل ساندستروم » ، رئيس « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين » . وقد عقد هذا الاجتماع ، الذى منح « الارجون » نوعا من الاعتراف الدولى ، بترتيب من كارتر دافيدسون ، الصحفى الامريكى بالاسوشيتدبرس ، حيث قدم مساعيه الحميدة نظير ان يكون هو الوحيد الذى يطلع على تقرير مباحثاتهما التى استغرقت ثلاث ساعات .

وكتب « دافيد سون » يقول فى تقرير قد اجل ارساله لمدة شهر حتى تنتهى بعثة الامم المتحدة من عملها وتغادر الشرق الاوسط ، ان « ساندستروم » و « بيجين » قد ناقشا « فى هدوء وباسلوب ودى التاريخ السياسى والدينى لفلسطين وكان الحديث لطيفا ووديا لدرجة ان « ساندستروم » قام بنفسه فى النهاية بتحذير « بيجين » قائلا : « ان الشارع قريب من هنا . اليس من الافضل ان نخفض اصواتنا ورد عليه بيجين ضاحكا : « لا تخش شيئا ، فان رجالنا يقفون هناك . وسيبلغوننا اذا ارتفعت اصواتنا ولفتت الانتباه » .

وقد حدد قائد الارجون اهدافه ، بينما كانا يرتشفان النبيذ ويأكلان الفاكهة ، بمنزل الشاعر « يعقوب كوهين » فى تل ابيب ، ونص برنامجه على المطالبة بمنح اليهود السيادة على جانبى الاردن على ان يتم تنفيذه وفقا للخطوات التالية :

١ ــ انهاء الاحتلال البريطانى « لارض اسرائيل » .

٢ ــ نقل السلطة الى هيئة نيابية ديمقراطية تمثل شعبنا .

٣ ــ اعادة جميع اليهود الراغبين فى ذلك الى الوطن فى فلسطين بمساعدة من هيئة دولية .

٤ ــ اجراء انتخابات ديمقراطية عامة بعد الانتهاء من اعادة اليهود الى الوطن .

٥ ــ الحصول على قرض دولى لاستصلاح الارض لصالح كل من الفلاحين العبرانيين العائدين والعرب ، والذين يعانون من العوز الشديد وهم يرزحون تحت نير العبودية والاستغلال .

وعندما استعد سلندستروم للانصراف ، صافحه « بيجين » قائلا : اتمنى لك التوفيق فى مباحثاتك ، ولكن لا أحد منا يتصور أن قرارك سوف يجعلنا نتخلى عن النضال .

وقد قبل « ديفيد بن جوريون » قرار التقسيم على مضض ، نيابة عن التنظيم اليهودى فى فلسطين (الييشوف) كما وافق عليه بصفته الشخصية ، حاييم وايزمان ، الذى يعتبر اكثر الدبلوماسيين الصهيونيين اصرارا ومثابرة . غير أن « بيجين » أعلن رفضه للقرار وكأنه شيئا محرما ، وقد صدق وعده الذى اعلنه عند وداعه للجنة الامم المتحدة . وظل يحارب التقسيم فعليا حتى أعلن قيام دولة اسرائيل يوم ١٤ مايو عام ١٩٤٨ ، ثم فى الكنيست طوال مدة الست والعشرين سنة التى قضاها فى صفوف المعارضة ، واخيرا من موقعه داخل الحكومة التى تولى رئاستها بعد عام ١٩٧٧ ، وذلك عن طريق بذل كافة الجهود الممكنة لضمان عدم عودة الاراضى المحتلة فى الضفة الغربية الى الاردن أبدا .

هذا ، ولطالما انقسم الراى العام الاسرائيلى حول مدى مساهمة « الارجون » و « عصابة شتيرن » فى انشاء دولة اسرائيل فبموجب تفسير « المباى » للتاريخ ، كان « المنشقون » يعتبرون بمثابة عنصر ازعاج ، لا قيمة له . اما الجهد الفعلى فى بناء الامة فقد اضطلعت به حركة العمل (تحت رئاسة حزب المباى) ، وحلفائها من الطبقة المتوسطة والفئات الدينية . وهم « الصهيونيون العموميون » وحزب « مزراحى » . وشطب الدور الذى لعبه ورثة « جابوتنسكى » . ولكن عندما قام « بيجين » فى عام ١٩٧٧ بتشكيل حكومة الليكود المنتخبة ، تبوأ « التصحيحيون » المكانة التى يستحقونها وانقلبت الاوضاع . واصبح « بيجين » يوصف بأنه الرجل الذى « طرد البريطانيين من البلاد » ، بينما تحول « بن جوريون » وشركاؤه الى مجموعة

من الاشخاص خائرى القوة الذين يقبلون الحلول الوسط ، ورجال لا يملكون البصيرة ولا الشجاعة التى تمكنهم من مقاتلة الطغاة الدخلاء .

ولا يقل هـذا التفسير الجـديد المتطرف تشويها للحقيقة عن سابقه فالوثائق البريطانية والمناقشات التى دارت فى بريطانيا تبين بوضـوح أن « الارهاب اليهودى » قد لعب دورا بارزا فى تحطيم ارادة البقاء فى فلسطين . وكانت لبريطانيا اهتمامات أخرى تشغلها فى الداخل والخـارج . فالجنيه الاسترلينى كان يواجه ضغوطا ، كما كانت بريطانيا تعانى من نقص شديد فى الوقود بعد أن تعرضت لشتاء قاس . وكانت الهند على وشك نيل الاستقلال .

وبدات نظرة بريطانيا الاستراتيجية تتغير مع بداية نهـاية الامبراطورية البريطانية . ولم يكن فى وسع الحكومة ، فى مواجهة التهديد السوفيتى المتزايد فى اوروبا ان تعرض للخطر تحالفها مع أمريكا والمساعدات المالية التى تحصل عليها منها . وأصبحت فلسطين تشكل عبئا ، خاصة وأنهـا ، كما قالت « اليزابيث مونرو » ، « لا تعتبر مسألة حياة أو موت بالنسبة لميزان مدفوعات المملكة المتحدة او مستوى المعيشة بها ، ولا بالنسبة لأمن بريطانيا العسكرى أو علاقاتها بالكومنولث » . وبحلول عام ١٩٤٧ ارتفعت تكاليف المحافظة على سيادة القانون والنظام فى فلسطين وأصبحت باهظة . فالى متى تسـتطيع بريطانيا الاحتفاظ بمائة الف رجل مرابطين هناك ؟ وعلى أى الحالات فان مائة الف لم يكونوا كافين لاداء تلك المهمة . وتزايد الشعور بأن الفوائد الناجمة من وراء ذلك اصبحت فى تناقص مستمر . ولم يستطع الجنرالات ولا السياسيين ايجاد رد مقبول على حرب العصابات المستمرة التى تشنها « الارجـون » و « عصابة شتيرن » فى المدن . فلم يكن ثمة سوابق يمكن الرجوع اليها . ولم يكن فى وسعهم قهرالمتمردين دون أن يسحقوا « اليشوف » ككل .

وفى الوقت ذاته ، كان الشباب يقتلون بعيداً عن ديارهم بلا سـبب مقنع . وكانت بريطانيا تتعرض للاهانة والسخرية . ففى خلال ثلاث سنوات — اى منذ نهاية الحرب العالمية فى ١٩٤٥ الى أن غادر آخر المندوبين الساميين البلاد فى عام ١٩٤٨ — لقى ٣٣٨ مواطنا بريطانيا حتفهم بأساليب عنيفة على ايدى الجماعات اليهودية . وقتل ٩٩ بريطانيا خلال ستة اسابيع اعتبارا من اول أكتوبر وحتى ١٨ نوفمبر من عام ١٩٤٦ ، بعد ما انسحبت « قوات الهجاناه» فى ١٦ يوليو من ذلك العام ، من حركة المقاومة العبرانية . وفى يناير سنة ١٩٤٧ تم اجلاء حوالى الفين من الرجال والنساء والاطفال الى بريطانيا بينما نقل باقى المدنيين للاقامة داخل« ساحة آمنة »خلف الاسلاك الشائكة . وخلال ليلة واحدة من شهر مارس قتل اكثر من عشرين بريطانيا . من بينهم اثنا عشر ضـابطا عندما قامت « الارجون » بنسف ناديهم بالقدس ، فضلا عن اصـابة ثلاثين بريطانيا بجراح . واشعل رجال « عصابة شتيرن » النار فى معمل لتـكرير

البترول فى حيفا ، واستمرت السنة اللهب مشتعلة لمدة ثلاثة أسابيع . واوصى رؤساء الاركان فى لندن بفرض الاحكام العسكرية فى بعض الحالات المعينة ، ولكنهم أقروا ان « فرض القيود فى جميع انحاء البلاد فى وقت واحد ، انما يفوق امكانيات القوات المتاحة حاليا ، كما أن فرض الاحكام العسكرية من شأنه ان يزيد من الاعباء الحالية دون مزايا تعويضية » . وكما يقول « نيكولاس بيثيل » :

« لما كان كل واحد من الضحايا البالغ عددهم ٣٣٨ شخصا ، قد لقى حتفه بطريقة فردية ، حيث قتل بمفرده عن طريق اطلاق الرصاص عليه ، أو ضمن مجموعة صغيرة بواسطة قنبلة ، فان موتهم ترك أثرا عميقا داخل الرأى العام البريطانى لا يقل عن الاثر الذى أحدثته الخسائر الاكبر حجما فى الارواح البريطانية ، ابان الحرب العالمية الثانية ، والتى تحملها بصبر وتصميم . فى حين بدا هؤلاء القتلى البالغ عددهم ٣٣٨ وكأنهم ماتوا بلا اى داع . ولذلك فقد تضاعفت الضغوط السياسية من أجل وقف تلك الاغتيالات .

هذا ، وقد رفع القنصل الامريكى فى القدس تقريرا الى واشنطن فى أول مايو من عام ١٩٤٧ جاء فيه ما يلى :

« لا مفر من استنتاج ان حكومة فلسطين ، التى يحاول المسئولون فيها ادارة شئون البلاد من خلف الاسلاك الشائكة ومن داخل مبان محاطة بحماية مكثفة ، وهم يعيشون (اى أولئك المسئولين بدون زوجاتهم وابنائهم) فى عزلة تثير الشفقة فى وسط مناطق آمنة ــ لا مفر من استنتاج أن هذه الحكومة لا تزيد عن كونها منظمة طريدة بلا أمل كبير فى أن تتمكن من مواجهة الاوضاع القائمة حاليا فى البلاد » .

وتوصل « مايكل ج . كوهين » ، المؤرخ الاسرائيلى ذو الميول السياسية الصهيونية اليسارية ، بعد أن أجرى دراسة مستفيضة للوثائق البريطانية والامريكية ، الى « ان التاريخ يوحى ، على ما يبدو » بأن الاساليب العنيفة التى انتهجتها جماعة « ارجون زفاى ليومى » والمكروهة فعلا من الناحية المعنوية ، كان لها تأثير حاسم فى تحويل مسألة الجلاء من كونها حلا بديلا فى فبراير ١٩٤٧ ، الى قرار حازم ، بحلول شهر اغسطس من ذلك العام ، ينص على التخلى عن اعباء الانتداب » .

ولكن ، لا يمكن تقييم دور « الارجون » و « عصابة شتيرن » فى فراغ . فان قوات الهاجاناه كانت تدبر فى الوقت ذاته حملة بأسلوب مختلف لم يكن أقل اضرارا بسمعة بريطانيا ومكانتها ، وان أدى الى اظهار القضية اليهودية فى صورة أفضل . فقد عملت فيما بين عام ١٩٤٥ وشهر مايو من عام ١٩٤٨ على احضار حوالى سبعين الف يهودى بطرق غير مشروعة الى فلسطين . وقد تمكنت البحرية الملكية البريطانية من اعتراض طريق ٥١٥٠٠ من هؤلاء

المهاجرين واحتجازهم فى قبرص . وكانت اشهر مراكب الهجرة غير المشروعة ، وهى « الاكسودس ١٩٤٧ » (أى الخروج الجماعى ١٩٤٧) ، قد أقلعت فى يوليو من ذلك العام من الميناء الفرنسى الصغير ، « بورت — دى — بو » ، حفنة على ظهرها ٤٥٠٠ يهودى . وقد تعقبتها طائرات السلاح الجوى الملكى وسفن الاسطول البريطانى فى رحلتها عبر البحر الابيض المتوسط . ولما كانت معسكرات قبرص قد امتلأت عن آخرها ، فقد قرر « بيفين » انتهاج سياسة جديدة لمعاقبة أولئك المتسللين باعادتهم الى المكان الذى أتوا منه . وفى يوم ١٨ يوليو اعتلى مشاة البحرية البريطانية ظهر « الاكسودس » أمام الساحل القريب من غزة . وانتهجت « الهاجاناه » سياسة تجمع بين المقاومة والاعلام . فقد تم نقل صوت المعركة الدائرة مع القوات البحرية التى اعتلت المركب ، الى الشاطىء من خلال أجهزة ارسال قوية واختارت « الهاجاناه » أن تعرض قضيتها على المسرح العالمى الاوسع نطاقا بدلا من أن تحاول انزال بعض الركاب . فصدرت التعليمات الى قبطان السفينة « ايك آران » ، باستغلالها « كمظاهرة كبرى تحمل لافتات تبين مدى ضعفنا ومسكنتنا وعجزنا ، ومدى قسوة البريطانيين » . وأدى البريطانيون الدور المرسوم لهم فى النص الذى وضعته « الهاجاناه » . بحماس يفوق كل تصوراتها اذ انهم قاموا بتوجيهها ، بعد سيطرتهم عليها ، الى داخل ميناء حيفا حيث أصبحت هدفا ثابتا يقف أمام آلات التصوير ومراسلى اجهزة الاعلام العالمية ، وشاهد حدث وصول السفينة ، رئيس « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين « اميل ساندستروم »» واثنان من زملائه ، بدعوة من « ابا ايبان » ، الذى أصبح فيما بعد وزيرا لخارجية اسرائيل ، وكان يعمل آنذاك بالوكالة اليهودية . وقد ذكر « ايبان » فى مذكراته أن المهاجرين قرروا ألا يستسلموا لمحاولات الابعاد فى هدوء . ووجه «ونستون تشرشل » الى « بيفين » اتهاما بشن « حرب قذرة » ضد اليهود .

وعلق ايبان على ذلك بقوله :

« لو ان احدا أراد أن يعلم حقيقة ما يقصده « تشرشل » لعرفها بسهولة من مشاهدته لجنود البريطانيين وهم يستخدمون اعقاب البنادق والخراطيم والقنابل المسيلة للدموع ضد الناجين من معسكرات الموت . وكانوا يحملون الرجال والنساء والاطفال بالقوة الى السفن لحبسهم ، حيث يتم القاؤهم فى الاقفاص الموجودة فى أسفل السفن لينقلوا الى خارج المياه الاقليمية لفلسطين . وبينما كان « ساندستروم » و « بريليج » و « جرانادوس » يراقبون هذه الممارسات البشعة ، كنت أنا اترقب عودتهم الى القدس بصبر نافذ . ورأيت وجوههم عند عودتهم وقد علاها الشحوب من هول الصدمة . وأدركت أن سؤالا واحدا فقط كان يشغل بالهم : اذا كان هذا هو الاسلوب الوحيد الذى يستطيع به الانتداب البريطانى أن يستمر ، فمن الافضل وقفه تماما » .

وقد ضاعف البريطانيون من حملتهم باعادتهم لهؤلاء المشردين الى الميناء الفرنسى « بورت — دى — بو » حيث رفضت أغلبية اللاجئين البالغ عـددهم ٤٥٠٠ شخص ، النزول الى الشاطىء بالرغم من العرض الفرنسى بمنحهم حق اللجوء . واتيحت للصحافة العالمية فرصة اخرى لتصوير الظروف الصحية السيئة فى السفينة وكتابة التقارير عنها . ووصفت الصحيفة الشـيوعية الفرنسية « لومانيتيه » السفن البريطانية الثلاث بانها تشبه معسـكر « اوشفيتزعائم » . وارتكب « بيفين » عند ذاك اكبر اخطائه على الاطلاق ، حيث ارسل اليهود الى المانيا . وكانت سياسته الجديدة بمثابة كارثة اعلامية لبريطانيا خاصة فى الولايات المتحدة ، بينما ادت الى تحقيق نصر سـاحق للصهيونية . وكتبت « اليزابيث مونرو » تقول : « لقد استغل الصهاينة الركاب كقطع فى لعبة الشطرنج . وارتكبت الحكومة البريطانية ، التى تعرضـت لاستفزاز بالغ ، نفس الخطأ ، وأثار تصرفها بارسال اليهود الى المكان الذى كان يعتبر من قبل بمثابة مقبرة لهم ، استياء الملايين ، اكثر مما لو ارسلوهم الى اى مكان آخر فى العالم » .

وكانت الهجرة غير المشروعة تعتبر حتى تلك الفترة ، حـكرا على « الهاجاناه » والوكالة اليهودية . فقد استطاع « التصحيحيون » أن ينقلوا من أوروبا الى فلسطين فيما بين عامى ١٩٣٧ ، ١٩٤٤ ، أربعين الف يهودى فقط ، وذلك وفقا لاكثر تقديراتهم تفاؤلا . ولكن نشاطهم فى هذا الصدد توقف بعد ذلك وركزوا جهودهم بدلا من هذا على النضال المسلح « للارجون » و « عصابة شتيرن » .

وكان عموم الصهيونيين يحتكرون ايضا النشاط الدبلوماسى فى لنـدن ونيويورك بل و فى فلسطين ذاتها ، بالرغم من الرنين المرتفع لدعاية « حـركة التصحيح » فى أمريكا . واذا قلنا أن بريطانيا ما كانت ستتخلى عن الانتداب فى ذلك الحين بدون نغز حرب المتمردين ، فان الحقيقة تؤكد أيضا أن قرار الامم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ما كان سيحصل على الاغلبية لولا « مفاوضات الاروقة التى كان يجريها الدبلوماسيون المقوتون فى كل مـن واشنطن ونيويورك . وبالمثل ، فبدون الريادة الدؤوبة لصهاينة حركة العمل وطفائهم ، لما كان هناك اعداد لقيام الدولة اليهودية ولما وجدت البنيـة الاساسية للسيادة . ولولا وجود المزارع الجماعية والتعاونية فى النقب والجليل لما جاء خط الحدود الاسرائيلية بهذه الصورة ، بل يمكن القول أنه لما كانت هناك صناعة او زراعة .

لقد كتب « جوزيف ب . سيشتمان ، رفيق « جابوتنسكى » وكاتب سيرته ، يقول :

« لقد كان حزب التصحيحيين ، والمنظمات المنبثقة عنه ، هو الوحيد دون جميع التشكيلات الصهيونية فى فلسطين ، الذى لم يكن يملك اى مستوطنات (فيما عدا بعض الاستثناءات الضئيلة القليلة) أو مشروعات اقتصـادية أو مؤسسات خاصة به . ولقد مكنهم هذا من المحافظة على مثلهم الصهيونية العليا وقدرتهم على حرية الحركة ، مما جعلهم الطليعة العسكرية ليهود فلسطين . بيد أنهم دفعوا ثمنا باهظا جدا نظير ذلك ، فقد أصبحوا يشكلون الفئة المعوزة داخل المجتمع اليهودى ، وكثيرا ما اثرت حاجتهم الاقتصادية على فرصـهم السياسية » .

ومرة أخرى أصبحت « الهاجاناه » تشكل نواة لجيش يهودى قادر على صد هجوم خمسة جيوش عربية وردها على أعقابها . وكانت جماعـة « الارجون » و « عصابة شتيرن » مدربتين على شن هجمات فدائية والقيام بعمليات تخريبية وغارات انتقامية ، ولكنـها لم تكن مدربة على اسـتخدام اساليب الحرب التقليدية . وكانت القوة الاسمية للهاجاناه فى منتصف عـام ١٩٤٧ تبلغ ٤٣ الف رجل وامرأة ، لكن كان ٣٢ الف منهم يتبعون « الحرس الوطنى » المفتقر للتدريب والتسليح . بيد أن « الهاجاناه » كانت تملك ايضا « قـوة ميدانية » قوامها ٨ آلاف من المتطوعين المتفـرغين طوال الوقت ، يتدربون بانتظام . كما كانت قوات « البالماخ » النظامية تضم ٣١٠٠ رجـل وامرأة . وقد جاء من بين هذه القوات الاخيرة معظم قادة الجيش الاسرائيلى الناشىء . وعندما اقتربت الحرب ، قامت قوات « الهاجاناه » بتنظيم نفسها فى ٥ كتائب ميدانية وتدربت على الأساليب القتالية وانشئت ٥ مقار رياسـة اقليمية ، ومع ذلك فان الهاجاناه ظلت ، حتى حلول نهاية عام ١٩٤٧ ، مفتقرة بشدة للتسليح . فلم يكن تحت يدها سوى ١٧٦٠٠ بندقية متنوعة ، و ٢٧٠٠ مدفع نصف آلى ، واقل من الف مدفع ماكينة ويقدر أن الارجون كانت تضم آنذاك حوالى الفى عضـو ولكن نصفهم فقط هم الذين تلقوا بعض أنـواع التدريب . أما عصابة « شتيرن » فكان قوامها بضعة مئات فقط . وكان مقاتلو « بن جوريون » قـد أعدوا انفسهم لشن حرب تحرير ، بينما نظم مقاتلو « بيجين » عملية التمرد ضد البريطانيين . ولا يمكن استبعاد أى من هاتين العمليتين ، كما لا يجب التقليل من شأنهما .

الفصـــــل العاشر

كمـــا حــدث فى ديــر ياســـين

« تقبل تهانى على هذا الذى يعــد عملا رائعا وابلغ تحياتى الى كافة القواعد والجنود . اننا نشــــد على أيديكم واننا فخــورون جدا بالقيـــادة الممتازة وروح القتال التى ســـادت خلال هذا الهجوم العظيم ، اننـــا لن ننسى القتلى ونشـــــد على أيدى الجرحى بكل الحب · أبلغ الجنـــود انكم بهذا الهجـــوم والغزو ساهمتم فى صنع تاريخ اسرائيل . فلتواصلوا طريقكم حتى النصر ، وكما حــدث فى دير ياســـين وفى غيرها فاننا سنهاجم ونسحق العـــدو . يا الهى ، يا الهى لقــد اخترتنا لنحقق هــذا الغــزو » ..

عندما ارسل مناحيم بيجين هذا الامر الذى يشى بالابتهـــاج الى قيادته فى القدس كان لا يعرف الا قليـــلا عما حــدث قبل ذلك خـــلال او بعـــد المذبحـــة التى وقعت يوم ٩ ابريل ســـنة ١٩٤٨ فى قرية دير ياســـين وهى قرية عربية تقع على الطـــــرف الشمالى الغربى من مدينة القدس · ولكنه اعلن بعد ذلك بيومين عبر اذاعـــة « صـــوت صهيون المقاتل » التابعـــة لجمـــاعة ارجون زفاى ليومى انها معركة مقدسة اشترك فيها لاول مـــرة جنـــود من الارجون زفاى ليـــومى وليخى والبالماخ . ولقـــد ظـــل قائـــد الارجون زهاء اكثر من ثـــــلاثين عاما مقتنعا تماما أن دير ياســـين كانت عملية عسكرية تقليدية حارب فيها رجاله بشجاعة وشرف ، محاولين التقليل من وقوع خسائر بين المدنيين الى ادنى حـــد متمسكين بالاخلاقيـــات التى درجـــوا عليها . وقد أدان بيجين خـــلال المقابلات التى أجريت معـــه مؤخرا وكذلك خـــلال تصريحاته السابقة بن جوريون وكل شخص آخـــر خالفـــه فى هذا الراى ووصفهم بأنهم « منافقون ضيقو الافق » بل وصل به الامـــر الى وصفهم بالكذابين · أن هذا الثبات على المبـــدأ يعد دليلا قويا على ولاء بيجين لمقاتليه وربما يعد ايضـــا دليـــلا على جنون العظمة القوى لديه . ان ما يقوله بيجين بعيد كل البعد عما حــدث بالفعل فى تلك القـــرية فى صباح أحـــد أيام الجمعة بعد أن نفضت بريطانيـــا يديهـــا من الانتـــداب على فلسطين بشهر واحد ·

أن دير ياسين القرية التى يقطنها ما بين ثمانمائة والف نسمة يكسبون عيشهم من العمل فى المحاجر وقطع الاحجار مازالت تؤرق مناحيم بيجين والدولة التى ساعد على انشائها وسواء أكان الامر مجرد صدفة أم مدبرا ، وســـواء أكانت يهودية أم عربية فان دير يلســـين ســـببت ذعـــرا ادى الى اسراع

سبعمائه الف من العـــرب فى الهروب من الارض التى سرعان ما أصبحت اسرائيل . ان الاسم لم يفقد قط رنينه ومازالت قصة دير ياسين تمثل بالنسبة للصهيونيين موضوعا محـرما ، فان الوثائق والصــــور قد أســـدل عليها ستار من السرية لفترة اطول مما يمكن ان يلحـــق الضرر بأمن اسرائيـــل . ووجـــد الساسة والكتاب من كلا المعسكرين الصهيونيين انه من الحكمـــة اغلاق ملفات دير ياسين لأن الجميع متورطون فى المذبحة . وعلى الرغم من أن بن جوريون اسرع بارسال برقيـــة عزاء الى الأمير عبد الله فى عمان فان الهاجاناة كانت مشغولة بالفعل فى محو الدليل الاكثر بشاعة ، فقد استطاع مصـــور لجريدة سينمائية تصـــوير فيلم طوله اربعمائة قدم للمرحلة الاخيرة من المذبحة ولكنه ارتكب خطـــأ بالحديث عن ذلك الى احـــد زملائه الذى كان يعمل لحساب مخابرات البالماخ ، والذى ذهب الى مطـــــار اللد وقـــام بتبديل الفيلم قبل أن يطير الى لنـــــــدن وتلقت الجريدة السينمائية فيلما طوله اربعمائة قدم يصور تشكل الضباب فى القدس .

كان عرب دير ياسين يعتقدون انهم آمنـــون ، على الرغم من الحـــرب غير المعلنة التى نشبت بعد تصويت الامم المتحدة بتقسيم فلسطين . وكانوا يثقـــون فى معاهدة عدم الاعتداء التى وقعهـــا مختار قريتهم مع الضاحية اليهودية المجـــاورة فى جيفات شاؤل . وكما يقول محمد عارف سامور وهو مفتش متقاعد بالمدارس الذى كان يبلـــغ السادســـة والعشرين من عمـــره عنـــد وقوع المذبحـــة : « كان هناك اتفاق على الا تحـــدث مشاكل بينهم ، فاذا قامت مجموعة من شبابهم بمهاجمـــة دير ياســـين فان اليهـــود يقـــومون باعتقالهم ومنعهم . واذا هاجم احـــد من دير ياسين جيفات شـــاؤل فـــان العرب يقومون بمنعه . لم تكن هناك مشاكل بين اليهـــود والعـــرب هناك فى ذلك الوقت » . كانت دير ياسين بالنســـبة للهاجاناة قرية عربية يجب اخضاعها للسيطرة اليهودية عاجلا او آجلا ولكن ليس بالضرورة عن طريق الغزو ، وكانت القرية تمثل أهمية استراتيجية لسببين ، ان وتوعهـــا فى يد العدو يجعلها تمثل خطرا للضواحى اليهودية فى جيفات شـــاؤل ، بيت حاكيرم يافانوف وبايبت فاجان بسبب موقعهـــا فى أعلى التـــل . وكانـــت الهاجاناة تخطط لاقامة مهبط الطائرات على طول سلسلة التلال بين جيفـــات شاؤل ودير ياسين والذى من شـــأنه الابقاء على الاتصــــالات بين القدس والساحل فى حالة الطوارىء . وفى حالة ابو غوش وهى قرية « محـــايدة » اخرى تقع على بعد اربعة أميال على الطريق المؤدى الى تل ابيب فان السكان العرب وافقوا على النزوح عن القرية خلال مدة الحـــرب وسمح لهم بالعـــودة اليهـــا بعد ذلك وربما كان يجرى ترتيب لشىء مماثل بالنسبة لدير ياسين .

ولكن عصابات الارجون وشتيرن كانت لديهـا افكار اخرى . فلا انهم خرجوا من تنظيمات سرية فانهم كانوا يتوقون لاثبات معدنهـم ان يظهـروا للهاجاناه والعرب انهم ليسـوا مقاتلى شوارع . وكانـوا كذلك يشعرون بالقلق من أن بن جوريون ربما يذعن لاقتراح الامم المتحـدة بتدويل القدس أو يقـوم على الاقل بالتعامل مع الملك عبد الله .

ومع ذلك فان أولئك المنشقين كانوا يدركـون مدى النقص فى الرجـال والسلاح لديهم . وكذلك لافتقارهم الى التدريب على القتال . ويقـول يهودا لابيدوت وهو ضابط كبير فى الارجون ويعمل حاليا استاذا للعلوم فى الجامعـة العبرية أن جماعته لم يكن لديهـا اكثر من ثلاثمائة مقاتل فى القدس وان عدد جماعة شتيرن كان يبلغ المائة بالكاد . وقال لابيدوت فى شهادته المودعة فى ارشيف جابوتينسكى فى منتصف الخمسينات ان الفكرة الاصلية بمهاجمـة دير ياسين صدرت عن ييهوشيا جولدزميدت وهو ضابط عمليات الارجـون فى القدس : « كان السبب اقتصاديا أساسا ، أى الاستيلاء على غنيمة للحفاظ على القواعد التى قمنا حينذاك بانشائها بموارد فقيرة للغاية . وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الفكرة الاساسية هى غزو القرية بقوة مسلحة وهـو شيء لم يكن معروفا حينذاك فى البلاد واصبح نقطة تحـول فى العمليات العسكرية اليهودية وسرعان ما وافقت جماعة شتيرن التى كانت تتطلع الى المصالحة مع الارجـون على الاقتراح الذى تمت احالته الى اجتماع مشترك لكبار الضباط المقاتلين : اربعة من كل جمـاعة ونقا لمـا ذكره لابيـدوت الذى كان احـد أولئك الضباط ، فان عصابة شتيرن اقترحت تحـويل العملية الى غـارة تأديبيـة يقول : « لابيدوت » فى شهادته :

بالاضافة الى المناقشة العسكرية تقدمت جمـاعة ليهى باقتراح يقضى بالقضاء على سكان القرية ليرى العرب ماذا يحـدث عندما تشترك ليهى والارجـون زفاى ليومى فى عملية عسكرية معا .

ولسبب اساسى آخر ــ فان هذا سوف يحـدث اضطرابا كبيرا فى البـلاد وسيكون نقطة تحـول هامة فى سير المعارك . وكان الهدف الواضح هـو تحطيم الروح المعنوية لدى العرب ورفع الروح المعنوية للجالية اليهـودية فى القدس الى حـد ما وهى التى تلقت الضربة تلو الضربة وخاصـة ما حدث مؤخـرا من تمثيل بجثث القتلى اليهود الذين وقعوا فى يد العرب » .

واضاف بنزيون كوهين قائد الارجـون فى العملية والذى اصيب بجرح عند بداية تبادل اطلاق النار : « عندما وصـل الامر الى مناقشـة وضـع السجناء ، والنساء ، والشيوخ ، والاطفـال تضاربت الاراء . ولكن كان رأى الاغلبية يقف الى جانب القضـاء على كافة الرجـال فى القرية واى قوة

اخرى تعارضنا سواء كانت من الشيوخ أو النساء أو الاطفال » .
« ان الرغبة فى الانتقام كانت قوية بعد الضربة التى وجهها العرب الى جوش يتنريون وأتاروت وهما مستوطنتان يهوديتان بالقرب من القدس فقدتهما اسرائيل ثم استعادتهما فى سنة ١٩٦٧ .

وقد رفض ضباط الارجون اتخاذ قرار حول اقتراح عصابة شتيرن ولكنهم أحالوه الى القيادة ٠٠ ويقول لابيدوت ان بيجين رفض الاقتراح وأصر على أن يستخدموا مكبرا للصوت لتحذير سكان القرية واعطائهم فرصة للاستسلام دون اراقة الدماء . وقد اكدت مصادر الهاجاناه هذا . ووافق قادة الميدان من جماعة الارجون على مضض على استخدام مكبر للصوت وترددوا فى أن تفلت فرصة أحداث مفاجاة من أيديهم ويزعم لابيدوت ان كل جندى كانت لديه تعليمات بتجنب أحداث خسائر .

كان الهدف هو حمل العرب على الاستسلام وكانت الرسالة التى كان مفروضا اذاعتها عبر مكبر الصوت هى:

« انكم محاصرون بقوات الارجون وليهى ولن يحدث لكم شيء اذا لم تقاتلوا » .

وكان هناك احد احتمالين :

اما السيطرة على القرية وترك السكان هناك او نقلهم الى القسم العربى من القدس ، « اننا لم نتخذ قرارا سريعا وجامدا مسبقا بل قررنا الانتظار ورؤية ما سوف يحدث . وكان القرار الوحيد هو احداث أقل قدر ممكن من الخسائر » .

وعرف ديفيد شالتيل قائد الهاجاناه فى القدس خطة المنشقين لمهاجمة دير ياسين . وحاول فى بادىء الأمر اثناءهم عن عزمهم ، فالقرية كانت تقع فى ذيل قائمة أولوياته . فهى لم تكن تطل على طريق القدس — تل ابيب ولم تقم بايواء العصابات من العرب الرحل الخارجين عن القانون ٠ وكانت الهاجاناه مشتبكة فى معركة يائسة للاستيلاء على كاستيل وهى هضبة استراتيجية تتحكم فى الطريق العلم . واقترح شالتيل ان ينضم رجال الارجون وشتيرن بأسلحتهم الى المعركة الدائرة للاستيلاء على كاستيل ولكنهم رفضوا كما رفضوا كذلك اقتراحا بالاستيلاء على قرية عربية أخرى قريبة على الطريق مثل قرية كولونيا بالقرب من قرية موتزا اليهودية . ويقول لابيدوت : « كنانريد أن نركز على القتال فى القدس وان نترك القتال على الطريق للبالماخ والهاجاناه ٠ ولم يكن لدينا قوة كبيرة كافية فى القدس ٠ ولم يكن فى استطاعتنا تقسيمها . وكانت دير ياسين ، كما يبدو ، هدفا يسهل الاستيلاء عليه .

وعلى عكس الانكار الذى اعلنته الهاجاناه عقب المذبحة مباشرة فان شالتيل وافق على مضض على الغـارة على دير ياسين ولكنه وضع شروطا صارمة فى خطاب ارسله الى قادة عصابات الارجون وشتيرن المحليين :

« نما الى علمى انكم تخططون للقيام بعملية ضد دير ياسين ، وأود أن الفت انتباهكم الى حقيقـة أن الاستيلاء على دير ياسين والاحتفاظ بها هو مرحلة فى خطتنا الشاملة . اننى لا اعترض على قيامكم بالعملية شريطة أن تكون لديكم القـوة الكافية للاحتفاظ بها . فاذا لم يكن ذلك فى مقدوركم فاننى احذركم من تدمير القرية مما سيؤدى الى رحيل السكان وقيام قوات خارجية باحتلال المنازل المنهارة . ان هذا الموقف سيجعل المعـركة العـامة اكثر صعوبة بدلا من جعلها اكثر سهولة . وان محاولة اعادة احتلال المكان سيلحق خسـائر جسيمة برجالنا . وهنك راى آخـر أود وضعه نصب اعينـكم وهو انه اذا دخلت قوات خارجية المكان فان هذا سيقضى على خطتنـا ببنـاء مطار » .

وكان شالتيل يأمل فى أن يثنى المنشـقين بمواردهم الضئيلة عن تنفيذ ما ينوون القيام به فى دير ياسين ولكنهم كانوا مصرين على المضى قدما . وآثر قائد الهاجاناه اعطاء موافقته بدلا من المخاطرة بوقوع مواجهة مسـلحة بين القوات الصهيونية المتنافسة . كان قرار ازرائيل جاليلى قائد الهـاجاناه بعدم التعاون مع رجال الارجون وشتيرن خرقا للأوامر الثابتة . ولكن شعر شالتيل انه يتعين عليه استخدام الحكمة . وفى يوم الجمعة ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ زحفت قوة مشتركة مكونة من ثمانين مقاتلا من الارجون واربعين من شتيرن الى دير ياسين فى هجوم من جهتين . وقبل اذاعة اى تحذير وقع مكبر الصوت فى حفرة وعلى الرغم من ان بيجين ظل سنوات بعـد ذلك يزعم أن سكان القرية تجاهلوا التحذير الا أن شـهود العيان اجمعوا على انه لم يذع اى تحـذير قط — او على الأقل من على مسافة تسمح للعرب بسماعه . وعلى اية حال فكما يقول لابيدوت فان هذا ما كان يغير من الامر شـيئا . فضل العرب القتال وكانوا اكثر استعدادا مما كان يظن مهاجموهم . وكانت دير ياسين مثلها مثل اية قرية فى فلسـطين التى يسودها الاضطراب تعين حرسا اثنـاء الليل . واستطاع احدهم رؤية المهاجمين الذين ندموا فيما بعد لانهم لم يقوموا بهجومهم تحت جنح الظـلام — وأطلق الحارس تحـذيره وكان كل بيت تقريبا يمتلك بندقية وان كانت من النوع العتيق وأمسك الرجال ببنادقهم وشرعوا فى الدفاع عن انفسهم وعائلاتهم وكان القائد بنزيون كوهين ضمن اوائل الخمسة والثلاثين يهوديا الذين اصيبوا بجراح وكان اجمـالى القتلى اربعة من الارجون وواحد من شتيرن . ولم يكن هناك دليـل على وجود مدافع أو غيرها من الأسلحة الثقيلة أو جنـود عراقيين أو سـوريين كما يزعم الارجون . وروى شهود العيـان اليهود ما رأوه من اطلاق النار

من انقناصة الذى كان متواصلا ودقيقـــا . ووفقا لمـــا ذكره لابيـــدوت الذى تولى القيـــادة فان مقاتلى الارجون وشتيرن كان لديهم نحو عشرين بندقية وثلاثة مدافع من طراز برين (وكانت أكثر الأسلحة فاعلية) وما بين ثلاثين الى أربعين مدفع خفيف من طراز ستين وان لم يعمل معظمهـــا لانها مصنوعة بأيدى الهواة فى ورش الارجـــون ، فى تل ابيب وعدد قليـــــل من المسدسات والقنابل اليدوية تقول شهادة « لابيدوت » :

« كانت المشكلة الاساسية بالنسبة لدير ياسين أن العرب كانوا اقــــوى منا ولديهم بنادق وذخيرة أكثر وكانوا يحاربون من منزل الى منزل . وحقيقى أن المقـــاومة كانت مركزة على تل واحـــد الى الغرب ولكن كان هذا مركز المدينة ، الذى يشكل تسعين فى المائة من مساحة القرية » .

تم ارسال رسول الى مركز قيادة الهاجاناة فى القدس فى ثكنات شيندلر وأرسل شالتيل مجموعة جنود من البالماخ مع مدفع مورتر ومدفع رشاش . وقامت وحدة البالماخ بتطويق التل الغربى من الجهة اليمنى واســــتطاعت اسكات المقاومة دون وقوع خسائر ثم انسحبت . ومهما كان اعتقاد بيجين الذى عاد الى تل أبيب بالنسبة للمنشقين وقتال البالماخ جنبا الى جنب ، فقد كان ذلك هو حجم الاشتراك الفعلى للهاجاناه فى المعركة . ومع انهيـــار الجانب الاكبر من دفاع العرب استأنف مقاتلو الارجون وشتيرن القتال مصوبين نيرانهم الى أى شىء يتحرك وللمنازل لنسفها سواء كان السكان داخلها أم لا واصبح من الصعب بصورة متزايدة السيطرة على مقاتلى الارجون وشتيرن . وممـــا لا شك فيه أن بيجين أمر بضبط النفس ولكن كلما طال أمد العملية ، ازدادت الفوضى ، وبدا ان المغيرين عادوا الى غرائزهم الوحشية الأوليـــة . ويقول يهوشيا جوردينتشك وهو ضابط من الارجون انهم فكروا فى الانسحاب بعـــد أن احقت بهم خسائر :

« كان لدينا أسرى وقررنا القضاء عليهم قبل الانسحاب ، كذلك قضينا على الجرحى لاننا لم نكن نستطيع على اية حال علاجهم وفى احد الاماكن قتل نحو ثمانين من الاسرى العرب بعد أن قام بعضهم باطلاق النار مما اسفر عن مصرع شخص ممن اتوا لعلاجهم ، كذلك تم اكتشاف العرب الذين تنكروا فى زى النساء . وهكذا شرعوا فى اطلاق النار على النساء أيضا اللاتى لم يسرعن الى المنطقة التى تجمع فيها الأسرى » .

أكد يائير تاسبان وهو الان عضو فى حزب مابام اليسارى فى الكنيست قصة الرجال العرب الذين تنكروا فى زى النساء . وكان تاسبان حينذاك يبلغ السابعة عشرة من عمره ويدرس فى احدى المدارس الثانوية فى القدس ودفعه مقاتلو الهاجاناه للاشتراك فى دفن الموتى بعد انسحابهم من ساحة المعركة . ولكن تاسبان يقدم تفسيرا مختلفا لذلك :

« ما رايناه كان نساء واطفالا وشيوخا والذى أصابنا بالصدمة هو وجود حالتين او ثلاث على الأقل من الشيوخ الذين تنكروا فى زى النساء واتذكر عندما دخلنا الى حجرة المعيشة فى أحد المنازل ان وجدنا امرأة صغيرة ميتة فى أحد الاركان وكان ظهرها الى الباب وعندما وصلنا الى الجثة وجدنا أنه رجل عجوز بلحية . وكان استنتاجي لما رايته أن ما حدث فى القرية قد أثار رعب أولئك العجائز لدرجة انهم ادركوا ان كونهم عجائز لن يشفع لهم وكانوا يأملون فى ان التنكر فى زى النساء سينقذهم » .

استطاع مائير بائيل الذى اصبح فيما بعد سياسيا يساريا وكان وقتذاك ضابط مخابرات فى الهاجاناة فى القدس ولم يكن معروفا لعصابات الارجون وشتيرن أن يشهد العملية برمتها : الهجوم ، والمقاومة والمذبحة . وكان قد عرف بالهجوم المرتقب وقرر ، دون ابلاغ رؤسائه ، أن يذهب وان يرى كيفية تنفيذ المنشقين لخططهم . واخذ معه آلة تصوير وكان هدفه هو ابلاغ مقر القيادة بقدرتهم القتالية . وكان من المعروف ان الانجليز سيتركون البلاد قريبا وان الهاجاناه ستكون هى الجيش الوطنى وستعمل على ضم المنشقين الى صفوفه سواء كوحدات متميزة او موزعة بين المقاتلين الآخرين وعلى أسوأ الاحوال فانهم اذا رفضوا التخلى عن وضعهم المستقل فان الهاجاناة ستقوم باخضاعهم بالقوة وفى كلتا الحالتين فانه سيكون من المفيد تقييم ادائهم فى اول عملية تقليدية يقومون بها . واستهل بائيل تقريره لا زرائيل جاليلى بالابيات الافتتاحية لاحدى القصائد العبرية المشهورة التى كتبها حاييم ناشمان بياليك بعد مذبحة كيشينيف سنة ١٩٠٣ والتى قام خلالها الرعاع الروس بقتل تسعة واربعين يهوديا وجرح خمسمائة آخرين :

« انهض واذهب الى مدينة القتلى وستصل الى الافنية وسترى بعينيك

« وستلمس بيديك على الاسوار والأشجار والأحجار والحوائط دماء

« القتلى المتجمدة وادمغتهم المسحوقة ..

ومازال تقرير بائيل محظورا ولكن ما يتذكره هو مذبحة غير منظمة بعد أن خمدت معظم المقاومة العربية :

« كانت مذبحة فورية لم يسبق الاعداد لها . كانت انفجارا داخليا لا يستطيع احد السيطرة عليه . كانت مجموعات الرجال تذهب من بيت الى بيت تقوم باعمال السلب والقتل وكنت تستطيع سماع صرخات النسوة العرب ، الشيوخ العرب والأطفال العرب فى منازلهم ، حاولت العثور على القادة ولكننى لم انجح ، حاولت ان أصرخ وان امنعهم ولكنهم لم يكونوا يلقون بالا الى » . كانت عيونهم تلمع كانوا كما لو كانوا مخدرين ، مسممين عقليا ، كانوا فى حالة من النشوة » .

وبالنسبة لمحمد عارف سامور لم يكن الضحايا مجرد اشخاص مجهولين لديه كانوا ابناء عمومته ، جيرانه أصدقاءه وشاهد المدرس الشاب المذبحة من منزله الواقع فى الجانب الآخر من دير ياسين حتى نجح فى الساعة الرابعة بعد الظهر من الهروب الى عين كرم على بعد عدة أميال الى الغرب ويقول ان معظم الناس قتلوا داخل منازلهم :

« فى احدى الحالات وهى حالة أسرة زهران نجا شخص واحد من بين خمسة وعشرين ، وفى منزل آخر امسكوا بابن الاسرة فؤاد البالغ من العمر ستة عشر عاما وكانت أمه تمسك به وقاموا بقتله بسكين ، وقضت الام بعد ذلك عشرين عاما فى احدى المستشفيات العقلية . وفى احد الشوارع قتلت سيدة شابة وطفلاها البالغان من العمر سنتين فقط وتركت أجسادهم هناك . وانتقل المهاجمون الى قلب القرية وشرعوا فى قتل كل من يرونه أو يسمعونه بمجرد أن يفتح بابه كانوا يستخدمون القنابل (اليدوية) البنادق الالية وشبه الالية · واستطاع ابن عمى الهرب بعد أن أصيبت ملابسه بثقوب من طلقات الرصاص . وقام أحد الضباط بوضع بندقيته الالية فى أحد النوافذ وشرع فى اطلاق النار فى الخارج وقتل أى شخص يتحرك . وقاموا بقتل عمى على حسن زيدان وعمتى فاطمة التى سمعته ينادى « انقذونى » فهرعت اليه ولكنهم قتلوها . وجار آخر الحاج يارح الذى سمع بعض الاصوات وخرج ليستطلع الامر ولكنهم قتلوه هو ايضا وسمع ابنه محمد الذى يبلغ السابعة عشرة من العمر سمع اباه يناديه ، فذهب الى نفس المكان وقتلوه · وسمعت أمه صوته يطلب انقاذه فجرت اليه وقتلوها . حدث كل هذا قرب منزلى ورأيته » .

وتحدث سامور وباثيل عن قيام مجموعة من الجنود بتنفيذ حكم الاعدام فى خمسة وعشرين رجلا فى أحد المحاجر بين دير ياسين وجيفات شاؤل . ويعترف سامور انه لم يشاهد اطلاق النار ولكنه سمع عنه من احدى النساء التى شاهدته . ومع ذلك فان باثيل لا يساوره الشك حين يقول : « قاموا بوضعهم فى أحد المحاجر وظهورهم الى الحائط ثم اطلقوا عليهم النار ، رأيت اطلاق النار ثم تمت بعد ذلك بتصوير الجثث . ويقول بهوشيا اريلى وهو جندى بالجيش البريطانى كان يقود المتدربين من الهاجاناه والذى ارسل لدفن الموتى انه راى عددا من الرجال « قتلى فى المحجر » . ويزعم يهودا لابوديت انه لم يسمع قط عن تنفيذ عمليات اعدام وانه باعتباره قائدا عاملا كان سيفعل ذلك ولكن كل الدلائل تشير الى عكس ما يزعم .

وهناك مزيد من التقارير البشعة حول الفظائع التى ارتكبتها قوات الارجون وشتيرن التى يستعرض فيها لارى كولينز ودومينيك لابيير فى

كتابيهما « القدس » مزيدا من القصص حول عمليات الاغتصاب وما زعم حول شق بطن احدى النساء الحوامل وكان مصدرهما الاساسى ممثل الصليب الاحمر فى القدس جاك دى رينير والمقابلات التى اجرتها محطة بى . بى . سى . مع البريطانية ولكن دى رينير ينفى ذلك في تقريره المنشور انه وصل الى القدس يوم الاحد اى بعد يومين من القتال ولكن قوات الارجون وشتيرن كانت لاتزال هناك . ويرى كولينز ولابيير ان هناك « اتجاها عربيا لتضخيم الاحداث عند استعادتها والتأمل فيها » وهناك دليل آخر يشير الى انه لم تثبت ادانة المهاجمين . ويقول ياثير تسبان الذى شهد انسحاب الارجون وشتيرن انه لم ير أية دماء على ملابسهم ويضيف قائلا : « اننا عندما قمنا بدفن ضحايا لم أر اى دليل على استخدام السكاكين فى القتل . اما محمد سامور الذى ليس لديه اى سبب للتقليل من الفظائع فوافق انه لم تحدث اية اعتداءات جنسية » اننى لم أسمع أو أرى اى اغتصاب أو اعتداءات على النساء الحوامل ولم يتحدث معى اى شخص من الناجين عن حدوث مثل هذا الامر . فاذا حدثك شخص عن ذلك فاننى لا أصدقه . وكتب طبيبان من القدس ارسلتهما الوكالة اليهودية لفحص الجثث تقريرا قالا فيه انهما لم يشاهدا اى اثر لوقوع تعذيب او تمثيل بالجثث .

مما لا شك فيه أن المنشقين قاموا بعملية استعراض للاسرى العرب عبر شوارع القدس اليهودية قبل اطلاق سراحهم فى الجانب العربى من المدينة ، وانهم رفضوا الاحتفاظ بدير ياسين كما أمرهم شالتيل أو دفن الضحايا . ويوافق لابيدوت فى مجال تذكره لما حدث أن رفض دفن الموتى كان خطأ فاحشا « انك لا تستطيع ان تترك جثث الموتى فى أرض المعركة حتى لو كانت جثث الاعداء ، لم نكن منظمين لنفعل ذلك لم نكن نعرف ما يجب علينا عمله كانت تلك هى المرة الاولى التى نخوض فيها مثل هذه المعركة ويحدث مثل هذا العدد الكبير من الضحايا . كنا مكدودين ، كذلك كنا خائفين من أن يقوم البريطانيون بضربنا بالقنابل من الجو » .

كان هذا الخوف الاخير صحيحا وحاسما فقد تعرضت السلطات البريطانية على المتهمين وكانت تواقة الى تصفية الحسابات معهم ولكن لم يكن لديها فى ذلك الوقت الطائرات او القوات المطلوبة . وبعد مواجهة عصبية سمحت الهاجاناه لمقاتلى الارجون وشتيرن بالانسحاب . وقد تمت تعبئة ياثير تسبان ومعه نحو مائة من رفاقه المدربين للقيام بعملية دفن الموتى لان الجانب الاكبر من القيادة الصهيونية كانت لا تريد أن يرى البريطانيون والصليب الاحمر الدولى او الصحافة العالمية النظاعة الكاملة فى

دير ياسين وتمت عملية الدفن بسرعة شـديدة لدرجة أن أحـدا لم يتوقف ليحصى الجثث . وبصفة عامة فان الاراء اجمعت على أن عدد القتلى العرب وصـل الى ما بين ٢٤٠ و ٢٥٠ على الرغم من أن بيجـين كتـب فى كتـابه « التمـرد » : ان القتلى يبلغ عددهم نصف ذلك الرقـم . ولكن ما يدعو للدهشـة أن محمد عارف سمور يوافقه فى هذا القول ويقول ان ثلاثة وتسعين قد قتلوا فى القرية وان ثلاثة وعشرين قد أعدموا فى المحجر المجـاور لهـا . وهكذا يبلغ مجموع القتلى مائة وستة عشر قتيلا . وبعد نحـو ثلاثة أيـام من المذبحة اجتمع ممثلون عن العشائر الخمسة فى دير ياسين فى القـدس فى المكاتب الاسلامية بالقرب من المسجد الاقصى ووضعوا قائمـة بالاشخاص المفقودين وأحصينا الاسماء فوجدناهم مائة وستة عشر ولـم يحـدث شيء منـذ سنة ١٩٤٨ ليحملنى على التفكير أن هذا الرقم كان خاطئا » .

ومرة اخرى فليس هناك ما يدعو سامور للمبالغة أو التقليل من عـدد الضحايا ويدعم رايه هذا يهوشيا اريبلى الذى يعمل حاليـا أستاذا للتاريخ واحـد دعاة السلام فى اسرائيل فيقول ان « رقم مائة وسـتة عشر رقـم معقول ولا اعتقد أنه كان باستطاعتنا دفن أكثر من ١١٠ الى ١٤٠ جثة » .

ان الرقم الحقيقى لن يمكن معرفته قط لانه لم يتم وضـع علامات على القبور ولم يسمح للعرب بالعودة الى دير ياسين . وعلى اية حـال فـان الاسـطورة فاقت الاحصائيات .

الفصـــل الحـــادى عشر

تمـــرد على السفينة التالنيـــا

انتهت الحياة النشطة للارجـــون زفاى ليومى يوم الثلاثاء ٢٢ يونيـــه ١٩٤٨ كان ما حدث أشبه بالفيلم المأساوى الشهير « ذهب مع الريح » : التقاء آلاف من انعملات النقـــدية على شاطىء تل ابيب ، الأخ يقتل أخاه ، احتراق سفينة محملة بالاسلحة والذخيرة والمتفجرات شديدة الانفجار بالقرب من الشـــاطىء ، الشـــائعات عن الحرب ، الخيانة والغدر ، العواطف المشبوبة والخطب الرنانة الرخيصة وكان اغراق الجيش الاسرائيلى بناء على أوامر من رئيس الوزراء لسفينة الارجـــون « التالنيـــا » الملحمية المحملة بالاســـلحة صدمة أخرى تشـــبه « تهمـــة الدم » فى مقتل أرلوزوروف وخيانة شمشون وهو مالم يغفره مناحيم بيجين قط لديفيد بن جوريون وحركة العمل الصهيونية التى كان يتزعمها . ومع ذلك فانه يجب على قائد الارجـــون ان يتحمـــل مسئوليته عن البرقيات المتعارضة وسوء التقدير التى أوصلت الدولة اليهودية الوليدة الى حافة الحـــرب الاهلية .

ضعفت سيطرة بيجين على الارجون عندما خرجت عن نطـــاق العمـــل السرى وبدأت قيادة القدس التى كانت معزولة فى طرف طريق معرض للهجوم بعيدا عن مقر القيادة فى تل ابيب تعمل باستقلال متزايد . وكانت وحـــدات الارجـــون قد تم ادماجها فى الجيش الوطنى الذى استمد بنيانه وقواده من الهاجاناه . وبدأت المكاتب فى الخارج تأخـــذ مبادرات من جانبها دون تنســـيق وبينما بدأ كبـــار الرفاق فى العودة الى الوطن من المنفى أو السجن لم يعـــد بيجين يملك وحـــده احتكار الحكمة السياسية . فكان هناك رجـــال مثل ياكوف ميريدور ، الياهو لا نكر ، أريخ بن اليعـــازر وهيليل كوك ، اكتسبوا خبرة متراكمة فى افريقيا ، وأوروبا ، والولايات المتحـــدة ولم يكونوا واثقين ثقـــة عمياء بأحكام بيجين . والشىء نفســـه بالنسبة للمقاتلين الشـــباب مثل اميهاى باجلين الذى نضجت شخصيته وســـط النيران . كانوا جميعا يشعرون بحرية اكبر فى مناقشته بل وربما فى الاختلاف مع قراراته أحيانا . كانت الايلم والدولة ذاتها فى حالة من عدم الاستقرار . لم يكن هنـــاك اجماع من الارجون بالاعتراف بالسيادة المطلقة للحكومة الانتقالية برئاسة بن جوريون ، أو فى التخلى عن روح العمـــل السرى . وفى الوقت الذى أبحـــرت فيه « التالينا » التى سميت على الاسم المستعار لجابوتينسكى عبر البحر المتوســـط اختلط الخط الفاصـــل بين الاستراتيجية والتكتيك ، بين العمل السياسى والقيـــام

بالعمليات العسكرية التى استمد منها بيجين قوته . خرج القائد من مكمنه الى الميدان . كان ذلك عاملا غير مألوف ، اذ اعتقد رجال الارجون الاخرون انهم أكثر دراية منه فى هذا المجال . وبسبب تشتت السلطة ،

كان حوار بيجين مع يزرائيل جاليلى الذى كان حينذاك نائب بن جوريون فى وزارة الدفاع مترددا وغامضا أفسدته التركة المثقلة بعدم الثقة والمنافسة السياسية ويشير السجل التاريخى ان كلا الجانبين كانا مخطئين فى شكوكهما فلم يكن بيجين يخطط لانقلاب كما أن بن جوريون لم يكن ينصب لقائد جماعة الارجون كمينا يهدف الى القضاء عليه وعلى البقية من قوته . ولكن كلا الرجلين تصرفا بطريقة أوحت بأنهما يتآمران ضد بعضهما البعض . فقد أساء بيجين فهم دوافع وقرارات بن جوريون . ولم يقدر كيف سيقوم رئيس الوزراء بارساء أساس بناء الدولة والحكومة والجيش . وساعد تردد الارجون على زيادة شكوك بن جوريون كما ساعدت على ذلك الكراهية

المتأصلة فى نفسه ازاء كل شىء يمثله الارجون ومناحيم بيجين من عنف ، وفوضى الامر الذى يشكل تحديا وقحا للحق الالهى لحزبه ، حزب الماباى .

وما كان يجب أن تحدث مأساة « التالنيا » . فقد كانت دولة اسرائيل التى ولدت قبل ذلك بشهر واحد أى فى ١٣ مايو ١٩٤٨ تقاتل من أجل بقائها . وكانت القدس اليهودية تتعرض للتهديد من الشرق وتل أبيب من الجنوب . وكان الجيش يمر فى طور التشكيل من عصابات الهاجاناه والارجون وشتيرن ومن العناصر المتنافرة من المتطوعين اليهود القادمين عبر البحار . وكان يعانى نقصا شديدا فى الأسلحة والذخيرة . وكانت « التالنيا » تحمل نحو خمسة الاف بندقية بريطانية من طراز لى انفيلد وأكثر من ثلاثة ملايين طلقة بندقية ، ومائتين وخمسين بندقية من طراز برين ومائتين وخمسين بندقية من طراز ستين ، ومائة وخمسين بندقية آلية المانية من طراز سباتداو ، وخمسين مدفع مورتار ، وخمسة آلاف قذيفة ، وطنا من مادة ال تى . ان . تى وكذلك تسعمائة وأربعين متطوعا ليسوا جميعا من المتعاطفين مع الارجون . وكانت السفينة أشبه بمنحة الهية ، كانت تلك السفينة سفينة أمريكية من مخلفات الحرب بدأت العمل فى سنة ١٩٤٤ واشتراها هيليل كوك من اللجنة العبرية للتحرير القومى ، النادى الامريكى لمؤيدى الارجون بمبلغ خمسة وسبعين ألف دولار . وقام ابراهام ستافسكى بتسجيلها تحت علم بنما . بعد بحث مضنى عن الاسلحة تلقى المكتب الاوربى للارجون حمولة السفينة من الاسلحة هدية من الحكومة الفرنسية التى كان واضحا انها ترد الصاع صاعين للبريطانيين لتأييدهم شارل ديجول قبل وبعد التحرير .

وقبل ثلاثة أيام من انتهاء الانتداب البريطاني ابلغ جاليلي بيجين ان بن جوريون ينوى اعلان دولة يهودية . ووافق قائد الارجون ، الذى كان يخطط لاعلان الدولة بنفسه اذا لم يقم بن جوريون بذلك ، وافق على الاعتراف بالحكومة المؤقتة وعرض على الفور بيع « التالنيا » الى السلطات بمبلغ مائتين وخمسين ألف جنيه استرليني ورفض جاليلي عرضه على اساس أن السفينة معروفة لدرجة أنه من المتعذر أن تقوم بنقل الاسلحة دون اكتشافها . وفى أول يونيو تعهد بيجين بانضمام الارجون الى صفوف الجيش الوطنى ووقع مع جاليلى اتفاقا من ست نقاط :

١ — انضمام أعضاء الارجون الى صفوف الجيش .

٢ — يجرى تشكيل وحدات خاصة من مقاتلى الارجون فى ألوية الجيش .

٣ — يتم تسليم الاسلحة ، المعدات وتجهيزات صناعة الاسلحة الى سلطات الجيش .

٤ — تمارس هيئة أركان مؤقتة تتكون من ضباط من الارجون عملها نيابة عن الجيش حتى يتم انضمام كافة أعضاء الارجون (لم يتحدد موعد محدد ولكن بن جوريون رأى أن هذا سيستغرق نحو شهر يتم بعده تسريح هيئة أركان الارجون) .

٥ — الغاء أنشطة الشراء المنفصلة وتحويل العقود الى الجيش .

٦ — تتوقف الارجون وقواتها عن العمل كوحدة عسكرية فى دولة اسرائيل وداخل مجال سلطة الحكومة الاسرائيلية .

اضاف جاليلى ، نزولا على رغبة بيجين للحفاظ على ماء وجهه ، جملة تنص على أن الارجون تحل نفسها بمحض اختيارها . ولم يرد أى ذكر عن وحدات الارجون فى القدس . ولكن زعم بيجين ان المدينة المتنازع عليها خارجة بصفة مؤقتة عن مجال سلطة الحكومة .

ليس هناك ما يدعو للشك فى اخلاص بيجين بتوقيعه هذا الاتفاق ، كانت ثورته موجهة ضد البريطانيين وكان هدفها اقامة دولة يهودية فى الوطن القديم ، وأقر بأن بن جوريون الذى كان يتمتع بتأييد الاغلبية ، هو الزعيم الطبيعى لهذ الدولة وكان مستعدا بصفة اساسية للتخلى عن اثارة العراقيل من أجل السياسة الديمقراطية ولكنه اختلف اختلافا جذريا حول نقطة حساسة وهى حدود الدولة — مع الاتجاه السائد للقيادة الصهيونية لدرجة انه لم يكن من الممكن النظر الى ولائه كأمر مسلم به . رفض بيجين التقسيم وواصل الحديث والعمل كما لو كان يستخدم الارجون لانشاله مهما كان قرار الحكومة ، وكان ذلك الاساس المنطقى وراء شك بن جوريون وهو ما لم يحاول بيجين تبديده .

اعلن بيجين فى كلمة القاها يوم الاستقلال فى ١٥ مايو ان الارجون ستتخلى عن العمل السرى « داخل حدود الدولة العبرية المستقلة » واضاف فى تفسير اختار كلماته بعناية : « لقد لجأنا الى العمل السرى تحت حكم القمع . الان لدينا حكم يهودى فى جزء من وطننا . فى هذا الجزء ليس هناك حاجة الى العمل السرى اليهودى . فى دولة اسرائيل سنكون جنودا وبناة » .

وفى الوقت الذى كانت الارجون تتفاوض فيه مع معاونى بن جوريون كتب بيجين الى زملائه فى الخارج أن الارجون ستكون القوة المقاتلة اليهودية الوحيدة « لوضع الامة فى موضع القيادة للبلاد بأسرها » ولان القيادة الصهيونية الرسمية والهجاناه لن تكون مستعدة لذلك فان الارجون ستحتاج الى اسلحة لاجل عشرة آلاف رجل (وهو عدد اكبر بكثير مما تستطيع استخدامه فى ذلك الوقت) وحث ممثليه على (تكديس الاسلحة) . عندما اشتكت السلطات بعد توقيع اتفاق يونيو من أن الارجون ما تزال تشترى الاسلحة من الخارج وتجمع التبرعات من الداخل أجاب بيجين بأن هناك تداخل فنى . ولم تقتنع الحكومة . وانتظرت بعثتها لشراء الاسلحة فى فرنسا بدون أن تتصل بها الارجون ، وفى اسرائيل كرر بيجين القول خلال عرض عسكرى فى ناتانيا ان دور العمل السرى فى الخارج هو جمع الاسلحة حتى يحين الوقت لشن هجوم لغزو البلاد بأسرها . واثار تلق ليفى اشكول الذى كان زميلا نجاليلى خلال المفاوضات مع الارجون ما رآه من الانقسام فى القيام بالادوار . ففى الوقت الذى يلعب فيه دور السياسى يلجأ زملاؤه الى الخيار العسكرى . كتب الصحفى الاسرائيلى شلومو ناكديمون فى تقريره حول موضوع السفينة « التالنيا » المؤيد للارجون الى حد كبير : « لم تستبعد فكرة أنه ربما يكون ضروريا للارجون زعماى ليومى أن تتواجد خارج حدود البلاد وفى القدس الدولية . واكد هذا شامويل كاتز وهو عضو فى جماعة الارجون فى أوروبا :

« اننا لن نحل صفوفنا كلية ، اننا لم ننس قط القدس ، التى رفضت الحكومة الاسرائيلية اعلان سيادتها عليها ، حيث سقطت المدينة القديمة وحيث تتعرض المدينة الجديدة للخطر . هناك يتعين على الارجون أن تواصل وجودها المستقل للنضال من أجل ضم المدينة بأكملها الى الدولة اليهودية ، وحتى ذلك الحين فانه يتعين الحفاظ على بقايا الارجون فى الخارج » .

ويبدو ان كلمة خارج الحدود كانت تعنى خارج حدود التقسيم .

ازدادت شكوك الحكومة فى ١٦ يناير بعد أن ابحرت « التالينا » من ميناء بورت دى بوك بالقرب من مارسيليا عندما التحمت احدى وحدات

الارجون احـد متاريس الجيش وازدادت اعمال التمرد المماثلة خلال اسبوع ازمة السفينة « التالينا » .

وفى ٢٦ مايو كتب بن جوريون مقالا يدعو فيه الى اخماد تلك التهديدات التى تهدد وحدة الدولة والجيش وحظر الابقـاء على اية قوة مسلحة خارج الجيش ولم يكن هذا مرسوما روتينيا واكد « بن جوريون » :

ان هذا يقرر مصـير الدولة الجـديدة ووجودها والذين يحيون فوق ارضها . ان مغزاه هو الحيلولة دون تقويض الدولة وتدمير الجيش . ان جيشا واحدا خاضعا للدولة وللدولة فقط يعمل باسمها يمكن أن يبقى الى الابد وليس جيوشا خاصا متحزبة .

ويحق لبن جـوريون أن يفخر لانه طبق نفس المنطق دون تمييز على البالماخ ، الجيش الخاص لليسار ولكنه انتظر حتى نهاية حرب الاستقلال .

وتسلمت الارجون يوم الاربعاء ٩ يونيو بناء على أمر من جورج بيدال وزير الخارجية الفرنسية الاسـلحة التى بلغ ثمنها خمسـة ملايين دولار . وبعد يومين على الرغم من اضراب عمال الشـحن ابحـرت السـفينة التى تزن ١٫٨٠٠ طن بحمولتها كاملة . وتوافق ابحـار السفينة مع بدء وقف اطلاق النـار لمدة شهر بين القوات الاسرائيلية والعربية الذى توصل اليه مراقبو الامم المتحدة . وجمـدت الهدنة التصرفات فى الارض ومنعت ادخال اسلحة اضافية . وفى مكتب الارجون فى باريس اعرب شامويل كاتز عن اسـتيائه من تلك الشروط باعتبارها تخل بالميزان الى درجة كبيرة فى غير صالح اليهود . ولم تمنع الهدنة بريطانيا من شحن اسلحة الى العراق او الاردن أو مصر حيث موانيها بعيدة عن منطقة القتال . وكان الحظر الوحيد الفعال ضـد اسرائيل ، كتب كاتز :

(عقدت الهدنة من حساباتنا ازاء سفينة التـالينا التى ستكون الآن معرضة للهجـوم من جانب المصريين او البريطانيين ، كانتهـاك للهـدنة .. قررنا انه على ضوء خطورة الموقف بالنسبة للاسلحة فاننا سنقوم بالمخاطرة التى ربما تنشـأ عن انتهاك رسمى للهدنة ، ولذلك فانه يجب ان تبحـر السفينة وأن يقوم قائدها بالقيـام بما يراه ضروريا لتجنب أو مقاومة الاعمال العدائية اى أنه يتعين على القائد أن يفعل كل ما هو ممكن لتجنب مراقبـة الامم المتحدة) .

كان ذلك قرارا من جانب واحـد اتخذه مكتب باريس الذى احتفظ سرا بموعد ابحار السفينة عن مقر الارجون فى تل ابيب . وكانت باريس تعـرف أن بيجين لديه تحفظات حول انتهـاك الهدنة على الرغم من أنه كان يعارضها من حيث المبدأ ، وكان يقول لزملائه : « ليس مهما موقفنا ازاء الهدنة ولكننا

لا نريد أن نتحمـــل مسئولية النتائج المحتملة التى تنتج عن انتهاكها » . ولكن كان مكتب باريس واثقـــا أن الحكومة ستخضع للامر الواقع ولم تكن لديه النيـــة للسماح لتل أبيب بتقـــرير موعد ابحـــار السفينة أو اذا كانت ستبحر أم لا . ان القـــول انه كانت هناك مخاوف من أن يتم اعتراض برقية أو مكالمة تليفونية كان عذرا واهيا . وعلى أية حال فلن مغادرة السفينة عرفت على الفور وعرف بيجين بأمر الابحـــار من محطة الـــ بى . بى . سى كما عرف عن أزمة أخرى حدثت بعد ذلك . وقام بيجين بارسال برقية الى كاتز ، الذى أكد ــ بعد ثلاثة أيام ــ أن الشحنة فى طريقهـــا . وفضـــل بيجين أن يدع الحكومة تقرر ما اذا كانت ستخاطر بانتهـــاك الهـــدنة بالسماح للسفينة بالدخول الى ميناء اسرائيلى . وقام بمخاطبة مونرى فين قبطان الســـــفينة والياهو لانكين قائد كتيبة الارجون على السفينة عن طريق الراديو وأمرهما بالبقاء بعيـــدا وانتظار مزيد من التعليمات . وعلى الرغم من أن لانكين تلقى الرسالة الا انه اختار أن يتجاهلها وواصلت السفينة ابحارها .

وخلال اجتماع عقد فى ١٥ يونيو ابلغ بيجين واريخ بن اليعـــازر الذى كان قد وصل من فرنسا جاليلى عن السفينة وحمولتها الثمينة . وفى هـــذه المرة تجاهل بيجين اعتراضات زملائه وابلغ الحكومة عن حمولة الســـــفينة وكان قد احتفظ حتى ذلك الحين بسر هدية بيدال . وبعـــــد التشاور مع بن جوريون ابلغ جاليلى تليفونيا عن موافقـــة الحكومة على السماح للسفينة بالاقتراب من الشـــــاطىء ولكن أمر الارجون بسحبها الى كفارفيتكين وهى مستوطنة بين ناتانيا وقاصرية وليس الى شاطىء تـــل أبيب ملتقى الانظار . وقد أشار بيجين فيما بعد الى رســـو السفينة فى كفارفيتكين وهى احد معاقل الماباى على انه دليل على أنه لم يكن يخطط للقيـــام بعصيان . وافترض جاليلى أن بيجين سيقوم بتسليم السفينة وحمولتها الى الحكومة بدون شروط. وعبر مفاوضو الارجون الذين صدمتهم بعض أسئلة جاليلى التى اتســـمت بالخشونة عن شعورهم لأول مرة بعدم ارتياح ازاء دوافعه .

وخلال المحادثات التى جرت فى ١٧ و ١٨ يونيو ثارت شـــكوك متبادلة . وعندما وافق جاليلى على انه يتعين ارسال عشرين فى المائة من الاســـلحة الى مقاتلى الارجون الذين ما زالوا يعملون بصورة مستقلة فى المدينـــــــة ، بينما قال جاليلى انه يعنى أن تذهب الاسلحة الى الجيش النظامى (لم تفصل الحكومة ، كما فعلت الارجون بين القدس وبقيـــــة البـــلاد واحصت قوات الهاجاناه السابقة هناك باعتبـــارها جزءا من قوات الدفـــاع الاسرائيلية) . ورفض جاليلى كلية طلبا ثانيا بأن توزع الثمانين فى المائة الباقية من الاسلحة على وحدات الارجون العاملة فى الجيش الوطنى اولا . ورأى أن هـــــذا يعد بداية لوضع اسفين لانه اذا ما وافقت الحكومة على مطالب الارجـــون

بالنسبة للاسلحة فانها سرعان ما ستحاول ارغامها على التخلي عن التزامها بقرار التسليم . أمر جاليلي على أن تتسلم وحدات الارجون الاسلحة بنفس الشروط التى تتسلم بها الوحدات الاخرى . وفى يوم ٢٢ يونيو أعلن بيجين فى كلمة شهيرة انيعت بالراديو بعد ليلة تدمير « التالنيا » ان رجاله ما كانوا سيستمعون له اذا ما خضع لمطالبهم بأن تكون لهم الاولوية . وكشف خلال حديثه النقلب عن رفضه التام لفكرة ترويض نفسه على دمج كتائب الارجون ، وقال فى تلك الكلمة :

(لقد حلموا بتلك الاسلحة منذ سنوات ، ما الذى لم يفعلوه ، ما الذى لم يضحوا به من اجل كل بندقية وكل مدفع ؟ والآن عندما وصلت اسلحة التحرر هذه ، هذه الكمية الضخمة من الاسلحة الحديثة ، كيف لا نعطى هذه الاسلحة الى مقاتلينا فى الجيش ؟ كيف نمتنع عن التأكد من ان يتسلم رجالنا هذه الاسلحة أولا ؟ لقد احضرناها فكيف اذن نمتنع عن تسليحهم بها ؟) .

ولكن اصرار بيجين قابله معارضة قوية من جانب هيليل كوك الذى قامت لجنته الامريكية بشراء « التالنيا » . وكان كوك الذى يزور تل ابيب قبل انهاء اعمال الارجون فى الولايات المتحدة شديد الغضب :

لقد فقدت السيطرة على اعصابى ، قلت انظر ان هذه أول وآخر سفينة لنا ، هناك عدة سفن فى طريقها الى الهاجاناه . ان علينا عمل كل ما يمكننا حتى لا تقع اية تفرقة ضد مقاتلى الارجون فى الجيش فاذا بدأت فى التفرقة لصالح الارجون فانك ستعطيهم رخصة للتفرقة ضدنا بعد شهرين أو ثلاثة من الان .

وبعد مشاورات اجراها مع اثنين من كبار زملائه وهما ياكوف ميريدور وحاييم لاندو وافق بيجين واجرى اتصالا تليفونيا مع جاليلى . ووفقا لما ذكره كوك فان بيجين وافق على أن تذهب نسبة الثمانين فى المائة من الاسلحة الى الجيش ككل . ولكن بمجرد تسوية هذا الخلاف نشأ خلاف آخر . أصر بيجين على أن يحضر ممثل عن الارجون ، اى هو نفسه ، استعراضا للوحدات عند استلام الاسلحة وتسليمها باسم الارجون . ويقول كوك : ضحكت فيما بينى وبين نفسى « ظننا منى انه يريد القاء خطاب » .. بحث جاليلى الموقف ثم قرر الا تكون هناك شروط . ويعتقد كوك ان غرور بيجين كان سببا فى دوام الخلاف بدون مبرر : ويقول « ان السمة المميزة فى بيجين هى الاهتمام بالمظهر قبل الجوهر » فمن أجل رغبته فى القاء خطاب ضاعت السفينة واختلف الجانبان كذلك حول من سيقوم بتفريغ السفينة « التالنيا » ومكان تخزين الاسلحة . وأصرت الارجون على أن توكل اليها مهمة التفريغ وان يتم تخزين الأسلحة فى مخازن الارجون تحت حراسة مشتركة من الارجون زفاى ليومى وقوات الدفاع الاسرائيلية . وأصرت وزارة الدفاع على ان يتحمل الجيش

بمفرده مسئولية التفريغ والتخزين · وتبنى جيدى باجلين قائد عمليات الارجون موقفا أشد تشددا مما كان ينويه بيجين · ووفقا لما ذكره « ميريدور » فان قائد الارجون لم يكن يقصد فرض اية شروط ولكن « باجلين » جره الى موقف متشدد · أبلغ « نبهاس فازى » رئيس هيئة شراء قوات الدفاع الاسرائيلية وديفيد هاكوهين ضابط الاتصال بقوات الدفاع الاسرائيلية اللذين كانا يقومان بالمفاوضات بهذا الشأن وصول المفاوضات الى طريق مسدود · استنتج جاليلى أن الارجون تستعد للعمل بمفردها · وفى يوم السبت ١٩ يونيو أبلغ جاليلى بن جوريون بأنه « نشأ موقف جديد خطير ، يتمثل في المطالبة بجيش خاص ، بأسلحة خاصة لوحدات معينة فى الجيش ·

لقد كانت مأساة « التالنيا » تقترب من نقطة اللاعودة · ووسط التقارير القائلة ان السفينة كانت تقترب من الساحل الاسرائيلى وان مئات من جنود الارجون كانوا يهجرون وحداتهم ويتدفقون عبر كفار فيتكين ، دعا بن جوريون الوزارة الى جلسة طارئة يوم السبت ٢٠ يونيو · وتجددت المخاوف القديمة نتيجة للانباء التى ذكرت ان بيجين وبقية قيادة الارجون ينتظرون على الشاطىء·

فانفجر بن جوريون قائلا فى غضب : « لن تكون هناك دولتان ، ولن يكون هناك جيشان ولن يفعل مستر بيجين ما يريده ، علينا ان نقرر عما اذا كنا سنقوم بتسليم السلطة لبيجين أو مطالبته بالكف عن انشطته الانفصالية . واذا لم يستسلم فاننا سنطلق النار ·

وافقت الوزارة بالاجماع على اقتراح من جملة واحدة : « تعهد الحكومة الى وزارة الدفاع باتخاذ ما تراه متمشيا مع قوانين البلاد » وأضاف بن جوريون (الذى كان يشغل منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع دفعا لاى لبس ازاء ما يقررونه « ان القيام بعمل يعنى اطلاق النار » · أبلغ جاليلى والجنرال ياجيل يادين رئيس الاركان الذى تم استدعاؤه الى الاجتماع ان السفينة ستصل فى الساعة التاسعة مساء ذلك اليوم وان ستمائة من رجال قوات الدفاع الاسرائيلية موجودون بالفعل بالقرب من المكان ، وانه يمكن احضار كتيبتين اخريين وصدرت اليهم الاوامر بالتجميع لمواجهة اى عمل . واصدر القائد أوامره بان يبذل الضابط المسئول كل جهده لتجنب استخدام القوة ولكن اذا لم تنفذ أوامره فانه سيجرى استخدام القوة » · حث بن جوريون الذى ادهشه اجماع الوزارة ، يادين على « العمل بسرعة » · وفسر جاليلى تصويت الوزارة بالاجماع على انه قرار اجماعى بتجريد الارجون من كافة الاسلحة · أوضح الجنرال دان ايفين قائد الجيش المحلى لرجاله ان الهدف من العملية الوشيكة هو : « ارغام الارجون زفاى ليومى على تسليم السفينة والاسلحة وتجريدهم من الاسلحة التى شرعوها ضدنا » .

كان جاليلي مترددا في الضرب دون بذل جهد آخر للتوصل الى اتفاق. وقام بارسال مازيه الى كفار فيتكين لدعوة بيجين الى التباحث . منع مريدور بيجين من الذهاب ، لانه كما أوضح فيما بعد ان تلك كانت خدعة للقضاء على بيجين في الطريق . ووفقا لما ذكره مازيه فان باجلين رفض الحديث اليه ، وقال انه اذا اراد جاليلي رؤية بيجين فانه يجب أن يأتي الى كفار فيتكين . وعندما قفل مازيه عائدا بالرد كتب جاليلي انذارا الى بيجين قام بالتوقيع عليه الجنرال ايفين :

« بناء على أمر خاص من قائد أركان قوات الدفاع الاسرائيلية امر بمصادرة كافة الاسلحة والعتاد الحربي الذي وصل الى الشواطيء الاسرائيلية في نطاق سلطاتي ووضعها على الفور تحت تصرف دولة اسرائيل . لقد صدرت الى الاوامر ان اطالبكم بكل الاسلحة التي وصلت الى الشاطيء لوضعها تحت حراستي وابلغكم أنه مطلوب منكم الاتصال بالقيادة العليا واطالبكم بالامتثال لهذا الامر على الفور ، فاذا لم توافقوا على القيام بهذا فانني سالجأ على الفور الى استخدام كل الوسائل التي املكها لتنفيذ الامر وابلغك ان المنطقة بأسرها محاطة بوحدات الجيش وان الطريق مسدودة وتقع عليك بالكامل مسئولية النتائج المترتبة عن رفض الانصياع لهذا الامر ، وأمامك عشر دقائق للرد » .

يزعم جاليلي أن الانذار قدم لبيجين « وسيلة مشرفة للانسحاب » على الرغم من ان صياغة الانذار لا تنم عن ذلك . ويقول ان مهلة العشر دقائق كانت كافية ، لان الارجون لم يكن أمامها سوى خيارين لا ثالث لهما اما الرفض أو الايجاب . ولكن بيجين لم « يأخذ هذا الانذار الغبي « مأخذ الجد. وقال فيما بعد انه اعتقد ان ايفين كان يتصرف من تلقاء نفسه دون معرفة خلفية الاحداث . وعلى اية حال فان جاليلي لم ينفذ مهلة العشر دقائق ، ففي الوقت الذي استمر فيه رجال الارجون في تفريغ الاسلحة ارسلت الحكومة اوفيد بن امي عمدة ناتانيا للتوسط بين الطرفين . كان بن امي مقتنعا بأن الارجون لم تكن تخطط للقيام بانقلاب ولكنه فشل في التقريب بين وجهات نظر الطرفين .

كان بيجين مازال يواجه المتاعب مع مرءوسيه واعلن « باجلين » في جو تسوده روح الشعور بالاضطهاد ان الجيش يقوم بنصب كمين وبدأ في اعادة تحميل بعض الاسلحة التي كانت قد افرغت بالفعل من السفينة واراد أن يعيدها الى البحر حتى انتهاء الهدنة ثم يتم تفريغها في غزة أو العريش جنوبا . كان بيجين مازال يعتقد انه يستطيع خداع الجيش ، وقال « لباجلين » : « اتركها ، اننا سنقوم بتفريغ الاسلحة هنا قبل وصول مراقبي الامم المتحدة . انني لا اعتقد ان لدى الجيش نوايا سيئة تجاهنا . ان المشكلة تكمن في الامم المتحدة . خلاصة الامر ان بيجين قام باعفاء « باجلين »

من منصبه وعين « ميريدور » بدلا منه . ولكنه سرعان ما عرف أن نوايا الجيش كانت أبعد ما تكون عن النوايا الحسنة . بعد أن ابلغ جاليلى رفض انذار ايفين قرر بن جوريون عدم اجراء اى مفاوضات أخرى : « لم يعد ممكنا التوصل الى حل ، فاما أن يمتثلوا للاوامر وينفذوها ، أو سنقوم باطلاق النار . اننى أعارض اية مفاوضات واتفاق معهم . لقد انقضى وقت الاتفاق .. اذا توافرت القوة فانه يجب استخدام القوة بدون تردد » .

اضاف بن جوريون بخط يده كلمة « فورا » وفى كفار فيتكين فى الساعة الخامسة بعد الظهر من يوم الاثنين ٢١ يونيو توقف تفريغ الاسلحة فى الوقت الذي كان يحاول فيه ميريدور ، ومونروفين وافرهام ستافسكى الذين سافروا من فرنسا على ظهر السفينة اقناع بيجين بأخذ السفينة الى تل ابيب حيث سيكون السكان اكثر ودا وحيث تكون الحكومة أكثر ترددا فى بدء معركة . بدأ اطلاق النار بينما كان بيجين يقوم باستعراض قواته ، ووجه قائد الارجون فى حديث بالراديو اللوم الى الجيش لهجومه ، من كافة الاتجاهات وبكافة انواع الاسلحة . قال ناكديمون ان جنود قوات الدفاع الاسرائيلى أطلقت النار دون صدور اوامر لها وكتب يقول انه خلال حالة الفوضى الشاملة التى حدثت فان الارجون ردت على النار بالمثل . ولكن يزعم هيليل كوك الذى كان على الشاطىء فى كفار فيتكين أن قوات الارجون كانت البادئة باطلاق النار — ليس على الجيش ولكن باتجاه البحر كما لو كانوا يريدون أن يقولوا أنهم جادون وانهم مستعدون لعمل اى شىء . ومهما كانت الحقيقة فان الارجون فقدت ستة قتلى وتسعة عشر جريحا وقوات الدفاع الاسرائيلى قتيلين وستة جرحى خلال القتال الذى دار خلال الليل . وأصر بيجين الذى انبطح أرضا على الرمال لتجنب الطلقات المنهمرة ، مغادرة المكان لان هذا سيعد انسحابا مخزيا . لكن عندما أحاط طرادان بحريان بالزورق الذى اقل فيروستافسكى الى الشاطىء قاما بحمل بيجين والقائه فى الزورق بعيدا . فأخذ يسب ويحتج باللغة العبرية واليبدية واخذ الزورق يناور حتى عاد الى السفينة لم ينقذه هووفين من التعرض للاصابة سوى مهارة فين الملاحية التى تعلمها بالاسطول الامريكى فى المحيط الهادى .

غادرت « التالنيا » كفارفيتكين فى الساعة ٩٫٣٥ ليلا يتعقبها اسطول صغير من السفن الحربية الاسرائيلية المعادية . ووصلت تل أبيب فى نحو منتصف الليل . وفى ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو اذاع مكبر الصوت عرضا نهائيا من الحكومة : « انصتوا ، انصتوا ، سيقوم ممثل عن الحكومة والجيش بالصعود الى السفينة لاخلاء الموجودين على ظهرها وتقديم المساعدة للجرحى وتفريغ الشحنة » . مرة اخرى تجاهل بيجين وزملاؤه الفرصة لتسوية الامور دون اراقة دماء . وعلى ظهر السفينة اقترح انه

يجب على بيجين أن ينزل الى الشاطىء ويتفاوض ولكن أوقفه الياهــو لانكين خوفا من أن يتعرض للأذى ، واعترف لانكين فيما بعد انه ربمــا كان مــن الاصوب ترك بيجين يذهب للتفاوض . ربما كان من الممكن تجنب ما حدث بعد ذلك ، ولكن ربما كان بيجين قد قتل .

لم تكن الحكومة يساورها القلق فقط من جراء رفض الارجون الامتثال لاوامرها بل ومن تجمع مؤيدى بيجين على شاطىء تل ابيب وفــرار الويــة الارجون من معسكر صرفند وغيره من المعسكرات وكان راى بن جوريون أن سيادة الدولة فى خطر . وخلال اجتماع للقيادة العليا اخــذ رئيس الوزراء يرغى ويزيد ويحادث نفسه وهو فى حالة شديدة من الغضب . ووصفه أحد الشهود بأنه كان اشبه « بأسد حبيس فى قفص » . وقد طلب من شامويل ياناى قائد العمليات البحرية ابداء رأيه كخبير فيما يمكن عمله ازاء السفينة التالنيــا :

« طرحت كافة الافكار : قذفت قنابل دخان لاجبارهــا على الرحيل ، الاستيلاء على السفينة من القوارب ، تفريــغ الشحنة ... رفض بن جوريون كافة مقترحاتى باشــارة من يده . لم اصب الهدف وفهمت فيما بعد فقط ما كان يريد ســمــاعه منى – ما هــو هــدفه الحقيقى . كــان تدمير السفينة التى اصبحت ذريعة للصراع بين الاشقاء . كان يريد تدميرها لازالة الموضوع الذى كان الناس مستعدين للقتال حوله ، وسيكون هناك فيما بعد خلافات واتهامات مضادة متبادلة ولكن لن يعود هناك ذريعة للقتال .

بنفس الروح أمر بن جوريون يادين : « عليك ان تقوم بكافة الخطوات : تجمع وحدات الجيش ، النيران ، قاذف اللهب وكافــة الوسائل الاخــرى التى فى حوزتنــا لتحقيق الاستسلام غير المشروط للسفينة . وكانت كل تلك القوى سيتم استخدامها اذا ما اصدرت الحكومة تعليماتها بذلك . وخلال اجتماع طارىء عقده مجلس الوزراء تغلب رئيس الوزراء على اية تحفظات اثيرت . ورد بن جوريون على اولئك الوزراء الذين فضلوا تقديم تنــازلات بدلا من الحرب .. » ان ما حــدث .. يعرض الدولة للخطر .. ان هــذه محاولة لتحطيم الجيش وهذه محاولة للقضاء على الدولة ولا يمكن فى رأيى التوصل الى حل وسط بالنسبة لهاتين النقطتين ، واذا ما اصبح من الضرورى لســوء حظنا البالغ القتــال لهــذا الغرض فان علينا ان نقاتل . لم يــرد المتشككون بشىء وصـــوتت الوزارة باغلبية سبعة ضد اثنين بمطالبة الارجون بتسليم التالنيا الى الحكومة واستخدام القوة اذا استدعى الامــر . وعلى الفور أمر بن جوريون يادين بالتصرف .

اصبحت التالنيا التى رست فى أكثر الاماكن ازدحاما على شاطئ تل أبيب على مرأى من الزوار ، والمراسلين ، ومراقبى الأمم المتحدة فى شرفات فنادقهم ، قبلة للرائحين والغادين من الجنود المؤيدين للحكومة والمؤيدين لبيجين فى ملابسهم الرسمية وحاملين أسلحتهم . وتدفق المدنيون الى الشاطىء كما لو كانوا مشاهدين فى مباراة نهائية للكأس . وكان رجال الارجون المؤيدين لبيجين يرددون الهتافات المعادية للحكومة . واخذ الجيش يناضل من اجل منع تعزيزات الارجون . بدا انزال احد القوارب المحملة بالرجال المسلحين من التالنيا وبدأ اطلاق النار خلال دوامة الفوضى التى حدثت تولى ايجال آلون القائد الشاب لقوات البالماخ العملية . وكانت الاوامر الصادرة اليه من بن جوريون صارمة ومحددة : « اقبض على بيجين ! اقبض على بيجين ! » .

فى الوقت الذى بدا فيه المصادمات تنتشر ومناشدة الارجون عبر مكبر الصوت سكان تل ابيب بالانضمام الى جانبهم ارسل آلون فى طلب مدفع . وتم اخلاء الشوارع التى كانت على مرمى نيران التالنيا . وقام آلون ونائبه اسحق رابين بمعاينة ارض المعركة من مقر البالماخ فى فندق ريتز . وبعد الظهر تم التوصل الى وقف لاطلاق النار لاخلاء الجرحى . ووفقا لاحد التقارير فان قادة البالماخ راوا الارجون يضعون مدفعا آليا ثقيلا على سطح السفينة مصوب الى فندق ريتز . سعى آلون الى الحصول على اذن باستخدام المدفع ووافق بن جوريون حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وبدأ القصف . كان بيجين مقتنعا أن آلون لديه النية تماما فى قصف التالنيا وكتب يقول فى كتابه « التمرد » : « فجأة سمعنا ازيزا فوق رؤوسنا ونادينا على قائد البالماخ مذكرين اياه انه وعد بوقف كامل لاطلاق النار ، لم يرد علينا ثم جاءت طلقة ثانية وثالثة ورابعة ، لقد احاطوا بالسفينة وهم يزحفون لتحقيق هدفهم .. » .

زعم آلون الذى اصبح فيما بعد وزيرا للخارجية ونائبا لرئيس الوزراء انه قام باطلاق « طلقات تحذيرية » كمحاولة اخيرة لاقناع السفينة بالاستسلام .ووفقا لرواية البالماخ فان خمس او ست طلقات فقط قد اطلقت . وقال آلون انه « اندهش » لان السفينة اصيبت وامر رجاله على الفور بوقف نيران المدفعية . سواء أكان ذلك صحيحا أم لا فان الاصابة المباشرة نفذت أوامر وتعليمات بن جوريون واشعلت النار فى التالنيا واشعلت نيران الحرب الاهلية غير المرغوب فيها وغير المخطط لها ، وسهلت الحل السريع للارجون لتتحول الى قوة عسكرية منفصلة . كان الهدف الوحيد الذى لم يصبه آلون هو مناحم بيجين ولكن اذا كان قائد الارجون مصيبا فان ذلك لم يكن بسبب عدم المحاولة : « ففى كل مرة اذهب فيها الى

منصة ربان السفينة كانت تتعرض بصفة خاصة الى نيران كثيفة وعندما اغادر المنصة كانت النيران تتوجه الى ناحية اخرى » . كانت الطلقة تثقب وسط سطح السفينة ثم تنفجر فى مخزن السفينة . انتشر الدخان وانفجرت الذخيرة . نجح مونرونين فى تشغيل المضخات وغمر المخزن بالمياه ولكن مع استمرار اطلاق النار بدأ الامر وكأنه مسألة وقت فقط قبل ان تنفجر السفينة المشتعلة . وعلى الرغم من اعتراضات بيجين الشديدة رفع القبطان علما ابيض مؤقتا ودعا البالماخ الى وقف اطلاق النار . كان بيجين منبطحا على السطح وكانت ركبة أحد البحارة فوق ظهره . ورفض مغادرة السفينة قبل ان يغادرها آخر رجل من رجاله ، وقال فى حديث إذاعه فى تلك الليلة ان مرؤسيه هددوا باستخدام القوة لارغامه على مغادرة السفينة ولكنه رفض مغادرتها :

اذا كنت قد استمررت فى البقاء فوق السفينة فان هذا لم يكن من منطلق الوطنية بل من منطلق الشعور بالواجب . فكيف لى ان اغادر السفينة التى كانت فى طريقها الى الانفجار وكان هناك جرحى على سطحها ! ويمكن ان تحدث الكارثة فى اية لحظة ! قال لى القائد : « أعدك اننا سنخرج جميعا ، سنخرج وبالفعل تم اخراج معظم الجرحى ، وهكذا قفزت الى الماء » .

قال آخرون إن اثنين من بحارة مونرونين الاقوياء قاموا بالقائه الى البحر . وكان آخر من غادر السفينة فين ولانكين قبطان السفينة وقائد مقاتليها من الارجون . كانت معركة شاطىء تل ابيب الارجون اربعة عشر قتيلا وتسعة وستين جريحا فى مقابل مقتل اثنين من قوات الدفاع الاسرائيلى وستة جرحى . وكان من بين القتلى افراهام ستافسكى صديق طفولة بيجين الذى كان قد قبض عليه ثم أعلنت براءته من قتل حاليم ارلوسوروف على نفس ذلك الشاطىء الرطب منذ خمسة عشر عاما . وتم فيما بعد انقاذ بعض الاسلحة من السفينة المحطمة التى بقى حطامها على مرآى من تل أبيب كشاهد على حماقة السياسيين — سواء بن جوريون او بيجين وفقا للتحيز لاى منهما . ولم يكن غرق السفينة التالنيا أسعد اللحظات فى حياة قائد الارجون ولا كانت الكلمة التى القاها فى تلك الليلة بعد ساعتين من غرقها من اذاعة الارجون السرية بأفضل خطبة . لقد فقد بيجين السيطرة على نفسه وانفجر فى بكاء مرير وسب بن جوريون ووصفه بذلك الغبى ، ذلك الاحمق الذى تآمر لقتله وأردف ذلك بحركة من يده تشير الى انه يستطيع القضاء عليه وهدد بالويل والثبور لكل من تسول له نفسه ايذاء أسرى الارجون . وبعد ذلك فى نفس الليلة نشرت الارجون بيانا وصفت فيه بن جوريون بأنه « ديكتاتور مجنون » وحكومته بأنها حكومة من الطغاة المجرمين ، والخونة والقتلة ، والغى البيان الامر السابق لقوات

الارجون بالانضمام الى الجيش . ولكن بيجين حذر رجاله من اطلاق النار على قوات الدفاع الاسرائيلي قائلا : « انه لن يكون هناك قتال بين الاخوة في الوقت الذي يقف فيه العدو على الباب » .

اما يزرائيلي جاليلي فقد خصه بيجين بأسوأ انواع القذف ، بوصفه بأنه « تاجر خطير يتاجر في الدماء والممتلكات اليهودية » ودرج قائد الارجون لسنوات عديدة بعد ذلك أن يذكر « رجلا مجهولا يشغل منصبا كبيرا في الدولة » وهو احد المقربين من بن جوريون الذى نسب اليه انه قال له « ان بن جوريون قد خدع في مسئلة السفينة التالنيا » وعلى الرغم من أنه لم يذكر المتآمر الا انه كان يعتقد ان جاليلي هو الذى خدع بن جوريون . وليس من المستغرب أن ينكر جاليلي بشدة كل شيء عن ذلك الامر « ان هذا القول اما ان يكون حقدا أو حماقة أو كليهما وليس له أساس من الحقيقة . لم تكن هناك تفاصيل حول اتصالات مع الارجون على أى مستوى لم تعلم بها وزارة الدفاع بالكامل وعلى الفور » . أنكر بن جوريون الاتهام كذلك . ويزعم جاليلي أن بن جوريون كان « أكثر عدوانية منه بكثير » . عندما كنت في المقر في كفار فيتكين تلقيت رسالة منه يقول فيها انه لا يفهم لماذا لا نعمل » . لم يكن هناك خلاف كبير في الهدف أو الادراك بين زعيمى العمل . وتشير الدلائل على أن جاليلي تردد أكثر من مرة في القيام بعمل ، كان يريد أن يمنح بيجين الفرصة لاطاعة أوامر الحكومة وكان رأينا ان بن جوريون هو الذى أرغم الاخرين على الاسراع في العمل . وكان بن جوريون هو الذى قال خلال اجتماع عقد في ليلة وقوع كارثة السفينة التالنيا للجنة الشعبية : « فليبارك الله المدفع الذى قصف تلك السفينة » . كان ذلك دعاء بالبركة لم يستطع الا قليل من الاسرائيليين ، حتى من بين المعجبين ببن جوريون أن يرددوا بغير ارتياح كلمة « آمين » .

الفصل الثانى عشر

اختيار جانب المعارضة

لعل مناحيم بيجين هو زعيم الحزب الوحيد فى العالم الديمقراطى الذى خسر فى ثمانى انتخابات متعاقبة واستطاع الصمود حتى كسب الانتخابات التاسعة والعاشرة . وليس صحيحا أنه كان محصنا ضد النقد من جانب زملائه المتطرفين فى الوطنية . كان يتعرض دائما للتحدى ولكن متحدوه يملكون الاحترام والنفوذ ، والجاذبية الشعبية والمهارة السياسية التى تمكنهم من احتلال مكانته . وتحولت « حركة الحرية » التى اسسها فى اغسطس ١٩٤٨ خلال اجتماع عقده الرفاق القدامى فى العمل السرى الى حزب الارجون زفاى ليؤمى ، وكان أهم أعضائه ولمدة أكثر من ثلاثين عاما يشكلون ما اسماه بيجين « بالعائلة المقاتلة » حيث يتمتع بين افراده بسلطة شخصية غير قابلة للهجوم، ومازال بيجين هو القائد ومازالوا هم أولاده وينادون بعضهم البعض بأسمائهم الكودية ويشتركون فى تبادل الذكريات حول اساطير النصر ، والتضحية والاضطهاد . وخلال اول انتخابات للكنيست فى يناير سنة ١٩٤٩ لم يكن حيروت المطالب الوحيد بتركه فالديمير جابوتينسكى . كان هناك ثلاثة احزاب أخرى هى : التصحيحيون من المدرسة القديمة الذين كانوا يعاملون من الارجون باحتقار خلال سنوات الثورة ، وحزب المقاتلين بقيادة عصابة شتيرن ، والحزب الرسمى بقيادة مائير جروسمان الذى انفصل عن جابوتينسكى فى سنة ١٩٣١ . وكانت كل تلك الاحزاب تتنافس معه للحصول على أصوات الناخبين . ولكن كان أخطر منافسى بيجين هم التصحيحيون الذين مازالوا ممثلين فى المؤسسات الصهيونية والذين استطاع بسرعة تطويقهم باقناع رئيس الاتحاد الدولى للتصحيحيين بالاعتراف بحيروت باعتباره الفرع الاسرائيلى للحركة . اتبع بيجين اسلوبا تكرر كثيرا فيما بعد للتخلص من معارضى زعامته وهو ما فعله مع كثير من التصحيحيين المحنكين ، أنه يهاجم من الداخل ، يعزل معارضيه ويجمد عضويتهم فى الحزب . وعبر السنوات ابعد أولئك المنتقدين بملؤهم شعور المرارة ولكن بدون حول ولا قوة — مثل ايرى جابوتينسكى ، ابن النبى ، وهيليل كوك الذى دخل مجددا فى معارك دستورية غامضة ، وشاموئيل تامير فى سعيه لتحقيق مستقبل قانونى ناجح ولكنه يدين بالفضل لبيجين لاى نفوذ يأمل فى ممارسته على هامش الحياة السياسية ، وعيزر فايتسمان الذى يقبع فى انتظار ، مثل ديجول ، دعوته الى انقاذ الامة .

كان حزب حيروت منذ نشأته حليفا للايدلوجيين اتباع جابوتينسكى ويثير سخط الناخبين اليهود الشرقيين وكان ما يربطهم معا هو مناحيم بيجين الذى

انشأ الحزب ورعاه حتى نما وازدهر . لم تكن هنك شبكة من الفروع المحلية النشطة بين الانتخابات وكانت « بيتار » اتحادا رياضيا اكثر منه حركة شبابية . وتأكدت سيطرة بيجين مع انتخابات أول كنيست ، عندما وضع قائمة المرشحين ، وهو مجال خصب لاسباغ الرعاية فى نظام التمثيل النسبى باعتباره بطلا قوميا ، غريبا لدى اليهود . واستطاع فى البرلمان ان يستعرض موهبته الخطابية ، مؤكدا مواهبة وهى نادرة فى حيروت كزعيم شعبى ، واستطاع الوصول الى أولئك العازفين عن التعقيد المذهبى وورث بيجين موهبته الشخصية التى أورثها جابوتنسكى للتصحيحيين . عزل الزعيم نفسه فى الدائرة الداخلية لحنكى الارجون مبتعدا عن الخلافات الداخلية فى الحزب مستخدما أصدقاءه فى القتال نيابة عنه ولم يمض وقت طويل فى اعداد نفسه للخلافة . كان يفضل مبدأ فرق تسد . كان يترك الطموحين ينافسون بعضهم بعضا والمخلصين يشقون طريقهم الى جانب القائد القديم . وخلال التمرد الاول واجههم بالنتائج بعرض استقالته . وحدث فى أحد المرات ان قام بتأجير غرفة فى القدس واستأنف دراسته للمحاماة ، وبعد كارثة انتخابات ١٩٥١ للدورة الثانية للكنيست عندما انخفض عدد الكراسى التى حصل عليها حزب حيروت من اربعة عشر مقعدا الى ثمانية مقاعد وانخفض عدد الاصوات التى حصل عليها الى اربعة آلاف صوت على الرغم من زيادة عدد الناخبين بـ ٨١٤,٠٠٠ صوت ، ان ابحر بيجين فى اجازة الى ايطاليا وترك وراءه خطاب استقالته مع نائبه اريخ بن اليعازر ولكن يوهانان بادير احد شيوخ الحزب منع اى شخص من فتح الخطاب .

بعد فوز بيجين فى انتخابات سنة ١٩٧٧ سئل سكرتيره السياسى بيهايل كادشاى كيف استطاع الزعيم مقاومة الهزيمة لمدة تسعة وعشرين عاما ، اجاب قائلا : « لا أعتقد اننا توقعنا الفوز قط » . فى الخمسينات كانت برامج حزب حيروت يزينها شعار : « ان الله اختارنا لنحكم » وكان بيجين دائما يحذر ديفيد بن جوريون رئيس الوزراء من انتقامه عندما يتولى السلطة ، ولكن كلا الشعار والجدل كانا يعكسان احلاما للخلاص اكثر منهما اى حلم بالسلطة . كان حزب حيروت يعتبر حزبا للمعارضة وكانت رسالته الحفاظ على « راية الصهيونية الحقيقية مرفوعة » ، والنضال من اجل اسرائيل ابية وغير مقسمة ودحض لبراجماتية أغلبية الماباى » .

على الرغم من ان بيجين تخلى عن العمل السرى وتفرغ لالقاء الخطب بمجرد اعلان بن جوريون للدولة اليهودية فان التزامه بالديمقراطية البرلمانية ظل متكافئا . كان معجبا بنموذج البرلمان الانجليزى على الرغم من كراهيته للحكم البريطانى فى فلسطين وكان ينادى بالحصانة والحماية الدستورية للافراد عندما جرت فى الكنيست مناقشة « القوانين الاساسية » المختلفة . ولكن كان هناك حنين يراوده دائما للثورة وان لم يكن للديكتاتورية . كانت الحكومة فى رايه مخطئة دائما والكنيست لم يكن المكان النهائى للحكمة والشرعية

وعلى سبيل المثال ، ففى أول مؤتمر صحفى يعقده بيجين كزعيم لحـــزب حيروت أنكر صلة الحزب بقتل عصابة شتيرن لكونت فولك برنادوت السويدى وسيط الامم المتحدة ، ولكنه لم يستطع مقاومة القاء المسئولية المباشرة على « البريطانيين الذين حاكوا المؤامرة » . وكذلك على « شركائهم الظاهريـن والمستترين فى وزارة الخارجية الامريكية » وكذلك « السياسة الخاطئة » للحكومة المؤقتة فى اسرائيل .

« حذرنا الحكومة المؤقتة من ان تقيم دعائمها على حـكم استبدادى فى الجبهة الداخلية ومحاولة الاسترضاء على الجبهة الخارجية الامر الذى يعـد عمـلا سريا جديدا لقد اعلنـا هذا التحذير فى ١٥ مايو ولكن الحكومة المؤقتة التى تتحدث عاليا عن السيادة فى الوقت الذى تمارس فيــه الاستبداد والاستسـلام المخزى لم تلق بالا الى تحذيرنا . ولذلك فانـــه لا يمكن استبعادها كلية من تحمل المسئوليـــة غير المباشرة لمأســاة القدس بسبــب سياستها .

وعلى الرغم من تظاهره بالشجاعة شن بيجين حرب عصابات ضد « استرضاء » التقسيم بالكلمات وليس بقوة الســلاح وحتى لو اراد فانه لم يكن يملك الوسائل ليفعل شيئا آخر . جرى اعتقال كثير من الذين فروا من الجيش من جنود الأرجون بعد مســألة السفينة التالتيا . وفى القدس استسلمت آخر وحدات مستقلة من الارجون لانذار الحكومة الصـادر فى ٢٠ سبتمبر سـنة ١٩٤٨ . وقال بن جوريون : « ان بيجين ، وهو ابعد الناس عن العمـل الخيرى ، يعرف سلطة القوة واستسلم للقـــوة فقط » ، وتولى زعيم حزب حيروت مهمة النضال من اجل « ارض اسرائيل » بعد ثلاثة اسابيع من اجتماع اول دورة للكنيست وبعد اسبوعين من توقيع اتفاقية الهدنة بين اسرائيل ومصر . وقال بيجين ان التفكير بأن اسرائيل تدخل مرحلة سلام وهم بالغ :

« وجد الان فى الجزء الشرقى من اسرائيل ، كمـا فى الاردن احتلال بريطانى غير مباشر ... لن يكون هناك سلام لدولتنا ولن يكون هناك سلام لشعبنا اذا لم نحرر هذا الجزء من الوطن من القوات الغازية ... ان سياستنا الخارجية الرسمية تسير فى اتجاه تجميد الحدود المصطنعة ، حدود التمزيق » .

عـــاد بيجـــين الى الهجوم فى ابريـــل سنة ١٩٤٩ عنـدما تفـاوض الدبلوماسيون والضباط الاسرائيليون للتوصل الى هدنة مع الملك عبدالله فى رودس . وفى محاولة للتقسيم ائتلاف بن جوريون غلف منطقه بمزيج مـــن العبارات اللاهوتية والسياسية :

« لقد وقعت هذه الحكومة اتفاقية عهودية مع خادم بريطانيا ، مع حاكم الدولة التى تسمى نفسها المملكة الاردنية الهاشمية — ولعارنا العظيم هذا الاسم الذى تمت الموافقة عليه فى وثيقة رسمية وقعتها حكومة اسرائيل مع المملكة الاردنية التى تمتد بموافقة حكومة اسرائيل على الواقع على طول ضفتى نهر الاردن .... ان معنى هذه الاتفاقية ان البريطانيين يستطيعون العودة الى غرب اسرائيل واقامة قواعد عسكرية لهم هناك ... اريد توجيه بضعة كلمات الى اعضاء الكنيست من الوجهة الدينية . سادتى أريد أن اسأل ضمائركم — وأنا واحد من المؤمنين فى اسرائيل — كيف لم تهتز ايديكم عند موافقتكم على مشروع يتضمن الاعتراف بالمملكة الهاشمية الاردنية ، وبكلمات أخرى التخلى عن الاردن — كل الاردن الى أيدى الاعداء ؟ كيف لم تهتز أيديكم عند الاعتراف رسميا بسيطرة عبدالله على مدينة القدس القديمة ؟ » .

على الرغم من وجود حراسة اردنية على حوائط القدس القديمة ، وعلى الرغم من محنة حرب الاستقلال التى فقدت فيها اسرائيل ٦ر٥٠٠٠ من بين السكان البالغ عددهم ٦٧٥ر٠٠٠ نسمة وبالرغم من المشاكل التى تواجه الدولة الوليدة التى ضاعفت سكانها خلال اربع سنوات عن طريق الهجرة ، بالرغم من كل ذلك ، اصر بيجين على ابقاء شعلة « أرض اسرائيل » متوهجة . كان ايمان بيجين قويا فى عدم قبول اى حل وسط « لاتقولوا لنا انه لا جدوى من اصدار اعلانات » قال ذلك فى مقام اقتراحه بان يقوم الكنيست باعلان « القدس الموحدة » وليس فقط القسم الغربى من المدينة ، عاصمتها » . ان الدول الاجنبية يجب ان تعرف أن القدس لنا ، كلها لنا — الهيكل — الحائط الشرقى — والقدس كلها على جانبى الحائط لنا ، والقدس عاصمتنا ليس فقط من الناحية النظرية بل من الناحية العملية .

بالنسبة لبيجين كانت القدس بكاملها العاصمة « ارض اسرائيل » كلها ، ضفتى نهر الأردن كما حددها جابوتنيسكى ، كانت الوطن اليهودى سواء كانت اسرائيل فى موقف يسمح لها باستردادها أم لا . كان يلح بأن رباط آمون « عمان » مثلها مثل شيكم (نابلس) وجلبد مثل السامرا والباشا مثل الشارون هى « وطننا » ومهما كان غضب الرئيس جيمى كارتر خلال محادثات كامب ديفيد سنة ١٩٧٨ فانه لم يكن يستطيع اتهام الزعيم الاسرائيلى بالتضارب . الا أن ارتباط بيجين كان لمفهوم المكان ، للاسماء ولاصدائها التاريخية لم يكن لديه شىء من حب موشى ديان للارض لذاتها ولا شىء من اللغة « الصبرا » معها .

فى مايو سنة ١٩٥٠ عندما ضمت الاردن الضفة الغربية رسميا وجه بيجين اللوم لموشى شاريت وزير الخارجية لاعطائه الضوء الاخضر « لعبد الله

وحكومة بيغين التى وقفت وراءه لتحويل النهب والغزو الى عمل قانـــونى ونعترف به سياسيا » ظلت المملكة الهاشمية بالنسبة لبيجين الاراضى التى تحتلها بريطانيا من « أرض اسرائيل » اذا استطاعت الكلمات أن تغزو . . .
اخذ بيجين يسأل بن جوريون من الذى اعطى الحكومة السلطة للاعتراف بضم القدس ، والهيكل ، ومقبرة البطريرك وقبر راشيل ، والخليل ، وبيت لحم ، وشيكسيم وجليد وباشان ؟

لقد انتخبتم لتسيير شئون الدولة . ربما يقوم الشعب باختيار من يحل محلكم . وقد يجدد انتخابكم . ولكن من أعطاكم الحق ، وفى اى انتخابات أعطيتم السلطة للتخلى باسم شعب اسرائيل عن ميراث الاجداد ، ميثاق الاجيال ، قيادة التاريخ التى كان ثمنها دماء الملايين عبر مسيرة مائة وعشرين جيلا ؟ . . لم تعط اية انتخابات هـــــذه السلطة ومن المؤكد انها لم تمنح لكم فى الانتخابات الاخيرة . دعونى اناقش هذا السؤال «اذا أردتم السلطة فلنخرج الى الشعب ونسألهم اذا كانوا مستعدين أن يعلنوا أن عبدالله ولسنا نحن الذين يجب أن يحصل على القدس ، والخليل وبيت لحم » .

وجه بيجين فى نفس المناقشة انذارا بأن اعتراف الحكومة بالضم الاردنى ليس ملزما لحزب حيروت ٠ « عندما تأتى حكومة أخرى ـ وسوف نأتى ـ سوف تعلن أن هذا التوقيع غير سارى المفعول . ان كل ارض اسرائيل تخص شـــعب اسرائيل ولن تعترف بحق عبدالله او بحق البريطانيين فى حكم بوصة واحـــدة من وطننـــا » .

كان النضال من أجل « أرض اسرائيل » على الرغم من مثالياته على ضوء حقائق الخمسينات يحترم حدود الديمقراطية البرلمانية ٠ كان بيجين يضع علامات أكثر من تسلق التكتلات ٠ ولم تظهر مثل هذه الشكوك فى معركتــه التاريخية الثانية مع حكومة بن جوريون فى هذه الفترة ـ المعركة ضد قبول اسرائيل للتعويضات الألمانية ٠ عاد زعيم حزب حيروت الى سياسات الشارع محرضا الجماهير على الزحف الى الكنيست معرضا مستقبله السياسى للخطر وهو فى كامل وعيه ٠ كان هذا الموضوع الذى جاء بعد الابادة النازية لليهـود مباشرة تثير مشاعر عنيفة فى المجتمع الاسرائيلى ٠ كان حزب المابام اليسارى الذى ظل بعيدا عن الائتلاف الحاكم يعارض أى تعامل مع بون بنفس القــوة التى كان يعارض بها حزب حيروت ٠ وكان للحركتين جذور مشتركة فى النازية البولندية ، وتعرض اليهود البولنديين أكثر من أى يهود آخرين للابادة تحت الحل النهائى ٠ ولكن بيجين وحده رفع راية الاضطهاد ٠

كان اقتراح بن جوريون للمستشار الالمانى كونراد اديناور ملجأ أخيرا اتسم بالغباء ، لم يكن الهدف منه عقد مصالحة سريعة بين القتل والمقتولين بل كان محاولة يائسة ليواصل الاقتصاد الاسرائيلى المجهد مسيرته وتدعيم الدولة اليهودية فى مواجهة اعدائها العرب . أقر رئيس الوزراء أن اسرائيل لا يمكنها البقاء فى عزلة وتحتاج الى حليف قوى واتجه أولا الى بريطانيا بل ألمح أن اسرائيل مستعدة للانضمام الى الكومنولث ثم اتجه الى الولايات المتحدة ولكن كلتا الدولتين الغنيتين سببتا له خيبة الامل . بدات حكومة العمال والمحافظين البريطانية محادثات تمهيدية ولكن سرعان ما خمد الاهتمام . واستنتج مستشارو بن جوريون ان وزارة الخارجية البريطانية كانت ضد الفكرة منذ البداية وتأكدوا انه ليس هناك فرصة . وفى واشنطن كان جون فوستر دالاس وزير الخارجية أكثر اهتماما باستعادة العلاقات الامريكية مع العرب . وأعلن امام احدى لجان مجلس الشيوخ : « ان مشكلتنا الاساسية هى تحسين موقف الدول الاسلامية ازاء الديمقراطيات الغربية لان هيبتنا تتضاءل فى المنطقة بصورة مستمرة منذ الحرب » . ولم يلق اقتراح ابن جوريون بجعل اسرائيل « قاعدة الغرب ومخزن غلاله وورشته فى الشرق الاوسط آذانا صاغية » . ولقيت مناشدة اليهود الامريكيين تعاطفا أكثر فقد افتتح رئيس الوزراء حملة لبيع الاسهم الاسرائيلية فى اجتماع ضخم فى ميدان حديقة ماديسون فى مايو ١٩٥١ . ولكن على الرغم من نجاح الحملة فان مؤرخ حياة بن جوريون كتب يقول : « ان الاموال التى تدفقت لم تكن كافية لتحقيق استقرار طويل الامد لاقتصاد الدولة المزعزع . كانت اسرائيل تحتاج الى مساعدة مالية طويلة وضخمة » .

قامت اسرائيل باول محاولة مترددة للحصول على تعويضات فى مارس سنة ١٩٥١ ولكنها حاولت تجنب التعامل مباشرة مع الالمان وقدمت طلبا للحصول على بليون ونصف بليون دولار الى قوات الاحتلال وهى : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، وبريطانيا وفرنسا تعويضا عن الممتلكات اليهودية التى استولى عليها النازيون . ولكن الدول الكبرى رفضت القيام بأى شىء ازاء هذا الطلب . كانت التعويضات مسألة تخص الالمان .وجاء هذا الطلب فى المرحلة التى اشار فيها اديناور الزعيم الجديد لالمانيا الاتحادية المعادى للنازية الى استعداده لدفع تعويضات لاسرائيل . كتب تيريس بريتى المؤلف البريطانى فى تاريخه لحياة اديناور انه لم يكن هناك ثمة شك فى تسوية حساب الالمان مع اليهود « كان الشىء الممكن هو جعل اقصى حد لاعادة ممتلكات اليهود فى نطاق الوسائل المتاحة لالمانيا . كان يبدو دائما أن اديناور يفهم ذلك وانه كان يعتبر أن هذا العمل واجب عليه » . ومع ذلك فان عددا كبيرا من الاسرائيليين ومن بينهم اعضاء فى وزارة بن جوريون وزعماء حزبه المابام شعروا بالذعر من الفكرة .ومع ذلك فان رئيس الوزراء

لم يجد اية متاعب فى تهدئة ضميره وكان يعرف ان الطريق الوحيد لجعل التعويضات مقبولة لدى الاسرائيليين هو وضع كل ثقله وراء الحصول على تلك التعويضات . وقال : « فى عبارة واحدة فان السبب يكمن فى وصية الستة ملايين ، ضحايا النازى ، الذين كان قتلهم بمثابة صرخة مدوية لاسرائيل من أن تنهض ، أن تكون قوية ومزدهرة لحماية امنها وسلامها . وهكذا نمنع وقوع هذه الكارثة التى حلقت بالشعب اليهودى من ان تحدث مرة اخرى . ولم يكن بن جوريون أقل براعة فى الدفاع عن وجهة نظره فى الكنيست حيث قال :

« تعرض أكثر من ستة ملايين يهودى للقتل عن طريق التعذيب، والتجويع ، والمذابح الجماعية والاختناق الجماعى .. وحدثت عمليات السلب قبل وأثناء وبعد هذا القتل الجماعى — بطريقة لم يسبق لها مثيل كذلك .. لن جريمة بهذا الحجم الضخم لا يمكن ان يكون لها تعويض مادى ، ان اى تعويض ، مهما كان حجمه لن يكون تعويضا عن فقد الحياة الانسانية او نهاية لمعاناة وآلام الرجال والنساء ، والاطفال ، والشيوخ ، والرضع ومع ذلك فانه حتى هزيمة نظام هتلر استمر الشعب الالمانى فى التمتع بثمار المذبحة والسلب والنهب والسرقة من اليهود الذين قتلوا . وتعتبر حكومة اسرائيل نفسها ملزمة بمطالبة الشعب الالمانى برد هذه الملكيات اليهودية المسروقة . دعونا لا نجعل قتلة شعبنا المستفيدين ايضا من ممتلكاته !

انفجر مناحيم بيجين الذى كان والداه واخوه من بين الستة ملايين قتيل فى ثورة غضب شديدة . لم يكن هناك شك فى اخلاصه فى محاولته العنيفة للحفاظ على احترام الذات لليهود ولكن البعض الاخر فى حركة حيروت انتهزوا فرصة موضوع التعويضات كوسيلة لاعادة الحيوية الى الحركة وارجاع بيجين الى الحياة السياسية بعد نكسة انتخابات سنة ١٩٥١ . وجد بيجين متعة بالغة فى الدور الذى اوكل اليه . ووصف يهوشيا اوفير الذى كان يعمل فى ذلك الوقت مراسلا فى صحيفة الحزب « حيروت » الزيارة التى قام بها الى ياكوف روبن سكرتير عام الحركة :

« قرأ صحيفة (يديعوت أحرونوت) التى كانت بحوزتى ولاحظ خبرا صغيرا جاء فيه أن الدكتور ناحوم جولدمان سيقوم بزيارة الى المانيا لاستكمال اتفاقية التعويضات ، وفجأة نادى على اريخ ابن اليعازر : « اريخ ، أريخ ، هذا سوف يعيده . مناحيم سيعود لهذه الحملة ، هذه حملة من أجل شرف الأمة ، وهو ، الوحيد الذى يستطيع ان يقودها . بعد ذلك بأسبوعين عاد بيجين من اوروبا وخرجت حركة حيروت من جمودها العميق » .

بعد ظهر يوم ٧ يناير سنة ١٩٥٢ خاطب بيجين حشدا تراوح عـدده بين ٢,٠٠٠ (كما قال البوليس) و ١٥,٠٠٠ (كما قال بيجين) من سكان القدس من شرفة فندق تل ابيب فى ميدان صهيون . كان هناك رذاذ خفيف يتساقط ولكن خطابه كان ملتهبا .

كتبت صحيفة (جيروساليم بوست) تصف الموقف :

« كان مستر بيجين يتحدث بحماس وكان كثيرا ما يصيح ويقرن كلماته بكلمات مؤثرة كثيرة من التـــوراة . واشــار الي بيــان الحكومة المؤيد لمحادثات التعويضات الالمانيـة باعتبـاره ذروة سياسات ذلك المجنون الذى أصبح الان رئيسا للوزراء ، وجـذب وسط القائه خطابه ورقة من جيبه وبسطها بطريقة درامية وقال : « انني لم أجيء الى هنا لاثارتكم ولكن هذه الورقة التى سـلمت الى الآن تقول ان البوليس لديه قنابل يدوية تحتـوى على غــاز مصنوع فى المانيا ـ نفس الغــاز الذى استخدم لقتـل آبائنـا وامهاتنا . اننا على استعداد لتحمل اى شيء : حجرات التعذيب ، معسكرات الاعتقال ، السجون السرية فى سبيل عدم اتخــاذ اى قرار بالتعامل مع الالمان » .

يبدو أن الاشارة الى الغاز الالمانى كان مثالا كلاسيكيا لعـدم اهتمـام بيجين بالحقائق ، فمهما يكن أصل غاز الدموع فانه ليس مثل غاز زيكلون ـ بى ولكن هذا التلميح أتى ثماره . ووجه بيجين الذى كان يتحدث على بعــد عدة مئات من الياردات من مبنى الكنيست حيث كان بن جوريون يدافع عن سياسة الحكومة تحذيرا الى رئيس الحكومة :

« عندما وجهت الينا نيران المدفع ، أصدرت امرا : لا !
واليوم سأصدر أمرا : نعم ! وستكون هـذه معركة حيـاة او موت .. اليوم سيعلن رئيس الوزراء اليهودى انه سيذهب الي المانيا ليحصل علي اموال ،انه سيبيع شرف الشعب اليهودى من أجل مكسب مادى جالبا له العـار الابدى .. ليس هنـاك المانيا واحدا لم يشترك فى قتل آبائنا . كل المانى نازى ، كل المانى قاتل ، اديناور قاتل ، كل مسـاعديه قتلة ، لكن كل تقديراتهم الاموال ، الاموال ، الاموال انهم سيكفرون عن هذا الشيء البغيض بدفع ستة ملايين دولار ! » .

سار بيجين عبر شارع بن يهودا مرددا صيحة « الحرية او المـوت ، لا سبيل للتراجع » ليتحدى بن جوريون فى الكنيست . المبنى الذى يضم وزارة السياحة . وسارت الجماهير وراء بيجــين ولشرك صحيفة « جيروساليم بوست » ان العنف اندلع فى الشوارع لمدة ساعتين ؟

اخترقت الجماهير متاريس البوليس المحاطة بالاسلاك الشائكة وقامت بقلب السيارات الواقفة فى الشوارع والقاء الحجارة على مبنى الكنيست وعلى البوليس المنوط به حماية المبنى . ووصل عدد الجرحى من رجال البوليس الى اثنين وتسعين وستة وثلاثين مدنيا حتى الساعة السابعة مساء » .

وفى الساعة السابعة والنصف اعيد النظام الى مسرح الأحداث بوصول فرقة من الجيش احاطت بمبنى الكنيست وأصبحت الشوارع أمامه مهجورة تماما .

من داخل الكنيست كتب مراسل آخر يصف المناقشة التى جرت فى جو من العنف لم يسبق له مثيل فى الحياة البرلمانية الاسرائيلية .

« كانت تخترق قاعة الكنيست صيحات الجماهير لم تكن بعيدة ، اصوات سيارات البوليس المتقطعة وصوت سيارات الاسعاف والانفجارات المتقطعة لقنابل الغاز والسنة اللهب من سيارة تحترق ، ثم تحطيم زجاج النوافذ نتيجة لقذف الحجارة واخترق دخان القنابل المسيلة للدموع من الشارع حيث تجرى المعركة خارج القاعة واصيب احد الاعضاء بحجر فى رأسه » .

واستمر الاجتماع على الرغم من كل هذا الإضطراب وتم اخلاء القسم من القاعة التى كانت تتساقط فيه الأحجار والشظايا الزجاجية ، والذي يضم مقاعد المابام ، والصهيونيين العموميين وهابويل هاميزراحى ، وجلس الأعضاء فى أماكن آخرى . ولكن فيما بعد جرت مقاطعة المناقشة ذاتها داخل الكنيست عندما وصف مناحيم بيجين (جيروت) رئيس الوزراء بأنه سفاح ورفض أن يتراجع عما قاله ورفض كذلك مغادرة منصة الخطابة عندما طلب منه نائب رئيس المجلس ذلك قائلا : اذا لم أتكلم فلن يتكلم احد وقام نائب الرئيس بفض الاجتماع وسط الضجيج .

كان خطاب بيجين ضد التعويضات الإلمانية ربما كان سيصبح من أعظم خطبه البرلمانية لو كان فى ظروف مختلفة . فعند قراءته بهدوء بعد ثلاثين عاما من القائه يتضح انه خطاب عاطفى ، فصيح ، متعقل . أنه نداء الى الكبرياء اليهودى ونقدا قاسيا لأولئك الذين كانوا على استعداد للمساومة بشأنه قطعةمن المسرح مفعمة بالحزن والشجاعة وان كان مبالغا فيها قليلا . ولكن فى النهاية يجرى تذكرها تحت ظلال اعمال الشغب ، والاحجار ، والقنابل المسيلة للدموع والزجاج المحطم التى صاحبت المناقشة وجنوح بيجين الى لغة غير برلمانية والتبجح المنافى للديمقراطية كان مدركا للمخاطر وخاضها بأعين مفتوحة . بعد سحبه فى النهاية لوصفه بن جوريون بالسفاح واصراره على انه : « اذا لم اتكلم فلن يتكلم غيرى » . وافق على طلب رئيس المجلس بالانسحاب (ليس نتيجة للتهديدات بأننى ساطرد من الكنيست — اننى أنظر

الى طردى من الكنيست باستخفاف ، عندما نتكلم عن الحملة الراهنة فانى أؤيدها لانه مازال أمامى مهمة أقوم بها هنا وربما تكون الاخيرة ، وسأقوم بها الى النهايـــــة) .

كانت الحجة الاساسية التى دافع بها عن قضيته أن الشعب الالمــانى بأكمله مذنب فى المسألة برمتها ـ الملايين الذين صوتوا لصـــالح النازيين ، الذين خدموا فى جيش هتلر ، الجستابوا الـ اس . اس والـ اس . أ ، دبلوماسيى اديناور الذين كانوا دبلوماسيى رينتروب . « من وجهة النظر اليهودية لا يوجد المانى واحد ليس نازيا وليس هناك المانى واحد ليس قاتلا وأنتم تريدون الذهاب اليهم لتلقى الأموال منهم » . كان بيجين يساوره القلق حول الطريقـــــة التى سيتقبل بها العالم قبول تعويضات حيث قال :

« ان الالمان سوف ترى حقيقة واحدة : وهى انكم جلستم مع قتلة شعبكم واعترفتم انهم قادرون على توقيع اتفاقية ، انهم قادرون على المحافظة على اتفاقية ، انهم أمة بين الامم ،ان الالمان لا يكرهوننا فقط ولم يقتلوننا ويحرقوننا فقط ، لم يؤذوننا وليسوا غيورين منا فقط ولكنهم يكنون لنا بصفة خاصة شعورا بالاحتقار . وفى هذا الجيل الذى نطلق عليه آخــر جيل يتعرض للعبودية واول جيل يتحرر من عبوديته ــ فى الجيل الذى كسبنا فيه مركز الشرف الذى خرجنا فيه من العبودية الى الحـــرية ، تأتون الآن ومن أجل عدة ملايين من الدولارات الملعونة ، من أجل بضائع فاسدة وتلقون بالقدر الضئيل من الكرامة الذى اكتسبناه ... انكم تجعلون الارض تميد تحت أقدامنــــا ، انكم تعرضون شرفنا واستقلالنا للخطر ، كم سنتعرض للاحتقار » .

بعد أن ناشد بيجين بن جوريون اجراء استفتاء بدلا من تحدى مايعتقد أنه ارادة غالبية الاسرائيليين أعلن بيجين عن رأيه النهائى الحاسم . وقال ان هناك اشياء فى الحياة اسوأ من الموت ذاته :

« هذه هى احدى الاشياء التى سنضحى بحياتنا من اجلها ونكون مستعدين للموت فى سبيلها ، سنترك عائلاتنا ، سنفارق اطفالنا ولا يكون هناك مفاوضات مع المانيا .. اعرف ان لديكم قوة ، لديكم سجون ، معسكرات اعتقال ، جيش ، قوة بوليس ، جواسيس ، مدافع ، بنادق آلية ، كل هذا لايهم . حول هذا الموضوع ستتناثر القوة مثـــل تناثر الزجاج على الصخر ، سنقاتل للنهاية لاجل قضية العدالة ولا جدوى للقوة البدنية فى مثل هذه الحالات . انها هراء وتفاهة . اننى احـــذر ولكنى لا اهدد ، من الذى اهدده ؟ اننى اعرف انكم ستجروننا الى معسكرات الاعتقال ، انكم تسجنون المئات اليوم وربما ستسجنون الالاف ، لايهم ،

سيذهبون ، سيجلسون ، سنجلس معهم ، واذا اقتضى الامر فاننا سنقتل معهم ولن يكون هناك تعويضات مع المانيا وليساعدنا الله فى منع كارثة ستحيق بشعبنا ، ومستقبلنا وشرفنا . » .

مهما كانت نوايا بيجين ليلة السابع من يناير سنة ١٩٥٢ فان خطابه تحول الى مجرد كلمات خطابية جوفاء حيث وافق الكنيست على سياسة بن جوريون ازاء التعويضات الألمانية باغلبية واحدوستين صوتا ضد خمسين صوتا بينهم أحد أعضاء حيروت الذى أصيب بأزمة قلبية وتم احضاره الى قاعة الكنيست على نقالة) . وبعد أسبوعين صوت الكنيست بأغلبية ستة وخمسين صوتا ضد سبعة وأربعين صوتا لتعليق عضوية بيجين للثلاثة أشهر الباقية فى دورة الكنيست كعقوبة على مسلكه غير البرلمانى خلال المناقشة ، وفى شهر مارس عام بيجين بالقاء خطاب أمام مظاهرة من ٧٠٫٠٠٠ من معارضى اتفاقيةالتعويضات فى تل ابيب ولكنه توسل الى مستمعيه بعدم اللجوء الى العنف (وفقا لما ذكره منتقدوه فانه تلقى نصيحة بأن آلاف من سكان الكيبوتزات مفتولى العضلات حضروا الى المدينة لحراسة المبانى العامة والقضاء على اية أعمال شغب) صاح بيجين قائلا : « مستر بنجوريون ان انه اسرائيل سيقرر من منا المصيب» .

بعد ذلك بوقت قصير تم توقيع اتفاقية مع المانيا ، تعهدت بون بامداد اسرائيل بما قيمته ٧١٥ مليون دولار فى شكل بضائع وخدمات على مدى أحد عشر عاما وان تدفع ١٠٧ ملايين أخرى الى لجنة تمثل المنظمات اليهودية العالمية . وكان ضمن المعدات الضخمة التى تلقتها اسرائيل احدى واربعين سفينة تجارية ، وأربع ناقلات بترول ، وحوض سفن عائم ومصنع للصلب وصهر النحاس . ورفض أديناور ، — على الرغم من شكوك بيجين فى انه خدم فترة من الوقت فى سجن أحد المعسكرات النازية — ، تهديدات العرب لاقتصاد المانيا الغربية قائلا لهم : « هناك أشياء أكبر يتعين التفكير فيها أكثر من مجرد اتفاقيات عمل لا بأس بها » . اننا نريد المانيا مختلفة عن المانيا هتلر » .

لم يستطع مناحيم بيجين توطين نفسه على قبول المانيا « الجديدة » هذه خلال باقى الخمسينات والستينات ، سنوات المعارضة الطويلة المحبطة ، لم يترك بيجين اية فرصة منه لمهاجمة الحكومة لتوصلها الى اتفاق مع « قتلة الشعب اليهودى » . وشجب تبادل الزيارات بين المدارس الالمانية والمدارس الاسرائيلية ، وندد بعنف ببيع مدافع شبه آلية من طراز « عوزى » الى بون ، وألقى واحدة من خطبه الرنانة « انى أتهم » ضد اقامة علاقات دبلوماسية (فى سنة ١٩٦٥) ودعا الى يوم حداد قومى عندما قدم أول سفير لالمانيا أوراق اعتماده . ولكن لم يكن هناك شهداء ، أو زنزانات أو معسكرات اعتقال لاولئك

الذين قاوموا التعويضـــــات ونتائجها ، كمـا لم يمت بيجين أو رفاقه فى الحصق الأخير •

كان ذلك انتصارا حلوا مشوبا بالمرارة لبن‌جوريون فى مبارزة حامية حتى الموت كانت أحيانا مبارزة نبيلة ودائما حقيرة أصبحت مثل مباراة رياضية يشاهدها الاسرائيليون . كانت مبارزة شخصية أساسا . كان بن جوريون يأخـذ زمام المبادرة بوجه عام أو يحرض بيجين لذلك • رفض رئيس الوزراء فى أحـــد المراحل الاعتراف بوجود زعيم حزب حيروت مشـــيرا اليه فى الكنيست على انه « العضـو الذى يجلس الى جانب د . بادير ويترك قاعة الكنيست عندما يصعد بيجين الى المنصة . وكان يثأر لنفسه بترديد صلاة « شيهيهيانيون » : « لنشكر الرب لابقائنا احياء ومســـاندتنا وجعلنا نعيش هـذا الزمن » وذلك فى المناســـبات التى يبقى بن جوريون جالســـا فى مقعده . وصلت مبارزة الاتهـامات الى ذروتهـا أو ربمـا الى دركها الأســـفل بمناقشة كريهة ومتأخـرة عن مـوعدها حـول موضـوع السفينة التالنيا فى ينايـر ١٩٥٩ ، اتهـم بن جوريون بيجين بانه لـم يشترك فى حـرب الاستقـلال ، وسخر بيجين من بن جوريون واتهمه بمقاتلة البريطانيين وسط ملاهى باريس ووبخه بن جوريون قائلا : « لا تقاطعنى ، ليس لديك على الاقل شـــيكا أو جستابو . وعندما دعا بيجين رئيس الوزراء الى اخراج موضوع السفينة التالنيا من الكنيست الى لجنة تحقيق أجاب بن جوريون : « لا يا ســيدى لن أذهب الى أى مكان معك خارج الكنيست . اننى هنا خاضع للقـــانون وأنا أحترم القانون ويجب أن أولى اهتمامى بك وبكل عضو آخر فى الكنيست • هنا يتمتع كل عضو بحقوق وواجبات متساوية . وليس لدى أية نية للاجتماع بك فى نفس الغرفة خارج هذا المكان » •

كان بيجين قد أبلغ حزبه قبل ذلك بثلاث سنوات انه لن يحضر لجنة العلاقات الخارجية فى الكنيست اذا كان بن جوريون حاضرا لانه لا يتحمـل الجلوس فى نفس الحجرة مع رئيس الوزراء « الذى جرح مشاعره عدة مرات خلال العام الماضى » .

وخلال مناقشة موضوع التالنيا اتهم بن جوريون بيجين بالكذب « هذه الكذبة الوحيدة التى قالها هنا كافية بالنسبة لى لمعرفة الحقيقة التى يقـــدر على قولها . اننى لا أظن انه يتعمد الكذب أنه ببساطة غير قادر على التمييز بين الحقيقة والخيال » . ولكن عداء رئيس الوزراء لبيجين كان أعمق من الكراهية الشخصية ، كان يكمن وراء الخلاف اعتقاده أن حيروت مثلها مثل الارجون شكلت خلال أزمة التالنيا تحديا لديمقراطية اسرائيل التى لم تثبت دعائمها بعد . وقال « انها نفس الحركة واكتشف مستر ابا أهيمير طبيعتها فى مقال كتبه بعنوان « من مذكرات فاشيستى » • ولـــم يتردد بن جوريون

فى مقارنة بيجين بهتلر . وهو انطباع عززه بيجين بخوضه الانتخابات العامة فى ســـنة ١٩٥٥ فى سيارة كاديلاك مفتوحة وبحراسة مجموعة من شـــباب الغرباء . وقد ظلت هذه الصورة مطبوعة فى أذهان الناخبين بعد فترة طويلة من نسيان معايرة بن جوريون له .

اذا كان بن جوريون البادىء فى تبادلهما القذف فان بيجين كانت لـــــه الكلمة الاخيرة . وفى مايو ١٩٦٢ عندما اختلف المحارب القـــــديم اختلافا شديدا مع حزبه حاول بدهاء هزيمة خصمه :

ستشعر هذه الدولة بالراحة ، وستشعر الامة انها فى حال افضل ، وستنتهى الكراهية والعداء ، ويبرز الاحترام المتبادل ، وسيختفى الحقد وستبرز المنافسة المفيدة ولو كانت منافسة مريرة ولكنها ستكون امنية وجليلة ، وسيختفى التحريف وتزدهـــــر الحقيقة ، وستقل المسافة بين القلوب وسيعمق الاحســـــاس بالوحدة ، وسيختفى النفاق وتبرز الصراحة ، وستوضع نهايـــة للتملق البيزنطى ، وستعود الشجاعة وحرية التفكير ليحتـــــلا مكانهما ، وستقدم الشعب فى كل المجالات الاخلاقية ، والسياسية، والامنية والاقتصادية ــ عندما يتقاعد زعيم الماباى الذى يعمـــل رئيسا للوزراء وكلما كان هذا قريبا كان ذلك افضل » .

الفصل الثالث عشر

الخـــروج من التيـــه

على الرغم من عدائهما المستمر كان بن جوريون أول من يمنح بيجين أول شعور بالاحترام والتكريم اللائق بزعيم معارض مخلص ، ففى يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٥٦ استدعى رئيس الوزراء بيجين الى فراشـــه فى تل أبيب حيث كان يعانى من حمى شديدة وأبلغه ان اسرائيل بسبيلها الى مهاجمـــة مصر . وكان بن جوريون قد أطلع مجلس وزرائه فى وقت سابق من نفـــس اليوم على الخدعة العسكرية الانجلو ـ فرنسية والتى عرفها العـــالم فيما بعد بحرب السويس ، والاسرائيليون بحملة سيناء . وكان بن جوريون يريد التأكد من تأييد الكنيست والبلاد بالكامل . وقام باستقبال جميع زعماء كافة الاحزاب المعارضة ماعدا الشيوعيين فى مسكنه بشارع كيرين كايميت . ولم يكن بيجين هو الوحيد موضع ثقته ولكن مغزى الاجتماع لم يغب عن أى منهما . وكان بن جوريون بعد كل انتخابات يعلن انه مستعد لتشكيل ائتلاف مع « كافة الاحزاب ماعدا حيروت والشيوعيين » كان اعضاء حيروت مازالوا منبوذين فى تولى المناصب العامة وكان أعضاؤه مضطرين للنضال من اجـــل الحصول على ترقيات فى الجيش النظامى ، كما أن أبواب النقابات كـــانت مغلقة فى وجوههم . وكانت حركة العمل تسيطر على معظم المشروعات . كان حزب بيجين يتعرض للتهكم وفقدان الثقة . وكان التصحيحيون مازالوا منبوذى الصهيونية كان استدعاء بن جوريون لبيجين ايماءة بالقبول على الرغم من محدوديتها .

أمسك بيجين ، الذى كان ينادى دائما بشن حرب وقائية منذ بدايـــة العلم وتبنى استراتيجية « الفاعلية الايجابية » ردا على تسلل الفدائيـــين العرب قبل ذلك ، بيد بن جوريون وقال له : « اننى أحيى قرارك الشجاع » وأكد له : « انك تستطيع الاعتماد على تأييدنا » وخلال مناقشة الحـــرب فى الكنيست أثبت زعيم حيروت انه صادق فى وعده . ولكن هذا التقارب لـــم يدم حيث صب بيجين جام غضبه القديم على بن جوريون فى يناير التالى عقب خضوع رئيس الوزراء للضغط الامريكى وسحب الجيش من سيناء : واتهـــم بن جوريون قائلا : « ان اسرائيل حصلت على نصر عسكرى ولكنها عانت هزيمة سياسية » : تذكر انه بعد هذا الانسحاب فان مؤيدى الحكومة ، اى الاغلبيـــة ليست على حق دائما » . بل ان بيجين كان اكثر قسوة بعد ذلك بشـــهرين عندما قام بن جوريون بسحب قواته من قطاع غزة : « جزء محرر من وطننا »

وقال ان رئيس الوزراء سار بنعال خشنة فوق أجساد ممثل الشعب المنتخبين « ويل للاعين التى تقرأ والاذان التى تسمع هذه الكلمات » . ظلت رحلة بيجين الشاقة عبر غابة السياسة بطيئة ومضطربة وخلال الحقبة بين حرب السويس وحرب الايام الستة أيام استطاع حيروت ان يدعم صفوفه ليصبح ثانى أكبر الأحزاب بعد حزب الماباى ولكنه لم يستطع اختراق الصفوف ليهدد هيمنة حزب العمل . وفاز فى سنة ١٩٥٥ بخمسة عشر مقعدا من مقاعد الكنيست المائة والعشرين وحصل على سبعة عشر مقعدا فى سنة ١٩٥٩ وسنة ١٩٦١ ولكن نصيب الماباى من المقاعد لم ينخفض قط الى أقل من اربعين مقعدا ، الذى كان مع غيره من احزاب العمل ـ المابام واحدوت وهافودا يضيفان الى ثقل اليسار الديمقراطى .

يرجع التذمر من اسلوب وتطلع زعامة بيجين الى بداية الخمسينات ، كان يلجأ عقب كل انتخابات تقريبا الى العمل السرى وهو الاسلوب الذى الفه عندما كان رئيسا للوزراء ، كان بيجين يحب الانتصار ويستمتع بخوض المعارك التى كانت تخرج منه أفضل وأسوأ مافيه ، الرجل الاستعراضى ، والخطيب والشاكس المجبر . وكان سعيدا بشعوره بالاضطهاد . كان اقل ذكر للسفينة التالتيا واقل سخرية من الارجون كفيل باثارته ولكنه لم يحب قط تعليل وقوع كارثة . كان يشعر بالملل من الاشياء العادية لانها تخالف طبيعته الرومانسية . وبنهاية الخمسينات أصاب بعض رفاق بيجين التعب من المعارضة الدائمة . كتب احدهم وهو عضو فى « الاسرة المقاتلة » من مخضرمى الارجون سرا الى بيجين فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ يشكو من أن دعاية الحزب موجهة فقط الى أولئك الذين التزموا بالفعل بتاييد الحزب وليس الى الناخب المتردد . وكتب العضو فى خطابه يقول : ان حيروت معارض للمابام ، ولكن ليس لاجل أى شىء يمكن أن يمنحه الثقة . وأن كثيرا من الناخبين يرفضون تملق رجل واحد ولا داعى لذكر حراسة الدراجة البخارية . وهناك الكثير من « سلطة بيجين » وليس « حيروت » واستحكمت الانتهازية قبضتها ، وهناك السعى وراء الانتصارات الرخيصة ومناشدة مبسطة للجماهير بدلا من حملة معلومات موجهة الى الجماهير المفكرة وتم اتخاذ قرارات كثيرة للغاية وفقا لاهواء الزعيم . وتوقفت الحركة عن تعليم الشباب ولا تقدم أفكارا جديدة . كذلك فان المنتقدين أعربوا عن عدم ارتياحهم ازاء السعى لخطب ود الناخب المتين خاصة عندما يستتبع ذلك التضحية بالحرية الفردية . وبعد خيبة الامل التى اصابت حيروت فى انتخابات سنة ١٩٥٩ عندما حصلت على مقعدين آخرين فقط ادان شلوميل تامير وهو من أصغر الاعضاء زعامة بيجين علنا ووصفها بأنها زعامة « مفلسة » .

اثبتت تلك السخرية وجود صيحة عامة ضد بيجين الامر الذى شكل

اخطر تحد يواجهه بيجين منذ سنة ١٩٤٨ ، ثورة علنية بدت كما لو كانت دعوة لاستخدامه كخداعة والسماح لــه بالاستقالة وتأجلت المواجهة نتيجــة اتفاق بين حيروت والليبراليين ، ورثة حركة الصهيونية العمومية من الطبقة المتوسطة لتشكيل تحالف جاحال (وهى كلمة مركبة من جوش حيروت ــ الليبرالية وكتلة حيروت ــ الليبرالى) ولم يكن ذلك اندماجا كاملا فظل كل حزب محتفظا بهويته ، وسياسته المنفصلة وتنظيمة ، ولكنها كانت خــطوة هامة من اجل ايجاد بديل يمين ــ وسط عريض للعمل . وادخلت حــيروت الى مجال نشاط السياسات الاسرائيلية . وبذلت المحاولات الاولى فى بدايه سنة ١٩٥٠ عندما اقترح ازرائيل روكاش عمدة تل أبيب على بيجين أن يضم حيروت والصهيونيون العموميون صفوفهم خلال الانتخابات البلدية الوشيكه . رفض بيجين العرض ، ولكن فى سنة ١٩٥٥ عندما تخطى حيروت الصهيونيين العموميين فى الكنيست جاء الدور على بيجين لاتخاذ زمــلم المبــــادرة التى رفضت هــذه المرة لان حيروت كان شديد التطرف بالنسبة لحلفائهــم فى الحزب الصغير التقدمى الذى انفصل فى النهاية لتشكيل الحزب المســتقل الليبرالى بزعامة موشى كول وجدعون هوسنر . فشلت المفاوضات السرية مره أخرى بعد حرب السويس ولكنها كانت أكثر نجاحا قبل انتخابات سنة ١٩٦٥ . وتم التوصل الى الاتفــاق فى ٢٦ ابريل سنة ١٩٦٥ والذى فتــح الطريق أمام حيروت الى اتحاد نقابات انهستدروت المنتشرة . أكد بيجــين لشركائه الجدد ، بقيادة يوسف سابير والميلخ ريمالت الليبراليين المخضرمين انهم لن يظلوا فى المعارضة طويلا بعد ذلك . كان الاتحاد زواجا مفيــدا وليس التقاء عقول . ونجح لان الليبراليين كانوا مستعدين للمثول عنــد راى حيروت فيما يتعلق بالسياســة الخارجية والدفاعية بينما تخلى بيجين لهم عن السيطرة الاقتصادية . ولكن آمال بيجين تحطمت فى انتخابات ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٥ حيث فاز جاحال بستة وعشرين مقعدا أقل بمقعد واحد قبل اتفــاق حيروت والليبراليين . بينما فاز تحالف العمل بخمسة وأربعين مقعدا بزيادة اربعــة مقاعد عن مقاعده قبل الانتخابات على الرغم من عيوب بن جــوريون الذى فاز حزبه رافى بعشرة مقاعد . وبعد تسعة عشر عاما كان شباب حيروت قد تحمل الكثير . انضم الى شامول تامير وهو محام طموح فى تل ابيب وضابط مخابرات سابق فى الارجون ، فى تمرده ضد زعامة بيجين ، اليعيزر شوستاك وافراهام تايير من اتحاد العمل الوطنى المنافس اليمينى القليل العدد ولكن المنظم تنظيما جيدا ، للهستدروت . وكان يوهان بادير قد حذر بيجين مــن ترقية تامير بسرعة كبيرة ولكن اجابه بانه « لديه ثقة غير محدودة به » . القى شوستاك بالقفاز خلال اجتماع اللجنة المركزية لحيروت بعد اسبوعين مــن الانتخابات . وقال ان الخلاف بينهما يعود الى ايام انشاء الدولة فى ســـــنة ١٩٤٨ :

« توصل بيجين الى استنتاج أن مسيرة حركة التصحيح حتى انشاء الدولة لم تؤد الى تولى الحكم ، ولكن هذا الطريق سيقود حيروت الى السلطة . وطالب بمنحه الثقة :- « اعطوني الفرصة وسأثبت لكم أن الحركة ستنجح بطريقتى » : هكذا كانت العلاقة بين الحركة وبيجين غامضة . وتم قبول أشياء كثيرة لم يكن يفهمها الاعضاء أو كانوا يوافقون عليها على أمل أن يثبت انه على صواب » .

واجه بيجين التحدى وجها لوجه . وقال : « منذ دورة الكنيست الثالثة والرابعة كانت هناك اشاعات وهمسات وسأقوم أنا هذه المرة باثارة الموضوع » . منحت اللجنة المركزية الزعيم اقتراعا بالثقة باغلبية ساحقة : تسعة وعشرين صوتا فى مقابل خمسة مع امتناع احد عشر عضوا عن التصويت . ولكن كان يجرى الاعداد للمؤتمر القومى التاسع لحيروت فى قرية مكابيا خارج تل ابيب فى نهاية يونيو ١٩٦٦ ..

نظمت المعسكرات المؤيدة والمعارضة لبيجين قواتها خلسة كما كان يفعل المتآمرون القدامى فى العمل السرى . ولم تفصح الخطب الافتتاحية عن وجود معارضة مركزة ، ولكن المعارضة برزت عند التصويت على الرئاسة . قدمت قوائم متنافسة الى المندوبين البالغ عددهم ستمائة . وفازت المعارضة بنسبة أكثر من اثنين الى واحد من مجموع الحاضرين والمقترعين (٢٥٣ — ١٣١) مما دعا ايهود اولمرت أحد زعماء حيروت فى الجامعة العبرية لان يقول بدون تفكير ان الامبراطور لا يرتدى ملابس . قال : « حتى الان قاد بيجين مسيرة الحركة باعتبارها حركة معارضة لنظام الحاكم ولكنه لم ينجح فى قيادتها الى تولى الحكم وعليه أن يقبل النتائج ويستقيل مع كل قيادة الحركة » انفجر الصخب فى القاعة عندما بدأ المندوبون الموالون لبيجين فى التلويح بقبضاتهم والمناداة بسقوط الشاب المغرور . سارع بيجين ، الذى ربما لم يكن يفهم بعد خطورة التحدى الى الدفاع عن أولمرت وقال انه اذا لم يسمحوا له بالاستمرار فى الحديث فانه سيغادر المؤتمر . وقال انه شعر بالفخر لوجود مثل أولئك المندوبين المستعدين للتعبير عن مثل هذه الاراء وتقديم مثل هذه الاقتراحات . واصل أولمرت وهو ابن أحد أعضاء حيروت القدامى وعضو الكنيست عن الليكود فيما بعد انتقاد الصورة الاخلاقية للحركة ، وافتقارها الى الديمقراطية الداخلية وتوزيع بطاقات العضوية بالجملة ، وعندما تلجأ القيادة الى الهجوم ، فانها تستخدم الهجوم ضد هدف حقيقى وهو شلمول تامير وحنفائه من اتحاد العمل الوطنى ...

فى اليوم الثالث من المؤتمر حول بيجين التيار المعارض لـه بلن قـدم استقالته من زعامة الحزب وعرض التخلى عن مقعده فى الكنيست . ولكن هذا العرض رفضه على الفور المندوبون الذين اصابتهم الدهشـة البالغـة وكتبت صحيفة (جيروساليم بوست) تصف ما حدث : « ولكن رفض مستر بيجين تغيير قراره . وكان قد قال أمام اللجنـة المركزية فى وقت سـابق من اليـوم نفسه : » عندما نفـوز فى الانتخابات فاننا نصبح جميعا منتصرين ، ولكن عندما نخسر فانا الملوم » . وفهم الموالون القدامى التلميح وضـغط بادير على المندوبين لاعادة انتخـاب بيجين على الفور وحث رئيس المؤتمر افرهام شسترمان بيجين على العدول عن استقالته : « انـه ليس شخصا خاصـا انه ينتمى الى الحركة وجزء من تاريخ الامة » . عـاد بيجين الى المنصـة « لتعـديل بيـانه السـابق » « ووافـق » على البقـاء كعضـو فى اللجنـة التنفيذية للحزب . واستعادت القيادة سيطرتها وفازت قائمتهـا الرسمية للمراكز الاساسية فى اللجنة بزيادة أربع أصوات (٢٥٣ — ٢٤٩) خلال اقتراع سرى فى الساعة الثالثة صباحا ولكن لم ينته التمرد . وأثـار تامير الغضب بالحديث عن التميز بين رجال الماضى ورجال المستقبل ، سيلسيو الشتات وسيلسيو الصابرا التواقون للسلطة : « باعتبارى رجلا حرا مولودا فى هذه البـلاد ، وباعتبارى مرؤوسك فى الارجون زفاى ليومى ، اجىء الان واعارضكم فى انعلن ، وأعلن اننى لا أعارض الايدلوجية بـل الاسـاليب » ولدهشة بيجين والمندوبين المجتمعين اخرجت المعارضـة ارنبا من القبعة اذ صعد ايمهاى باجلون رئيس عمليات الارجـون السابق الذى لم يقم باى دور فى السـياسة منذ سنة ١٩٤٨ الى المنصة وبدأ فى صب احتقاره على القيادة .

انفض المؤتمر دون حل المشكلة بعد خطاب مفعم بالمشـاعر الجياشـة القـاه بيجين واستغرق ثلاث ساعات :

« هنك حد لمـا يمكن ان تتحمله الشخصية العامة . هناك حـد للقسوة العامة من رجل ما . انهم يطالبوننى بالتقاعد من الحياة العامة ولم اتقاعد ، ليس لانى مكروه او اننى محبـوب . ولكن ما هو الخطأ الذى ارتكبته ضد هذا الشعب طوال حياتى ؟ ما الخطأ الذى ارتكبته ضد مستر بن جوريون حتى يكن لى كل هذه الكراهية ؟ هل كان ذلك لاننى انا واصدقائى حاربنا من اجل الدولة التى اصبح بن جوريون أول رئيس لوزرائها بموافقتى ؟

صفى بيجين بعض حساباته مع الصحافة ثم بدأ فى توجيـه اللـوم الى المعارضة الداخلية : « شوستك وتامير وتاير : كانوا يعملون من وراء ظهرى شكلوا ائتلافا فيما بينهم ولم يبلغوننى . كان مستر تامير يعـرف اننى كنت انـوى الاسـتقالة وتركونى مثـل رجـل اعمى اتخبط فى الظلام . هل كان يظنـون اننى رئيس وزراء موناكو لاكراهى على الوزارة دون علمى ؟ » .

كتب مارك سيجال وهو مراسل سياسى اسرائيلى غير معروف عنه تعاطفه مع زعيم حيروت تعليقا جاء فيه :

« كان الخطاب تجربة مؤلمة بسبب الاعتراف بالتعرض للاذى الشخصى العميق .واعترف بعض الصحفيين الذين كانوا يجلسون على مائدة الصحافة والذين تحدثت معهم بعد ذلك انهم شعروا بالحرج الى حد ما لجلوسهم وسط هذا الحشد للاستماع الى هذا الاعتراف الحميم من الذى يقف على المنصة فى حالة هياج شديد ، بينما تجلس حولنا النساء الباكيات . شعرنا اننا نشهد تحطيم شخصية عامة » .

ولكن لم تكن مائدة الصحافة هى شرفة المسرح التى كان بيجين يلعب دوره امامها ويوجه لها اهتمامه . وكما كتب سيجال يصف تلك الليلة : « دوت القاعة بتصفيق مدوى بينما كان الرجل الشاحب أحمر العينين يتسلل تاركا المنصة » كان بيجين حريصا على أن تقتصر استقالته على مدة الدورة التاسعة لمؤتمر حيروت . لم يتم انتخاب خليفة آخر فى قرية ماكابيا ، المقر الدائم للبطولات الرياضية اليهودية الدولية . حل بادير مؤقتا محل بيجين كرئيس لمجموعة الكنيست ويلكوف مريدور كرئيس للحزب بدلا منه .

نجح بادير المخادع فى استرضاء المعارضة ولكنه احتفظ بأغلبية للحرس القديم فى اللجنة المركزية . ووافق باعتباره رئيسا للجنة القيادة على اقتراح يمنح المعارضة فرصة متكافئة فى اللجنة المركزية بشرط ان يخدم بها كل أعضاء الكنيست من حيروت أيضا . فلم كل جانب بتعيين ستة وأربعين عضوا فى اللجنة ولكن كان للموالين اغلبية اثنى عشر فى مقابل ثلاثة بين أعضاء الكنيست . وقال بادير : « اننى افضل ان ابقى فى التيه السياسى مع مناحم بيجين بدلا من الجلوس فى الوزارة مع شامويل تامير . وفى نوفمبر التالى عندما واصل حيروت طريقه استأنف بيجين تولى القيادة بهدوء . وواصل تامير ، وشوستاك ، والشاب اليهودى المرت شق طريقهم بعد فضيحة حول خطاب مزور معادى لبيجين ارسل الى صحيفة (هاآرتس) ولكنهم عادوا مرة اخرى وسط تشكيلة من الرايات الممزقة ليجلسوا فى مقاعد الحكومة بعد ذلك بعشر سنوات .

على الرغم من شكوك الليبراليين عقب انتخابات سنة ١٩٦٥ والضجة التى ثارت خلال صراع الزعامة فى حيروت لم يصب جاحال بأى اذى . كان الليبراليون لا يحرزون اى تقدم وينظرون فى الاتجاه الاخر . ولكن تآمرت الاحداث لتجمعهم مع مناحم بيجين فى حكومة واحدة أسرع مما كان يتخيل اى منهم . ففى ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ وبينما كانت اسرائيل تحتفل

بالذكرى التاسعة عشر للإستقلال قام الرئيس المصرى جمال عبد الناصر بإرسال دباباته الى سيناء عبر قناة السويس مثيرا أزمة ثقة تبدو عند تذكرها فى غير موضعها بدرجة غير معقولة ، كان العرب يتحرقون للحرب ، وكان الاسرائيليون يشعرون بانهم معرضون للهجوم . وللمرة الاولى خلال التاريخ القصير للدولة اليهودية افتقدوا الثقة فى قدرة زعمائهم على مواجهة مثل هذا التحدى . كان بن جوريون قد اعتزل الحياة السياسيه وذهب الى كيبوتز سيدح بوكر فى صحراء النقب وكان خليفته ليفى اشكول مشهورا عنه عدم الحسم ولم يكن رئيس الوزراء الجديد يمتلك خلفية عسكرية على الرغم من دهائه كسياسى فى الحزب وكان مثله مثل بن جوريون يشغل منصب وزير الدفاع . وعلى النقيض من بن جوريون لم يكن جديرا بالقيام بالمهمة .

تم التشاور مع بيجين وابلاغه عن تطورات الازمة باعتباره زعيما لكتلة المعارضة . كان بيجين مدركا تماما لحالة الفراغ فى قمة السلطة والقلق المتزايد فى البلاد . كان تفكيره الاول اعادة بن جوريون الى الحكم على الرغم من عدائهما الطويل والمتبادل . كان بيجين يحترم بن جوريون . وان كان يضن عليه بهذا الاحترام — باعتباره الرجل الذى قاد اليهود الى الاستقلال بعد الفى سنة من النفى . وكان يفضل وجود علاقة مختلفة معه . كان بن جوريون كما يراه بيجين فوق كل شىء سياسيا نشطا ، رجل دولة لم يتهرب من اتخاذ قرارات صعبة كان الشىء الذى لا يعرفه فى ربيع سنة ١٩٦٧ هو أن بن جوريون الذى بلغ الثمانين من عمره لم يعد الاسد القديم الذى يوثق به . وكان الجنرال اسحق رابين قائد الاركان الذى كان يشكو من أنه يطلب منه تحمل الكثير من العبء العسكرى والسياسى كذلك ، قد توجه الى بن جوريون ليحصل منه على تأييد معنوى ولكنه اصيب بخيبة الامل وكتب يقول بعد ذلك بسنوات :

« كان مؤلما رؤيته فى حالته الراهنة ، بعيد كلية عن اية مصادر للمعلومات والاسوأ انه يتمسك بقوة بمفاهيم قديمة واخطأ فى تقييمه لقوة قوات الدفاع الاسرائيلى . كان مقتنعا أن اسرائيل فى موقف سياسى غير محتمل ويشك فى أن تستطيع تخليص نفسها من الخطر ببدء حرب مع مصر » .

استطلع بيجين آراء زعماء الاحزاب المعارضة الاخرى ومن بينهم شيمون بيريز السكرتير العام لحزب بن جوريون رافى الذى انفصل عن العمل فى سنة ١٩٦٥ . وشعر بالرضا لانهم يشاركونه تشخيصه ويوافقون على وصفه للعلاج . وفى ٢٤ مايو وهو اليوم الذى جعل بعده ناصر الحرب امرا محتما باغلاقه مضايق تيران — شريان الحياة لميناء ايلات الاسرائيلى

على البحر الاحمر — اقترح بيجين سرا على اشكول دعوة بن جوريون لرئاسة حكومة وحدة وطنية . وكان رد اشكول الذى لم يكن خلافه مع بن جوريون أقل حدة من خلاف بيجين معه : « إن العربة الواحدة لا يمكن أن يجرها حصانان » . وعلى الرغم من ان بيجين كان متأثرا بالرد النهائى لاشكول فانه قبل دعوة للانضمام الى زعماء الاحزاب المعارضة الاخرى لعقد اجتماع خاص فى منزل بن جوريون فى تل ابيب ولكنه شعر بنفس الفزع الذى شعر اسحق رابين ، كان الرجل العجوز مازال يحارب حربه الشخصية مع مؤسسة العمل ورفض قيام اسرائيل بضربة وقائية ووصفها بانها مغامرة خطيرة . وحث الحكومة على طلب مساعدة الدول الكبرى . تخلى بيجين عن فكرة تعبئة بن جوريون للعمل وابلغ رئيس الوزراء أن جاحال مستعد للانضمام الى ائتلاف شامل بشرط أن يشغل موشى ديان وهو عضو بالكنيست عن رافى منصب وزير الدفاع بدلا من اشكول وقال انه « الرجل المناسب فى المكان المناسب » .

كان التيار يتجه بالفعل الى ديان الذى كان رئيسا للاركان خلال حرب السويس ولكن جولدا مائير سكرتير عام حزب العمل كانت تمانع فى نسيان الماضى . ومع ذلك فقد أصر بيجين أن جاحال لن يشترك فى الحكومة بدون رافى ، ووفقا لما ذكره « يهيل كاديشاى » سكرتيره السياسى — فان بيجين كان اقل اهتماما بسمعة ديان الحزبية من اهتمامه بتأمين اكبر قدر ممكن من الوحدة . وفى النهاية أذعن اشكول لمطالبة الراى العام ولبيجين .

وفى أول يونيو ١٩٦٧ عاد مناحيم بيجين الى الاضواء وانضم الى حكومة اسرائيل ورثة جابوتينسكى : الارهابيون المحترون من جماعة الارجون زملاى ليومى . احترم بيجين ديونه التاريخية ودعا اخلص ثلاثة من رفاقه باكووف مريدور ، واريخ بن اليعازر ويوهانن بادير للذهاب معه الى مكتب رئيس الوزراء حيث عانقهم ثم انصرف . وفى صباح اليوم التالى ، وهو فى طريقه الى الكنيست فى القدس وقف بيجين للحظة الى جانب قبر معلمه ، وكانت حكومة اشكول قد قامت قبل ذلك بثلاث سنوات باحضار رفات جابوتينسكى بطريقة ملائمة وأعادت دفنها على جبل هيرزل جنبا الى جنب مع زعماء صهيون . وذكر موشى ديان أنه بعد ان قام رئيس الوزراء بالترحيب بالوزراء الجدد فى أول اجتماع لهم مع الوزارة ، رد بيجين بخطاب قصير مفعم بالعواطف حافل بحكم من التوراة أخذ اشكول الذى كان يتمتع بروح الدعابة يؤكدها بقوله : « آمين ، آمين » .

الفصـــل الرابـــع عشر

التدريب على الحـــكم

فى هذه الحرب لم يجد مناحيم بيجين نفسه مضطرا لانتظار دعوة وباعتباره وزيرا فى الوزارة وان كان لم يتقلد منصبه بعد ان انضم الى حشد من السياسيين والجنرالات المتقاعدين المتصولين فى مكتب رئيس الوزراء فى تل أبيب فى صباح يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ . وكان اول من سمع بالغارة الجوية المنسقة التى باغتت القوات الجوية المصرية اثناء تناول الافطار وكفلت لاسرائيل السيطرة الحاسمة على سماء المعركة . فمنذ الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الاثنين نجحت موجات من المقاتلات القاذفة من طراز الميـراج الفرنسية الصنع التى كانت تطير على ارتفاع منخفض بعيدا عن مجـــال الرادار فى تدمير نحو ثلاثمائة طائرة حربية مصرية وعطلت كل القواعد الجوية المصرية الهامة من سيناء حتى مصر العليا · وعند حلول موعد الغـداء حـدث نفس الشىء بالنسبة للقوات الجوية الاردنية والسورية ، كانت سعادة بيجين بهذا الانتصار والاثارة التى أحسن بها لكونه واحداً من الدائرة الداخلية التى سمح لها بالاطلاع على السر تتسم بالطفولية . كان ينفجر فرحا بالانباء التى حجبت عن الصحافة وعن العدو ، وعانق حاييم لاشكوف قائد الاركان السابق وهو ضابط قديم عمل فى الجيش البريطانى وفى حرب سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وأخبره بما حدث . وخلال توجهه الى القدس فى وقت لاحق من نفس اليـوم اخذ يلوح بعلم أمام سيارة جولدا مائير وضرب معها موعـــدا وكانت رئيسة الوزراء المستقبلة عن حزب العمل تشغل منصب سكرتير عام الحزب وليست عضوا فى الوزارة وفى الكنيست بحث بيجين عن بن جوريون خوفـــا من أن يكونوا قد نسوا ابلاغ الرجل العجوز ·

بينما كان بيجين مازال خارج حجرة ليفى اشكول عقد تحالفا غير رسمى مع منافسه القديم من البالماخ ايجال آلون الذى أصبح الان وزيرا للعمل ، وأدرك كلاهما الاحتمالات المتاحة نتيجة النصر الاسرائيلى الاولى وكان اشكول قد بعث برسالة الى الملك حسين ملك الاردن عن طريق الامم المتحدة يحثـه فيها على ابعاد الاردن عن الحرب · فاذا وافق فان اسرائيل تتعهـــد بعدم مهاجمة المملكة الهاشمية . كانت الوزارة مستعدة من أجل تجنب الدخول فى حرب على ثلاث جبهات اضاعة فرصة غزو الضفة الغربية والقدس الشرقية العربية . لم يعارض بيجين أو آلون قرار ارسال البرقية الى عمان ولـكن بمجرد أن اتضح فى صباح يوم الاثنين أن حسين تجاهل البرقية بدءا فى الضغط

على رئيس الوزراء باعطاء اولوية لاعادة توحيد العاصمة المقسمة . قال له آلون بنبرة ساخرة « بيجين وانا نريد القدس . فأجابه اشكول باللغة العبرية القديمة : « ليست هذه فكرة سيئة » .

وعندما وصل بيجين الى القدس لحضور جلسة خاصة في مبنى الكنيست الجديد الذى بنى على أرض مختصبة فى أعلى منطقة فى جيفات رام والذى تم افتتاحه قبل عام وتعرض المبنى للقصف من ناحية بيت لحـــم ، أدرك بيجين ان حلمه فى طريقه الى التحقيق ربما أسرع مما كان يتوقع . وعندما عرف ان اشكول لم يصل بعد طلب من سكرتيره السياسى الوقوف عند مدخل الاعضاء وطلب منه ابلاغه بمجرد رؤية سيارة رئيس الوزراء . أحاط بيجين باشكول عند دخوله المبنى وطلب منه عقد جلسة طارئة لمجلس الوزراء قبل انعقـــاد الكنيست . وافق اشكول واجتمع الوزراء فى حجرة الوزارة بالطابق الثانى ولكن سرعان ما قام حراس المبنى بدفعهم الى مخبـــأ سرى ضيق تسوده الفوضى . كانت قنابل المورتر تتساقط بالقرب من المبنى بدرجة خطـــيرة وانفجرت احداها بين الاعشاب فى الخارج . صوت الاجتماع بالاجماع على الاستيلاء على المدينة القديمة محطة اذاعة الـ بـ . بى سى وينتظر الطبعــات الاولى من الصحف الصباحية . كانت القدس قد تم حينذاك تطويقها بالدبابات الاسرائيلية .. وسيطر جنـــود المشاة على جبل سكوس وجبل الزيتون ، المرتفعات الهامة فوق المدينة القديمة وبعد منتصف الليل استمع بيجـــين فى الاذاعة أن الامم المتحدة تستعد لاصدار أمر بوقف اطلاق النـــار على كافة الجبهـــات .

طاردت بيجين ذكرى ســـنة ١٩٤٨ عندما اصيبت عصابات الهاجاناه الارجون وشتيرن بالاحباط نتيجة وقف اطلاق النار الذى حـــال بينهم وبين القيام بمحاولة اخرى لاستعادة القسم اليهودى القديم من أيدى الفيـــلق العربى بقيادة الملك عبد الله . تناولت أول صحيفة تصل الى عتبة بيتـــه وهى صحيفة المابام اليسارية « عال همشمار » تفاصيل اخرى عن القصة ، كان قرار وقف اطلاق النار وشيكا فى الساعة الرابعة صباحا . أيقظ بيجين اشكول واقترح أن يصدروا أوامر الى الجيش بدخول المدينة القديمة قبـــل فوات الأوان . طلب رئيس الوزراء من بيجين محادثة موشى ديان تليفونيا . قال بيجين لوزير الدفاع : « على الرغم من اننا اتفقنـــا أمس على مواصلة تطويق المدينة القديمة الا ان قرار مجلس الامن يغير كل شىء . ولا يمكننـــا الانتظار بعد ذلك وافق ديان الذى كان حتى حينذاك يتزعم الدعـــوة الى استراتيجية اكثر حذرا . وتحدث بيجين بناء على اقتراحه الى رئيس الوزراء مرة اخرى وطلب منه القيام بعمل فورى . اتفق معه اشـــكول فى الرأى واستشار زملاءه واصدر اوامره الى الكولونيل مورد خاى جور ولواء مظلاته

باقتحام الحوائط للمرة الاولى منذ قيام السلطان التركي سليمان الاعظم ببنائها فى سنة ١٥٤٠ . وفى الساعة ١٠.١٥ ق.ض من صباح يوم الاربعاء ٧ يونيو وبعد قتال عنيف فى الازقة الضيقة المؤدية الى بوابة سانت ستيفنس ، كانت نجمة داود تخفق فوق الهيكل وكانت حفنة من جنود المظلات الذين يغطيهم غبار المعركة والعرق يؤدون صلاة شكر عند الحائط الغربى . لم يسر تنفيذ وقف اطلاق النار لمدة لربع وعشرين ساعة اخرى مما اتاح لاسرائيل استكمال غزوها للضفة الغربية لنهر الاردن وشبه جزيرة سيناء ، وعلى الرغم مما يكتنف ذلك من المخاطر باستثارة السوفييت حلفاء سوريا فان اسرائيل واصلت هجومها لتستولى على مرتفعات الجولان السورية فى اليومين الخامس والسادس .

لم تكد تنقضى ثلاثة اسابيع أى فى ٢٧ يونيو حتى قامت اسرائيل بتطبيق قوانينها فى القدس الشرقية . وكان ذلك يقترب بالنسبة لكافة المحلليين التشريعيين — ما عدا المتشددين منهم — من الضم الفعلى . وهكذا تحقق حلم بيجين المثالى فى قفص موحدة تحت السيادة اليهودية ، وتم اتخاذ خطوة حاسمة حتى يضمن الا يعاد تقسيمها مرة اخرى اذا منيت اسرائيل بهزيمة فى حرب ... حتى معظم الاسرائيليين من العلمانيين انتابهم احساس بأن شيئا اشبه بالمعجزة قد حدث . كان خليطا من التحرر من شىء كان يمثل خطرا شديدا والدهشة من تحطيم الحواجز المادية والنفسية التى قسمت المدينة المقدسة . اندفع عشرات من الاسرائيليين الى الحائط الغربى للحج بدون نظام ليل نهار : وسواء كانت مبادرة بيجين التى اقترحها عند الفجر هى السبب وراء الاستيلاء على المدينة القديمة أم لا فانه كان راضيا على انه قام بدوره .

شاركت حيروت فى الاجماع القومى حول القدس . فلم يناد أى تنظيم بعودة القسم الشرقى من المدينة الى الحكم العربى ولكن بالنسبة ليهودا والسامرة فى الضفة الغربية التى احتلتها اسرائيل مؤخرا كان بيجين يتحدث باسم الاقلية . لم يكن يتخيل الكثيرون انه بعد حقبتين من الزمن فان اسرائيل ستسيطر على كل فلسطين غرب النهر . تحدث زعماء العمل عن انتظار مكالمة تليفونية من عمان . واعلن موردخاى بينتوف وزير الاسكان ان « الاراضى محفوظة فى أمان حتى يكون الملك حسين مستعدا لاستعادتها » لم يكن الحزب الدينى القومى قد تطرف بعد واعلن زعيمه حاييم موشى شابيرو أمام مؤتمر الحزب فى سنة ١٩٦٨ ان التوصل الى تسوية بشأن الاراضى امر اساسى . ولكن بيجين كان مصمما منذ البداية لبذل المستحيل للحيلولة دون اعادة تقسيم « أرض اسرائيل » . لم يعترض عندما قررت الحكومة ارسال من يقوم بجس نبض الاردنيين ولكن ابا ايبان الذى كان يشغل وقتذاك منصب وزير الخارجية أعرب عن شكه فى أنه اذا استجاب حسين فان بيجين سيستقيل .

قال ابلطيان : « اننى لاتذكر كيف ضحك بيجين فى سرور عندما سمع عبارة « الرفض التام » فى رد الملك حسين . وفى شهر يوليو سنة ١٩٦٧ ساعد بيجين ايبان ووارهافتيج على صياغة خطاب يفتح الطريق أمام التوصل الى حل وسط بين حقوق اسرائيل القومية فى القدس ومصالح المجتمع الدولى . ونص الخطاب على : « ان اسرائيل لا تطالب بالسيطرة على القدس من جانب واحد او بالسلطة المنفردة فى الاماكن المقدسة للمسيحية والاسلام » . وستكون اسرائيل « فى اية تسوية سلمية « مستعدة لتقديم صياغة مناسبة لتحقيق هذا المبدأ » . ولكن هذا الاعلان لم يتضمن عرضا للتوصل الى حل حول السيادة الإسرائيلية ، كان ايبان يأمل ان يخلق هذا احتمالا بالتوصل الى حل ضمنى بالنسبة للمسجد الاقصى وقبة الصخرة . وهى الاماكن الاسلامية المقدسة فى الهيكل اذا ما تم التفاوض من اجل تسوية سياسية مع الاردن كان بيجين مستعدا للقيام بتلك المخاطرة .

بعد انتهاء الحرب كرس بيجين كل براعته اللفظية فى تأكيد ان اسرائيل تقبل قرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة رقم ٢٤٢ باكثر الالفاظ بعدا عن الالتزام بشىء . وكان هذا القرار الذى صاغته بريطانيا فى نوفمبر سنة ١٩٦٧ كانثى حد للاتفاق حول قاعدة لاجراء مفاوضات بين اسرائيل والعرب للتوصل الى حل شامل ، يؤكد « عدم السماح بالاستيلاء على الأراضى عن طريق الحرب » ويدعو من بين أشياء أخرى الى انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراضى محل النزاع الاخير » . كان اعتراض بيجين الاول هو منع استخدام الحكومة الاسرائيلية لكلمة « انسحاب » وكان يتباهى بعد ذلك ان حيروت نجح فى تحقيق هذا بعد عامين ونصف :

> تم تقديم اقتراح الى الوزراء ثلاث مرات باستخدام كلمة « انسحب » ورفضت الوزارة خلال احدى الجلسات قرر ليفى اشكول هذا . تم تقديم اقتراح الينا لاستخدام كلمة « انسحاب » وكنت ضد استخدامها . اقترحنا كلمة « انتشار » القوات . سأل احد زملائي رئيس الوزراء ما هو الفرق بين انسحاب وانتشار القوات أجاب بطريقة مميزة :
> « اذا قلنا انسحب فعندئذ نكون ملزمين به واذا قلنا انتشار القوات فان ايبان سيفسرها بالطريقة التى يراها صوابا وسيفسرها بيجين بالطريقة التى يراها صوابا » .

اعلن بيجين بعدلتارته كثيرا من التفاصيل التافهة ان كلمة « انتشار » ليست ملائمة لمعاهدة سلام . لان انتشار تعنى دائما تنشيط القوات للقيام بهجوم . واستقر راى الحكومة فى النهاية على : « يكون تنظيم القوات بالتوافق الكامل مع الحدود الدائمة التى تتحدد فى معاهدات السلام ».

بالنسبة لبيجين كان الاختلاف بين « الانسحاب » و « والتنظيم » قاطعاً .
كان حريصا على عدم استخدام لفظ « اعادة » فلم تذكر حكومة اسرائيل كلمة « اعادة انتشار » أو « اعادة تنظيم » فلم تكن تلزم نفسها بالانسحاب وشرح بيجين الفرق قائلا ان « الانسحاب يعنى التحرك الى الخلف وفى كلمة تنظيم ليس هناك حركة . ان ذلك ستقرره الحدود كما تتحدد فى معاهدة سلام » .

قال ايبان وهو واحد من أكثر الوزراء مرونة فى مجال سرده لذكرياته :
لم يكن سهلا بالنسبة لى صياغة مقترحات معتدلة فى وزارة تتكون من كافة الاحزاب بما فيهم جاحال الذى يعتقد ممثلوه انه يمكن التوصل الى معاهدات سلام دون التضحية بأى أراض على الاطلاق · ومع ذلك فان بيجين لم يمارس حق الفيتو على الدبلوماسية الاسرائيلية . يقول ايبان ان « اشكول كان ينحنى سرا وبهدوء تأييده للصيغ التى لم تكن تلقى ترحيب بيجين وزملائه » · ومع فان جاحال توقف فى مرحلة حرجة قبل أن يوضع الاحتلال فى قالبه .

استكمل اشتراك جاحال فى حكومة الوحدة الوطنية — برئاسة اشكول حتى وفاته بنوبة قلبية فى فبراير سنة ١٩٦٩ وبرئاسة جولدا مائير حتى اغسطس سنة ١٩٧٠ — انتقال مناحيم بيجين الى مرتبة يصبح فيها جديرا بالاحترام · كان من الصعب ارضاؤه خلال حضور جلسات الكنيست واجتماعات الوزراء كانت علاقاته مع أعدائه السابقين ودية وعملية بل انه هادن بن جوريون الهرم . وقد تصادف أن تقابلا فى احد الايام فى مطعم الريجنس فى فندق الملك داود ودعا بن جوريون بيجين للانضمام اليه فى تناول الغداء وكتب له المحارب القديم يقول له بعد ذلك :

« كانت زوجتى بولا لسبب ما معجبة بك لقد عارضت طريقتك بقوة أحيانا · قبل وبعد قيام الدولة · كما لو كنت ساعارض طريقة جابوتنيسكى · عارضت بشدة عددا من أعمالك وآرائك بعد اقامة الدولة · ولست نادما على معارضتى لاننى كنت مصيبا فى رأيى ولكننى لا احمل لك اية ضغينة شخصية وكلما عرفتك أفضل خلال السنوات الاخيرة يزداد تقديرى لك وتشاركنى زوجتى بولا فى هذا ·

ابتهج بيجين بالاطراء بالرغم من انه ربما كان يفتقر الى الصياغة البارعة وسر بنفس القدر لان اشكول كان رئيسا للوزراء أكثر قوة مما كان يتوقع أو ما كانت تؤهله له سمعته · وشهد فيما بعد ان أشكول أثبت انه رجل يستطيع اتخاذ قرارات :

« رايته يعمل فى أوقات صعبة ، وأكرر انه كان البادىء أو الشريك او العامل الحاسم فى اتخاذ قرارات حاسمة تلك التى كانت اقرب القرارات الى نفسى ــ القرارات المتعلقة بالقدس ، وبمرتفعات الجولان ، والمتعلقة بتوحيد القدس واعرف مدى تاثيره فى اتخاذ تلك القرارات ·

كان زعيم حيروت وزيرا بين وزراء آخرين ، فلم يكن يتمتع بعلاقة متميزة مع اشكول ، ولكن تم قبوله وفقا لنفس الشروط · ويقول ياكوف شمشون شابيرو وزير العدل وأحد المخضرمين فى الماباى : « كان أسلوب اشكول معاملة الوزراء على قدم المساواة كان يميل الى قبول الجانب الأخر من العملة وليس كبن جوريون وشاريت بصفة خاصة الذى كان يعتبر نفسه ينبوع الحكمة كلها » · بدا تولى جولدا مائير لرئاسة الوزراء فى اول الامر تهديدا بانتهاء شهر العسل · وكانت رئيسة الوزارة الجديدة قد قاومت تشكيل الائتلاف من كافة الاحزاب عشية حرب يونيو · وكانت أكثر اهتماما بابعاد موشى ديان الذى لم تستطع ان تغفر له تركه الحزب مع بن جوريون اكثر من أبعاد بيجين ولكنها كانت امراة ذات آراء صريحة تمثل الولاء التاريخى وتحيزات المـاباى ·· وكانت مسز مائير من الشخصيات التى اذا كرهت أحد فان كراهيتها تكون شديدة وظل مناحيم بيجين لفترة طويلة هدفا لكراهيتها · ولكنها كانت تعرف كيف تسحر وتتكيف · وكانت مثل اشكول تقدر أهمية حكومة وحدة وطنية بمجرد بدء الحكومة العمل · كانت مصممة على نجاحها واذا كان ذلك يعنى التعايش مع بيجين فليكن ذلك · ولدهشة المجتمع السياسى تعاون الاثنان بسهولة بل بود فى الوقت الذى استمر فيه الائتلاف · وعلى الرغم من أن مسز مائير لم تكن تشاركه التزامه الكامل بأرض اسرائيل الا انها كانت تشاركه شكوكه تجاه نوايا الفلسطينيين · وكانت فخورة مثله بيهوديتها ·

عمل بيجين الذى كانت له نقطة ضعفه كمدنى تجاه الابطال العسكريين على توطيد علاقته فى هذا الوقت مع ديان وكان التقدير متبادلا بينهما مما أدى فى نهاية الامر الى تجنيد الخارج عن حزب العمل ليخدم فى حكومة يشكلها حيروت · كانت هناك صلة روحية تربط بين الاثنين · فديان من جيل ولد فى اسرائيل ويعرف العرب كبشر وليس كاعداء مجهولين كان يعرف الارض بطولها وعرضها بكل حواسه . كان بيجين يشعر كما لو كان فى بيته فى القدس ، فى تل ابيب وفى احلامه المتعلقة بالتوراة ولكن داخل الوزارة أصبحا نواة ما اطلق عليه احد المعلقين الاسرائيليين : « ائتلاف صقور تخطى الحدود الحزبية . اشتركا معا فى معارضة الموافقة على مشروع آلون الذى وضع تمييزا بين السيادة والامن ، ويصور انسحابا اسرائيليا من

المراكز الانسانية للمشاكل العرب عند التوصل الى اتفاق مع الاردن ، توصل بيجين وديان الى موقف مشترك نابع من منطلقات مختلفة : كانا متشابهين فى ايمانهما بالروحانيات كان بيجين يؤمن بالحق الالهى لليهود فى ارض فلسطين كلها . وكان ديان يتذكر تجولاته فى الصبا ، وقضاء الليالى تحت ضوء النجوم ويرفض اى حل يمكن أن يحرم يهود آخرين من نفس العلاقة الحميمة . كان الضم يثير استفزازا غير ضرورى ، ولكن يجب أن تكون هناك حدودا لا يمكن الاضرار بها .

كانت الثلاث سنوات التى قضاها بيجين للتدريب على الحكم من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٠ سنوات مثمرة ولكنها اصابته بالاحباط دائما ، فلم توكل اليه مسئوليات عندما كان وزيرا بلا وزارة ، فالوزراء الاداريون غيورون بطبيعتهم ممن هم اعلى منهم ، حريصون على الا يتركوا فراغا لغيرهم . وبدا بيجين دائما كما لو كان يخلق لنفسه عملا ، فكان يشكل لجانا فرعية جديدة ، ويستقبل الصحفيين ، ويرد على منتقدى الحكومة . كذلك فان فرصة البرلمانية كانت محدودة وكان ذلك يكدره وهو أحد النجوم الأوائل للكنيست . فنادرا ماكان الاعضاء فى المقاعد الخلفية يناقشون الوزراء بدون وزارة ، كما أن مديرى الحزب لم يعطوا للاعداء القدامى فرصة التألق خاصة انهم ربما يعودون الى صفوف المعارضة فى أية لحظة ، وعندما وقع الانشقاق فى النهاية شعر ايلان من جانبه أن بيجين « تخلى عن مائدة الوزراء فى مقابل منبر الكنيست وهو يشعر بالارتياح » .

عندما خلفت مسز مائير أشكول فى رئاسة الوزارة لم يكن استمرار عضوية جاحال فى الائتلاف اتوماتيكيا بأية حال . كان بيجين وزملاؤه يشعرون بعدم الارتياح ازاء الاتجاه نحو التوصل لتسوية فيما يتعلق بالاراضى بين أغلبية الوزارة وحساسيتهم المتزايدة من خطر أن ينجح اللوبى الاسرائيلى الاكبر فى اخراجهم من اليمين ، ولكنهم فرضوا الموضوع على السياسة الداخلية وان لم يكن على السياسة الخارجية ففى الوقت الذى ازدادت فيه الروح القتالية بين العمال الاسرائيليين طالب بيجين بتشريع يقضى بجعل التحكيم اجباريا فى الصناعات الاساسية والخدمات ، وعندما رفض حزب المستل بجذوره الممتدة فى الحركة النقابية والتزامه بحق الاضراب ، أعلن بيجين عن استعداده للرجوع الى مقاعد المعارضة ولكن الذى اقنعه بالعدول عن موقفه هو تفجر موضوع أرض اسرائيل وهو نفس الموضوع الذى ادى فى النهاية الى خروج جاحال من الحكم . وفى شهر ديسمبر ١٩٦٩ بدأ جونار يارنج مهمة الامم المتحدة للسلام بعد ان طوى النسيان القرار رقم ٢٤٢ الذى كان قد تبناه مجلس الامن وكان قتال عنيف قد نشب بين القوات الاسرائيلية والمصرية على ضفتى قناة السويس . وكانت هجمات الفدائيين الفلسطينيين

تتصاعد من الاردن وسوريا . ويدأ العالم يخشى وقوع مواجهة اخرى ، وفى واشنطن قدرت ادارة الرئيس نيكسون أن الوقت قد أزف للقيام بمبادرة دولية جديدة لاعادة الشرق الاوسط لصوابه · وفى ٩ ديسمبر أعلن وليام روجرز وزير الخارجية الامريكية ان الدول الاربع الكبرى فى مجلس الامن ستتعاون مع يارنج للتوصل الى تسوية وفقا للقرار رقم ٢٤٢ وكان الامريكيون قد قرروا أيضـــا « التشاور مع الاتحاد السوفييتي مباشرة على أمل تحقيق أكبر قدر ممكن من الاتفاق بيننا » · أصاب اسرائيل الذعر من كلا النقطتين ـ البحث عن تسوية فى اطار القرار رقم ٢٤٢ واشتراك الاتحاد السوفيتي ، صديق اعدائها الذى قام بقطع العلاقات الدبلوماسية معها خلال حرب ١٩٦٧ · ومما زاد من شدة المقاومة للاقتراح الامريكى ما أوضحه روجرز حول سياسة الادارة الامريكيـــة ازاء الحدود · فقد أعلن أن الولايات المتحدة تؤيد مبدأ عـــدم الاستيلاء على الأراضى بالحرب وانسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراض احتلتها فى ســـنة ١٩٦٧ .

« أقيمت الحدود التى نشبت منها حرب سنة ١٩٦٧ بنـــاء على اتفاقيات الهدنة فى سنة ١٩٤٩ وحددت مناطق السلطــــة الوطنية فى الشرق الاوسط لمدة عشرين عاما . وتلك الحدود كانت خطوط الهدنة وليست حدودا سياسية نهائية . وكانت تحكم حقوق ودعاوى ومواقف الاطراف ازاء التوصل الى تسوية سلمية نهائية اتفاقيات الهدنة ولم يكن قرار مجلس الامن يوافق او ينادى بتلك الحدود السياسية المحددة · ومع ذلك فانه يدعو الى الانسحاب من الاراضى المحتلة ، وعدم الاستيلاء على الاراضى نتيجة الحرب واقامة حدود آمنة ومعترف بها . .

اننا نعتقد أنه فى الوقت الذى يتعين فيه اقامة حدود سياسية معترف بها ومتفق عليها من جانب الاطراف ، كما أن أى تغيير فى الخطوط السابقة لا يجب أن يعكس ثقل الغـــزو ويجب أن يقتصر على التغييرات الطفيفة المطلوبة لتحقيق الامن المتبادل . اننـــا لا نؤيد السياسة التوسعية ونعتقد أنه يجب سحب القوات كما بنص القرار . اننا نؤيد أمن اسرائيل وأمن الدول العربية كذلك . اننا نؤيد اقامة سلام دائم يحقق الامن لكليهما » ·

هكذا كان مشروع روجرز عند صياغته الاولى ، كان أكثر اعتدالا مـــا اعترف به الاسرائيليون ولكن ما لم يستسيغوه هو فكرة الانسحاب الفعلى من كافة الاراضى وما يشتم من فرض حل كان ذلك كافيا لبقـــاء مناحيم بيجين فى الحكومة ، بدأ أن علاقات حزب العمل أصبحت تافهة . فجأة ، وقع جاحــــل

اتفاق ائتلاف جديد وارتفع عدد وزرائه من اثنين الى ستة وزراء من بينهم عيزرا وايزمان الذى انتقل مباشرة من الرجل الثانى فى قوات الدفاع الاسرائيلية الى حيروت ثم الى الوزارة كوزير للنقل وفى ٢٢ ديسمبر رفضت الحكومة مشروع روجرز جملة وتفصيلا وقالت ان المقترحات الامريكية :

« تتحيز ضد فرص اقامة سلام ، وتتجاهل الحاجة الاساسية لتقرير حدود آمنة ويتفق عليها عن طريق توقيع معاهدات سلام بطريق المفاوضات المباشرة ، وتؤثر على حقوق اسرائيل السياسية وامنها فى صياغة قرارات تتعلق بالفدائيين ووضع مدينة القدس ولاتتضمن أى التزام فعلى من جانب الدول العربية لوقف الانشطة المعادية لمنظمات الارهاب والتخريب » .

كان بيجين راضيا ولكن قلقا ، فقد رفضت الوزارة مشروع روجـــــرز بتشجيع من موقف جاحال المتشدد ولكن لم يتوقع احـــد أن يؤدى الرفض الاسرائيلى الى القضاء على المبادرة الامريكية خاصة أن حربا الاستنزاف فى قناة السويس تزداد يوما بعد يوم وكذلك الخسائر الاسرائيلية . غير زعيم حيروت موقفه نتيجة بيان حول السياسة الخارجية صيغت كلماته بعناية فى أواخر شهر مايو سنة ١٩٧٠ حيث اقتربت مسز مائير من اى وقت مضى من قبـــــول القرار رقم ٢٤٢ دون سابق انذار . وشكا بيجين من أن جاحال لم يستشر . ولكن رئيسة الوزراء عملت على تهدئته بصفة مؤقتة بالتأكيد على أن شيئا لم يتغير . وخلال الاقتراع الذى جرى فى الكنيست حول بيانها امتنع نواب جاحال الستة والعشرين الذين علوا الى الكنيست خلال انتخابات سنة ١٩٦٩ عن التصويت ولكن كتلة حيروت الليبراليين ظلوا فى الائتلاف لمقاومة تقديم مزيد من التنازلات للامريكيين . لكن بيجين لم ينتظر طويلا لخوض التحدى . فى يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٧٠ أقدم روجرز على خطوته الثانية فاقترحت الولايات المتحـــدة على اسرائيل ، ومصر والاردن بدء المفاوضات تحت اشراف يارنج للتوصل الى اتفاق سلام قائم على الاعتراف المتبادل بين اسرائيل والاردن بالسيادة ، ووحدة الاراضى والاستقلال السياسى وانسحاب اسرائيـــــل من الاراضى المحتلة فى سنة ١٩٦٧ . وفى نفس الوقت تلتزم الاطراف بوقف اطلاق النار التزاما كاملا لمدة ثلاثة اشهر على الاقل ، ولتخفيف حده المقترحات كان الرئيس ريتشارد نيكسون اكثر تحديدا عن ذى قبل فى تأكيد أمن اسرائيل وكان قد ألمح فى شهر مايو خلال مقابلة مع ايبان فى البيت الابيض أن اسرائيل تستطيع الاعتماد عليه فى الحصول على طائرات فانتوم قاذفة ــ مقاتلة اذا احتاجتها فى حرب استنزاف ووفقا لما ذكره وزير الخارجية الاسرائيلى فـــان نيكسون عمق الان التزامـــه :

« جعلنا نفهم أن تعهده لى حول طائرات الفانتوم يجب ان يؤخذ مأخذ الجد وأكد انه لن يكون متوقعا من اسرائيل سحب جندى واحد من اى من خطوط وقف اطلاق النار الا فى اطار اتفاقية سلام متبادلة تعتبرها اسرائيل مرضية لامنها ، كان هناك ايضا تعهد باستخدام الفيتو الامريكى فى مجلس الامن لمقاومة اية قرارات تدعو الى الانسحاب الكامل الى خطوط ما قبل خطوط سنة ١٩٦٧»

استنتج ايبان ومسز مائير ان مخاطرة الاقتراح الامريكى اقل من المخاطرة برفضه فان التوصل الى وقف كامل لاطلاق النار سيؤدى الى استمرار الحرب مع مصر ، واحتمال التورط مع الاتحاد السوفييتى وهبوط التأييد الامريكى لاسرائيل . مع ذلك فان بيجين رأى فى ذلك خيانة للقضية ، وقال امام أعضاء جاحال بالكنيست « شلت يمينى قبل أن أوقع على مثل هذه الوثيقة » . وحذر بيجين من قيام مظاهرة معادية لمشروع روجرز لمنع حدوث ميونيخ اخرى فى الشرق الاوسط » . من اجل الحفاظ على الوطن التاريخى فان اسرائيل ستعتمد على « أنفسنا ، على جنودنا وعلى البناء » . كان جاحال يريد وقف اطلاق النار ولكنه يرفض الموافقة على اية مفاوضات حول الانسحاب حتى يتحقق السلام . وحاولت مسز مائير اقناع بيجين أن اسرائيل لا يمكنها الحصول على نصف الصفقة دون نصفها الآخر . كذلك فانها لن تتوقع الحصول على اى اسلحة من الولايات المتحدة . كانت اجابة بيجين أن الامريكيين لم يقدموا اسلحة الى اسرائيل بسبب طيبة قلوبهم فان اسرائيل قد فعلت لامريكا أكثر مما فعلته امريكا لاسرائيل . أعربت مسز مائير عن سخطها فى مذكراتها :

« لم استطع افهامه انه على الرغم من ان الالتزام الامريكى تجاه بقاء اسرائيل كان كبيرا بالتأكيد فاننا كنا نحتاج الى مستر نيكسون ومستر روجرز اكثر بكثير مما يحتاجوننا ولا يمكن اقامة سياسات اسرائيل بالكامل على افتراض أن اليهود الامريكيين سيعملون او يستطيعون اجبار مستر نيكسون على تبنى موقف ضد ارادته او تقديره . ولكن جاحال الذى اسكرته كلماته الجوفاء اقنع نفسه أن كل ما علينا أن نفعله هو مواصلة ابلاغ الولايات المتحدة اننا لن نخضع لاى ضغط مهما كان واذا فعلنا ذلك لمدة طويلة وبصوت عال هذا الضغط سيتلاشى يوما ما » .

لم يكن جاحال يقف كوحدة متراصة كما اعتقدت رئيسة الوزراء . كان الليبراليون يتعاطفون مع موقف بيجين المعارض للانسحاب ولكنهم لم يكونوا يريدون ترك الائتلاف بسبب موضوع ما زال افتراضيا . كان اريخ دولزين

احد وزراء جاحال ورئيس اللجنة الليبرالية المركزية المتحدث باسمهم ضـــد العودة الى المعارضة . يقول : « اننا لا نتأثر بالبيانات ان رأينا الاساسي هو اننا سنترك الائتلاف فقط اذا اتخذت الحكومة « قرارا » بالانسحاب . لنبقى فى الحكومة حتى نتأكد انه لن يكون هناك « انسحاب » . تبنت اقليـــة فى حيروت بما فيهم عيزرا وايزمان وجهة النظر ذاتها . وكتب يقـــول : « كنت مقتنعا ان اذعان اسرائيل لمشروع روجرز سيكون كارثة . ولكن لنفس ذلك السبب على وجه الدقة اقتنعت انه يجب علينا ان نبقى فى الائتلاف والا نترك للوزارة اتخاذ قرار حول ذلك المشروع دون وزراء حيروت » . ولكن ما كان بيجين ليغير من موقفه . كانت الكلمات بالنسبة له مثل صلابة الاحتلال ؛ فكان يرى انه بمجرد ان توافق اسرائيل على « الانسحاب » فانها ستقف على الحافة المنحرفة المؤدية الى التخلى عن « ملكية اجدادنا » . ان التنازل عن الحق اليهودى فى الارض ليس الا خطوة قصيرة من التنازل عن الارض ذاتها . استخدم بيجين كل قواه لحث حيروت على البقاء فى الائتلاف ، ولكنه لم يكن لديه نفس التأثير على الليبراليين .

حسم الموضوع خلال اجتماع مشترك للجنة المركزية لكل من حيروت والليبراليين فى مبنى اليانصيب القومى . قام كل حزب بارسال ١١٧ مندوبا . حاولت مسز مائير التأثير على نتيجة الاجتماع بالسماح لاعضـــاء جاحال فى الكنيست بالتصويت ضد روجرز فى الكنيست دون الاضـــطرار الى ترك الائتلاف . يقول دالزين فى مجال روايته لذكرياته : « حاول بيجين بشـــدة اقناعنا . لم يكن يحاول اللجوء الى التهديد معنا ، لم يكن يغضب كان يحاول دائما الاقناع ، حاول جاهدا ولكنه لم ينجح » .

كان التصويت بالاقتراع السرى بوضع اوراق التصويت فى صـــناديق خاصة . وصل التوتر الى اقصاه عندما جرى تفريغ الصندوق الاخير فى الساعة الثالثة صباحا . فاز بيجين بأقل اغلبية يفوز بها فى حياته حيث حصل على ثلاثة اصوات بين ٢٢٤ صوتا . صوت نحو ثمانية من المنشقين الليبراليين مع حيروت . يعتقد دالزين انهم كانوا يصوتون ضد زعامتهم اكثر من تصريتهم ضد بيجين . صوت عدد اقل من منشقى حيروت بالبقاء فى الائتلاف . وقبـــل الليبراليون الحكم بدلا من ابعاد جاحال عن الائتلاف ، واصر دالزين على انه يجب عليهم الوفاء بوعدهم : « لقد دخلنا الحكومة معا ويجب ان نخرج معا . لقد اعطينا كلمتنا ومهما كانت نتيجة التصويت فعلينا احترامها » . ولكن اذعان الليبراليين كان سياسيا واخلاقيا كذلك ، كان طويل الاجل وقصير الاجل كذلك ويرى دالزين انه « كان هناك احتمال واحد لايجاد بديل لحزب العمل وكان ذلك معا . وهذا هو سبب تشكيلنا لجاحال . من الناحية التاريخية كان من الخطأ القول اننا تركنا الحكومة ولكن كان من الصواب اننا لم ننفصل عن حيروت » .

استقال مناحيم بيجين وخمسة من زملائه فى جاحل من الوزارة فى ٤ اغسطس سنة ١٩٧٠ ، وهو اليوم الذى أبلغت فيه جولدا مائير الامريكيين والكنيست ان اسرائيل قبلت القرار رقم ٢٤٢ « بكافة بنوده » بهدف تحقيق — من بين أشياء أخرى — « انسحاب القوات الاسرائيلية من اراضى احتلت فى حرب سنة ١٩٦٧ » . انهار الحائط الذى اعتقد بيجين انه بناه حول شعب اسرائيل ولكنه رفض ان يكون طرفا فى الهدم . واعلن أمام جمع من زملائه فى حيروت انه لم يكن اكثر سلاما مع ضميره مثلما هو الآن . كان قرار الحكومة انتصارا لحمائم حزب العمل ولكن ارتياحهم لترك جاحال للائتلاف كان يشوبه ندم طفيف . كتب ابا ايبان بسخاء غير عادى — وهو من أكثر الحمائم اعتدالا : « ترك رحيل بيجين وزملائه البارزين مائدة مجلس الوزراء اكثر اندماجا وهدوءا ، ولكننا افتقدنا نكهة وحيوية الجدل الفكرى » .

كان الانقسام محتما ان عاجلا أو آجلا ، فى السياسة الاسرائيلية فان حكومات الوحدة الوطنية افضل فى صنع الحرب من صنع السلام . ما زالت آثار هذه الاحداث مثارا للتخمين والخلاف . فزعمت مسز مائير أن حرب يوم كيبور سنة ١٩٧٣ أثبتت صحة قرارها ، فبدون ذلك القرار لم تكن اسرائيل مؤهلة لمواجهة الهجوم المفاجىء للمصريين والسوريين . حافظ الرئيس نيكسون على وعده ووصلت الى اسرائيل بالفعل طائرات الفانتوم وغيرها من الاسلحة الامريكية بين سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧٣ ويعتقد اريخ دالزين انه اذا كان جاحال قد ظل فى الحكومة فان الحرب ما كانت تحدث قط « بعد تركنا الحكومة توقفت لجنة الامن الوزارية . كان بيجين واحدا من العوامل الرئيسية فى هذه اللجنة ، وكان الامن مجال اهتمامه الرئيسى . كانت الحكومة ستكون اكثر وعيا بالموقف الامنى وما كانت ستعتمد على شخص اسطورى مثل ديان باعتباره ضمانا لكل شىء » . ويرى الليبراليون كذلك أنهم اذا كانوا قد انفصلوا عن تحالف جاحال فان بيجين ما كان يستطيع الفوز فى انتخابات سنة ١٩٧٧ . ولكن هذا يفترض ان افتراق السبل ما كان يمكن تغييره الى عكسه . ولكن هناك شىء لا يقبل الجدل وهو أن توقعات بيجين لم تتحقق . وافقت اسرائيل على القرار رقم ٢٤٢ بما فى ذلك مبدأ الانسحاب ولكن سواء كان ذلك خيرا أو شرا فان اسرائيل لم ترغم على التخلى عن بوصة واحدة من أرض اسرائيل غرب الاردن .

الفصل الخامس عشر

وحــدة ام انفصــال

اعاد ارتداد جاحال من حكومة الوحدة الوطنية برئاسة جولدا مائير فى شهر اغسطس سنة ١٩٧٠ موضوع السلطة فى مواجهة المبدا الى جـدول اعمال حيروت . كان مناحيم بيجين فخورا بأن حزبه صدق عهده مع ناخبيه والتزامه بأرض اسرائيل غير المقسمة كان سعيدا ليصيب بالاحباط كل أولئك الصحفيين الاذكياء ورسامى الكاريكاتير الذين كانوا على اتم استعداد نقط للسخرية قائلين : « انك لا تستطيع اخراج جاحال من الحكومة حتى ولو ببلدوزر » .

ان اولئك الناس ذاقوا حلاوة المنصب الوزارى (المكتب والسيارة) ولن يتخلوا عن المنصب (أو تلك الاشياء) .. ولكن اعضاء حيروت الآخرين الاكثر شبابا كانوا اقل رضى واقل ميلا الى القناعة بحياة متقشفة ورعة .. اصبح عيزرا وايزمان قائدا لحركتهم ، كان الجنرال السابق رجل افعال لا اقوال كان يشارك بيجين فى وطنيته اليمينية . وكان يعتقد ايضا أن التخلى عن دعوى اسرائيل فى الضفة الغربية لنهر الاردن كان يعنى القبول بتسوية مذلة ولكنه كان يفتقر الى الدعامة الايديولوجية التى كان يتمتع بها زعيمه سلك وايزمان مجال السياسة لتنفيذ أشياء هى انهاء احتكار المباى ، وعدم العباده عند ضريح جابوتنسكى كان من « الصابرا » ابن اخ اول رئيس لاسرائيل حاييم وايزمان كانت جذور صهيونيته فى حيفا وليس فى بريست ـ ليتوفسك ، وفى قوات الدفاع الاسرائيلى وليس فى الارجون ، فابى ليومى . وباعتباره مهندس السلاح الجوى الاسرائيلى الحديث عرف احساس الرضا النابع عن القيادة والانجاز ، وبمجرد أن أدرك أنه لن يصبح قط رئيسا للاركان فانه أصبح تواقا الى نقل نشاطه الى الحياة المدنية .

لم يكن هناك شىء أكثر اشباعا لغروره من المهرجان الذى اقامه بيجين للترحيب به بين صفوف حيروت او من الانتقال السريع من صفوف الجيش الى مائدة الوزارة ولكن هذه السعادة الغامرة لا يمكن أن تدوم .

كان بيجين يريد وايزمان كنجم ، وكبطل حرب وكصائد للاصـوات ، وكاحد رجال الحاشية وليس منافسا له ، وكان حيروت ما زال حزبه وهو وحده الذى بيده تقرير سياساته واهدافه .

برز الصراع خلال مؤتمر الحزب فى تل ابيب فى شهر ديسمبر سنة ١٩٧٢ بدأ بيجين الهجوم من البداية محذرا المتمردين ومؤيديهم أن نجاح التحــدى

لسلطته ربما يرغمه على التقاعد وقال « اننى ساجد أنه سيكون أكثر من الشعب العمل مع لجنة مركزية غير مقبولة لدى . كان ذلك مسرحية ملونة ولكنها نجحت مرة أخرى . فهم المندوبون الايماءة واعطوا الموالية اغلبيـــة الثلثين فى اللجنة المركزية . بعد تعرض وايزمان لهجوم مدمر من بيجين لم يجد أمامه خيارا سوى الاستقالة من رئاسة اللجنة التنفيذية للحزب التى كان بيجين قد عينه فيها وقال « لقد تعلمت بعض الدروس الهامة للغـــاية عن المسيرة الديمقراطية » وتساءل فى حديث خاص مع بيجين عمـــا كان قد رغب قط فى الانتقال من المعارضة الى الحكومة فرد زعيم الحزب قائلا : اننـــا نخلص للمبادىء وليس لمقاعد الوزارة » . كان ذلك فيما يتعلق ببيجين نهـــاية المناقشة ، أصر بيجين على موقفه وفشلت كافة المحاولات التى بذلت للصلح بينهما . كان بيجين واثقا كما لو كان قد تملك حكمة احد انبياء العهد القديم ولم يكن يساوره اى شك . كتب يقول فى صحيفة « معاريف » أننا لم نخطىء قط ، لقد حكمنا دائما على الاشياء بطريقة صحيحة ، ولهذا فاننا لم نتغير قط لاننا لم نحتاج الى التغيير قط .

وبنفس الروح استبعد بيجين مجرد تشجيع المعارضة داخـــل حيروت باعتبارها أمرا غير ديمقراطى . ويستطيع وايزمان ان يهاجم بعنف من مقاعد الاقلية فقط . « ان هذه حركة أشخاص سلبيين ، خائفين من التغيير انهـــا لا تبرز صورة حركة سياسية حيوية » وعندما شعر بيجين بالانتصار الكامل عهد الى حاييم لاندو ، تابعه الامين القديم فى الارجون بتوجيه الضربة القاضية، كتب وايزمان فى كتابه « على اجنحة الملائكة » : « لا تروى لى الحكايات حول تجديد الحركة عندما يكون هدفنا جميعا هو السلطة ، لو نظرنا الى بنيـــان الحزب وتسلسله الهرمى وطبيعة العلاقات على مستوى القمة يتضح انه لم يكن هناك مجال امام مخلوق مثلى » .

ووصل فى مجلد آخـــر من مذكراته الى استنتاج ان حيروت كان مكانا صغيرا لحفظ التوابل المعرضة للخطر .

فى هذه الفترة قام القائد القديم للارجون بزيارته الأولى غير السعيدة الى بريطانيا وهى الزيارة التى أظهرت جميع غرائزه المولعة بالقتال . كان الزمن قد مضى وكان مستعدا لنسيان الماضى ولكن البريطانيين أو بالأحرى صحافتهم وأعضاء البرلمان المؤيدين للعرب لم ينسوا . ففى مقـــال بعنوان : « زيارة قاتل » ذكرت صحيفة « صنداى اكسبريس » قراءها بشنق اثنين من الجنود البريطانيين . وقالت أن بيجين لم يلق عقابه قط على وحشيته ، كما قالت :

« ان من الامور البالغة الغرابة ، أن يرغب بيجين فى زيارة بلد يكن له هذا القدر من الكراهية بل والأكثر غرابة هو تصريحاته

التي قال فيها أنه يشعر أنه قد مرت فترة زمنية كافية وأنه يتوقع استقباله بكرم الضيافة التقليدي إي نوع من الناس يظننا ؟ ان احدا لا يستطيع أن يعيش الى الأبد مع الغضب والظما الى الانتقام.

وفي بريطانيا هناك حقيقة نوايا طيبة ضخمة تجاه اسرائيل ولكن ليس هناك نوايا طيبة تجاه القتلة . هل يتخيل بيجين حقيقة أنه حتى بعد مضى ربع قرن ، فان الشعب البريطاني سيكون تواقا للترحيب بقاتل لم يلق جزاءه ؟ » .

ونشرت صحيفة « التايمز » نقدا لاذعا يشبه دير ياسين بمذبحة ماى لاى في فيتنام وركزت صحيفة « الجارديان » هجومهـــا على الوقت الراهن حيث قالت : « ان هدفه هو سحب التأييد من حكومته المستعدة للتفاوض من أجل الانسحاب وما يقوم به مستر بيجين يجعل مشكلة الشرق الاوسط أكثر تعقيدا ويزيد من احتمال نشوب حرب . انه ليس عاملا مساعدا أو موضع فخـــــر لاسرائيل » .

انتهز بيجين كل فرصة للرد على الصحافة ، في الراديو وفي التليفزيون وعندما سأله أحد الصحفيين ماهو شعوره عندما يجـــد البوليس البريطاني يحرسه بدلا من مطاردته أجاب « هذه واحدة من أمتع فترات حياتى وأظن أن هذا مؤثر للغاية . ان رجال البوليس لديكم مخلصون للغاية وعندما أبلغ أن بعض السفراء العرب طلبوا من الحكومة البريطانية تسلمه لمحاكمته باتهامات عن جرائم حرب ارتكبها في دولة عربية رد مبتسما : « سأكون أول عضو من الكنيسست يقوم بزيارة دولة عربية ، ربما يكون هذا بداية مفاوضات مباشرة للتوصل الى سلام دائم وعادل . على الرغم من التهديدات بتفجيـــر قنبلة ، والمظاهرات المعادية والاسئلة التى وجهت اليه في المجلس رفض بيجين الغـــاء رحلته التى استغرقت ثلاثة أيام ولكن دعت معاملات التهديد التليفونية مديرى فندق رويال جاردن وسنترال هول ، ووستمنيستر الى الغاء الاجتماعات العامة الهامة التى رتبها حيروت البريطاني . وعند عودته الى اسرائيل وصف بيجين الزيارة بسعادة ، وقال « أنها كانت أروع ثلاثة أيام فى حياتى » ولكن ذاكرة العدو القديم التى لم تغفر له تركت لديه مذاقا مريرا . فبرغم كل شئ فان هناك زعماء وطنيين آخرين من الذين وصموا بالارهاب خلال الأيام الغـــابرة للامبراطورية البريطانية من أمثـــال جومو كينياتا ، والاسقف مكاريوس - ولكنهم يستقبلون الآن باحترام فى لنـــــدن وكذلك الامبراطور هيروهيتـــو امبراطور اليابان . لم يكن بيجين يحتاج الى اثارة شعوره بالاضطهـــاد حتى يشتم المعاداة للسامية .

كان الجنرال ايريل شارون مثله مثل عازر وايزمان يمينيا متطرفا وربما شديد الغرور أيضا بما لايمكنه بالتأكيد من تحقيق طموحـــه العسكري تحت حكومة العمل ، وكان شارون قد ترك الخدمة فى الجيش فى أوائل شهر يوليو سنة ١٩٧٣ وانغمس فى سياسات جاحال واختار بدلا من حيروت الحزب الليبرالى لا لسبب الا أنه يبدو أكثر استعدادا للاغراء فخلال شهرين غـــير من وجهة اليمين الديمقراطى الاسرائيلى ـ ودفع مناحم بيجين خطوة حاسمة فى اتجـاه رئاسة الوزراء · لم يكن هدفه مجرد تحويل جاحال الى حزب للحكومة ولكن توسيع قاعدته حتى يمثل بديلا لهيمنة العمل ·

واقترب شارون من تحقيق مهمته بنفس الحماس الذى اكتسب تملق قوات مظلاته وخوف رؤسائه · كان سياسيا مبتدئا لا يتسم بالتواضع · كان يشق طريقه بحذر وتملق وكان يرفض كلمة لا وخلال اسبوعين منح حيروت بركاته لكتلة « ليكود » (الوحدة) الجديدة وهى تضم حزبى جاحال بالاضافة الى الوسط الحر بزعامة شامويل تامير والقائمة الرسمية وهى جماعة منشقة من جماعة منشقة من منشقى بن جوريون الذين لم يعودوا الى العمل · وعلى الرغم من تحفظاته على تامير المتمرد الذى كان قد طرده من حيروت فى سنة ١٩٦٦ · كان بيجين من أكثر مؤيدى شارون حماسة · فالشريك الاكبرسيطل حزب حيروت وسيطل حيروت هو بيجين ولم يكن شارون يشكل أى تحد لهيبة الزعيم ·

وعلى الرغم من دفعه للمفاوضات فانها تحولت الى شىء كريه وسارت على نحو بطىء حتى شهر سبتمبر · تجادل الحزبان الصغيران حول من سيحتل المركز الخامس والثلاثين او السادس والثلاثين فى القائمة المشـــتركة لانتخابات الكنيست المقرر اجراؤها فى ٣٠ أكتوبر رد اليميلاخ ريمالت وهو زعيم ليبرالى صبور ومثقف على تامير بعنف قائلا : « ان أى شخص يراوغ للحصول على المركز الخامس والثلاثين فى هذه المرحلة من المحادثات لا يريد الليكود حقيقة » ولاسباب تكتيكية غير بيجين مفاوضى حيروت فوضع يروهانان بادير الموالى القديم الذى لم يستطع أن يغفر لتامير تمرده فى قرية مكابليا بدلا من بنجامين هاليفى المؤيد صراحة لليكود · عمل تامير بقوة ليحصل لنفسه على المركز الخامس بدلا من الثامن . أما عازر وايزمان الذى شجعه احتمال التوصل الى تحالف أوسع على الصلح مع بيجين فكان يشعر بالغثيان لدرجة أنه انسحب مرة أخرى · وكتب يقول فى خطاب أرسله الى الزعيم حيروت :

« اننى لم اشترك قط فى مثل هذه العملية القبيحة والمخزية التى وقعت فى جماعة من المفترض ان تكون مثالا للامانة والزعامة ·

ولست أعفى نفسى من اللوم · لقد ساهمنا جميعا فى خلق هذا المشهد السلبى · اشتركنا جميعا فى التنازع حول مقاعد الكنيست بتبادل القلق

والأكاذيب الرهيبة . ان ما حدث خلال الأسابيع القليلة الماضية أكد فشلنا فى تقديم الزعامة وأشعر أنه من الضرورى ، من أجل الصحة - العامة - أن أترجل من عربة الحزب التى كنت أجلس فيها وأعود الى الحمول السياسى من أجل البحث عن الذات - والبحث عن طريق سياسى . »

ولم يكن بيجين فى حالة نفسية تسمح له بالدخول فى مواجهة أخرى مع القائد السابق للقوات الجوية . ورد قائلا « أعتقد أنه يتعين على كل شخص التصرف وفقا لضميره وفهمه وذلك بدلا من مناشدة وليزمان البقاء . ثم سمح بيجين لمساعديه بتسرب أنباء الخطابات المتبادلة الى الصحافة .

كان ايريل شارون يتمتع بصلابة أكثر كان يهدىء ويستحث ويكـــره مجترئ الحزب على الوحدة : « اما كل شىء أو لا شىء » وبينما الانتخابات على الابواب فى ١٦ سبتمبر سنة ٧٣ ، تم التوقيع على اتفاق ليكود . قال أحـد زملاء شارون من الليبراليين وهو بين الاعجاب والصدمة « أنه اغتصب أربعة أحزاب » .

تنبأ بعض المعلقين الاسرائيليين أن تشكيل الكتلة الجديدة سيعنى بداية النهاية لمستقبل بيجين . كتب بيجين مقالا ساخرا فى صحيفة « معاريف » كان ممكنا أن تتحقق رغبتهم ولكن كان ممكنا كذلك نفس القدر أن يصابوا بخيبة الأمل . وفى نفس الوقت فانه حدد الأهداف الثلاثة الرئيسية بأنها : الحصول على أغلبية فى الكنيست تسمح برفض اى اقتراح - باعـــادة تقسيم ارض اسرائيل والقيام بمبادرة عملية للقضاء على الفقر ، والاندماج لايجاد بديل لحزب العمل . ومضى يقول فى عشية السنة اليهودية الجديدة : « ولكن بالنسبة للان فان أحدا من بيننا ليس فى طريقه الى بداية نهايته السياسية اننا جميعا فى بداية سنة جديدة وربما - من يعرف ؟ - فى بداية عهد جديد .

أثبت بيجين أنه أقرب ما يكون الى نبى أكثر ممـــا توقع هو أو توقع قراؤه .

وفى ٢٦ سبتمبر ، عشية السنة الجديدة قام موشى ديان وزير الدفاع بجولة فى الجبهة الاسرائيلية فى مرتفعات الجولان ، كانت هنك تقارير معلقة حول تدعيم سوريا لقواتها المسلحة ولانه شاهد بنفسه امر بتعزيزات محدودة للقوات الاسرائيلية فى الجولان ، . ثم ابلغ الاركان العامة « لدينا على الحدود الاردنية مستوطنات مدينة وليس اعداد وعلى الحدود المصرية لدينا عدو وليس لدينا مستوطنات . وعلى الحدود السورية لدينا الاثنين واذا ما وصل السوريون الى مستوطناتنا فان هذا سيكون نذيرا بوقوع كارثة . بعد ذلك باحد عشر يوما . فى يوم كيبور وهو من أقدس الايام فى التقويم اليهودى قامت الجيوش المصرية والسورية فى نفس الوقت بالهجوم على الجولان وقناة السويس .

وعلى الرغم من الدلائل المنذرة بالسوء فان اسرائيل لم تكن مستعدة تماما . وللمرة الاولى منذ سـنة ١٩٤٨ كانت تخوض حربا يائسة دفاعا عن بقائها القـومى .

وحد السياسيون صفوفهم وعاد ايريل شارون الى الجيش وقاد احدى الفرق العسكرية التى اعاقت الهجوم المصرى ثم قاد قوة الهجوم التى أعادت المعركة مرة اخرى عبر القناة وكانت جولدا مائير قد اطلعت بيجين باعتباره زعيما للمعارضة على تقارير المخابرات الاسرائيلية بأن الغزو وشيك الوقوع ومع ذلك فانه دهش مثل غيره عندما فتحت الجيوش العربية النـار . فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر قبل الموعد المتوقع بأربع ساعات كان زعيم حيروت يصلى فى معبد مقر حزبه فى تل أبيب عندما أبلغته ابنته يائيل بالانباء . امتنع بيجين طوال الأسابيع الثلاثة التى استغرقتها الحرب عن انتقاد الحكومة أو القيادة العليا عن الخطأ الذى كاد ان يسبب كارثة للبلاد . لم يكن هذا هو الوقت المناسب لمعارضة مسئولة لانتهاز الفرصة لجمع أصوات للحزب ، ولكنه كان ينتظر فقط فرصة مناسبة . ولكن مع تحديد موعد اجراء الانتخابات فى نهاية العام ومطالبة الأمة برؤوس « المذنبين » . أمسك بيجين بهراوته وطالب خلال مناقشة فى الكنيست فى ١٤ نوفمبر باستقالة مسز مائير وتساءل المرة تلو الأخرى بعبارة — عبرية — منغمة : « لماذا لم تقومى بتعبئة الاحتياطى قبل يـوم كيبور ؟

لماذا لم تقومى بتحريك التعزيزات الى الجبهات ؟

يمكنك القول فليبارك الله الأمة التى لديها هؤلاء الجنود الذين يقاتلون دفاعا عنها . ولكن لا يمكنك القول فليبارك الله الامة التى لديها تلك الحكومة لتقودها « أصيبت رئيسة الوزراء بالصدمة ازاء تدفق بلاغة بيجين بتلك السهولة . وكتبت تقول (: ليته كان قد تلعثم أو تردد . كان المتحدثون من المعارضة يتحدثون عن اقتراب كارثة ، عن الرجال الذين قتلوا أو أصيبوا بالعجز عن اشياء فظيعة ، ولكنهم يتكلمون بسلاسة دون توقف وشعرت بالغثيان » .)

كان الشعور القومى يقترب من بيجين أكثر من مسز مائير . كانت علامات القتلى تقذف ديان على القبور . تلاشت فقاقيع حرب ١٩٦٧ والثقـة المبالغ فيها بتفوقها العسكرى — وقعت الحكومة والجيش فى كمين من صنع ايديهم لقد افترضوا انه طالما أن العرب لا يستطيعون كسب حرب فانهم لا يستطيعون بدء حرب وأثبت منطق الشرق الاوسط أنه اعتقد من ذلك .. فعلى الرغم من أن الجيش قلب الموائد على الغزاة المصريين والسوريين فى نهاية الامر الا أن ثقة النفس لدى اسرائيل قد اهتزت بعنف ووجه معظم الناس اللوم للحكومة وخاصة ديان الذى كان يتعين أن تجعله خبرته العسكرية فى موقف التأهب للاخطار .

لم يخض بيجين قط حملته فى ظروف اكثر ملائمة ولكن نتيجة الانتخابات التى اجريت فى ٢١ ديسمبر كانت مخيبة للامال عاقب الناخبون حزب العمل ولكنهم لم يطردوه . فاز الحزب الحاكم وحلفاؤه بأربعة وخمسين مقعدا فى مقابل تسعة وثلاثين لليكود . كان ذلك يعنى فقد العمل لستة مقاعد وفوز أحزاب الليكود بسبعة مقاعد وهو أفضل انجاز حققه ولكن كانت اصوات المعارضة مقسمة فازت حركة حقوق المواطنين بزعامة شولمتى ألونى بثلاثة مقاعد وهى قائمة يسار — وسط دخلت الانتخابات فى آخر دقيقة .

لم يكن الاسرائيليون مستعدين تماما لقبول حكومة برئاسة بيجين ولكن الاتجاه كان قد أرسيت دعائمه . وكان ليكود يتمتع بشعبية كبيرة بين الشباب الناخبين فى الجيش أما اليهود الشرقيين فى المدن النامية ومهاجرى الموشاف والاحياء الفقيرة فى المدن فكانوا يعيون خلافهم فى جماعة المباى التى بذلك لهم الوعود بتوفير السكن والأعمال والخدمات الاجتماعية وكانت انتخابات سنة ١٩٧٣ أول نذير بوقوع زلازل .

الفصل السادس عشر

« زلازل صيف »

خاض بيجين انتخابات الكنيست الثامنة وهو مصمم على الفوز بينما كان حزب العمل الذى حكم بصفة مستمرة على راس ائتلاف متجانس فى حالة فوضى وقد ابرزت حرب يوم كيبور انه ليس قادرا ، وانه تولى الحكم كثيرا جدا . وكما لو كان توليه للحكم قد اصبح امرا مسلما به .

ادى انتصار سنة ١٩٦٧ الى تآكل يقظة الحكومة وبدأت المحسوبية التى كان يسمح بها على نطاق واسع خلال مرحلة الريادة تتحول الى فساد . اهتزت قيادة العمل وان لم تفلت تماما . وكان عدم الرضا عن أداء الحزب ينتشر الى ماهو ابعد من صفوف الناخبين المعارضين التقليديين عند افتتاح دورة الكنيست. فى يناير سنة ١٩٧٤ كان هناك الكثير مما يحارب بيجين من أجله . وعلى الرغم من تنبؤ القليلين بفوز ليكود عند اجراءنا انتخابات قادمة فان التحالف الجديد كان يبدو بديلا معقولا ، كان بيجين يقود كتلة ليكود المكونة من تسعة وثلاثين عضوا يمثلون ٣٠ر٣٪ من مجموع الناخبين وكان من الصعب تجاهله او التعامل معه على انه مجرد مثير للقلاقل على هامش السياسية الاسرائيلية . أصبح المقاتل السرى القديم لين العريكة فى اسلوبه وان لم يكن فى افكاره واصبح اكثر امتلاء ، حلق شاربه . كان شعره يلمع ، وتوقف عن تدخين سجائره التى أعتاد عليها . واشتهر فى الكنيست بأنه برلمانى بارع ومجتهد ليس فقط على المنصة بل فى قاعة اللجان وفى قاعة طعام الاعضاء . كان على طبيعته مع كافة زملائه الاعضاء من الاحزاب الاخرى ، متفتح على الصحافة ، ومرحبا بالزائرين الاجانب وعلى لسانه دائما عبارة ترحيب : « أهلا بكم فى بلدنا » . اثبتت الثلاث سنوات التى قضاها فى حكومة الوحدة الوطنية انه يمكن ان يكون شخصا بناء مثلما هو شخص انتقادى . وعلى الرغم من استقباله العدائى فى لندن فى سنة ١٩٧٢ . فان زعيم المعارضة أصبح ضيفا يلقى الترحيب فى احتفالات السفير البريطانى بعيد ميلاد الملكة سنويا .

وفى الوقت الذى كانت فيه اسرائيل ما تزال تدفع ثمن رضائها عن نفسها بعد اكتوبر لم يعدم بيجين اعداءا يهاجمها . وان بيجين يكون فى افضل حالاته كخطيب وكرجل استعراضى عندما يهاجم . وفى اعقاب الكارثة الكئيبة التى خسرت فيها اسرائيل سياسيا وان لم تخسر فى ميدان المعركة بدت انتقاداته اللاذعة مشروعة اكثر مما سبق ، وكان الكثيرون يشاركونه شكوكه .

ومع ذلك فان التاريخ سيثبت انه كان مخطئا فى شكوكه فى تأكيد الرئيس أنور السادات رغبته فى السلام وعدم ثقته فى دبلوماسية هنرى كيسنجر فى الشرق الأوسط لقد أصبح ممكنا نتيجة « للعبور العظيم » أن تتوصل مصر وهى اكبر دولة عربية الى اتفاق مع اسرائيل وتضع اتفاقيات سيناء فى سنة ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ الاساس للحيلولة دون وقوع غزو جديد . ولكن ما كان بمقدور اكثر المتنبئين جسارة أن يتنبأ بانه خلال خمس سنوات سيقتسم بيجين والسادات جائزة نوبل للسلام .

وسط رياح باردة ومطر منهمر فى الليلة التى تسلمت فيها اسرائيل بأول انسحاب لها اعلن بيجين امام ...ر٤ شخص تظاهروا احتجاجا على الانسحاب وكانوا يحملون المظلات فى أحد ميادين تل أبيب : « ان هذه مظاهرة ضد سياسة المظلة لتشمبرلين » التقط ايريل شارون الذى كان قد تحول من الجيش الى السياسة ونجم تلك الليلة ، اصداء محاولة التهدئة واتهم الحكومة بأنها تضيع أفضل أوراق اسرائيل قائلا : (« ان جيشنا المنتصر ينسحب تحت زعامة حكومة منهزمة وانهزامية من أرض دفعت فى سبيلها حياة الالاف ولم نحصل فى مقابلها على شىء ») .

كان الليكود يتحدث بصوت واحد على الرغم من أنه لم يكن قد أندمج فى حزب واحد . واعرب اليملينج ريمالت زعيم الليبراليين عن خوفه من ان تقوم جولدا مائير بقيادة اسرائيل الى الانسحاب حتى حدود سنة ١٩٤٨ . واضاف شلوميل تامير تحذيرا ضد ميونيخ أخرى فى الشرق الاوسط . وفى الكنيست بدا بيجين اطلاق اسم « الادارة الانتقالية » على الحكومة . وبدا يتحدى مرارا بقليل من التردد (متذكرا عملهما المنسجم فى حكومة الوحدة الوطنية) . واقتناع ديان أن السادات يسعى باخلاص للسلام . وتساءل من قال ذلك لك لدرجة انك ضللت هذه الأمة ؟ « ان الحكومة لم تكن تقلل من قواتنا انها كانت تقلل من أمن اسرائيل . زادت شكوك بيجين تجاه كيسنجر بسبب أصل وزير الخارجية اليهودى قال بيجين ، يجب تذكر كيسنجر أنه ليس أول يهودى فى التاريخ يصل الى مركز كبير . لقد عانى يهود اخرون أيضا من عقدة انه ربما يوجه اليهم الاتهام لمحاباة اخوانهم اليهود ولهذا ساروا فى الاتجاه العكسى تماما « وقال ان هذه عبودية فى وسط الحرية » وعندما سأله أحد اعضاء الحكومة عما اذا كان يستطيع مواجهة كيسنجر بمثل هذا الحديث اجاب بيجين : « اننى سأفعل بالتأكيد » .

لكن على الرغم من كل ذلك فان بيجين لم يكن محصنا ضد أن تصيبه عدوى السلام ففى خلال مؤتمر حيروت فى سنة ١٩٧٥ الذى افتتح وسط احتفال رمزى فى كيريات عربة . وهى مستوطنة يهودية فى ضواحى الخليل، قدم بيجين مشروع سلام الى العالم العربى يتكون من ثمان نقاط ويشمل

هدنة لمدة ثلاث سنوات فى البر والبحر والجو واجراء مفاوضات للتوصل الفعلى لمعاهدات سلام بين اسرائيل وجيرانها تقضى بتحديد الحدود النهائية ، ومحاولة لايجاد حل انسانى لمشكلة اللاجئين العرب ومطالب اليهود الخاصة بملكياتهم التى تركوها عند مغادرة البلاد العربية الى اسرائيل . ولكن النمر لم يغير جلده . ففى نفس الخطاب دافع بيجين عن « العقيدة التى كرسنا لها حياتنا ، الحق اليهودى فى كل ارض اسرائيل .

واضاف بيجين يقول انه اذا لم يتم التوصل الى سلام فانه يتعين على اسرائيل الا تقوم بمزيد من الانسحاب الذى عمل فقط على اقتراب العدو من مراكز السكان الاسرائيليين وعرض للخطر امن اليهود . ان الانسحاب بدون سلام تدمير لكل فرصة لتحقيق السلام » .

اثبتت حكومة جولدا مائير بحق انها ادارة انتقالية وعلى الرغم من ان لجنة تحقيق « اجرانت » التى قامت بالتحقيق فى نواحى القصور التى ادت الى حرب اكتوبر ، القت باللوم على الجنود اكثر من السياسيين فان ثقة الجماهير فى الحرس القديم بدأت تضعف . وبمجرد توقيع اتفاق فصل القوات الاول مع سوريا فى أواخر مايو سنة ١٩٧٤ رضيت رئيس الوزراء التى كانت تشكو من المرض بالتقاعد بشرف ولحق بها موشى ديان وزير الدفاع ، ولكن رغبة الجماهير فى رؤية وجوه جديدة تويلت بتصعيد جيل آخر من قيادات حزب العمل وليس باجراء تغيير للحزب او على الاقل تشكيل حكومة وحدة وطنية ثانية وهو ما كان يطالب به بيجين . سعى اسحق رابين ، وهو من مواليد اسرائيل والذى عمل سفيرا لاسرائيل فى واشنطن بعد تقاعده من منصب رئيس الأركان الى رئاسة الوزراء بعد ستة اشهر فقط من وجوده فى الكنيست ، كان اسمه يقترن بالنجاح ، حرب الستة أيام والفترة المثمرة فى العلاقات الاسرائيلية ـ الامريكية وأكثر من ذلك فان اسمه لم يقترن بأزمة حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان على ليكود أن ينتظر اجراء انتخابات اخرى قبل ان يامل فى تولى السلطة .

لم يضطرب بيجين بشدة فهو قد استطاع لمدة ستة وعشرين عاما فى مقاعد المعارضة ان يترك بصمة واضحة . كان اريل شارون اقل صبرا ، ان الحياة البرلمانية بتقاليدها المهذبة والثرثرة لساعات بلا معنى لم تجذبه . وقد اكتسب خلال عمله فى الجيش سمعة بأنه شخص مستقل ، ومقاتل يجسد الروح العدوانية لقوات الدفاع الاسرائيلى وشخصية انفرادية يطلق النار أولا ثم يناقش بعد ذلك . ففى خلال حرب السويس لم يخضع شارون للاوامر وهبط مع قوات مظلاته فى ممر تلا .

وكانت تلك العملية مكلفة وغير ضرورية قتل فيها ثمانية وثلاثون اسرائيليا واصيب مائة وعشرين وقد اتهمه اربعة ضباط من مرؤسيه ، تولى اثنان منهما فيما بعد رئاسة الاركان وتولى آخر

رئاسة الموساد) بأنه يقوم بارســـال رجاله الى حتفهم لاجـل مجــده الشخصى . كتب موشى ديان رئيس الاركان فى مذكراته فى سنة ١٩٥٦ ان شارون لم يقدم الى المحكمة العسكرية لان الجيش الاسرائيلى لا يعاقب قائد لانه قام بالكثير بل للتقصير فى عمله . وكان شارون قد دخل ميدان السياسة فى سنة ١٩٧٣ لان مستقبله العسكرى وصل الى ذروته . ولم يكن يسعى الى التقاعد بهدوء ولكن كان يسعى الى السير فى طريق جديد بضع فيـــه بصمته الذاتية على الامة وعندما بدا ان ذلك لم يتحقق تخلى عن مقعـده فى الكنيست وقبل قيادة احدى وحدات الاحتياط . وفى يونيو سنة ١٩٧٥ اصبح شارون مستشارا لشئون الامن لزميله السابق فى السلاح اسحق رابين وعندما اتضح كذلك ان ذلك عمل تافه وعندما ادرك ان هذا لن يمنحه فرصة اخرى لتولى رئاسة الاركان قفل راجعا الى مزرعته فى صحراء النقب . وكان على ليكود ، او هذا ما كان يبدو ، ان يواصل طريقه بدون الرجـل الذى حثـه على الوحدة .

خيب أول رئيس وزراء لاسرائيل من « الصبرا » آمال الكثيرين الذين علقوا آمالهم عليه . اثبت رابين انه مفاوض عنيـد ما كان كيسنجر يضغط للتوصل الى اتفاق ثان حول سيناء ومنح الاتفاق الذى وقعه فى سبتمبر سنة ١٩٧٥ اسرائيل اساسا افضل للدفاع عن نفسها اكثر من ذلك الاتفاق الذى حاول وزير الخارجية الامريكى فرضه عليه فى مارس .

لم يدخل الجيش المصرى ممرات الجدى ومتـلا الاستراتيجية كمـا ان التحركات شرق قناة السويس تتم مراقبتها بمحطات انذار مبكر اسرائيلية — امريكية ولكن اتهام بيجين بأن رابين غير موقفه السابق وجـد آذانـا صاغية بين البسطاء الذين راوا فقط أن اسرائيل تتخلى عن المضايق وحقول بترول ابو رديس المربحة دون وعد مصرى بانهاء حالة الحرب وان رئيس الوزراء كان يعادى الامريكيين بدون داع خلال العملية . وفى نفس الوقت شعر الحمائم بالحزن بسبب اتجاه رابين المتشدد ازاء الضفة الغربية .

كان يســاوره القلق مثل بيجين من اخطار وجود دولـة فلسـطينية وبرفضه اقتراح من الملك حسين بالتفاوض من اجل التوصل الى اتفاق لفصل القوات فى اريحا شبيه بالاتفاق فى سيناء ومرتفعات الجـولان تـرك الاردن دون دفاع فى مواجهة العرب الراديكاليين الذين اقنعوا مؤتمر الرباط للدول العربية باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيـد للشعب الفلسطينى .

كان الانتصار الباهر الذى حققه رابين هو عملية الانقـاذ فى مطـار عنتيبى فى يوليو سنة ١٩٧٦ كانت عملا بطوليا لم يسبق له مثيل فى الاقـدام والمهارة وفى الحس السـياسى والتخطيط العسـكرى على حد سواء ولكن

زعماء العمل احجموا عن سرقة الاضواء من قوات المظلات بالخروج بمكاسب سياسة من العملية ، ولكن بيجين الذى لم يقم بأى دور فى العملية اللهم الا احترامه لثقة رئيس الوزراء التى أولاها اياه باطلاعه على العملية لم تكن لديه مثل تلك الموانع .

ذهب الى مطار بن جوريون حاملا زجاجة ويسكى لتحية الرهائن العائدين وكان معظمهم من الاسرائيليين من مواليد المغرب والذين كانوا فى طريقهم الى باريس على متن الطائرة المختطفة فما كان من الرهائن ومن عائلاتهم الا أن حملوه على الاكتاف وبدءوا ، يهتفون بيجين كما لو كان بطل الساعة .

وعلى الصعيد الداخلى لم يكن لرابين اصدقاء كثيرين كان الاسرائيليين يحترمون عقليته التحليلية ، وحذره كجندى ولكنهم وجدوا انه شديد الانطواء مع زملائه ومع الجماهير كئيب الى حد يثير السخرية خلال خطبه ومقابلاته التليفزيونية . كان يفتقر الى ترون ـ استشعار السياسى والصبر على خلق القيادة النافعة ، لم يكن يستطيع دائما فى عزلته التى فرضها على نفسه اكتشاف الخطر فى وقت مبكر فقد تآمر عليه من وزارة الدفاع شيمون بيريز الذى هزمه للفوز فى زعامة العمل ولكنه لم يعرف كيف يواجهه .

وعلى الرغم من جذور عائلته فى حركة العمل فان رابين امضى سنوات تكوينه فى الجيش . يستطيع القائد حتى فى قوات الدفاع الاسرائيلى كملجأ اخير ان يفرض رتبته ويتوقع ان يطاع ولكن رابين وجد أن السياسة لا تسير على هذا النحو ولذلك وجد الطريق صعبا .

ازداد الاحساس أن العمل يفقد سيطرته ، جاءت الفضيحة تلو الفضيحة ارتكبها رجال آخرون ويرجع تاريخها الى اوج أيام بنحاس سابير وزير المالية العملى ورجال السياسة الفارق الذى اكتسب سمعة انه يسيطر على الاقتصاد الاسرائيلى من نوتة صغيرة ، سوداء اللون . وقد حكم على احد الذين كان يشملهم بحمايته وهو ميشيل تاسور مدير المجلس البلدى الاسرائيلى بالسجن خمسة عشر عاما بعد اعترافه بأنه مذنب باربعة عشر تهمة وهى الرشوة ، والسرقة ، وخيانة الثقة وتحويل غير قانونى للنقد ، واجراء مبادلات غير قانونية فى النقد الاجنبى ، وتزوير المستندات وشملت هذه الاعمال ملايين من الدولارات المقدمة من المستثمرين الاجانب لتدعيم الصناعة الاسرائيلية ، كذلك فان اشير يادلين مدير نقابة كوبات هوليم التى تعانى من مشاكل مالية وكان (سواء لسوء الحظ وربما لسوء التقدير) مرشح رابين ليكون محافظا لبنك اسرائيل ، حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات

بتهمة الرشوة وتقديم اقرارات ضريبية كاذبة ، ورفض القاضى ما زعمه اشير بانه قام بتحويل بعض تلك الأموال الى حسابات حزب العمل .

كما أنتحر افراهام أوفير وزير الاسكان وسط أنبا غير مؤكدة أنه قام بالاستيلاء على أموال لنفسه خلال ادارته لشركة التنمية التابعة للهستدروت كان ذلك مادة — صالحة للمتهكمين والمعارضين ، كانوا يقولون أن السلطة أفسدت حزب العمل ولم تحدث الاشاعات المضادة حول سوء تصرف حيروت فى أموال تل — هاى الا تأثيرا ضئيلا أو أنها لم تحدث اى تأثير .

وسط هذا المناخ من الانحلال الاخلاقى عمد الحزب الدينى القومى والذى ظل لمده ثلاثين عاما اكثر الشركاء التصاقا بحزب العمل ، الى تضخيم موضوع انتهاك اجازه يوم السبت لاسقاط الائتلاف . كانت اسرائيل بعد ظهر يوم ١٠ ديسمبر سنه ١٩٧٦ ، تحتفل باستلام اول ثلاث طائرات مقاتلة من طراز أف — ١٥ العملاقة من مصانع ماكدونيل دوجلاس وبينما كانت الطائرات الثلاث تقوم باستعراضات جوية أمام المجتمعين من كبار الشخصيات صاح رئيس الوزراء فى فرح : « ان هذا يوم عطلة يوحى لنا بالايمان والثقة التى نحتاجها — الثقه فى قوتنا والايمان فى مستقبل افضل » .

وأضاف الجنرال موردخاى جور رئيس الاركان : « ان دولة اسرائيل اليوم دولة مختلفه وقوات الدفاع الاسرائيلية قوات مختلفة . ولسوء حظ رابين فان طائرات أف — ١٥ وهى أكثر الطائرات المتقدمة الى تسلمتها اسرائيل حتى ذلك الوقت وصلت فى وقت خطر قريب من يوم السبت ، وخاطر الضيوف بانتهاك القانون الدينى بقيادة سياراتهم خلال العودة الى منازلهم بعد حلول الظلام . قدم بوالى أجودات اسرائيل وهو حزب متطرف صغير خارج الائتلاف اقتراحا بعدم الثقة . وعند طرح الاقتراح للتصويت فى ١٤ ديسمبر امتنع عن التصويت تسعة أعضاء من بين الاعضاء العشره من الحزب الدينى القومى على الرغم من الاعتذار الذى قدمه رابين . تراجعت الحكومة ، ولكن قام رئيس الوزراء باقالة الوزراء الثلاثة من الحزب الدينى القومى مؤكد : « ان الحكومة التى لا تستطيع الالتزام بمبدأ المسئولية الجماعية لا تستطيع العمل كحكومة » .

بعد ذلك بأسبوع لم يعد واثقا من حصوله على أغلبية · فاستقال من رئاسة الوزارة ودعا الى اجراء انتخابات مبكرة .

فى النظام الاسرائيلى فان هذا القول أسهل من العمل لانه يتعين ان يصدر الكنيست تشريعا بتحديد موعد الانتخابات ويخوض كل حزب مساومات ضخمة قبل نشر قائمة مرشحية ويسمح للموظفين العاملين وضباط الجيش بمائة يوم للاستقالة وتقديم انفسهم لمراز الترشيح للانتخابات ويستغرق طباعة

اوراق التصويت اسابيع غير محددة . فى هذه الحالة تحدد موعد الانتخابات فى ١٧ مايو — وهو وقت كاف لوقوع فضيحة اخرى كفيلة بوضع مسمار آخر فى نعش حزب العمل وفى نعش أول رئيس للوزراء من « الصبرا » .

فقبل شهرين من الانتخابات فى ١٥ مارس نشر مراسل صحيفة « هآرتس » فى واشنطن ان ليا زوجة رابين لديها حساب بالدولار فى أحد البنوك الامريكية بعد أن انهى زوجها جولته الديبلوماسية فى سنة ١٩٧٢ . ويعد هذا انتهاكا للقوانين — الاسرائيلية فى تداول النقد .

واصر اهارون براك المحلى العام اقامة الدعوى ضد مسز رابين لان المبلغ لا يقل عن ١٠،٠٠٠ دولار . ولا أحد فوق القانون فقبل منتصف الليل بقليل فى يوم الخميس ٧ ابريل والجماهير تنتظر فوز نادى مكابى تل ابيب فى بطولة كرة السلة الاوروبية بفارق نقطة واحدة اعلن رئيس الوزراء فى التليفزيون والاذاعة انه ينسحب من المعركة الانتخابية ويتحمل مسئولية متساوية بالنسبة لحساب زوجته فى البنك وعلى الرغم من أن الدستور يمنع استقالته من رئاسة الوزراء فى حكومة انتقالية فانه عهد بواجباته وترشيحه على راس قائمة العمل الى شيمون بيريز وزير الدفاع أما ليا رابين فقد قامت بدفع غرامة تعادل ٢٧،٠٠٠ دولار .

خاض الليكود انتخابات سنة ١٩٧٧ باسم مناحم بيجين ولكن زعيم الحزب لم يشترك فى الحملة الانتخابية الا بادنى قدر . وكان ذلك اختيارا من ناحية وضرورة من ناحية أخرى . فخلال الاسبوع الاخير من شهر مارس وكان مازال باقيا على الانتخابات شهرين تقريبا اصيب بيجين بأول أزمة قلبية واكثرها خطورة ودخل احدى مستشفيات تل ابيب ولكن استراتيجية ليكود كانت قد تحددت قبل ذلك بكثير . وكانت تلك أول انتخابات تجرى فى اسرائيل بالوكالة فقد تم تعيين عازر وايزمان الذى كان قد عاد الى الحزب لادارة الحملة واصر على ادارتها بشروطه بمساعدة اليعيزر زورابين وهو وكيل اعلانات مشهور . حث وايزمان المراسلين بعد ان اطلق طلقة البداية : « اقراوا ما بين السطور وابحثوا عن ما ليس هناك » .

وكتب يوسف جوئيل فى صحيفة « جيروزاليم بوست » : « ما لم يكن هناك هو ذلك الجزء من الصورة السياسية لليكود وحيروت الذى يشك فى انه نفر الكثير من الناخبين فى الماضى حتى لا يحصل على نصر انتخابى . لم يكن هناك هجوم غير ضرورى ولا اية اشارة الى موضوع الاراضى التى تحتلها اسرائيل والتى تثير الخلاف .

ظل بيجين اكثر مصادر القوة رواجا بالنسبة لليكود ولكنه اصبح اكثر اعتدالا — رجل لا يخاف الناخب المتردد . يقول وايزمان : « انه رجل أمين

لا يهتم بالاشياء التافهة فى تلك الايام أنه يعيش بتواضع وليس لمجرد تحقيق اهداف علاقات علمة ، ولا يضيع وقته سدى فى الحديث عمـــا يؤيده وعما يعارضـــه .

أصبح بيجين ديمقراطيا ، مقاتلا (منـــذ سن السادسه عشر كرس مناحيم بيجين كل جهده ، وموهبته وقدراته لقضية واحدة ، توطيـــد اقدام الشعب اليهودى على أرضه) انه الرجل الشريف (المتواضع ، ذو العمـــل الخالص) . ورجل المعقـــلة ، كان التناقض واضحا بينه وبين معارضيه من حزب العمل ، ولم يكن الليكود فى حاجة الى كشفها ، فقد كان الناخبـــون مدركين تماما للفضائح الاخيرة ولسمعة بيريز فى الالتواء والتنـــاقض ، كان بيجين يظهر وهو يداعب احفاده ، يخطب ، ويزور الجيش ، ويحمل حفيـــده الطفل عند الاحتفال بختانه . وفى المقابل أخذ العمل يسخر من بيجـــين : « اكتشف الليكود اكتشافا خطيرا وهو ان بيجين انسان بالفعل .

وأعلن الياهو بن اليعازر رئيس لجنة دعاية ليكود المشتركة أمام عمال الحـــزب :

« ايها السادة أننى أريد أن أقدم لكم وعن طريقكم شكل الحياه تحت حكم الليكود ، تحت حكم مناحيم بيجين ، ستكون بلادا جميلة ، وسيكون من دواعى السرور والفخر العيش فيها ، حيث لا تكون هنـــاك رغبة فى الاضراب وحيث يخجل الشخص من السرقة سيكون هناك احترام بين اليهودى والاخر، بلاد لا يشعر ابناؤها بالخجل من كونهم يهود أو صهيونيين . اننا سنقوم بتعليم الشباب حتى تصبح الخدمة لصالح الدولة وفى الجيش أو فى أى جهاز وطنى آخر شرفا وامتيازا .

لم يرد أى ذكر للاراضى المحتلة ، أو للحقوق اليهودية او للخدمـــة او الشهداء القدامى وهم يعلقون على المشنقة . ولكن كان « بيين » مـــازال يسيطر على السياسة من وراء الكواليس لقد تخلى عن الحملة الانتخابية لعازر وأيزمان ورجاله الجدد ، ولكن لم يتخل عن الحزب .

ويشهد ابن اليعازر « أن برنامج الحزب كان دائما من وضعه فى سنة ١٩٧٧ ، كما فى السنوات السابقة كان يحدد الخط السياسى خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والمشكلة الفلسطينية والسلام والحرب ، ويهـــودا والسامـــرا »

خرج بيجين من المستشفى ومن مناظرة تليفزيونية مع شيمون بيريز — وهى بدعة أخرى فى الانتخابات الاسرائيلية — ظـــافرا . لم يستطع النقاد تحديد الفائز النهائى كان بيريز متحفظا خلال المناظرة بينما صال بيجين خلالها وجال . ولكن ما كان يهم الليكود هو ان المناظرة اخمدت اى شكوك حول صحة

بيجين ، كان متفائلا ــ غــير متوترا مازحا . وكان واضحا انه متمالك لنفسه ومادته ومثير لدهشة بيريز باقتباسه عبارات من أقوال وزير الدفاع نفسه .

اظهرت استطلاعات الرأى النهائية أن حزب العمل مازال متقدما تقدما طفيفا ولكن ليكود كان يكتسب أرضا بسرعة وقال واحدا على الاقل ممــــن شملهم الاستطلاع أن بيجين ربما ينجح اذا ما حصل على دفعة . ولكن لم ياخذ رأيه بجدية سوى عدد قليل من المعلقين . لكن الادعاءات القديمة تمـــوت بسرعة . فعلى الرغم من كل شيء كان العمل يمر فى لحظاته الاخيرة كحــزب يشكل حكــومة . كان بيجين مازال فى دور النقــاهة ولكنه تجول فى مراكز التصــويت خلال النهار . ثم عاد الى منزله فى تل أبيب الواقــع فى شارع روزينيوم ليستريح مع زوجته اليزا وابنتيه ماسيا وليا وصديقين من أصدقاء العائلة القدامى ، ماكس ويهوديت فرير . وبعد أن تناولوا عشاءا بسيطا ، شاهدوا التليفزيون فى الحجرة الضيقة التى يستخدمها بيجين وزوجته كحجرة معيشة ، ونوم ومكتب . وكانت هنك حجرة نوم أخرى فى الشقة التى عاشا فيها منذ سنة ١٩٤٦ اشترك فى النوم فيها أولاد بيجين الثلاثة خــلال فتــرة المراهقة . وهناك ايضا صالة صغيرة . وحمام ومطبخ كان ابن بيجـــين بنجامين يدرس فى الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراة فى الجيولوجيــا وكان أكثر اولاد بيجين ميلا الى السياسة ولكنه أقل حبا للظهور وهو شاب يقدر خصوصيته .

فى الساعة الحادية عشرة مساءا بعد انهــاء التصويت مباشرة ادهش حاييم يافين كبير مذيعى التليفزيون الاسرائيلى المشاهدين بالتنبؤ بفوز ليكود اعتمادا على عينة التليفزيون غير الرسمية للتصويت وفى شارع روزينيوم لم تستطع بنت بيجين السيطرة على انفعالاتها ولكن والدها استقبل الانباء بهدوء بل بشك فالنتيجة لم تكن نهائية ولا رسمية بعد وتسترجع هاســـيا ذكرياتها فتقول : « كان والدينا اكثر هدوءا وخاصةوالدتنا ــ جلس والدى فى كرسيه المفضل مرتديا روب دى شامبر على قميص وبنطلون .. لخـــذنا نتجاذب أطراف الحديث كما لو أن شيئا خاصا لم يحدث .

تجمع حشد كبير من الناس خارج المنزل ، حرس من البوليس ، دلائل التغيير اتخذوا أماكنهم لحماية رئيس الوزراء الجديد ، كان بيجين مــــازال ينتظر كان الوقت مبكر جدا للاحتفال . عندما وصل سكرتيره السياسى يهيل كاديشاى فى الساعة الواحدة والنصف ظهرا لدعوته للذهاب الى مقر الحزب الذى يقع على مسيرة خمس دقائق أجاب: بيجين : « مازال أمامنا وقت ، أن هذا مجرد تخمين من الاولاد فى التليفزيون » وجده وراءه فى قلعة جابوتنسكى « كان مرتديا ملابســه ولكن بدون رباط عنق أو سترة » .

ذهب ليطق ذقنه ثم عاد ومضى يشاهد التليفزيون وفي نحو الساعة الثانية والربع فقط قرر أن الوقت قد حان للذهاب الى مقر الحزب وعندما أصبحت النتائج واضحة .

احتشد المئات من مؤيدى ليكود في الطابق الثانى من قاعة الاستقبال في شارع الملك جورج . حاول عازر وايزمان ابعاد بعض اعضاء الحزب غير المهمين ولكن كانت تلك ليلة طال انتظارها ، ولم يكن أحد منهم يريد أن تفوته ذروتها . عندما امتلأت نشرات التليفزيون بأنباء الانتصار غابوا في دوامة من الصدمة والابتهاج الغامر هل يمكن أن يحدث هذا حقيقة ؟ جييف شافيتس ، مهاجر امريكى شاب جنده ــ الليبراليون للعمل في مكتب صحافة ليكود ، انضم بحماس الى الصخب والمرح : « اننا نحتفل جميعا ، لقد عملنا بجد وكسبنا الانتخابات » . فجأة قام أحد أعضاء الارجون انقدامى بلمساكه من قميصه كان شديد الغضب وسأله : « من انت انك كنت هنا من عدة شهور فقط ، اما انا فقد انتظرت ثلاثين عاما من اجل هذا » .

سرت الاشاعات المتناقضة بيجين سيأتى ، لا لن يأتى وأخيرا في نحو الساعة الثانية والنصف وصل الزعيم وعائلته كان بيجين يبدو نحيفا وضعيفا نتيجة للازمة القلبية الاخيرة . حاول مساعدوه حمايته من اندفاع الجماهير ولكنه عانق بسعادة سيمحا ارليخ الزعيم الليبرالى وعازر وايزمان مدير حملة ليكود الانتخابية . أوقف أحد الحراس اليزا وابنيها على الباب . كان بالداخل ما يكفى من الأشخاص بالفعل استعطفته الابنة قائلة : « هذه أمى مسز بيجين ، اتينا مع أبى مع بيجين » لم يتأثر الحارس لكلامها حتى جاء لانقاذهم اسحق شامير الذى أصبح فيما بعد وزير الخارجية وخلفا لبيجين في النهاية . وعلى المسرح انضم بيجين الى الحشد في غناء : « يحيا شعب اسرائيل » مصفقا بيديه على انغام الوطنية . كان الجميع يتدافعون ليكونوا على مقربة منه بقدر الامكان . السياسيون والعاملون في الحملة الانتخابية على امل الظهور في الصور التاريخية والافلام السينمائية ، أمكن في النهاية افساح مكان ووقف بيجين بمفرده . تحت صورتين كبيرتين لجابوتنيسكى وهيرتزل . أخرج غطاء اسود للراس من جيب بذلته شهدت اياما افضل وكتابا اسود صغيرا اخذ يتلو منه الترانيم كان الخطاب الذى القاه بعد ذلك مسالما بصورة غير متوقعة ، لازهو بالانتصار ولا تهديدات . أقتبس بيجين فقرات من خطاب ابراهام لنكولن الذى القاه عند توليه الرئاسة للمرة الثانية . « بدون حقد على أحد ، بالخير للجميع ، بالثبات في الحق لان الله يهدينا لرؤية الحق فلنسعى لاتمام العمل المنوط بنا ، تضميد جراح الامة .. « وشكر اليزا للسنوات التى كرستها من عمرها للوقوف الى جانبه مقتبسا كلمات من النبى زيرمياح : « انتى اذكرك ، عطف شبابك حب معتقداتك عندما يتبعنى في التيه ، في ارض لم ينبت

بها زرع » وبعد استرجاع نكرى جابوتنيسكي دعا بيجين كافة الاحـــزاب الصهيونية بما فى ذلك حزب العمل ــ للاشتراك فى حكومة وحدة وطنيـــة اختلط اعضاء وانصار ليكود وسط صخب وضجيج رجـــــال البوليس ، والصحفيين ، والمصورين ، غادر بيجين المحن على غير توقع كما حضر محاطا بالمساعدين الحريصيين عليه جاء زلزال اصـــــيف ومضى ، ابعد الناخب الاسرائيلي ورثة بن جوريون وانتخب ورثة جابوتنيسكي واصبح الخارجون هم الممثلون للنظـــام .

فاز ليكود فى أنتخابات سنة ١٩٧٧ باغلبية متواضعة وخسرها العمل بهبوط مدمر ارتفع نصيب بيجين من مجموع الاصوات بنسبة ٢ر٣٪ فقط وحصل حزبه على ثلاثه واربعين مقعدا بالمقارنه بتسعة وثلاثين مقعداً حصل عليها فى سنة ١٩٧٣ وقل نصيب العمل بنسبة ١٥٪ عقب انخفاض مماثل فى ســـنة ١٩٦٩ ، وسنة ١٩٧٣ أى انه فقد أكثر من نصف مؤيديه فى الانتخابات التى جرت مرتين خلال السبعينات وانخفض تمثيل العـــمل فى الكنيست من واحـــد وخمسين بالاضافة الى ثلاثة من النواب العرب المنضمين للحزب فى دورة ١٩٧٣ الى اثنين وثلاثين بالاضافة الى نائب عربى واحد فى ســـنة ١٩٧٧ كان أكبر الانتصارات فى سنة ١٩٧٧ تلك التى سجلها حزب الحركة الديمقراطية من اجل التغيير ، وهو حزب جديد للوسط بقيادة ايجال يادين عالم الاثار المسادا وجنرال سابق ، حصلت قائمة يادين على خمســـة عشر مقعدا . (٦ر١١٪ من مجموع الاصوات) فى أول معركة انتخابية يخوضها الحزب . وعلى الرغم من وجـــود شاموئيل تامير المنشق عن ليكود اليمينى على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من اجل التغيير فان القدر الاكبر من التأييد حصل عليه من الناخبين المتحررين من وهم العمل والذين سمحوا لانفسهم برفاهية الوقوف ضد الحزب كانـــوا يعاقبون العمل دون ــــ أو هكذا تخيلوا ــــ مكافأة ليكود . حصل يادين على اصوات من الليبراليين فى ليكود واحزاب وسط اصغر ولكن نتائج انتخابات ســـنة ١٩٧٧ اكدت تغييرا جذريا اكثر بكثير مما احدثته الطبقـــــة المتوسطة الساخطة تمثل فى تحول فى الولاء الذى كان يهدد بتغيير وجه الحياة الســـياسية فى اسرائيل على مدى جيل باكمله . لقد صوت اليهود الشرقيون بقلوبهم بدلا من جيوبهم وكان اليهود الشرقيون يشكلون بالفعل نصف اجمالى عدد السكان وسيصبحون قريبـــــا نصف عـــــدد الناخـــبين فى المـــــدن النامـيــــــة ، والقـــرى والمـــدن غـــير الكبيرة حيث يشــــكل اليهــــود الشرقيــــون (اليهود الذين نشأوا فى الدول التى تتحدث العربية) اغلبية ساحقة حصـــل ليكود على ضعف الاصوات التى حصل عليها العمل . بينما حصلت الاحزاب الدينية على أصوات اقل وفى المدن التى جميع سكانها من اليهود الشرقيين مثل أوفاكيم ونيتيفوت فى الجنوب وكيريات شمونة وبيت شـــعين فى الشمال زاد

عدد الاصوات التى حصل عليها ليكود بنسبة ١١٪ بينما قل نصيب المعن بنسبة ١٧٪ (حصلت الاحزاب الدينية نسبة الـ ٦٪ الباقية) كان الاتجاه مماثلا فى المدن التى يسكنها خليط من اليهود الشرقيين واليهود الغربيين ، ولكن بالاتجاه الى ليكود بنسبة معاكسة لعدد الغربيين وكلمـــا زاد عدد اليهود من اصل امريكى او اوروبى كلما قل الاتجاه الى ليكود . اما القدس التى تسكنها اغلبية من اليهود الشرقيين وجماعة دينية كبيرة فقد اعطت لبيجين دفعة قوية . وقللت تل ابيب التى تسكنها اغلبية من اليهود الغربيين نصيب بيجين مــن الاصوات بنسبة ٢٪ فقط واعطت يادين ١٣٪ وفى حيفا حيث يشكل اليهود الغربيون الأغلبية الساحقة قل نصيب ليكود بالفعل بنسبة ٢٪ من عدد أصوات المدينــة .

ترجع محاولة استمالة اليهود الشرقيين واليهود السفارديم (اولئك الذين طرد اجدادهم من اسبانيا فى سنة ١٤٩٢) الى فجر حركة التصحيح كاحدى الحركات الصهيونية . فقام جابوتنيسكى بزيارتهم وتعهدهم بل انه اضاف لغة لادينو (اليهودية ــ الاسبانية) الى لغاته العشر . وحث الحركة الصهيونية على اعطائهم نصيبا متكافئا فى الاستيطان فى الارض واثنى على نطقهم للغة العبرية وسارت الارجون زفاى ليومى على نهجه وجندت لخدمة اليهود الشرقيين فى الوقت الذى ركزت فيه الهاجاناه والبالماخ على سكان الكيبوتزات وخاصة من بين خريجى المدارس العليا من اليهود الغربيين .

وبعد اقامة الدولة جند بيجين نفسه مدافعا عن اليهود المظلومين المعدمين الذين ينظر اليهم اخوانهم باحتقار وعرف حيروت نفسه على أنه حزب الفقراء المعدمين والمقهورين « ويروى بيجين أن احد الهاجاناة سأله ذات مرة كيف استطاعت الارجون حل مشكلة الجماعات اليهودية الشرقية ، فاجابه ان الارجون ليست لديها مثل هذه المشكلة :

« لكن لانه اصر على أن اشرح له ذلك وفهمت ما الذى كان يضايقه ، أوضحت له انه خلال القتال السرى كانت المراكز العليا يجرى توزيعها دون تفرقة فى الاصل عندئذ فهم . هذه هى الطريقة التى يحل بها المرء المشكلة ، ويتغلب عليها ويتوصل الى الحل الكفيل بانهاء المشـــكلة » .

فى الحقيقة فان كلا من الارجون وحيروت كانا أبطأ مما زعم بيجين فى اعطاء السلطة لليهود الشرقيين ، كشىء منفصل عن القيام بدور نشط . كانت القيادة العليا من الارجون قاصرة على الأوربيين وحتى فى سنة ١٩٧٧ رشح ليكود عددا أقل من العمل من اعضاء الكنيست من اليهود الشرقيين على الرغم من أن بيجين كان أكثر كرما فى تعيين وزراء من اليهود الشرقيين فى وزارته .

سعى بيجين منذ الايام الاولى للهجره الجماعيه بعد سنة ١٩٤٨ للحصول على اصوات الناخبين . كان يقوم بجولات فى خيام المهاجرين دون أن يبدو انه يتفضل عليهم . لم يتوقف قط عن أن يكون يهوديا بولنديا ، ولكنه كان يخاطب اليهود الشرقيين بلغتهم العاطفية العميقة ذاكرا الله دون اثارة للعواطف . لم يلتهم تعاليم جابوتنيسكى ولكنه كان يدعو الى القوة اليهودية ويحتقر تأسيس العمل الصهيونى كان هدفه تحقيق شىء واحد وهو أن بيجين واحد منهم ولا يهم ماذا يأكل أو كيف يلبس .

ان حزب العمل لايلومن الا نفسه . كان ايدلوجيتة فرع من الثورات الوطنية والاشتراكية التى وقعت خلال القرن التاسع عشر فى أوروبا كان هدفه هو خلق نموذج جديد لليهودى ، للفلاح ، للعامل وللبناء ، كان اساسه علمانيا ، وهو انكار متعمد لقيم الجيتو . كان اليهود الشرقيون يعيشون فى ايقاع أبطأ كانوا فى توافق مع تقاليدهم لم يتعلم شبابهم من اجل احداث التغيير . جاءوا الى اسرائيل من منطلق التقوى أو الضرورة . شعر زعماء العمل بالذعر من تدفق اليهود الشرقيين الى اسرائيل لخوفهم من أن يحولوا الدولة الى دولة « شرقية » وبدون سؤال القادمين الجدد عن المكان الذى يفضلون الذهاب اليه أرسلوهم لتعمير الحدود وملء الاماكن الخالية . لقد ذهب الرواد الى هناك كذلك ، ولكن وفقا لارادتهم الحرة . عملت حكومات العمل على اسكان المهاجرين وايجاد اعمال لهم — ولم يكن هذا انجازا سيئا ولكن بطريقة توحى دائما بالتنازل .

استوعبوهم فى سياسات المباى ، فى شبكة الوظائف والادارة ولكن كمرءوسين وليس كرؤساء . تشكل الجيل الاول الذى كان عاطلا عند وصوله الى اسرائيل بطابع واحد كانوا يذعنون للقوة الحاكمة كما لو كانوا يفعلون فى شمال افريقيا أو العراق ، ولكن داخل بيوتهم كانوا يعربون عن استيائهم منها ، وكان أطفالهم يسمعون .

صاح أحد الشباب : « جاء والدى من شمال أفريقيا » فى كيبوتز أموز أوز الجديدة عندما تسلم ورقة للذهاب الى احدى المدن النامية : « حسنا ؛ من المغرب ماذا اذن ؟ الم يحصلوا على احترام الذات ؟ لا ؟ قيمهم ؟ ايمانهم ؟ أننى لست شخصا متدينا ، أننى اسافر يوم السبت ولكن والدى ؛ لماذا يسخرون من ايمانهم ؟ لماذا نظنوهم بالليزول فى ميناء حيفا ؟ لماذا ؟ .

أصبح الجيل الثانى اسرائيليا لم يعودوا يدينون بشيئا للعمل وعرفوا كيف يؤكدون ذاتهم . علمهم بيجين أن ليس فيهم شىء يخجلون منه . ولكن فى الوقت الذى اعاد لهم كرامتهم اجاز كراهيتهم لليهود الغربيين الاشكنازيم وكل مايمثلونه ، السلبى والايجابى كذلك ، الطاقة الخلاقة والتبلد الثقافى ؛ المؤسسات الديمقراطية وادعاء التفوق . كان ينثر الريح .

الفصل السابع عشر

تجــربة ثقــة رهيــة

« ان هذه ليست اراضى محتلة لقـــد استخدمتم هذا التعبير لمـــدة عشر سنوات ولكن منذ مايو سنة ١٩٧٧ آمل ان تبدأوا فى استخدام كلمة الأراضى المحررة . ان لكل يهودى الحق فى الاستيطان فى هذه الأراضى المحـــررة من الأرض اليهودية » . خلال ثمان واربعين ساعـــة من فوزه فى الانتخابات اعلن بيجين تحـــذيرا الى المجتمع الدولى الذى اذهلته مفاجآت انتخـــاب بيجين ، ان بيجين رئيس الوزراء سيكون هو نفسه الزعيم الدائم للمعارضة . عقـــد بيجين مؤتمرا صحفيا مرتجلا خلال زيارته لمجموعة من المستوطنين العسكريين فى « قادوم » بالقرب من « نابلس » ، اكبر المدن العربية فى الضفة الغربية وكانت تلك المجموعة قد تم نقلها الى قادوم داخل حدود معســـكر للجيش ، بعد اقامة مستوطنة رمزية اطلق عليها ايلون مدراخ ، كتحدى لحكومة العمل ، وسط انقاض سابستا المذكورة فى التوراة . وكانت زيارة بيجين قد تم ترتيبها مقدما للاحتفال بوضع لفائف الشريعة فى معبد قادوم . ولكن الانتخابات حولتها الى حدث اعلامى وبداية استيعاب المتمردين من جماعة جوش امونيم فى بنية ادارة الضـــفة الغـــربية . وعـــد بيجين المستوطنين : « خلال اســـابيع او شـــهور قليلة سيكون هناك الكثير من المســـتوطنات مثل ايلون ماروخ . وقال : « لن تكون هناك حاجة الى قادوم » عندما سأل احد الصحفيين رئيس الوزراء المقبل عما اذا كانت حكومته ستقوم بضم الاراضى فقال : « اننـــا لا نستخدم كلمة ضم ، انك تضم أرضـــا أجنبية ، وليس بلدك نفسها « وسأله آخر ، اكثر فطنة فى استخدام لغة الصهيونية الجديدة : « هل سيطبق القانون الاسرائيلى فى الضفة الغربية » . وبخه بيجين قائلا : « قل يهودا والسامرا . استخدام الاسم دائما » . كانت الالفاظ واضحة تماما ، ولكن بيجين أخذ يتلاعب بمضمون السؤال : « ان هذه مسالة تقديرية ، عندما تتشكل الحـــكومة فاننا سنذهب الى الكنيست ونطلب اقتراعا بالثقة ثم نقوم بدراسة الخطوات التى يمكن اتخاذها » . كان بيان ليكود الرسمى حول الضم اقل لباقة . ظهر سبب حـــذره هذا بعد اســـبوع وقد ادهش ذلك حـــزبه كما ادهش المعارضــــة والأمة باسرها .

دعا بيجين موشى ديان ، الذى كان قد اعيد انتخابه للكنيست على تذكرة العمل الانتخابية للعمل وزيرا لخارجيته . وعلى الرغم من عودته الى المستشفى لمعاودة متاعبه من مرض القلب ، قاوم بيجين المطالب القوية التى قدمهـــا الليبراليون لاسناد المنصب اليهم . يزعم أريخ دلزين انه بينما لم يكن هناك

تعهد شخصى من بيجين فانه كان هناك اتفاق بين حيروت والزعماء الليبراليين بين بيجين وسيمحا ارليخ على ان يتم تقسيم المناصب الاربعة الكبرى بين حزبيهما حيث يحصل حيروت على رئاسة الوزراء والدفاع ويحصل الليبراليون على المالية والخارجية . توقع الليبراليون ان يحافظ بيجين على الاتفـاق ، ولكن أفكاره الآن كانت تسبق سياسات الائتلاف ، كذلك لم يلق بالا الى رد الفعل الغاضب الذى ابداه حزب العمل والصحافة وتجدد المظاهرات المعادية لديان التى نظمتها العائلات التى نكبت بفقد ذويها فى حرب يوم كيبور والتى قامت بالقاء الحجارة على شقة بيجين فى شارع روزنبوم . كان مقتنعا ان سـمعة ديان فى الخارج مازالت عالية حتى ولو لم يغفر له مواطنوه . كان الرجل ذو الرقعة على عينه مازال مستر اسرائيل . نقل بيجين من فراشه فى المستشفى :

« قررت ترشيح مستر ديان لمنصب وزير الخارجية ، بغض النظر عن كافة الاعتبـارات الحزبية ، لاننا نحتاج خلال السـنوات القادمة الى وزير خارجية يتمتع بمكانة واحترام عالمى ، ولا يساورنى الشك فى ان مستر ديان سيحظى باحترام شديد بين السفراء ، ووزراء الخارجية وغيرهم من الزعماء وهذا امر بالغ الاهمية بالنسبة لعلاقات اسرائيل مع الشعوب القريبة والبعيدة » .

لم يكن غصن الزيتون الذى مده بيجين للعرب حيلة دعائية . كان يريد استكشاف الاحتمالات وخاصة مع مصر . وعلى العكس كان مرتابا فى نوايا السادات ولكنه كان يريد الآن اختبارهم بنفسه . فاذا اثبت السادات اخلاصه فانه سيكون من السهل التوصل الى سلام مع مصر اكثر من « الشعوب القريبة» الأخرى . لم تكن سيناء جزءا من أرض اسرائيل . كان اختيار ديان اعترافا من ليكود بانه ليس لديه مرشح لمنصب يقارن بديان فى مقدرته أو خبرته . فمن بين وزراء ليكود المحتملين لم يكن هناك أحد سوى عيزرا وايزمان الذى كان وزيرا فى حكومة الوحدة الوطنية التى راستها جولدا مائير . اكد تعيين ديان كذلك الاستمرارية . وهو ما أكده احتفاظ بيجين بكبار العاملين فى مكتب رئيس الوزراء والذين كانوا على صلة وثيقة بسلفه من حزب العمل : مثل دان باتير المتحدث الرسمى ، ويهودا افنير مستشار علاقات الدبلـوماسيا وكاتب خطب رئيس الوزراء التى يلقيها بالانجليزية والبريجيدير — جنرال افريم بوران السكرتير العسكرى وايلى مزراحى مدير مكتب رئيس الوزراء . كان يريد أن يظهر للعالم أن انتقال الرئاسـة اليه كان انتقالا ديمقراطيا وليس انقلابا قامت به حفنة من الارهابيين المتقاعدين .

كان ديان قد ترك منصبه مع مسز مائير فى سنة ١٩٧٤ ولكنـه استعاد مقعده فى الكنيست وكان احـد اعضاء الهيئة التى وضعت برنامج حـزب العمل لانتخـابات سنة ١٩٧٧ . واجاب على التساؤلات بقوله انه طالما خدم الدولة تحـت شخصيات عملاقة مثل بن جوريون وجولدامائير فانه لن يقوم

بدور ثانوى تحت امرة زعمــاء أصغر (واقل) مثل اسحق رابين وشيمون بيريز • ويبدو انه كان يعد بيجين واحـــدا من جيل الابطــال حتي ولو كان اكبر بسنتين فقط من ديان . كانت جذور وزير الدفاع السابق عميقة فى حركة العمــل . ولد ديان فى داجانيا وهى أول كيبوتز . وكبر فى ناحلل وهى أول موشاف . ولكنه كان دائما ذئبــا وحيدا ، رجــلا غير ثابت الولاء لا يعترف بالديون الشخصية أو الفكرية . كانت لديه ثقــة لا تهتز فى حكمه الشخصى ، ولكنه لا يسمح قط لهذه الثقة أن تتحول الى عقيدة ثابتة . اثبت التقاعد انه شيء أصعب مما كان يتوقع • فاذا كان هناك ما يمكن عمله فانه يريد أن يشارك فيه ولكن ليس بدون شروط . كتب ديــان يقــول : « قدرت انــه سيتعين على اسرائيل قريبا أن تتخــذ قرارات خطــيرة ستشكل مستقبلها واننى اذا استطعت أن اشترك فى تقرير السياسة فاننى استطيع ممارســة تأثير ضخم على قرارات الحكومة تلك . كانت العقبة بالنســبة لديان هى مصير الضفة الغربية وقطاع غزة • كان ضد ضمهما وبالمثل كان يعــارض عودتهما الى السيادة العربية . كان يحلم بتســوية مؤقتــة ترضى على نحو ما كل من اسرائيل والاردن دون اللجــوء الى الابتكارات الاوروبيــة مثــل الحــدود الوطنية . واتفق بيجين بنــاء على توصية ديان ان لا يتــم ضــم الاراضى « فى الوقت الذى تجرى فيه المفاوضات » وان يستمر الســكان العرب فى ارســال مندوبيهم الى البرلمان الاردنى وتلقى مساعدة مالية من الدول العربية عن طريق عمــان . تبنى ديان سياسة « الجسور المفتوحة » فى ســنة ١٩٦٧ وكان لا يريد أن يشهد موتها بعــد عشر سنوات . وقــد ارضت تعهدات بيجين التى اكدها فى جناحه بالمستشفى ديان . وكتب الى احــد المنتقدين فى احدى الكيبوتزات يقول :

« ان البديل عن ترتيبات أمنية مع العرب سيكون هو الحرب بالتأكيد . هل يمكن أن تكون حكومة برئاسة بيجين أفضــل لاسرائيل بدونى ؟ واذا ما انضمت اليها فهل ستكون هناك فرصة لتحقيق أهدافنا ــ كما أراهــا ؟ هل لدى ، فى الحقيقة حلا لمشكلة ــ نزاعنــا مع العرب وهل سأكون قادرا على العمل وفقا لتصوراتى فى مثل هذه الحكومة ؟ اذا كانــت الاجــابة على السؤال الاخير بالايجاب فهل يتعــين على ، رغــم ذلك ، ان أرفض عرض بيجين ؟ »

كانت المقامرة قد بدأت • من الصعب تصــديق ان ديان تردد طويلا فى اتخــاذ قــراره . قال لزميــل من اعضــاء الكنيست عن حــزب العمــل وهو جاد ياكوبى : « كان السؤال الذى كان على ان اواجهــه هو ماذا كان قبولى لعرض بيجين والعمل معه يمكن أن يغير بشكل أساسى الموقف لصالح اسرائيل : » . كان ديان مختالا بدرجــة كافية ليجيب بدون تردد بنعم وليثبت انه على صــواب .

لم يكن عرض بيجين على ديان مفاجئا . فقد جرت محاولات أولية لجس النبض خلال الايام الاولى من الحملة الانتخابية عندما قام زعيم حيروت بزيارة الى فيلا ديان فى تل أبيب فى حى الضباط المتقاعدين فى زاهالة . ووفقا لرواية ديان فانهما كانا يبحثان عرضها بان يدخل ديان الانتخابات على قائمة ليكود ، لكنه رفض لان بيجين كان لا يستطيع خلال تلك المرحلة اعطاءه التأكيدات التى كان يسعى للحصول عليها حول الضفة الغربية وقطاع غزة . اقترح بيجين أن يتركا الباب مفتوحا . وخلال احدى مناقشات الكنيست بعد ذلك بخمس سنوات فسر رئيس الوزراء تلك المحادثات تفسيرا مختلفا قائلا ان موشى ديان قام بالمبادرة وتطوع من تلقاء نفسه باعلان استعداده للعمل تحت رئاسة بيجين اذا قام بتشكيل حكومة قادمة . يضيف يهيل كاديشاى ان محاولات الاستكشاف استمرت بعد دخول بيجين مستشفى ايشيلوف فى شهر مارس . ووفقا لكاديشاى فان بيجين دخل الى المستشفى لاجراء فحص عام وانه أصيب بأول أزمة قلبية خلال زيارة ديان له .

على الرغم من تعاونهما فى حكومة الوحدة الوطنية فان الغزل بين بيجين وديان كان مسألة عقلية بحتة . يقول نافتالى لافى الذى كان متحدثا باسم ديان فى حكومتى مائير وبيجين ان ديان لم يكن يحمل الحب لزعيم حيروت :

« كان يقدر تصميمه ، قوته والطريقة التى كان يعرف كيف يمارس بها هذه القوة . كان ديان يقدر أكثر من أى شىء آخر اخلاص بيجين ليهودا والسامرا على الرغم من ان دوافعه للحصول عليهما باعتبارهما جزء من أرض اسرائيل لم تكن قبل دوافع ديان . ولكنه كان يكره أسلوب بيجين ، لغته الطنانة ، ومبالغاته مما كان يعتبره تمثيلا رخيصا . كان يعتقد ان بيجين لا يفهم العرب ولا يعرف كيفية التعامل معهم وكيفية التوصل معهم الى اتفاق معقول لا يجرح كرامتهم ، اتفاق يعطيهم أقصى ما تستطيع اسرائيل عرضه عليهم « دون القيام بمخاطرة ضخمة بامننا نحن » .

كان ديان يقبل حلا سياسيا لا تكون فيه الضفة الغربية جزءا من اسرائيل . كان تعلقه بالاماكن هناك لا يعنى اننا علينا أن نستولى عليها . كان ديان مستعدا لان يعيش آخرون هناك وفقا لاسلوب حياتهم ولكنه كان شديد الخوف من أن يتحول حكم العرب الى شىء لا يمكننا السيطرة عليه . كان يعارض الضم بشدة ويجب أن يكون اليهود حساسين فى الا يضموا أشخاصا أجانب ومعادين وارغامهم على أن يكونوا اسرائيليين . ان الفلسطينيين فى الضفة الغربية يجب الا يكون لديهم جيش خاص بهم أو دعوة جيوش عربية اخرى . وخلاصة الامر ، ان ديان كان مستعدا لاعطائهم الكثير . وكان يفضل اعطاء الاردن دورا كبيرا فى اقامة مجتمع يتمتع بالحكم الذاتى .

اما فيما يتعلق بموقف بيجين ازاء ديان فان احد موظفيه وصفه على هذا النحو : « أنه قام بتعيين ديان اولا وقبل كل شيء بسبب سمعته الدولية . وكان ايضا يكن احتراما لديان ، ذلك الاحترام الذى يستحقه كل من كان جنرالا بارزا فى القوات المسلحة الاسرائيلية . كان يتسامح فى رغبة ديان فى الاستقلال بآرائه » .

استغرقت اسرائيل وقتا طويلا فى تشكيل حكومة مثل الوقت الذى استغرقته اجراء انتخابات عامة . كان على بيجين ان ينتظر ثلاثة أسابيع بعد فوزه فى الانتخابات قبل أن يستكمل الرئيس افراهام كاتزير مشاوراته الشبيهة بالطقوس مع جميع الاحزاب الثلاثة عشر التى حصلت على مقاعد فى الدورة التاسعة للكنيست ، ثم عرض عليه رئاسة الوزارة . وخلال تلك الفترة قام بيجين بتغيير سياسة حزب العمل فى ابقاء المستوطنات اليهودية بعيدا عن المدن الجبلية فى يهودا والسامرا حيث يتركز معظم عرب الضفة الغربية ، وانتزع موشى ديان من مقاعد حزب العمل وخرج من المستشفى التى دخلها للمرة الثانية دون اعراض تذكر سوى التهاب فى الغشاء المحيط بالقلب .

فى مقر الرئيس الاسرائيلى فى القدس التقطت الصور لبيجين وهو يصافح رئيس الدولة ويقبل مسز نينا كاتزير . كان يتصرف بشهامة كما لو كان أحد نبلاء العصور الوسطى . ومن منزل الرئيس ذهب الى الحائط الغربى حيث وضع غطاء الراس الاسود . كان بيجين اول رئيس وزراء يمين هويته باعتباره يهوديا اكثر منه اسرائيليا . كانت الدولة بالنسبة له هى أرض اليهود وليس فقط تلك الاقلية من الجنس البشرى التى تصادف ان تعيش هناك . وبالنسبة له فان اليهودية لا يمكن ان تنفصل عن الديانة اليهودية . كانت الزيارة عملا من أعمال التكريس قام بها رجل يعتبر نفسه حاكما بين اليهود وليس مجرد رئيس وزراء اسرائيل . وعندما ذهب الى هناك مرة أخرى بعد انتخابات سنة ١٩٨١ ارتدى غطاء الراس الذى أصبح شارة مستوطنى جوش امونيم .

كان يجب مرور أسبوعين آخرين قبل أن يستعد بيجين لتقديم حكومته الى الكنيست وحلف اليمين . كان السؤال الاساسى موضع الخلاف فى مفاوضات الائتلاف المطولة هو عما اذا كان فريق الحكم سيضم حزب ايجال يادين الجديد ــ الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ــ الذى خرج من أول انتخابات يخوضها وهو ثالث اكبر الاحزاب بعد ليكود والعمل . كان الديمقراطيون تواقين للحكم ، كانوا حركة اصلاحية تعهدوا ماحياء الامة بعد انتشار الفساد والمصالح الذاتية خلال حكم حزب العمل فى السنوات الاخيرة . كانت القوة الدافعة لبرنامجهم هى السياسة الداخلية وليس الخارجية على الرغم من انهم اعلنوا عن تاييدهم للتوصل الى تسوية حول

الاراضى فى الضفة الغربية . كان زعماء الحركة يشملون الخارجين عن اليمين وكذلك عن اليسار . كانوا يحتلجون الى تولى الحكم ، والى فرصـــة لتحقيق نتائج ليوفوا بوعودهم للناخبين . لم تكن المعارضة كافية وما كانت يمـــكن ان ترضى طموحات رجال مثل يادين وشمويل تامير . كانت المشـــكلة ان بيجين يستطيع تشكيل ائتلاف قوى دون مقاعد الديمقراطيين الخمسة عشر . كان التوصل الى اتفاق مع الحزب الدينى القومى ، واجودات اسرائيل ، شـــديد التطرف سيعطى ليكود ـــ مدعما بايريل شارون ـــ الذى حصل على مقعدين بقائمة خاصـــة ولكنه سرعان ما أنضم الى حيروت ـــ اثنـــان وستون مقعدا من مجموع المقاعد فى الكنيست البالغة مائة وعشرين . فاذا استقال ديـــان من عضوية العمل فانه سيحتفظ بمقعده فى الكنيست ، فعندئذ سيرتفع عدد المقاعد الى ثلاثة وستين مما يعطى بيجين أغلبية ستة على الاقل (عضـــو مستقل آخر هو شمويل فلاتو شارون الذى كان مطلوبا بتهمة جنحة مالية فى فرنســا وعد بتأييد الحكومة ولكن كان ليكود حريصا على ابعاده) .

استطاع بيجين مناورة يادين تعضده تجربة ثلاثين عاما من الخـــداع الحزبى . كان يريد الديمقراطيين فى الائتلاف ، انهم سيعملون على توســيع قاعدة الائتلاف حتى لا يستطيع احد اتهامه بأنه يقـــود تحالف من الايديولوجيين اليمنيين والمتعصبين النظريين . كانوا سيمنحونه أمنا فى عدد المقاعد ولكنـــه كان يريدهم وفق شروطه . اعترض يادين على تعيين ديان وعلى اتفـــاق بيجين مع وزير خارجيته المرشح حول صيغة الضفة الغربية . ســارع زعيم ليكود باجراء المفاوضات وارغم يادين على التركيز على موضوعات السياسة الخارجية والامن . طالب يادين بسحب العرض المقـــدم لديان لتولى الخارجية وأن يترك الائتلاف الاحتمال مفتـــوحا امام التوصل الى تسوية حول الاراضى ولكنه لم يكن ندا لبيجين . فوضت اللجنة المركزية لليكود زعيمها مواصـــلة التفاوض للتوصل الى أوسع ائتلاف ممكن ، وقررت بالتحديد أن أى قـــرار باسناد الوزارات ستنتظر حتى المرحلة النهائية من عملية التفاوض . وفى نفس الوقت اخذت اللجنة المركزية مذكرة باقتراح بيجين بأنه يجب تولى ديان لوزارة الخارجية . وقال سيمحا ارليخ ليهدأ المتشككون : « اننـــا سنتكلم عن هذا عند تعيين المناصب » . لم يتغير شىء فى التطبيق . كان بيجـــين يريد ديان وفى النهاية ما كان باستطاعة احد مخالفته ولكن هذا أعطى الديمقـــراطيين ذريعـــة للعـــودة الى مائدة الوزارة . وبالمثل فان بيجين وافق على عدم ضم الضفة الغربية ، وأكد استعداد حكومته للاشـــتراك فى محادثات الســـلام فى جنيف عندما تعقـــدها الولايات المتحـــدة والاتحاد السوفيتى على اساس قرارى مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، ٣٣٨ . كان بيجين قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بسحب حزبه من حكومة الوحدة الوطنية بسبب موافقة جولدا مائير على القرار رقم ٢٤٢ . كان التعهـــد بالتخلى عن تلك الموافقة غير ملائم

بالنسبة لحمائم الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ولكنه شجع أولئـــك الذين كانوا يحتاجون للتشجيع . قدم بيجين وزارته الى الكنيست فى الموعد المحدد ولكنه ترك ثلاثة مقاعد خالية بصفة مؤقتـــة للديمقراطيين . وبعـد اربعة شهور اثمرت حيلة بيجين التي توصل اليها بالصبر والتهديد والاغـراء كما ارادها بالضبط . انضم يادين الي الائتلاف كنائب لرئيس الوزراء ولم يكن يملك ســوى حق التأخير (وليس الفيتو) حول بنــاء مستوطنات جـديدة فى الضفة الغربية والقيــام بدور اسمى كمنسق للسياسة الاجتمــاعية . ارتفعت أغلبية بيجين من ستة مقاعد الي ستة وثلاثين بين عشية وضـحاها بينما وأصل حزب الحركة الديمقراطية من اجل التغيير ، ببراءة ، طـريق الحلول الوسط والتفسخ حتي أصبحت الحركة لا تعـــــدو أن تكون ذكرى وتحـــذير عندما حان الوقت للدعوة الى انتخابات أخرى فى سنة ١٩٨١ .

دفع بيجين عن طيب خاطر ثمنا باهظا فى مقابل اصوات الاحزاب الدينية خاصة أصوات أجودات اسرائيل التى كانت تسيطر عليه من خارج الكنيست هيئة من الحكماء الموقرين . كان الحزب الدينى القومى ، حاملا لواء الصهيونية الدينية يكافح دائما من أجل الحفاظ على الوضع القائم فى التوازن بين ما هو علماني وما هو مقدس فى الدولة اليهــودية . وقد حال دون السماح بادخال الزواج والطلاق المدنى وحافظ على الاحتكار المؤسس للتيــار الارثوذكسى المتشـــدد فى اليهودية ، وقاوم الاتجــاه الى الابتعاد عن مراعاة الشــعائر اليهودية فيما يتعلق بيوم السبت فى الخدمات العامة . كان حـــزب أجودات اسرائيل يسعى الى المضى أبعد من ذلك وتغيير التوازن لصـــالح الثيوقراطية (حكومة دينية) . كان الحزب يجاهد من أجـــل ذلك لانه ــ بالاضافة الى الحصول على الاموال العـــامة من أجل نظام تعليمه الخاص ــ كان دافعــه الوحيـد للدخول الى الساحة الســـياسية . كانت السياسة الخارجيــة وسياسة الامن خارج ادراكه . كانت لدى بيجين موانع اقل مما كانت لـــدى رؤســاء الوزراء من حزب العمل للتوصل الى تفاهم ، كان يعلن بسعادة ــ أنه « أحد المؤمنين فى اسرائيل » . بالنسبة له كان هناك نوع واحد من اليهودية ، واسرائيل مدينة لاجيال من اليهود الاتقياء باحترام قيمتهـــــا وممارساتها . كانت جميع فقرات اتفاق الائتلاف الموقع فى ٩ يونيو سنة ١٩٧٧ الثلاث والاربعين ما عدا عشر فقرات تتناول التطبيقات والمزايا الدينية . وخلال اول حكومــة لبيجين وجدت الفتيات من « العائلات المحافظة » من السهل الهروب من الخدمة العسكرية وأصبح من الصعب الاجهاض فى حدود القانون وفرضت قيود على الاطباء فى القيام بتشريح الجثث مما أدى الى حدوث عجز فى الكلى وغيرهـــا من « قطع الغيار » اللازمة لعمليات زرع الأعضاء . ومنع النشاط التبشيرى المسيحى .

بعد أربع سنوات من حرب يوم الغفــران شعر بيجين بالرضـــا لانه استطاع اقامة ائتلاف حاكم لم تكن أسســه ثابتة فى الداخل فقط ولكنــه كان

جديرا بالثقــة بدرجة كافية تردع أى دولة معادية من التفكير فى اعادة الكرة وتكرار ما حدث فى أكتوبر · كانت وزارته تضم فى وقت من الأوقات خمسة جنرالات متقاعدين هم : يادين ، وديان ، وفايزمان (الذى كوفىء باسنــــاد وزارة الدفاع اليه لنجاحه فى ادارة الحملة الانتخابية) وشارون (الزراعــة والمستوطنات) وماتير اميت (رئيس المخابرات السابق تم انتخابه على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير وعمل لفترة قصيرة وزيرا للنقل) ·

اثار تولى بيجين لرئاسة الوزراء عاصفة من التوجس والعداء فى الغرب خاصة فى بريطانيا حيث ثارت ذكريات الارجون زفاى ليومى كما لو كان لم يحدث شىء منذ سنة ١٩٤٨. كتب لويس هيرين فى صحيفة « التايمز » اللنــدنية يقول : « ان مؤسس اسرائيل يجنى ثمار الارهاب . الارهاب يؤتى ثمــاره ويجب تشجيع عرفات » . وكتب عضو قديم فى الوحــدة السادسة المحمولة جوا الذى فقد أحــد رجليه فى هجوم قامت به الارجون فى نابولى على السفارة الاسرائيلية يقول : « اذا جاء بيجين الى هنــا فاننى ساقتله » وفى الولايات المتحــدة اعربت صحيفة « نيويورك تايمز » عن قلقهــا ازاء السياسات فى الشرق الاوسط .

أما « التايم » فقد اثارت شعور بيجين بجنون العظمة وعندما نصــحت قرائها بأن « بيجين يتطابق مع فاجن » .

ذهل بيجين من ذاكرة العالم القــوية ، والرفض العنيد لرؤية الارجون من خلال عيون قائدها . وطلب اعتذارا من شبكة تليفزيون سى . بى . اس الامريكية لوصفه بالارهابى السابق · وأجيب الى طلبه وقال لاحــد المذيعين الاسرائيليين الذى أجرى معه مقابلة :

« اذا قدمنى احد على أننى ارهابى وقدم ياسر عرفات على انه فدائى مقاتل فاننى لا احمــل له سوى الاحتقــار . لقد حاربنا لتحرير شعبنا عندما كان يتعــرض للابادة فى أوروبا . واعتقد ان ردود الفعل الغبية هذه ستتلاشى عندما اشكل الحكومة . وأنا مدعو للاجتماع بالرئيس كارتر فاذا لم تتوقف حتى حينذاك فاننى ساعرف كيف أتصرف » .

كان الاسرائيليون من كافة القناعات السياسية يقدرون بوضــوح اكثر من الاجانب انهم قد انتخبوا اول رئيس وزراء ايديولوجى ، الرجل ظل يردد نفس الاغنية لمدة اربعين عاما ويعنى كل حرف فيها : « أنه سيكون مستعدا لتأييــد كل كلمــة حتى آخر دولار او آخــر قذيفة » انه جدير بالثقة لدرجة مخيفة ، وفى الحقيقــة فان بيجين جاء الى السلطة وهو أوضح من أى من أسلافه ولكنه كان يعترف صراحة أنه يتطلع الى مؤرخيه المفضلين وكتاب السير الذاتيــة لامداده بالجمل المأثورة للاستشهاد بها فى خطبه . ظل عالمه هــو

عالم المؤتمر الصهيونى . كانت رؤيتـه غير واضحة ، وعرقية . كان يبكى من اجل المعاناة اليهودية ويدعو الى التمسك بالكرامة اليهودية ويفخر بالقوة اليهودية . فلذا كان مستعدا لاجراء محادثات مع العرب للتوصل الى سلام فانه يفعل ذلك من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف . وقال عند تقديم وزارته الى الكنيست فى ٢٠ يونيو لن تطلب من اية دولة الاعتراف بحقهـا فى الوجود :

« ان اله آبائنا هو الذى منحنا حق الوجود منذ وميض فجـر الحضارة الانسانية منذ ما يقرب من اربعة آلاف سنة . ومن اجـل الحق الذى جرى فى الدم اليهودى من جيـل الى جيـل ، دفعنا ثمنـا له فى تاريخ الامم . حقيقة ان هذه الحقيقة لا تمحى او تضعف حقنا بل على العكس . ولهـذا فاننى اؤكد مرة اخرى اننا لا نتوقع ان يقـوم احد بالنيابة عنـا بالاعتراف بحقنـا فى الوجود فى ارض اجدادنا . انه اعتراف مختلف ذلك المطلوب بيننا وبين جيراننا ، اعتراف بالسيادة وبالحاجة المشتركة الى حياة يسودها السلام والتفاهم ، ان هذا هو الاعتراف المتبادل الذى نتطلع اليه وسنبذل من اجله كل جهد ممكن » .

وفيما يتعلق بالعلاقات مع الولايات المتحدة وضع بيجين تفرقة بين الرؤية والسياسة . كان يؤكد ان اسرائيل حليف ومصدر قوة . فأمريكا تحتاج اسرائيل بنفس القدر الذى تحتاج به اسرائيل الى امريكا . خلال ازمة سنة ١٩٧٧ حول مشروع روجرز سخرت جولدا مائير وابا ايبان من « سذاجة » بيجين . ولكن بالنسبة للموضوعات التى تهمه كان رئيس الوزراء الجديد مستعدا للتودد الى امريكا ومقاومة ضغطها فى نفس الوقت . كان مصمما على تثبيت حدود ارض اسرائيل نهائيا . ومهما كانت حقائق القوة فانه نادرا ما كان يلجأ الى الخداع ، ولم يوضع استعداده « لاكل السمن الصناعى » اذا لزم الامر موضع الاختيار قال احد خبرائه فى الشئون الامريكية « انه مقتنع كلية ان الشعب الاسرائيلى سيواصل المسيرة معه ، كان يؤمن بقوة الاقناع ، بالكلمات ، بقـدراته على الاقناع . اننى ليس لدىشك اطلاقا فى انه اذا حدثت مواجهة مع الولايات المتحدة حـول موضـوع ذى اهميـة بالغـة بالنسـبة له فانه لن ينحنى » . خـلال زيـارة بيجـين الاولى الى واشـنطن فى يوليـو سـنة ١٩٧٧ حثه الرئيس جيمى كارتر على اظهار مرونة حول الضفة الغربية فما كان من بيجين الا ان قام ببسط « خريطة للامن القومى » احضرها معه تحسبا لهذه اللحظة واخذ يشرح المخاطر الناجمة عن السـماح للمدفعية العربيـة بالعودة الى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ . وقال للرئيس كارتر الذى شـعر بالارتباك ، « اننا شعب ثلاثى » وكان يعنى انه من بين كل ثلاثة يهود قتـل يهودى فى الهولوكوست النازى . ومضى يقول « لم يكن باستطاعة الرجـال اليهود الدفاع عن نسائهم كان عليهم ان يسلموهن الى القاتل . ثم بدأ يقول :

« لقد اخذت على نفسي عهدا .. » ثم انفجر فى موجة انفعال . وعندما حذره كارتر فى نفس الجلسة فى حجرة اجتماع الحكومة الامريكية فى البيت الابيض من المضى فى برنامج الاستيطان الضخم الذى وعد بالقيام به فى الاراضى المحتلة قدم له رئيس الوزراء قائمة معدة مسبقا بعدد المدن الموجودة فى الولايات المتحدة وتحمل اسماء عبرية مثل ساليم والقدس وتساءل قائلا : « ماذا ستقول اذا قال حكام تلك الولايات انه لا يمكن ان يعيش يهودى فى تلك المدن ؟ . كان مسئولو السفارة الاسرائيلية المصاحبين لبيجين للمرة الاولى يعرفون أن هذه لا يمكن ان تكون كلمة اسرائيل الاخيرة ، واصيبوا بالانزعاج ازاء حـدة كارتر حول موضوع المستوطنات وعندما عادوا من البيت الابيض الى بلير هاوس ، قصر الضيافة الفخم سألوا رئيس الوزراء عما ينوى القيام به ، رد بيجين قائلا انه سيقوم ببناء المستوطنات كما هو مخطط .وتنبأ بأن الامريكيين سيتحمسون لمدة ستة أشهر ثم يعودون الى الحالة الطبيعية .

كان أول حاكم عربى يتقرب اليه بيجين فى بحثه عن الســــلام واكثرهم قابلية وتفتحا هو الملك حسين ملك الاردن . كان وزراء اسرائيليون يقومون بالاجتماع به سرا منذ ماقبل حرب سنة ١٩٦٧ عندما كان لايزال يحكم الضفة الغربية والقدس الشرقية واستمر الحوار خلال حكومات ليفى اشكول ، وجولدا مائير واسحق رابين .أما اكثر المقابلاتوجها لوجه فقد قام بها ايجالآلون وزير الخارجية الراحل الذى اجتمع بالملك اربع عشرة مرة ، بينما اجتمع به رابين ووزير دفاعه شيمون بيريز ثمان مرات . واجتمعت به مسز مائير لاول مرة فى باريس قبل حرب الايام الستة عندما لم تكن رئيسة وزراء بعد ، وفى اسرائيل بعد ذلك عندما اصبحت رئيسة للوزراء . ويضيف نافتالى لافى أن ديان قد تحدث الى الملك « عدة مرات » بما فى ذلك عدد من المرات عقب استقالته كـــوزير للدفاع فى سنة ١٩٧٤ . وخلال فترة حكم رابين عقدت كل الاجتماعـــات فى اسرائيل . ويقول أحد شهود العيان أنه على الرغم من أن تلك الاجتماعات لم تحقق اية نتائج فانها كانت اجتماعات جميلة ، ومناقشات حرة ، مفتوحـة وودية بين جنتلمان وآخرين على شاكلته .

وفور تولى السلطة ، المح بيجين عن طريق الوسطاء الى انه يرغب فى الانضمام الى اجتماعات حسين .

القسم الثالث

وجاء الرد من عمان بالرفض القاطع الامر الذى اغضبه كثيرا . وعلى الرغم من ذلك فقد فوض ديان فى حضور اجتماع خلص مساء يوم ٢٢ اغسطس بعد ان تخلص وزير الخارجية الاسرائيلى من حارسه الخاص بدخوله منزلا آخر من خلال الباب الامامى والتوارى فى سيارة كانت فى انتظاره فى الخلف .

وعلى الرغم من أن المحادثات استمرت ليوم آخر بناء على طلب الملك حسين ، الا انها لم تكن مثمرة بالمرة . وقال الملك انه نفض يده من الضفة الغربية والمشكلة الفلسطينية . واعلنت الدول العربية ان منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . واذا كانوا لا يريدونه ، فبوسعهم ادارة دفة شئون الفلسطينيين بدونه .

وكتب ديان يقول ان محاولة ايجاد ترتيب مناسب ومتفق عليه لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة هى محاولة تتسم بعدم الاكتراث فيما يبدو .. وفى الاجتماع الثانى ، أوضح الملك حسين موقفه بشأن احتمال تقسيم الضفة الغربية بين اسرائيل والاردن ، اى تسوية اقليمية .

وقد رفضها على الفور ، اذ ان اى ترتيب للسلام يقوم على اساس تقسيم الضفة الغربية من شأنه انه يعنى ان يوافق حسين على ضم جزء منها الى دولة اسرائيل ، وقال يجب ان افهم انه بصفته ملكا عربيا لا يمكنه ان يقترح حتى علىشعب قرية واحدة ان يقطعوا اوصالهم مع اشقائهم العرب ويصبحوا اسرائيليين . وسيتم النظر الى موافقته على خطة من هذا القبيل على انها خيانة . وسيتعرض للاتهام بأنه باع ارضا عربية الى اليهود حتى يستطيع توسيع مملكته .. وقال ان الحل الوحيد لتحقيق السلام هو ان تعود اسرائيل الى حدود ما قبل شهر يونيو عام ١٩٦٧ .. وفيما يتعلق بمسألة السيادة ، يجب ان نعيد الىالاردن كافة الاراضى التى استولينا عليها فى عام ١٩٦٧ .

وصرح ديان لمساعديه عندما عاد الى القدس بأنه لم يندهش لموقف حسين ولم يندهش كذلك رئيس الوزراء . وطبقا لما ذكره احد اصدقاء بيجين المقربين ، فان بيجين لم يعتقد ابدا ان اية تسوية اقليمية ستغرى حسينا على التفاوض .

لقد كان يريد أن يستريح ضميره ، ويحصل عليها بعيدا عن نظامه ، وجس نبض حسين . ولم يؤمن ديان بذلك على اية حال . وقد عرفنا موقف حسين من الحادثات السابقة ، واستوضحه بيجين من جدول أعمال ديان ولو كان حسين قال نعم ، لما تغير شيء . الا أنه لم تحدث حتى المقامرة نفسها . اننا نعرف الرد مسبقا .

وطبقا لما ذكره مصدر مطلع ، فانه على الرغم من ذلك ، اوحى ديان قبل أن يفترقا بأن الملك قد يجتمع مع بيجين . ورد حسين بانه لايرى جدوى من ذلك ، فآراء بيجين معروفة تماما . وفى حدود ما هو معروف كان اجتماع ديان هو آخر اجتماع بحضره العاهل الاردنى مع وزير اسرائيلى . وكان بيجين على استعداد للبحث فى اى مكان آخر .

الفصل الثامن عشر

السلام وفق شروطنـــا

كان ذلك بعد الثامنة من مساء التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٧ وكان الياهو بن اليسار ، مدير عام مكتب رئيس الوزراء وعميلا سريا سابقا يحمل درجة الدكتوراة فى التاريخ ويطلق لحيـــة سوداء تشبه لحيـــة تيودور هيرتزل ، كان يقرأ وهو مضطجع فى سريره فى شقة بالقرب من مسكن الرئيس فى القدس. وكان ذلك اليوم يوما طويلا ومرهقا . وقد خرق المقاتلون الفلسطينيون وقف اطلاق النـــار عبر الحدود اللبنانية وتسببوا فى قتـــل مدنى اسرائيلى وجرح خمسة آخـــرين بصواريخ كاتيوشـــا وردت القـــوات الجوية بقصف استمر خمسا وستين دقيقة لمخيمات الفلسطينيين وكان العنصر البارز فى أخبـــار التليفزيون المسائية تتناول المزاعم والمزاعم المضادة حـــول الاصابات بين المدنيين وكذلك تأكيدات رئيس الاركان بأن اسرائيل سوف تحترم وقف اطلاق النار اذا ما فعل الجانب الآخر الشىء نفسه وتلقى بيجين تقارير عن الحادث وادلى أيضا بمشورته ولم يكن هناك شىء جديد فى نشرة أخبـــار التليفزيون وكان فى استطاعة بن اليســـار أن يسترخى ولكن لم يكن هـــذا الاسترخاء ليطول أمده .

فلقد دق جرس الهاتف الى جوار السرير . وكان المتحدث هو عنـــان صفاوى ، محرر شئون الشرق الاوسط فى صحيفة جيروزاليم بوست . وكان صفاوى قد تابع الاستماع الى اذاعة حيـــة (على الهواء) من اذاعة القاهرة لخطاب أنور السادات الذى وجهه فى افتتاح الدورة السنوية للبرلمان المصرى المسمى « مجلس الشعب » وبعـــد أن اعلن استعداده للتوجه الى مؤتمـــر فى جنيف والذى يحاول الامريكيون احياءه من جديد ، وبعد أن هاجم اسرائيـــل لجدلها حول كل كلمة وكل فصلة وكل شرطة ، التى السادات قنبلة لقد قال انه مستعد لان يذهب الى نهاية العالم من أجل محادثات السلام . وقال السادات « ان اسرائيل سوف يصعقها ان تسمع انى أخبركم باستعدادى للذهاب الى اسرائيل نفسها الى الكنيست ، لا تباحث معهم من اجل ان احول دون جرح جندى مصرى واحد . أعضاء مجلس الشعب ، ليس لدينا وقت نضـــيعه » . ولقد قوبل هذا العرض الذى قدمه الرئيس السادات بالنـــداء الحمـــاسى « الله اكبر » من الاعضاء . لكن بعض الذين استمعوا له لم يتنبهوا كثيرا لمـــا قال أو اعتبروا ما قاله نوعا من الصيغ البلاغية فى الخطابة تماما كما اعتبروا تهديد السادات منذ اربع سنوات مضت بالتضحية بمليون جندى مصرى فى سبيل استعادة الارض العربية من الغاصب الصهيونى . لكن حرب يوم

الغفران قد علمت أنان صفاوى ان الرئيس فى العادة يعنى ما يقول . ولقد ذهب الى بيجين ليعلمه بالقضية وليعلم رد فعل بيجين لها .

كان بن اليسار غير مصدق لما سمع، لكن هذا المسئول الاسرائيلى لم يرد ان يستبعد ما سمع استبعادا تماما .

لقد سألته « هل انت متأكد من أن هذا هو ما اعلنه السادات ؟ اننى لا أصدق « فبالرغم من كل ما نعرفه مقدما الا أننى دهشت من سماع السادات على استعداد للحضور الى القدس . ورد قائلا انه متأكد كل التأكيد . وسأله عما اذا كان قد تلقى برقيات من وكالات الانباء . ورد بانه لم يتلق بعد اى رسالة . وقلت « ارجوك أن تتأكد فاذا ما كان هذا صحيحا وصح ما اعلنه السادات فعليك أن تكتب اليه بأنه سيلقى كل الترحاب فى القدس .

وفى اليوم التالى نشرت صحيفة جيروزاليم بوست قول أحد كبار مساعدى رئيس الوزراء مناحم بيجين بأن السادات سوف يلقى كل الترحيب هنا وانه سوف يستقبل استقبالا لائقا . لكن الاسرائيليين كانوا أو لا زالوا مترددين فى مواجهة هذه المبادرة بجدية . ولم تنشر صحيفة جيروزاليم بوست رواية صفاوى بعناوين رئيسية .. فى الصفحة الاولى . ولم يعكر بن اليسار امسية بيجين بهذه الاخبار ولكنه انتظر حتى بعد الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . ولم يذع راديو اسرائيل بيان رئيس الوزراء بأن السادات سوف يلقى الترحيب الا فى الساعة الثامنة صباحا ولكن الاحتمالات لم تزل تبدو غير واقعية . ولما كان السادات قد استمر فى وضع التأكيد كله على مؤتمر جنيف وطلبه بتعهد اسرائيل مقدما بالانسحاب من كل الاراضى المحتلة ، فان الحيرة قد أصابت اسرائيل آخذة فى الاعتبار ايضا أن جميع المقابلات السابقة بين الاسرائيليين والزعماء العرب كانت كلها سرية ابتداء من زيارة جولدا مائير للملك عبدالله ١٩٤٨ الى مقابلة ديان لحفيد الملك عبدالله بعد تسعة وعشرين عاما . وكانت اسرائيل مدركة تماما للحساسية العربية لدرجة استخدام الرقابة العسكرية للحفاظ على سرية هذه اللقاءات.ولكن ماذا عليك أن تفعل اذا ما سمعت رئيس اكبر دولة عربية يعلن جهارا انه مستعد للحضور الى القدس ومخاطبة الكنيست ، فهل سوف يؤذيه بين شعبه أن يتلقى دعوة علانية ، أن بيجين شأنه شأن سابقيه قال مرارا انه مستعد للذهاب الى اى مكان من اجل محادثات السلام وفى اى وقت . وعلى اية حال فان مصر لا زالت فى حالة حرب مع الدولة اليهودية رسميا . فكيف يمكن استقبال عدو فى عاصمة دولة لا يعترف بها ومما زاد الامر حيرة عدم وضوح الرؤيا فى اشارة السادات . فالى أى شىء كان يهدف ؟

وبالرغم من العلاقات الحارة التى أقامها بالفعل مع جيمى كارتر ، الا ان السادات لم يستشر الامريكيين مقدما حول اعلانه هذا فى مجلس

الشعب . وطبقا لما قاله سيروس فانس وزير الخارجية الامريكية انه اخطر الرئيس قبل اعلانه بيوم واحد من تفكيره فى الذهاب الى اسرائيل . ونظرا لانه قد هوم فكرة عقد مؤتمر قمة فى القدس الشرقية يضم الدول الخمس الدائمة العضوية فى مجلس الامن ومنظمة التحرير الفلسطينية وكذلك اسرائيل وجيرانها المباشرين ، فان رسالة كهذه لم تقبل بمعناها الواضح الظاهرى . ولكن ما ان ادلى بتصريحه هـذا حتى اصبحت الولايات المتحدة ساعى البريد السعيد على حد قول صموئيل لويس السفير الامريكى فى تل أبيب .

وجاءت الرسائل وعادت عن طريق القنوات الدبلوماسية وعن طريق اعضاء الكونجرس الذين زاروا المنطقـة ، وبصـورة حيـوية عن طريق الصحافة . وفى اذاعة باللغة الانجليزية موجهة الى السفير المصرى — سك بيجين هذا القسم للامتين ، « لا حروب جديدة ولا سفك للدماء ولا تهديدات بعد اليـوم » واجرى كرونكايت وبربرا وولترز المعروفين بلقائهما فى التليفزيون الامريكى مع النجوم والقادة ، لقاء مع كل من السـادات وبيجين . واضاف هذا اللقاء المزيد الى الكرنفال السائد فى المنطقة وان كان بعض الدبلوماسيين المغرضين قد اشاروا الى ان هذا ليس بالطريقة الوحيـدة او الرئيسـية للاتصالات بين القدس والقاهرة . وكان لقاء كرونكايت هو اول لقاء مشترك عن طريق القمر الصناعى من نيويورك وقال السادات انه لابـد من استلامه لدعوة مكتوبة . ووافق بيجين على ارسـال هذه الدعوة . واستجاب السادات لذلك بقوله انه سـوف يكون مستعدا للذهاب الى اسرائيل فى اقـرب وقت ممكن . وفى الخامس عشر من نوفمبر بعث بيجين برسالة الى القـاهرة عن طريق حامل رسائل امريكى قال فيهـا :

« بالاصالة عن حكومة اسرائيل فان لى الشرف ان اقدم لكم دعـوتى الودية للحضـور الى القدس وزيارة بلدنا . ان استعداد سعادتكم للقيـام بمثل هذه الزيارة كما عبرتم عنها فى خطابكم لمجلس الشعب المصرى ، قد قوبل هنا بالاهتمام العميق والايجابى شأنها شأن بيانكم بانكم ترغبـون فى مخاطبة اعضاء برلماننا ، الكنيست ، ومقابلتى . فاذا ما قبلتم دعوتى ، وهذا ما آمله ، فسوف تجرى الترتيبات لكى تخاطبوا الكنيست من فـوق منبـره وسوف تمكنوه ، اذا ما رغبتم فى ذلك ، من مقابلة مختلف المجموعات البرلمانية ، المؤيدين منهم للحكومة والمعارضين لها . ودعنى اؤكـد لكم ، سيدى الرئيس ان البرلـمان والحكومة والشعب فى اسرائيـل سـوف يستقبلونكم بـكل احترام ومحبـة » .

وجاء رد السادات بنفس الايجابية فقد اخبر وفدا امريكيا من مجلس النواب مكونا من اربعة عشر عضوا انه يعتبر الزيارة المقتـرحة « مهمـة مقدسـة » وانه سـوف يذهب فى اقرب فرصـة ممكنة . ثم استطرد قائلا :

« وعلينا ان نفعل المستحيل لكسر الحلقة المفرغة التي أخذ العرب والاسرائيليون يتحركون فيها لمدة ثلاثين عاما . وهذا من أجل الاجيال القادمة . ومن هنا جاءت قدسية هذه المهمة . واننى اذا لم احاول كسر هذه الحلقة المفزعة فان الله سوف يحاسبنى وكذا سوف تحاسبنى الأجيال القادمة ·

وبالنسبة لى فان ٧٠ ٪ من الصراع المصرى — الاسرائيلى سببها مشاكل نفسية و ٣٠ ٪ ترجع الى اسباب مادية . وعلينا ان نتغلب على المشاكل النفسية ثم نتجه الى الأسباب المادية · ومن أجل ذلك فسوف أذهب الى الكنيست . واذا ما لزم الامر فسوف افتح باب المناقشة مع اعضاء الكنيست المائة والعشرين لتزويدهم بالحقائق المجردة هنا فى المنطقة — اى وجهة النظر الاخرى — حتى يستطيعوا ان يقرروا لانفسهم » .

ولقيت الزيارة الوشيكة الوقوع صدى فى نفس بيجين وتقديره لذاته وفى احساسه المعيب للتاريخ . فهذه المحادثات من شأنها ان تبرهن لاولئك الذين تساورهم الشكوك على أن حكومته تسير فى الطريق السليم » واشار فى الخطاب الذى أدلى به أمام اللجنة المركزية لحزبه حيروت الى انه يتوقع دعوة مقابلة لزيارة العاصمة المصرية وقال ·· هناك تبادلية فى هذه الامور ، وبمشيئة الله سازور القاهرة فى يوم من الايام ، وساشاهد ايضا الاهرام . وعلى اية حال ، فاننا ساعدنا فى بنائها » . واحتاج رئيس الوزراء الى ثمانية عشر شهرا من الدبلوماسية لقد اقتنع بان ابناء اسرائيل لم يبنوا الاهرامات .

ان مبادرة السادات لم تولد من فراغ ، فقد ساعد فى مولدها حاكمان من طرفين متضادين على المسرح الدولى وهما رئيس شيوعى وملك عربى . ففى شهر اغسطس ، بعد عودته من واشنطن ، قام بيجين بزيارة رسمية الى رومانيا ، وهى الدولة الوحيدة من دول المعسكر الحديدى التى احتفظت بعلاقات دبلوماسية مع اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ . وقد قضى ثمانى ساعات فى اجتماع مغلق مع نيقولاى شاوشيسكو ، زعيمها المتشدد وان كان مستقلا فى رأيه · وذهب السادات وراء بيجين الى بوخارست . وكان يتوق لسماع انطباعات شاوشيسكو عن رئيس الوزراء الاسرائيلى الجديد . وهل هو متعصب كما يبدو ؟ واكد له شاوشيسكو بان بيجين يريد حلا . والح السادات على السؤال القاتل « هل بيجين امين وهل هو زعيم قوى بدرجة تمكنه من العطاء ؟ وكان رد الرئيس الرومانى على السؤالين هو اجل » .

وكان ذلك كافيا بالنسبة للسادات ، الذى كان مصمما على كسر سلسلة حروب الشرق الاوسط . وكان لديه اسبابه القوية التى تدعوه لتسوية

الروابط الدبلوماسية والاقتصادية مع الولايات المتحدة ، الراعى التقليدى لاسرائيل ٠

وقام الرئيس الشيوعى بدوره ، وجاء الآن دور الملك العربى ٠ لقد كان الملك الحسن ملك المغرب رئيس الدولة العربى الأكثر قبولا لفكرة اجراء حوار مع اسرائيل ٠ وزاره اسحق رابين ، بصفته رئيسا للوزراء متنكرا باستخدام شعر مستعار ونظارة شباب ٠ وفى شهر سبتمبر ، بعد جلسة تمهيدية مع ممثل كبير للموساد وهو جهاز المخابرات ، وجه الملك دعوة الى موشى ديان لزيارة القصر الملكى فى مراكش ٠ وبناء على طلب من وزير الخارجية ، أرسل الملك الحسن رسالة للقاهرة تقترح عقد لقاء مصرى اسرائيلى على مستوى عال ٠ وفى غضون أربعة أيام من عودة ديان الى القدس ، جاء الرد بأن المصريين على استعداد لذلك ٠ واقترحوا عقد اجتماع اما بين السادات وبيجين أو بين حسن التهامى نائب رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الحين وموشى ديان ٠ وعلى الرغم من التحفظات التى أبداها ديان ، فان بيجين كان مستعدا للتوجه فورا الى اجتماع القمة ، الا أن المصريين فى ذلك الحين أعادوا النظر فى الموضوع ٠ واستقر الرأى على اجراء المحادثات بين ديان والتهامى فى الرباط يوم ١٦ سبتمبر ٠

وبالرغم من أنه كان من المفترض أن تكون تلك المحادثات سرية ، فقد كان الأمريكيون على علم بها من خلال المغرب فيما يبدو ٠ وتوقف وزير الخارجية فى أوروبا وهو فى طريقه للولايات المتحدة ، واختفى فى بروكسل وانطلق بطريق البر الى باريس ثم بطائرة خاصة الى المغرب ، بعد أن وضع شعرا مستعارا وشاربا ونظارة شمسية على عينيه طوال الطريق ٠ أما مسز راشيل ديان ومساعد وزير الخارجية فقد اتجهوا الى نيويورك على متن الطائرة (سابينا) واعتذروا للطيار هنرى ليفى الذى كان قد تم انقاذه من الطائرة سابينا المختطفة فى مطار اللد فى عام ١٩٧٢ عندما كان ديان وزيرا للدفاع وكان يتطلع لمكافاته على ضيافته ٠

وعلى الرغم من احترام كافة المجاملات ، فان النجاح لم يحالف مؤتمر الرباط ٠ وقال التهامى أن السادات وافق على فتح حوار مع اسرائيل ، الا أنه لن يجتمع مع رئيس وزراء اسرائيل ويصافح يده الا بعد أن يقبل بيجين مبدأ الانسحاب الكامل من الاراضى المحتلة ٠ وكان الانسحاب الاسرائيلى هو المشكلة الأساسية ، وكان يشمل كما حدث قضايا السيادة والشرف الوطنى وبقاء السادات فى السلطة ٠ وكان ديان فاترا ولكن غير ملتزم وكان عليه أن يرد على رئيس الوزراء ٠ وعلى نحو كان متوقعا ، عندما فعل ذلك ، رفض بيجين تقديم أى تعهد بالانسحاب الشامل ٠ والتزم التهامى بقوله ، وهو مسلم متشدد لايشعر بالمودة تجاه اسرائيل ٠ وأبلغ ديان بأنه لن ينعقد أى اجتماع

للقمة حتى يجلو آخر جندى اسرائيلى من الأرض العربية · وتقرر اجراء جولة ثانية من المحادثات بين ديان والتهامى بمجرد أن يتلقوا تعليمات جديدة من القدس والقاهرة · الا أن السادات لم يكن لديه صبر على الديبلوماسية السرية البطيئة · وكان يشعر بضيق تجاه التفاصيل وبعدم اكتراث تجاه البروتوكول· وكان عرضه الخاص بالذهاب الى القدس ضربة نموذجية كبيرة ومذهلة اجتازت حاجز الشك التاريخى وأعلنت التحدى بجرأتها وبساطتها · الا أنه أيا كانت توقعاته ، لم يكن بمقدور هذه المبادرة وحدها تبديد نسبة السبعين فى المائة التى تمثلها الأسباب النفسية فى الصراع العربى الاسرائيلى بل انها فجرت بالكاد نسبة الثلاثين فى المائة التى تمثلها الاسباب المادية ·

وبالنسبة لمعظم الاسرائيليين كانت زيارة السادات خيالا تحول الى حقيقة وعندما وصل الى مطار بن جوريون بعد انتهاء السبت اليهـــودى يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ ، كان مضيفوه ما زالوا يمزحون حول استحالتها وارتجالها نقل قائد فرقة موسيقات الجيش النشيد المصرى من اذاعة القاهرة · وقام صانع الاعلام فى القدس بصناعة المئات من الاعلام المصرية ذات اللون الاحمر والابيض والاسود · وقام احد اصحاب المطابع بتقديم ملصوق تذكارى باللغة العبرية والعربية والانجليزية مكتوب عليه كلمة «السلام» وتنافست أشهر وأرقى فنادق القدس الثلاثة على ارضاء زبائنهم المصريين والتشريف بهـــم بحللهم الملكية (وكانت من طراز الملك داود) وأعلن وكيل احدى المنشآت عن مبنى فاخـــر مكون من أربع عشرة حجرة · فى مكان مناسب وبشروط يمكن التفاوض حولها يصلح لان يكون مقرا للسفارة المصرية وعرضت « متاجر السلام » المعـروفة تخفيضا قدره ١٠٪ على جميع المبيعات من متاجرها ·

وأعلن مذيع التليفزيون وهو يلهث فى مكبر الصوت بينما كان الرئيس المصرى ينزل درجات سلم الطائرة بيونج ٧٠٧ ان عهدا جديدا قد بدأ « · وردد أحد مذيعى الراديو « اننى أراه ولكننى لا أصدقه » وكانت جولدا مائير واقفة بين علية القوم الذين جاءوا لاستقبال السادات · وقال لها السادات « سيدتى» لقد انتظرت طويلا مترقبا لحظة لقائك · وردت السيدة البالغة من العمر ثمانين عاما والتى صلت ودعت فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ أن يأتى اليوم الذى ينتبه فيه أحد القادة العرب ويحزن على موت شباب بلاده وسقوطهم فى ســـاحة القتال « وأنا انتظرت طويلا مترقبة لقائك · وها قد حان الوقت وها أنا فى انتظارك » وتوقف الرئيس لحظة ثم بدأ يصافح المستقبلين وانغمر فى مناقشة حية مع آريل شارون الجنرال الذى تحول الى رجل سياسة وهو الذى غير مجرى حرب يوم الغفران بعبوره قناة السويس · وكان رئيس الأركان جنرال موردخاى جور قد حذر الأمة فى مقابلة صحفية أثارت جدلا كثيرا من أن يكون السادات

قد خطط لشن هجوم مفاجئ، تحت ستار زيارته لاسرائيل : وقال قد تكون العملية كلها مجرد خدعة » وعندما قعمو للصادات ابتسم السادات وقال « انني لم أكن أخادع »ووقف الرئيسان كارتر وليس دولة اسرائيل والسادات رئيس مصر وكتفاهما متلاصقان والى جانبهما وقف مناحم بيجين بينما أخذت فرقة الموسيقى تعزف النشيدين الوطنيين للبلدين وفيما بعد أخذت المدفعية تطلق ٢١ طلقة تحية للضيف • وتقدمت المسيرة الى القدس ثماني عشر حمامة بيضاء أطلقت في الجو ووقف ما يقرب من ٢٠٫٠٠٠ اسرائيلي وقد غمرتهم البهجة يستقبلون الموكب عند أبواب العاصمة بالخبز والملح وأناشيد السلام • وأخذت الأجراس تدق بينما اقترب موكب سيارات الليموزين من فندق الملك داود وأخذت حشود أخرى من الجماهير تنشد باسم السادات • وبعد ما أثاره وصول السادات من المشاعر • وبعد جولته صباح يوم الأحد في المدينة القديمة وأدائه صلاة الظهر في المسجد الاقصى كانت الكلمات التي ألقيت في الكنيست هي قمة هذا الحدث • وبالرغم من التوقعات التي سادت المجلس الذي ازدحم بأعضاء البرلمان السابقين والحاليين وبالدبلوماسيين وبالمحررين ومراسلي الصحف فقد أوضح السادات وبيجين للحاضرين ولكل من استمع اليهما في أرجاء العالم أن السلام لن يتحقق عن طريق الخطب وما لم يعتزم أي من الزعيمين أي شيء غير عادي بصورة كافية يمكن أن يحفز الطرف الثاني على تغيير موقفه • فقد كان السادات مصرا على أن يحقق السلام بشروط مصرية • ولم يكن بيجين بأقل منه في شروطه الاسرائيلية واذا ما حكمنا على أداء الاثنين وممارستهما في العلاقات الدولية نجد ان السادات قد ربح بسهولة مدهشة • فقد بدأ متحديا ومرحا • وهكذا أخذت اسرائيل موقف المدافع • وكان بيجين متعبا ولم يقل شيئا غير متوقع • وهذا شأنه دائما حيث لا يكون في أحسن حالاته عندما يلقي خطابا رسميا • فهو لم يقدم اى فكرة جديدة ، وليس هذا فحسب بل انه لم يجد كلمات جديدة للتعبير عن الافكار القديمة •

وفي خطابه الذي القاه باللغة العربية والذي استغرق خمسا وخمسين دقيقة عبر السادات بأسلوب أكثر دقة من ذي قبل عن استعداده لقبـــول اسرائيل كحقيقة واقعة في حياة الشرق الاوسط . وقال : « اننا نرحب بكـم أتعيشوا بيننا في سلام وأمن . ولكي يتم تحقيق السلام مع العدل اقترح قيام حدود آمنة ضد العدوان وأية ضمانات أخرى دولية قد ترغب اسرائيل فيها • وفي مقابل ذلك تلا السادات قائمة كاملة بالمطالب العربية باستـــثناء ملحوظ وهو اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشـــعب الفلسطيني . وأصر السادات وهو يجفف العرق من على جبهتـــه والجزء الاصلع من رأسه على الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية التي تم احتلالها بالقوة بما في ذلك القدس . بالارض ليست قابلة للتفاوض انه لن

يتنازل عن بوصة واحدة أو حتى مجرد قبول مبدأ المساومة حـول الارض ٠ وينبغي ان تكون القدس مدينة حرة ومفتوحة لجميع المؤمنين . وينبغي الا يحرم منها أولئك الذين اعتبروها وطنا لهم لعدة قرون ٠ وفوق ذلك أكد الرئيس المصرى أنه لن يوقع اتفاقية سلام مصرية ـ اسرائيلية منفصلة وكذلك فانه لن يتفاوض على ترتيب جزئى آخر سوف لا يكون من شأنه سوى تأجيل الوصول الى حلول حقيقية وبالرغم من تجاهله لمنظمة التحرير الفلسطينية الا أنه وصف المشكلة الفلسطينية بانها لب وجوهر النزاع ٠ وأكد قائلا أنه سوف يكون خطأ خطيرا تجاهل الحقوق الفلسطينية الخاصة بحقهم فى اقامة دولة وفى حقهم فى العـــودة ٠

وقاوم بيجين كل اغراء بالتفاوض من فوق هذا المنبر ٠ وقال أحـــد السفراء الغربيين وكان حاضرا هذه الجلسة أن الامريكيين قد حذروا رئيس الوزراء الاسرائيلى من الانزلاق الى هذا الموقف . وأعلن بيجين عن رغبته فى قيام سلام حقيقى يتضمن تسوية كاملة بين الشعب اليهودى والشـــعوب العربية دون الانزلاق فى ذكريات الماضى . وعلى أية حال فانه قد عرض على السادات دراسات التاريخ اليهودى الحديث مشيرا الى مغزى مذبحة حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ والتى قال عنها انها فرضت على اسرائيل الضعيفة بواســـطة جيرانها العرب الأقوياء وأردف يقول : « ان الجيل الذى تعرض للابادة قد صمم على الا يعرض الشعب اليهودى مرة أخرى للخطر . وقال رئيس الوزراء أن السادات يعلم أن موقفهما من مسألة الحدود مواقف مختلفة متباينة ولكـن لا يعنى هذا أنهما لا يستطيعان التفاوض ٠ واقترح أن يتفاوضـــا على كل موضوع خلاف والا يضع أى من الطرفين شروطا مسبقة وقال « اننا ســوف نتفاوض كأنداد . فليس بيننا مهزوم ومنتصر » .

وبناء على مبادرة من بيجين تصافح الزعيمان فى نهـــاية خطاب رئيس الوزراء الذى ألقـــــاه بالعبرية والـــذى اســتغرق أربعين دقيقة ٠ ولكن كان هناك شعور بخيبة الامل بين الصحفيين وبين أعضاء المجلس ٠ وربما ما كان ينبغي توقع حدوث معجزات ٠ وبدلا من حدوث معجزات فقد تم تحديد الخطوط الفاصلة للسلام . وفى مؤتمر صحفى مشترك فى اليوم التالى أنهى السادات زيارته ٠ بأن وضع المسئولية والعبء كله على أكتاف بيجين قائلا :

« ادعو الله ان يرشـــــــد خطوات رئيس الوزراء بيجين وخطوات الكنيست ، ذلك لاننا فى حاجة ماسة لاتخاذ قرارات صعبة وحاسمة ٠ وانما قد حملت نصيبى بالفعل بقرارى الحضور الى هنا وانى فى انتظار القرارات التى سوف يتخذها رئيس الوزراء بيجين وكذلك الكنيست » .

واصبح هذا يتردد كثيرا على السنة المصريين . فلقد قدم الرئيس التنازل الاكبر بذهابه الى القدس وبالاعتراف باسرائيل مخاطرا بحياته فى مصر وفى العالم العربى كله . واليس هذا هو غاية ما كان يطمع ويتوق اليـــه الاسرائيليون دائمـــــا ؟ والآن قد حان الوقت لمقابلة ذلك بالمثل . وعلى أية حال فانه من الصعب الاعتقاد بـــأن الســـادات كان يتوقع احراز نصر بسهولة هـــذا فضـــلا عن وجود عنصر التمثيل فيما اقدم عليـــه . ولم يكن يؤخذ فى الخارج على محمل البراءة . وهو لم يكن بأقل من بيجين فى سجله التآمرى . وبالرغم من انه يكره ويمقت التصرف المكتوب والمخطط الا أنه ماكان لينطلق فى تصرفه بناء على وحى الســـاعة فكل مبادراته ابتداء من عبور أكتوبر ثم توجهه الى القدس انما هى قائمة على الحسابات . وكان محقا فى توقعه من حدوث استجابة اسرائيلية كريمة وهى المقابل الذى يمكن أن يلوح بها فى وجوه منتقديه من العرب ولكن بعد ثلاثين عاما من الحرب فانه سيكون من السذاجة توقع انهيار الجدران امام اول نفخه فى النفير .

وكان بيجين ، شأنه شأن معظم الاسرائيليين يذكر تاريخ السادات المتعدد الالوان . فهذا نشاطه المؤيد للنازية اثناء الحرب العالمية الثانية ، وهـــذا دوره فى الثورة الناصرية ضد الملك فاروق ، ثم شنه حرب يوم الغفران . لكن بيجين استبعد عداءه الغريزى ضد الزعيم المصرى الا عندما كان يشعر بأن السادات يلعب لعبة قذرة . ففى اجتماعاته الخاصة مع رجاله كان يسمح لكراهيته بالظهور فكان يقول « أن السادات كاذب » وكان بيجين يميل الى احتقار العرب بصفة عامة ولذلك فانه كان يحتقر السادات بصفته عربيا . ولكن فوق هذا كله فان بيجين يدرك ان السادات يريد السلام وانه ركب المخاطر من أجل ذلك . ولقد لخص يحيل قديش موقف رئيس الوزراء بانه موقف «الاحترام والشك » وفى احدى المناسبات عندما حثه احد اصدقائه بأن يفتح عينيه على السادات المراوغ والمخادع اجاب قائلا : « لقد وهبنا الله القدير عقولا نحن ايضا » . وكان بيجين يصدق دعايته هو نفسه حول تعرض اسرائيل للخطر . وكان مصرا على الا يتخذ اية خطوة قد تعرض الدولة اليهودية للخطر . وحتى لو كان بيجين لايشارك جنرال جور فى شكوكه العميقة الا انه لم يكن على استعداد ليأخذ صداقة السادات بثقة تامة . لكن كان الزعيم المصرى عدوا لفترة طويلة . وكان بيجين فى حاجة الى دليل عملى على حسن نية السادات . وهو ايضا لم يكن يحب ان يبتعد كثيرا عن خلصائه فى حزب حيروت الذين آزروه فى حملته ضد حكومة العمل حول اتفاقيات سيناء . لقـــد كانوا فى حاجة الى التأكيد وكانوا فى حاجة الى الوقت لكى يلحقوا ببيجين . وفوق ذلك كله فان بيجين كان مصرا على الا يقع فى شرك سلام شامل قد يؤدى الى اعادة تقسيم ارض اسرائيل انه كان يريد السلام ولكن ليس على حساب كل شىء حارب من

أجله فى الانتخابات وفى الحكومة · ان السلام مع مصر له جاذبية خاصة لعدة أسباب . فمصر اكبر دولة عربية واكثرها قوة . وبدون مصر فلن يستطيع العرب شن حرب . ان سيناء على عكس الضفة الغربيه وقطاع غزة يمكن التخلى عنها طالما امكن الابقاء عليها خالية من القوات المصرية والمطارات العسكرية . هذا وكان بيجين يأمل فى التوصل الى وسيلة يمكن بها الاحتفاظ بالمستوطنة اليهودية وبالرغم من احتجاجات السادات ضد ذلك وبالرغم من تشاؤم ديان تفاوضت اسرائيل على افتراض ان مصر سوف تكون قانعة بتحقيق سلام منفصل . ان كل ما يريده السادات وكان يسعى اليه هو استعادة أرضه السليبة ومساعدة امريكيه فى حل مشاكل مصر الاقتصادية الرهيبة . فاذا ما كان السادات فى حاجة الى دليل يقدمه على انه لم يتخل عن الفلسطينيين فلن بيجين سوف يحاول ان يقدم له هذا الدليل .

وبهذه الروح توجه بيجين الى الاسماعيلية فى أعياد الميلاد سنة ١٩٧٧ فى اول زيارة له لمصر وثانى لقاء قمة مع السادات . واذا كان الاسرائيليون قد توقعوا استقبالا حارا وتلقائيا فى مدينة القناة كالذى استقبل به السادات فى القدس فانهم سرعان ما اصيبوا بخيبة أمل · لقد تاججت المشاعر فى طائرة العال ٤٤٧ التى انطلقت من مطار بن جوريون عندما أحاطت احدى المضيفات بذراعيها برقبة بيجين وقد انفجرت فى البكاء . لقد كان زوجها قد سقط صريعا على الجبهة المصرية فى حرب سنة ١٩٧٣ لكن المناخ فى مطار أبو صوير العسكرى كان باردا بصورة واضحة فلقد أرسل السادات بنائبه حسنى مبارك لاستقبال الجانب الاسرائيلى . ولم تكن هناك اعلام ولا موسيقى ولا اناشيد . وعند الوصول الى الاسماعيلية سمع عزرا وايزمان رفيقه ديان وهو يهمس لبيجين « أنظر ليس هناك علم واحد اسرائيلى وليس هناك لافتة واحدة ترحب بقدومنا » وعلى نقيض ذلك كانت الاسماعيلية تعج بالصور واللافتات والملصقات والاعلام واقواس النصر ولكنها تمجد مصر ورئيسها وليس هناك اى مظهر لنجمة داود او اية صورة لبيجين ، وليس هناك اى ترحيب بالانجليزية او العبرية . هذا النمط الواحد اخذ يكرر نفسه طوال أشهر المفاوضات · ولكن الاسماعيلية قد صدمت الاسرائيليين اكثر من اى استقبال آخر . ذلك لانها كانت اول بلد عقد فيها اجتماع على مستوى الوزراء · وكان المصريون العاديون وسائقو التاكسى والجرسونات وأصحاب المحلات التجارية كرماء ولطفاء وكانوا يقابلون الاسرائيليين بكلمة سلام ـ وشالوم العبرية · ولكن مصر ظلت مجتمعا مغلقا

وقال احد محررى الصحف العربية ان السلطات كانت تسعى الى اقامة صلح دنيوى يرضى العقل ولا يرضى النفس وكان السادات لا زال يرمى ببصره الى العرب والى العالم الثالث ولقد ادهشه الا تقف الى جانبه اكثر الدول العربية اعتدالا مثل الاردن والعربية السعودية بعد زيارته للقدس . وقال

بطرس غالى وزير الدولة المصري للشئون الخارجية ان هذا قد انعكس على موقف السادات الشخصي تجاه بيجين .

ان اولى الاتصالات بين السادات وبيجين لم تكن بالامر السهل . ان الاتصال الجيد هو الذى تحقق مع عزرا وايزمان فقط . انه كان الوسيط بين بيجين والسادات . وحتى لحظة توقيع معاهدة السلام فى مارس ١٩٧٩ لم تكن العلاقات بين بيجين والسادات طيبة . وبعد توقيع المعاهدة بدأ السادات يثق فى بيجين — لكنك فى امكانك ان تثق بدون اية عواطف — وكان هناك دائما تحفظ فى علاقاتهما .

وبعد بدايتين زائفتين على مستوى أقل حاول بيجين فى الاسماعيلية ان ياخذ المبادرة من اجل اسرائيل . لقد حصل السادات على تقدير العالم كله وخاصة فى الولايات المتحدة حيث رحبت ادارة كارتر باخلاصه وصراحته الواضحة وجاذبيته وتعقله . وبقيت اسرائيل وضيعة التفكير ومتمسكة بالنظريات . ورد بيجين على ذلك بمشروع سلام اسرائيلى كان يأمل فى ان يكون جذابا بنفس المستوى . وفى سيناء اقترحت اسرائيل انسحابا اسرائيليا مرحليا ومتوازنا بعملية نزع للسلاح على ان تبقى المستوطنات اليهودية فى نتوء رفح وان يظل الجيش الاسرائيلى مسئولا عن الدفاع عنها . اما فى الضفة الغربية وقطاع غزة فان العرب الفلسطينيين الذين عاشوا فى ظل الحكم الاسرائيلى منذ سنة ١٩٦٧ سوف يمنحون « حكما اداريا ذاتيا » فى ظل مجلس منتخب . وتحتفظ اسرائيل بالسيطرة على الامن والنظام العام وان يكون المواطنون الاسرائيليون احرارا فى اقتناء الأرض والاستيطان فى هذه الأراضى . ونصت المادة ٢٤ على تمسك اسرائيل بحق السيادة هناك . ولكن لما كانت هناك مزاعم اخرى بهذا الحق فان اسرائيل تقترح ترك هذه المسالة مفتوحة واقترحت المادة السادسة والعشرين الأخيرة مراجعة الاتفاقية كلها بعد خمس سنوات . ولكن فى المناقشات التالية التى جرت بين الامريكيين والمصريين اتضح أن بيجين يعتبر هذا الحكم الادارى الذاتى ترتيبا نهائيا وليس مرحلة انتقالية مؤدية للاستقلال وهذا هو كل ما يمكن ان يطمع فيه الفلسطينيون .

ورفض السادات الشقين من هذا المشروع الاسرائيلى واصر على عدم بقاء أى اسرائيلى ، مدنى أو عسكرى ، فى سيناء . اما بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة فقد طالب المصريون بانسحاب اسرائيلى كامل وبأن يقرر الفلسطينيون مصيرهم بأنفسهم وبعدم توقيع سلام منفصل . وفى مناقشاتهما الخاصة قال السادات لبيجين : « لا استطيع ان اوافق على تسليم بوصة واحدة من الاراضى العربية ، انها مقدسة ورد بيجين بقوله : « سيدى الرئيس اننى لا استطيع ان اتنازل عن بوصة واحدة من أرض اسرائيل ، انها مقدسة » .

وعاد ديان الى اسرائيل وهو راض لان الزعيمين لم يقطعا المحادثات .
وهو تقنع ايضــا بأن مصر جــادة « لقد اقلقني كثيرا الثمن الذى تصر مصر على الحصــول عليــه منا وهــو الانسحاب الكامل من سيناء ، والالتزام بالانسحاب الكامل من الضفة الغربية ومن الجــولان وقيام دولة فلسطينية . ولقد ادركت وجود مشاعر عميقة من وراء هذه الكلمات . انهـا لم تـكن مجــرد كلمات تلقى . وساورني الشــك في أن إسرائيـل عليهـا أن تواجه بديلين كلاهما صعب فاما أن تقــدم تنازلات قوية ثقيــلة أو انهــا لا تصل الى معاهدة ســلام مع مصر » .

لقد صاغ بيجين مشروعه للحكم الــذاتي فى سرية كاملة . ففي أول الامــر أملى صيغة المشروع باللغة العبرية ثم أعــاد كتابته باللغة الانجليزية وبخط يده هو . ولمــا كانت كتابة رئيس الوزراء معروفة بعــدم الوضوح للجميع الا للقلة القليلة لذلك فقط طلب من يهــودا افنــر المتخصص فى قراءة خط بيجين ان يكتب نسخة واضحة من هذه الخطة . وحمــل بيجين هذه النسخة معه فى رحلة استكشافية لكل من واشنطن ولندن حيث حــاول أن يعرض آراءه على كل من كارتر ورئيس وزراء بريطانيا جيمس كالاهان . ولقــد وجــد كلا الرئيسين هذه الوثيقة اســليا مشــجعا للتفاوض .. ولكنهما أصيبا بالاحباط والقلق عند ســماع بيجين يترجم آراءهما التى أسرا بهــا الى بيجين الى موافقة وتأييد وكانت هــذه أولى الملابسات العــديدة التي شعر فيها كارتر أن بيجين يرتكب خدعة معه . وفقط عندما وصــل بيجين الى واشنطن سمح للفريق المرافــق لــه بنسـخ الخطــة على الآلة الكاتبة .. بوساطة سكرتيرة في السفــارة الإسرائيلية كان بيجين حريصــا للغــاية على تجنب اية مخاطرة بتسريب اى شىء ولو ضئيلا عن المشروع .

وقد كره عزرا وايزمان ، وزير الدفاع فى حكومة بيجين هذا الاسلوب الذى تنتهجه الحكومة القائمة على السرية البالغة . ولم يكن مقته لهــذا الاسلوب مرجعه الى انه كان يترك فى الظل فحسب بل ان نقــده لهــذا الاسلوب قد يلقى ضوءا على اسلوب بيجين كرئيس للوزراء فيقال .

« لا يعمل بيجين بالاشتراك مع الحكومة انما هو يعمل من خلال مكتب تابع لــه .. وزعماء على مثل هذه الشاكلة لا يحتاجون الى مستشارين . انهم يستغنون عن المستشارين المساعدين . ومثله غير قادر على أن ياخذ فى اعتباره وجهات نظر او مقترحــات لا تتطابق مع فلسفته الاساســية . والناس الذين يعملون بالقرب من بيجــين لا يقــدمون مقترحات مختلفــة أو يقدمون سلسلة عريضة من البدائل . وهذا يعود الى تجربتهم السابقة ، تلك التجربة التى علمتهم أن مثل هذه البدائل ليست أمامهــا اية فرصــة لان تاخذ مكانها من التنفيذ . ويعود هذا ايضــا الى أن بيجين قــد اختــار

مساعديه من نمط معين من الاشخاص والهويات السياسية المعينة . انهم يفكرون كما يفكر هو . لقد تعلموا تخمين ما يريده بيجين وهم يتنافسون فى تقديم واقتراح الآراء التى يحبها بيجين ويفضلها ، وبذلك يحوزون على موافقته » .

وعلى الفور ادرك وايزمان الذى أصبح من حمائم الحكومة أن بيجين يرى فى الحكم الذاتى وسيلة لتحديد الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة بدلا من ان يكون أول خطوة نحو قيام دولة فلسطينية . ويقول وزير الدفاع ان هذا هو السبب الذى من اجله لا يتشاور بيجين مع أى شخص قد يحاول ان يبعده عن طريقه هذا .

وبالرغم من ان الحكم الذاتى فشل أمام أول اختبار له فى الاسماعيلية فقد ظل الاطار لجميع المفاوضات التى تلت ذلك بين اسرائيل ومصر حول المسألة الفلسطينية ولم يكن السادات راضيا عن هذا المفهوم برمته ولكنه لم يتقدم باى بديل قد يهيىء فرصة للتوصل الى حل متفق عليه وكذلك لم يفعل الامريكيون . لقد نجح بيجين فى تحديد شروط الحوار .

وتدهور العلاقات بين اسرائيل وكل من مصر والولايات المتحدة فى الاشهر الثمانية الاولى لعام ١٩٧٧ من سيىء الى اسوأ . ونظرا للهوة بين دولتى الشرق الاوسط أصبحت أمريكا شريكا فى المفاوضات لا غنى عنه ولا بديل له . وصمم بيجين بأنه الطرف السيىء وانه « عقبة فى سبيل السلام » لكنه لم يتزحزح عن موقفه الاساسى . وقال بيجين للجنة المركزية لحزب حيروت فى شهر يوليو : « اعتقد اننى عقبة حقيقية — ولكننى عقبة فى طريق الاستسلام — الى جانب رفاقى فى الحكومة وفى الكنيست وفى الحركة » . ووعد منتقديه فى حزب حيروت وكذلك مؤيديه فى الحزب بأن مشروع اسرائيل للسلام سوف يفتح الآفاق أمام السلام والامن واستقرار ارض اسرائيل .

وعندما فاز بيجين فى انتخابات سنة ١٩٧٧ أدركت واشنطن موقفه المتطرف من مسألة الارض ، ولكن وزارة الخارجية الامريكية كانت تميل الى التقليل من مدى التزامه بأرض اسرائيل التى تمتد من البحر الابيض الى الاردن ويقول هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية الامريكية السبق لشئون الشرق الاوسط ان وزارة الخارجية تلقت المشورة من أناس يعرفون ان بيجين يمكن ان يكون ايضا سياسيا براجماتيا (عمليا) . وقد أوضح سوندرز ذلك بقوله :

« لقد تم اقناعنا بأننا نستطيع ان نعمل معه ، وانا لن نتوقع بالضرورة الاصطدام بحائط صخرى من الايديولوجية . اننا كنا نعرف انه حازم فى وجهة نظره وكنا نعرف وجهة نظره هذه . وقد قيل لنا انه فى مناسبات

سابقة فى الحياة السياسية الاسرائيلية قد ادرك الحاجة الى تغيير وجهة نظره فى مواجهة الرياح السياسية العاتية واعتقد اننا لم نتبين على التو الاختلافات بينه وبين الحكومة السابقة والمصاعب فى زحزحة بيجين » .

وقد استطاع ويم كاندت مستشار كارتر للامن القومى لشئون الشرق الاوسط أن يرى بثاقب وبعد النظر قوة بيجين فى معرفته لما يريده ومعرفة مدى استعداده لان يدفع مقابل ما يريده . فقد قال :

« يتميز بيجين بأشياء لا تجدها عادة فى السياسيين انه يتميز بوضوح ادراك — لما يريد ان يفعله وكذلك ادراك للحقائق السياسية وكيفية التعامل معها . انه يعلم ان عليه أن يناور . وفى بعض الاحيان كان عليه أن يؤجل المناورة ولكنه لم يفقد قط وضوح رؤية هدفه . انه كان يعرف دائما الى أين هو سائر ، ولكنه كان قادرا تماما على التكييف التكتيكى من حين لآخر وقد كنت دائما اذهل من كفاءته السياسية اذا ما اخذنا فى الاعتبار اكذوبة الارض وايضا القوى التى كان عليه ان يتعامل معها .

ومن الامثلة على قدرته على المناورة صراحته الواضحة فيما يتصل بالضفة الغربية أثناء محادثاته مع كارتر فى ديسمبر سنة ١٩٧٧ عندما كشف عن مشروعه الخاص بالحكم الذاتى . لقد كتب الرئيس كارتر فى مذكراته : « بدا بيجين اكثر ليونة مما كنت اتوقع ولكننى اكتشفت ان كلماته الطيبة لها العديد من المعانى الامر الذى لم يدركه مستشارى ولا انا فى ذلك الوقت » . واشتكى المصريون من ان بيجين قد ادخل الايديولوجية فى المفاوضات . ولقد انزعج بطرس غالى من براعته فى التحول من المنهج القانونى الى المنهج الجدلى وغير من ذلك بقوله :

« يتفاوض بيجين كما لو كان محاميا . انه مزيج من المحامى والبرلمانى البارع . انه يستطيع أن يمزج ما بين الجدل القانونى والجدل الديماجوجى وايضا الجدل الايديولوجى . ويستطيع ان ينتقل من مجال الى آخر طبقا لاستراتيجيته الخاصة فاذا ما وجد نفسه ضعيفا فى المناقشة القانونية فانه يقفز الى المنهج الديماجوجى او الايديولوجى ولقد اعتاد على هذا النوع من المناقشة البرلمانية فهو مجادل جيد . وهو يستخدم نفس التكتيك فى المناقشة الخاصة كما فعل على منبر الكنيست » .

ومن الصعب القول بما اذا كان هذا الاسلوب اسلوبا محسوبا ومسيطرا عليه ، وما اذا كان متطابقا مع عواطف حقيقية أو مشاعر دينية . وليس ذلك هو الحال مع عزرا وايزمان أو مع رجل دين مثل يوسف بورج (وزير الداخلية وزعيم الحزب الدينى القومى والذى ترأس الفريق الاسرائيلى للحكم الذاتى) . فلا تراودنا نفس المشاعر . فلدى بورج وبيجين نفس المزيج من العقيدة الدينية

والصهيونية . وكل منهما رجل دين . لكن بيجين يفضـــل المنهج الدرامى والمسرحى .

لم يدرك المصريون بسرعة ان ايديولوجية بيجين ليست تنتيجا خارجيا طعم بها بل هى جذع الشجرة ذاتها . فالرجل هو الايديولوجية ، والايديولوجية هى الرجل وعندما سأله مراسل « البى بى سى » المخضرم مايكل الكنز كيف يريد ان يذكره التاريخ اجاب بيجين : « على انتى الرجل الذى رسم حدود ارض اسرائيل والى الابد » . لم يكن هذا طموحاً اكتشفه فى شيخوخته . فمنذ صباه فى بولندا عاش بيجين فى ديز حركة جابوتينسكى الثقافى والفكرى . ولم يكن له حماس خارجى مثل شغف ديان بعلم الحفريات . ولم يكن له تاريخ منفصل من تاريخ وايزمان فى القوات الجوية أو تاريخ يعقوب مريدور فى المهام الخارجية . لقد كان بيجين سياسيا طوال الاربع والعشرين ساعة من اليوم . ويستطيع أن يكون مرحا ولكنه نادرا ما يكون مسترخيا . ان اجتماعاته ونزوعه الى العيش مع الآخرين انما هو نتاج مهنته التى تملى عليه أن يكون مترقبا ويقظا ذلك أن النضال كان شغله الشاغل وبدرجات متفاوتة من الطلاقة يعرف بيجين تسع لغات هى العبرية و"اليدشية والبولندية والروسية والانجليـــزية والالمانية والفرنسية والاسبانية واللاتينية وفى شبابه كرس نفسه لدراســــة الآداب الكلاسيكية الاوروبية . وفى مرة أرسل برقية الى زوجة الرئيس السادات يصحح لها سوء اقتباسها من مسرحية الملك لير (لشكسبير) ولكنه قرأ قليلا ولم يقرأ شيئا البته فى الأدب الحديث بعد ابسن . وفى سنوات المعارضة كان يجب أن يقرأ فى التاريخ والتراجم . ولكنه هجر الكتب تماما عندما اصبح رئيساً للوزراء . وان كان قد قرأ مذكرات كيسنجر ونيكسون وهو فى المستشفى .

وهو يتصفح معظم الصحف العبرية وكذلك ما يقرب من نصف دستة من الصحف الامريكية والاوروبية . وقبل أن يصبح رئيسا للوزراء كان يذهب مرتين فى الاسبوع الى السينما خاصة لمشاهدة الافلام الغربية . وكان يتسلل الى مقعده فى السينما بعد اطفاء الانوار وكان يتسلل خارجا قبل أن تضـــاء الانوار ايذانا بانتهاء العرض . وهو مولع بالاذاعة والتليفزيون وكان مسلسل دالاس من العروض المفضلة لديه ، بعد نشرة أخبار الساعة التاسعة . ولكنه نادرا ما يحضر حفلا موسيقيا أو يتوجه الى المسرح أو صالات العـــروض الفنية . ويوما عندما اشترك فى اداء احدى الاغنيات قالت له ابنته حاسيا انه افضل فى القاء الخطب من الغناء . وهو يعيش حياة مقتصدة غير متزمته ذلك لان أى شىء فاخر أو دخيل فى الطعام او فى الزخرف فهو غريب عنه . لقد كان بيجين رجلاً من جيل الصحراء بصورة لا يمكن تغييرها أو شفاؤه منها .

ومنذ الأيام الاولى لمبادرة السادات تبنى الممثلون الاسرائيليون الثلاثة الرئيسيون ــ بيجين وديان ووايزمان ــ ادوارا منفصلة ولكنها مكملة بعضها

للبعض الآخر . فقد وضع رئيس الوزراء الاهداف واسلوب الدبلوماسية الاسرائيلية وهو الذي اتخذ القرارات . اما ديان فقد كان دائم البحث والتنقيب عن تسوية الخلافات واعادة تحديد بنود الاتفاق محاولا انتزاع التنازلات من زعيمه ومقدما بعض الافكار . ولم يكن اسهام وايزمان باقل اهمية في الفترة التي سبقت مؤتمر كامب ديفيد ، فقد عمل على استمرار الاتصالات الشخصية . وفي ادنى نقاط المفاوضات ظل وايزمان هو الاسرائيلي الذي كان في امكان المصريين التحدث معه . وهو الاسرائيلي الذي اقنع السادات بانه لا زال في الامكان التوصل الى السلام . وكان وايزمان أول اسرائيلي باستثناء بيجين ، قابله الرئيس المصري على انفراد اثناء زيارته للقدس . وقد قال السادات لرئيس الوزراء بيجين : « انني احب غزرا » وقد مضت عدة شهور بعد ذلك قبل ان ينطق اسمه (عيزر) بصورة صحيحة .

وكان ديان ووايزمان حريصين كلاهما على الا يدعا فرصة السلام هذه تفلت من ايديهم . وبالرغم من أن وزير الدفاع كان عضوا في حزب حيروت الا ان اخلاصهما لرئيس الوزراء ولمبادئه ومثله لم يكن بالاخلاص الذي لا حدود له . وكان هذا ميزة وايضا نقيضة في نفس الوقت . لقد مكن هذا من تحقيق نوع من المرونة ولكنه في نفس الوقت كان تحذيرا لرئيس الوزراء لان يحكم قبضته عليهما .

لقد كان ديان يحظى باعجاب الامريكيين له اما وايزمان فقد كان على صلة طيبة بالمصريين ؛ وكان سايروس فانس يشعر بالقلق ازاء غليان وحماس وايزمان الشديد وقد قال :

« ان عيزر رجل شديد الجاذبية ، وشديد الحماس وكفء الا انه ينزع الى أن يكون شديد التفاؤل بصورة مبالغ فيها انه لا يواجه الحقيقة بصورة كافية . وهذا مالاتستطيع أن تتهم به ديان . فديان يستطيع أن يرى كل المآزق والشراك . واحيانا ما يجرف وايزمان الحماس ولذلك فانني كنت اشعر براحة اكثر عندما انتزع شيء من ديان ذلك لانك تشعر بأنه يرى الحقيقة المجردة القاسية . ولم اكن لاشعر بهذا الشعور مع عيزر . انني شديد الميل الى عيزر وانا متأكد انه وزير دفاع رائع ولكن ليست لديه الطاقة التي لدى ديان » .

وفي مجلس الامن القومي قال وليم كوانت عن ايزمان أنه نافد الصبر في مواجهة مجادلات بيجين الشرعية والقانونية وفي مواجهة ما كان يقوم به بيجين من صياغة واعادة صياغته للاتفاقية . لقد كان وايزمان يتوق الى التوصل الى اتفاق . وكما قال كوانت انه كان مستعدا لان يقول في اى لحظة من لحظات المحادثات : « دعونا نوقع ولنخرج من هنا » .

لكن احد كبار الدبلوماسيين الامريكيين ، الذين لا زالوا يتعـــاملون مع مشاكل الشرق الاوسط ، ولذلك ينبغى ان يظل اسمه مجهولا ، قد قال إن السلام ما كان ليتحقق بدون اشتراك هؤلاء الاسرائيليين الثلاثة .

« لقد كان اسهام وايزمان هو منع الاحباط الذى كان يشعر به المصريون وخاصة السادات من دبلوماسية بيجين ومنع الغليان بحيث لا تدمر عمليـة السلام . لقد نجح المرة تلو الاخرى فى الحفاظ على استمرار العـــلاقات الشخصية بين القادة الاسرائيليين والمصريين واعطائهم الامل فى الاستمرار حتى بعد أن يكونوا قد فقدوا كل امل » .

ونادرا ما كان المصريون يشعرون بالراحة فى تعاملهم مع ديان . وقـال المتحدث الرسمى باسم ديان وهو نفتالى لاف : « لقد كان هنك برود يخيم على العلاقة بين ديان والسادات منذ اللحظة الاولى التى التقيا فيها فى مساء يوم السبت من شهر نوفمبر عندما نزل السادات من الطائرة » .

لقد قال له السادات : « لاتقلق فكل شىء سوف يسر سيرا طيبا » . وفى السيارة التىاقلت ديان ود. بطرس غالى الى القدس سأل ديان بطرس غالى قائلا :

هل أنتم مستعدون لتوقيع سلام منفصل ؟ واجاب بطرس غالى : « لا » وقال ديان انه اساء فهم رد فعل العرب . ونقل بطرس غالى هذا الحوار الى السادات والى الامريكيين . وفسر الســـادات ذلك على انه يعنى أن ديان لا يثق فيه . وقال أحد مساعدى السادات أن السادات لم يكن يشعر بارتياح فى وجود ديان . فقد كان يشعر بانه الاسرائيلى الذى لا تستطيع كسبه . لقد كان كل من السادات وديان سياسيا داهية . ولم يكن أحدهما يثق فى الآخر كثيرا . ولذلك فان ديان لم يشترك فى ذلك النوع من العلاقة المصطنعة التى قامت بين وايزمان والسادات .

ويقول بطرس غالى ان ذلك لايعود الى ذكريات المصريين لحرب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ او الى شهرة ديان فى المراوغة والخداع . إن ما باعد بينهما هـو ماعرف عن ديان من انه خليط من الخجل والغطرسة . ولعب وايزمان دور الوسيط بين السادات وديان وكذلك بين السادات وبيجين . ويذكر غالى قائلا :

« انه — ويقصد وايزمان — قد يقول ان ديان يشعر بالاكتئاب . فما رايكم فى دعوته على العشاء أو مارايكم فى الاتصال به هاتفيا ؟ انه قد يقول اشياء كهذه : « اننى فى وضع صعب . لقد رأنى السادات اربع مرات . وديان رجل خجول ولكنه لم يقابل السادات . « أن بيجين يكن احتراما شديدا لديان كرجل من رجال الصابرا (اليهودى المولود فى فلسطين) وكجنرال . انه ينصت لديان ويستمع اليه ولكن ليس بالقدر الكافى . لقد كان لى مع ديان محادثات طويلة

وكثيرا ما كان يقول : « لا استطيع ان اعدك بشيء فلو كنت اعمل مع بن جوريون لكان فى استطاعتى ان اعطيك ردا فى خلال ساعتين » . لكنه لم يكن قط يعقد مقارنة مع بيجين . ولكن هذه المقارنة كانت تفهم ضمنا . فالاسرائيليون يمكنهم ان يطلقوا النكات على بعضهم ولكنهم لم يتصفوا ابدا بعدم الاخلاص . ولم اشعر ان ديان كان يتفادى تعليماته . لقد كان ديان كبير المفاوضين وكان يتفاوض بقدر من الخيال . وكان محددا ودقيقا كمفاوض . ولم يعد قط بشيء لايستطيع تحقيقه . لقد كان يريد ان يحدد مايعنيه ومايقصده نحن .

لم يكن ديان بالرجل غير المخلص او غير الوطنى ولكنه كان يدرك ان بيجين على استعداد لتقبل الفشل . ولعله يكون الوحيد الذى يدرك ذلك فى الفريق الاسرائيلى . وعندما كان السادات يضع ثمنا مرتفعا للسلام كان بيجين يقول « لا » ويتحمل النتائج وحاول ديان جاهدا ان يحد من امكانات وحدود التفاهم والقبـــول ومن اساليبه المحببة ان يقنع الاخرين — مثل وايزمان او الامريكيين — يعرض وجهات نظره وافكاره على انها وجهات نظرهم وافكارهم . ومن اساليبه كذلك وخاصة فى الظروف الصعبة ، ان يقدم صيغة وسطا بصمته الشخصية موضحا للمصريين وللامريكيين انه لا يلزم الحكومة بذلك ثم يتحدى بيجين فى ان ينكر او يعترض على وزير خارجيته .

كان اول ناتج ملموس لقمة الاسماعيلية هو التوصل الى اتفاق بتشكيل لجنتى عمل احداهما سياسية والاخــرى عســكرية وذلك لمباشرة تفاصيل المفاوضات وبدأ عمل اللجنة السياسية بصورة مأسوية فى القدس فى السابع عشر من يناير . لقد زار الرئيس كارتر السادات فى اسوان فى اوائل ذلك الشــهر حيث اعلن عن نظرية امريكية جديدة عن المشكلة الفلسطينية . لقد قال : « ينبغى ان يكون هناك قرار حول المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها . وينبغى ان تعترف المشكلة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وان تمكن الفلسطينيين وتتيح لهم الاشتراك فى تقرير مستقبلهم بانفسهم » وكانت هذه الصيغة قد وضعت بعناية كبيرة بحيث لاتثير استنكار الاسرائيليين ورفضهم . وكان اول رد فعل فى القدس هو : « اننا نستطيع ان نتقبل ذلك » . ولكن بيجين اوضح ان اسرائيل لن تتقبل اعلان كارتر هذا على انه غطاء لاعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير .

« اننا لانحوم حول الموضوع . ان تعبير تقرير المصير كما هو مفهوم فى القانون الدولى يعنى قيام دولة فلسطينية ، واننا لن نوافق على قيام هذا الخط المميت بالنسبة لاسرائيل » .

لقد فشلت محادثات القدس منذ وصول الفريق المصرى الى مطار بن جوريون لقد رحب ديان بوزير خارجية مصر محمد ابراهيم كامل بما اسماه هو الترحيب العلم المهذب المعتاد فى مثل هذه المناسبات . وبدلا من أن يرد بنفس الاسلوب اخرج كامل ورقة من جيبه وقرأ منها مطالب مصر المتشددة :

« انه لن يكون هناك سلام بالارض ، ولن يكون هناك سلام مع انكار الحقوق القومية للشعب الفلسطينى وعلى رأسها حق تقرير المصير » .

وبدلا من استمرار هذا الخلاف الذى نشب فى المطار انتظر ديان حتى صباح اليوم التالى . وفى اجابة لسؤال عدالى فى مؤتمر صحفى قال من الافضل ان تنسلب مبادرة السلام من بين اصابع ايديهم بدلا من ان ينتزع امن اسرائيل وسلامتها من بين ايديهم . ان اسرائيل لن تتفاوض والمسدس مصوب الى راسها . وكان هذا امرا صعبا للغاية على المصريين لتقبله . ولكن بيجين اضاف الى هذه الاساءة فى حفل عشاء فى ذلك المساء ، رغم ان رئيس الوزراء ووزير الخارجية كامل قد اتفقا سرا على وقف حرب الكلمات هذه ، فقد القى بيجين خطابا سياسيا محددا فيه الشروط التى لن تقبلها اسرائيل وهى : اعادة تقسيم القدس ، واقامة دولة فلسطينية والعودة الى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ . وكتب ديان فى مذكراته :

« وفى تدفقه البلاغى اساء بيجين عن غير قصد الى محمد ابراهيم كامل بوصفه اياه بانه شاب صغير وهو غير مدرك ان مثل هذا الوصف يبدو فى اذن المستمع العربى وصفا تحقيريا . وعندما جاء دور كامل ليلقى كلمته وكان مضطربا ويشعر بالاساءة التى وجهت اليه فانه بدلا من ان يقرأ الخطاب المعد مسبقا قال بتساؤلية ان مكان مناقشة الموضوعات التى اثارها رئيس الوزراء هو اللجنة وليس هـــذا المكان . ثم جلس ولـــم يرفع كوبه فى نخب رئيس اسرائيل » .

وعلق وايزمان فيما بعد « ان بيجين كان مقتنعا تماما بانه يحمل الحقيقة فى جيبه الخلفى » . ولم يستطع بيجين مقاومة اغراء اعطاء كامل درساء فى التاريخ اليهودى ومحاضرة فى فن سياسة الدولة .

وفى مساء اليوم التالى فاجأ السادات الجميع بما فيهم وفده فى اسرائيل باستدعاء وزير خارجيته كامل الى القاهرة . وعاد المصريون على عجـــل وفى حالة من الارتباك . ولم يعرف الاسرائيليون ولا الامريكيون عندئذ ما اصاب المصريين . وجاء فى تفسير رسمى من اذاعة القاهرة ان السادات تصرف هكذا عندما اصبح واضحا من التصريحات التى أدلى بها بيجـــين وديـــان ان هدف اسرائيل هو تأمين التوصل الى حلول جزئية لا يمكنها ان تحقق سلاما شاملا عادلا ودائما . وفى طريقه الى مطار بن جوريون اخبر كامل ديان ان الرئيس السادات قد اساءه كلمات بيجين . وقال : « وليس مرجع ذلك ما قاله بيجين فى خطابه ولكن لانه القى مثل هذا الخطاب منتهكا بذلك الاتفاق الذى تم التوصل اليه قبل ذلك بساعات ثلاث فقط ، وهو الاتفاق الذى ارسل به كامل تقريرا الى السادات ووافق عليه السادات .

وزادت العلاقات سوءا نتيجة لموضوع المستوطنات الوهمية فى صحراء سيناء . وكان ايريل شارون وزيرا للزراعة ومسئولا مسئولية خاصة عن سياسة المستوطنات . وكان جنرالا متقاعدا يعرف شبه جزيرة سيناء اكثر مما يعرفها أحد غيره فى الحكومة الاسرائيلية ولقد حارب فى سيناء ثلاثة حروب وتقلد منصب قائد الجبهة الجنوبية . وكان بيجين يستشيره فى الشئون الاستراتيجية وشئون المستوطنات . وبينما كان رئيس الوزراء فى واشنطن فى ديسمبر سنة ١٩٧٧ اتصل به شارون تليفونيا واكد على ان تقوم اسرائيل بملء الثغرات فى خط المستوطنات الاسرائيلية فى سيناء . ففى ضوء مطالب مصر المتطرفة كان يريد ان يعزز موقف اسرائيل التفاوضى . ولقد أوضحت تجربة سنة ١٩٤٨ ان موقع المستوطنات عامل هام وحاسم فى رسم الحدود . ونفس الشىء يمكن تطبيقه اذا ما كانت اسرائيل تتفاوض للحفاظ على شريط فى شمال سيناء . وكان بيجين مقتنعا بهذا الراى . فكلف شارون بالمضى قدما فى هذا المخطط . وكانت وجهة نظر وزير الزراعة شارون هى اقامة مستوطنات وهمية مكونة من برج للمياه وخندق للامن وبيوت متنقلة على عجلات وذلك فى المواقع الحساسة ودون ان يضع فيها اكثر من قوة رمزية .

وشجب وايزمان هذا المشروع عندما عرض على مجلس الوزراء فى وقت متاخر واصفا اياه بأنه صورة ممسوخة سيئة لتاريخ المستوطنات اليهودية فى اسرائيل . وعلى اية حال فقد حظى هذا المشروع بالموافقة الاجماعية وبدىء العمل فيه . ولم يصدر اى بيان فى هذا الشأن ولكن اذاعة اسرائيل حصلت على هذه القصة واذاعتها . وكان المصريون والامريكيون غاضبين من هذا المشروع الذى اعتبروه محاولة لاجهاض المفاوضات . وترك شارون وحده لتحمل حدة الانتقادات وما اثارته فكرة المستوطنات الوهمية هذه من سخرية . ولم يخف بيجين دوره فى تكليف شارون بالمضى قدما فى تنفيذ هذا المشروع . وسرعان ماخبا الموضوع كله واختفى لكنه ترك مذاقا مرا . ولم تكن هذه هى المرة الأخيرة التى سار فيها بيجين خلف شارون فى حقل من الألغام . لقد كان سريع الاذعان للخبرة العسكرية وكلفه ذلك كثيرا من المفاجاة السياسية . ولم تكن وجهة وايزمان القائلة بأن هذه المستوطنات الوهمية تكفل اسرائيل فرصة الابقاء على المستوطنات فى سيناء وربما ايضا المطارات العسكرية ، بالوجهة المقنعة . لقد كانت الأرض تعنى بالنسبة للسادات تماما ما تعنيه لبيجين . فقد كان السادات مصرا على استعادة كل سيناء حتى آخر بوصة منها . ويستطيع الاسرائيليون أن يأتوا الى سيناء كسياح ولكن لا كمستوطنين او كجنود فى حامية .

وبالرغم من هذا الفصل الاضافى فقد ظلت البؤرة الاساسية للمناقشة هى الأرض — الفلسطينية المحتلة ، الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد وصلت المحادثات مع الولايات المتحدة الى درك اسفل جديد فى مارس من عام ١٩٧٨!

عندما زار بيجين واشنطن مرة اخرى وحاول الامريكيون استخدام قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ كعتلة لتحريك مقاومة اسرائيل لأى حل وسط بالنسبة للارض . وقد اعترف بيجين بأن حكومته ملتزمة بقبول الحكومة السابقة لهذا القرار .

لقد قال : « ينبغى الالتزام بالمعاهدات والاتفاقات » وقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ينص على الانسحاب من أراضى محتلة وعدم السماح بالاستيلاء على الأرض عن طريق الحرب . ولكن مستشارى بيجين لم تروعهم مثل هذه الاعتبارات . انهم يجادلون بأن القرار لم يحدد الانسحاب من كل الأراضى ، وان حرب عام ١٩٦٧ كانت حرب دفاع عن النفس بالنسبة لاسرائيل (ولذلك فان التغيير فى الحدود امر مسموح به) ، وان سيادة الأردن على الضفة الغربية لم تحظ قط باعتراف المجموعة الدولية . وفى حفل وداع أوضح كارتر ما وصفه بلاءات بيجين الست . وقال ديان « بالرغم من ان كارتر قد تكلم بنغمة مملة الا انه كان هناك غضب فى عينيه الزرقاوتين الباردتين . وكانت نظرته حادة مثل الخنجر . ان وصفه لموقفنا وصف صحيح فى أساسياته ولكن لم يكن فى استطاعته ان يعبر عن ذلك الموقف بصورة أكثر عدوانية . واختتم كارتر حديثه بقوله « ان بيجين قد أصبح عقبة كئودا فى طريق تقدم المفاوضات» واذا لم يحدث تحرك فى الجانب الاسرائيلى فلن يكون هناك سلام . وهذه اللاءات هى :

— لا نرغب فى الانسحاب السياسى أو العسكرى من اى جزء من الضفة الغربية .

— لا نرغب فى وقف اقامة مستوطنات جديدة أو توسيع المستوطنات القائمة بالفعل .

— لا نرغب فى سحب المستوطنين الاسرائيليين من سيناء أو حتى تركهم هناك تحت حماية الأمم المتحدة أو حماية المصريين .

— لا نرغب فى الاعتراف بأن قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ينسحب من منطقة الضفة الغربية وقطاع غزة .

— لا نرغب فى منح العرب الفلسطينيين سلطة حقيقية أو صوتا فى تقرير مستقبلهم لدرجة انهم يستطيعون الاختيار بين البدائل المحددة عاليه (الارتباط مع اسرائيل أو الاردن أو استمرار فى اقامة حكومة انتقالية خاصة بهم) .

وبعد ذلك بأسابيع ستة عندما عاد بيجين الى واشنطن للاشتراك فى احتفال امريكا بذكرى استقلال اسرائيل كتب كارتر يقول : « اعتقد انه لن يتخذ الخطوات الضرورية لجلب السلام لاسرائيل — انها فرصة قد لا تتكرر ابدا » وحاول بيجين ان يؤكد الموقف الايجابى لاسرائيل لكنه ترك لديان استكشاف

طريق لتقدم المفاوضات . ولم تستطع محاولته الأولى نحو تحقيق موقف أكثر مرونة سوى اذابة القليل من الثلج . لقد وضع وزير الخارجية أربعة مبادىء للسياسة الاسرائيلية هي :

١ — ان قرار رقم ٢٤٢ أساس للتفاوض بين اسرائيل وجيرانها العرب : مصر والأردن وسوريا ولبنـــان .

٢ — ان مشروع اسرائيل للسلام والذى يتضمن حكما ذاتيا ليهـــود السامرة ولقطاع غزة مشروع يتفق مع مبادىء القرار رقم ٢٤٢

٣ — اذا ماقدم العرب مقترحات مقابلة فان اسرائيل سوف تناقشـــها بما تستحقه .

٤ — ان قرار ٢٤٢ يطالب باجراء مفاوضات .

وهذا العرض الجديد تم رفضه باعتباره مناورة فى العلاقـــات العامة . وبدا السادات فى وضع تواريخ نهائية (وفى رواية انه حدد شهر يوليو وفى رواية أخرى انه حدد شهر أكتوبر) وبدا فى التحدث عن خيار الحرب . وخرج وايزمان من اجتماع لمجلس الوزراء ليعلن انه أصدر أوامره للجيش ليستعد للمعركة . وفى مناسبة أخرى مزق وزير الدفاع ملصوقا عن السلام . وفى اجابة عن اسئلة امريكا قال بيجين فى الثامن عشر من يونيو ان اسرائيل راغبة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتى فى الضفة الغربية ان تتدارس وتتفق على صيغة مســتقبل العلاقات بين الاطراف » وهذا يبعد كثيرا عن مطلب أمريكا بأن تكون اسرائيل مستعدة لمناقشة السيادة بعد فترة انتقالية ، رفض المصريون هذه الصيغة على انها مثل آخر على تصلب بيجين وعناده .

ولم يجعل ديان الوضـــع أفضـــل بقوله أن معظم الوزراء الاسرائيليين قد رفضوا الزام اسرائيل بأن تقرر بعد خمس سنوات الوضع الدائم لهـــذه الاراضى ذلك لانهم يعتبرون الادارة الذاتية هى الاطار الدائم لهذه الأراضى .

وكان من المتوقع أن ترفض اسرائيل اقتراحا مصريا باعادة الضفة الغربية وغزة للعرب لفترة مؤقتة وحاول السادات فى أوائل يوليو ان يذهب من وراء بيجين لعقد محادثات فى النمسا مع وايزمان وزعيم حزب العمل شيمون بيريز ولكن رئيس الوزراء بيجين وضع حدا لذلك بأن أعلن بحدة قائلا : « ينبغى أن يوجه الحديث الى انا » وحذرت الحكومة السادات قائلة أن جميع الاتصالات فى المستقبل ينبغى ان تجرى مع بيجين أو من يحدده كممثل له .

« ان سلطة التفاوض مع مصر او مع اى دولة فى حالة حرب مع اسرائيل انما هى قد أعطيت للحكومة ولمن يمثلونها . وسوف يكون مستوى التمثيل فى عملية المفاوضات متساوية . وسوف يرأس رؤساء الدول أو من يخولونهم من الوزراء فريق المفاوضات » .

واول خرق احلظ العناد المتبادل جاء نتيجة لاجتماع غير ناجح بين وزراء خارجية كل من امريكا واسرائيل ومصر فى قلعة ليدز فى كنت . وكانت هذه احدى المناسبات التى جرب فيها ديان حظه . فلقد سلم وزير خارجية أمريكا سيروس فانس مذكرة عبر فيها عن وجهة نظره الشخصية « وقال انها مقدمة » على مسئوليتى الخاصة » واقترح فيها أن تعلن اسرائيل استعدادها لمناقشة مسالة السيادة على الضفة الغربية وغزة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتى .. وفى نفس الوقت كرر أن اسرائيل لن تنسحب ابدا الى خطوط ما قبل سنة ١٩٦٧ حتى مع ترتيبات الامن ولكنها سوف تناقش اية اقتراحات عربية محددة من اجل السلام تقوم على الحل الوسط بالنسبة للارض وغضب بيجين من فكرته هذه ومن تمرده وعصيانه .

واستجاب وزير الخارجية بأن عرض على بيجين الخيار بين ان يؤيده او يطرده أن يتحمله بشروطه هو أن ينال منه :

« لقد اخبرت رئيس الوزراء ان ما قلته وكتبته انما يعكس موقف الحكومة ، على حسب مفهومى ، ولذلك فاننى لن امتعض او استاء اذا ما هو او الحكومة ابطلته او سحبته . اننى سوف اقبل بحكمهم واخطر فانس طبقا لذلك ـ واضفت قائلا : اننى على اية حال لست بمستطيع أن أدبر المفاوضات دون أن يسمح لى بأن اتقدم بالافكار والمقترحات ، بينما اؤكد انها تمثل وجهات نظرى الشخصية التى ربما قد لا توافق عليها الحكومة . وكان هذا موضوعا كثير الترديد حيث كنت انا وبيجين مصرين على موقفنا حياله . ولم اكن مستعدا لان اتصرف بصورة اخرى . وكان بيجين يعلم هذا تماما . وكان السبيل الوحيد المفتوح امامه اذا ما اصر على ان احذو حذوه هو ان يبحث له عن وزير خارجية غيرى » .

لكن الوقت كان مبكرا جدا فى حكومة بيجين لان يتخذ رئيس الوزراء مثل هذه الخطوة العنيفة المتطرفة بالرغم من أن ديان قد ذهب بعيدا وابعد بكثير من موقف الحكومة وكانوا جميعا يعلمون ذلك . وكان بيجين لا يزال فى حاجة الى ديان . ولدهشة وزير الخارجية اقترح بيجين ان تؤيد الحكومة مذكرته لسيروس فانس وان تعرض هذه المذكرة على الكنيست للموافقة عليها . ولقد حصلت المذكرة على موافقة ٦٤ عضوا مقابل ٣٢ عضوا وذلك فى ٢٤ يوليو . وقال ديان بكثير من الرضى والقناعة « ان المذكرة التى قد قدمتها الى فانس فى قلعة ليدز قد أصبحت وثيقة رسمية تمثل موقف اسرائيل » وبالرغم من الجمود المستمر فان « صيغة ديان » قد مهدت الطريق امام مغامرة الرئيس كارتر اليائسة والمعروفة باسم « قمة كامب ديفيد » . ومرة أخرى سمح بيجين لجنرال سابق بأن يثير غضبه ويضايقه ، ولكن هذه المضايقة ، هذه المرة كانت فى موضوع وقضية أكثر رقة ولطفا .

الفصل التاسع عشر
معسكر اعتقال فاخر

كتب زبيجنيو بريجينسكى مستشار الامن القومى فى مذكرة سرية للرئيس جيمى كارتر يوم ١٨ يوليو عام ١٩٧٨ ما يلى : « يبدو لى انه اذا خرجنا على رؤوس الاشهاد وجلبنا النصر ، فستتعرض سياستنا فى الشرق الاوسط لحالة من الفوضى الشديدة ، كما انه سيتم رفض السادات وآخرين معه او انهم سيتحولون الى اتجاه راديكالى وبعبارة اخرى . اذا خرجنا على الملأ فلابد أن نفوز » . وعقد الرئيس ، وهو يدرك تماما المخاطر التى ينطوى عليها مثل هذا الموقف ، مؤتمر قمة مع الزعيمين المصرى والاسرائيلى فى كامب ديفيد ، وهى استراحته الرسمية فى تلال منطقة ميرلاند التى تبعد عن واشنطن سبعين ميلا . وخلص الي انه من الافضل العمل من خلال بيجين وليس ضده .

وبدأ المؤتمر يوم ٥ سبتمبر وانتهى بعد ذلك بثلاثة عشر يوما ، كانت الوفود الثلاثة خلالها فى حالة من الاعياء الجسدى والذهنى الشديد كان ذلك المعسكر الذى تحيط به اشجار كثيرة ، قد اقيم من أجل فرانكلين د . روزفيلت خلال الحرب العالمية الثانية . وقام الرئيس ايزنهاور بتغيير اسمه من شانجرى لاه الى كامب ديفيد وفقا لاسم حفيده الاكبر . ووجد (عيزرا وايزمان) ذلك المكان يثير الشعور بالخوف من الاماكن المغلقة رغم ما يحيط به من طيور السنجاب أما موشى ديان ، فلم يشعر بالارتياح فى قلب النباتات الغريبة وبساط أوراق الخريف البنى اللون المائل الى الذهبى . وكان الشىء المغرى فى ذلك المكان هو انه من المكن الابقاء على الصحافة وروادها فى وضع حرج يضطرون معه للدفاع عن انفسهم . وكان الزعماء الثلاثة ورفاقهم ينعمون فى ذلك المكان بعالم خاص من الكبائن والممرات وملاعب البولينج والتنس وحمام سباحة وقاعة للبلياردو وسينما وبعد أن عاد ديان من مهمة استطلاعية وقدم تقريرا عن سياج الامن المخيف ، اطلق (بيجين) عليه اسم « معسكر الاعتقال الفاخر » . ولما كانت مدة بقائهم هناك طويلة فقد تندر (بيجين) بقوله ان عليه أن يرسل الى هارب جماعة الارجون القديمة « يعكوف مريدور » لتهريبهم . وسلم الاسرائيليون بأن الكبائن موضع تجسس ، لكن بريجينسكى أصر على عدم وجود شىء من هذا القبيل واستبعدت توصيته .

كانت كامب ديفيد ملعبا امريكيا ، ولم يلعب التنس أو البولينج سوى عدد قليل من الاسرائيليين أو المصريين ، اذا لعبوا على الاطلاق . وكان كل

من السادات وديان يقوم بنزهات منفصلة على الاقدام كل يوم .وركب وايزمان دراجة للمرة الاولى منذ طفولته . اما الاسرائيليون الاصغر سنا فلعبوا البليادرو كثيرا وشاهدوا السينما . ولعب بيجين الشطرنج مع بريجينسكى ، واعطى بيجين . سواء كان بمحض الصدفة أو عن قصد ، مستشار الامن القومى انطباعا بانه لم يلعب منذ ثمانية وثلاثين عاما . ووجد البروفيسور البولندى الاصل ان « بيجين » يلعب بطريقة منظمة وعدوانية الى حد ما ، وان كانت مدروسة استراتيجيا . وتحدث الرجلان باللغة الانجليزية وليس بلغة طفولتهم وشدت المنافسة بينهما انتباه « ديان » الذى كان يتفرج عليهما من حين لآخر .. وكتب يقول : ان اللعب برهن على انه مواجهة ميدانية وليس شكلا من التسلية السلمية ، حيث كان يستميت كل منهما على هزيمة الآخر . وطمس الغموض النتيجة مثلها فى ذلك مثل الكثير مما حدث فى كامب ديفيد ، انه لامر عادى أن تكون اللعبتان الاوليان متساويتين . وزعم بريجينسكى انه فاز باللعبة الثالثة وما تلاها من ادوار . الا أنه طبقا لما ذكره يهيل قاديشاى فانهما لعبا دورا رابعا فاز به بيجين وبذلك اصبحت النتيجة متساوية . واتصل هاميلتون جوردان كبير مستشارى الرئيس كارتر برئيس الوزراء تليفونيا ليهنئه . وقال لو كان بريجينسكى هو الذى فاز لما كان بوسعهم الحديث اليه .

كان الامريكيون يعلمون ان اجتماع القمة كان مقامرة ، الا أنهم اساءوا تقدير الاحتمالات . وحدد البيت الابيض للمباحثات ثلاثة ايام مع احتمال مدها ليوم رابع لو احرز المؤتمر تقدما بشأن مبادىء السلام . واعترف كارتر بعد ذلك قائلا انه ما كان هناك شخص يحلم بوجودهم هنا طوال ثلاثة عشر يوما فى اجتماعات مضنية وغير مشجعة ، ودون أن يلوح فى الافق احتمال النجاح الا فى الساعات الاخيرة . ولم يكن هناك توازن فى المفاوضات فى اكثر من ناحية . وكان كل من بيجين والسادات قد وصل الى كامب ديفيد ولديه تصميم على خوض مساومة صعبة ، الا ان الزعيم الاسرائيلى كان يتمتع بميزة وحده من بين الزعماء الثلاثة الذى يمكن أن يتوقع الفشل برباطة جأش . وهناك الكثير من الاسرائيليين الذين سيشعرون بخيبة امل مريرة ، ومن بينهم كبار الاعضاء فى وفده ، الا أن بيجين سيشرح لهم انه فعل كل شىء لتحقيق السلام اللهم الا التضحية بارض اسرائيل وحينئذ سوف يوحد الليكود صفوفه وستخرج حكومته سالمة من هذا الموقف ، وستظل اسرائيل محتفظة بسيناء . ومن ناحية أخرى لم يكن (كارتر) وسيطا نزيها . وكتب يقول « يبدو ان السادات يثق فى كثيرا ، بينما لا يثق بيجين فى بالقدر الكاف . وبالمثل انه لامر حقيقى ان الرئيس الامريكى كان يثق فى السادات كثيرا وكان يشك فى بيجين . وصرح فى حديث صحفى قدمه لمجلة التايم قائلا : اننى لا احاول حتى أن انكر اننى موال للسادات .. « انه صريح تماما ، وشجاع وكريم وبعيد النظر »

وكان مستعدا لتجاهل التفاصيل وتحقيق سلام يعود بالفائدة عليه ، وعلى مصر » . وكان كارتر مستعدا لان يتسامح مع السادات أكثر مما يتسامح مع الزعيم الاسرائيلى . ويرجع ذلك من ناحيه الى ان السادات اطلعه مسبقا على بعض اوراقه — بينما يرجع من الناحيه الاخرى الى أنه استسلم لسحر السادات . كما ان مطالب السادات لم تكن أقل تطرفا من مطالب بيجين ، لكنه ترك المساومة لمستشاريه وسهل له ذلك الاحتفاظ بموقف رجل السلام المنطقى والشجاع . وعلى العكس من ذلك ، كان بيجين اكثر المفاوضين الاسرائيليين تعنتا ، اذ كان يدقق فى كل كلمة وعلامة ترقيم ويواصل الليل بالنهار . وعندما دعت (روزالين كارتر) ، زوجة الرئيس الامريكى الزعماء الثلاثة مجتمعين بان يطالبوا العالم بالانضمام اليهم فى الصلاة من اجل النجاح ، اصر بيجين على مناقشة النص . كان (بيجين) صعب المراس كما كان مزعجا وواسع الاطلاع أما السادات فهو رجل ذو ثقافة مختلفة لها وقعها وقيمها ذات المذاق الخاص .

وكان من الضرورى ان تكون هناك تجاوزات ، وكان السادات يريد من كارتر أن يقوم بالترويج لافكاره نيابة عنه لكن بيجين رفض على الدوام أى شيء من هذا القبيل . وهو يستطيع التصدى للسادات حتى النهاية ، لكنه رفض التصدى للامريكيين بنفس الصورة . وأثناء المفاوضات توسل (بيجين) لكارتر الا يقدم مقترحات مصرية صنعت فى أمريكا ، واتخذ السادات موقف الهجوم منذ اليوم الثانى . فقدم ما اعترف به كارتر بانه مشروع جديد للغاية « لتحقيق سلام شامل ملىء بكافة العبارات العربية الطنانة غير المقبولة » وهو يطالب ضمن اشياء أخرى ، بانسحاب اسرائيلى من كافة الاراضى المحتلة وازالة جميع المستوطنات الاسرائيلية ونقل سلطتها الى عرب الضفة الغربية وقطاع غزه ، مع توفير فترة انتقالية مدتها اربعة أعوام يقوم الاردن خلالها بالاشراف على الضفة الغربية وقطاع غزة ، بالتعاون مع ممثلين منتخبين بطريقة حرة من الشعب الفلسطينى يتولون ممارسة السلطة المباشرة على الادارة » . وقبل انتهاء الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة أعوام بستة شهور ، يمارس الفلسطينيون حقهم الاساسى فى تقرير المصير وتتم مساعدتهم على انشاء كيان وطنى لهم » . اما اسرائيل فستتم مطالبتها بالانسحاب من شرق القدس الى خطوط الهدنة التى كانت قائمة عام ١٩٤٩ علاوة على عودة السيادة والادارة العربية الى القطاع العربى . واخيرا طالب السادات بان تدفع اسرائيل تعويضا كاملا وعاجلا عن الضرر الذى ترتب على العمليات التى تقوم بها قواتها المسلحة ضد السكان المدنيين والمنشآت المدنية ، بالاضافة الى استغلالها للموارد الطبيعية فى الاراضى المحتلة . وهذا المطلب الاخير من شأنه ان يشمل تعويضا عن ملايين البراميل التى قامت اسرائيل بضخها من حقول بترول سيناء منذ عام ١٩٦٧ . واختار بيجين الا يتمرد فى أول اجتماع مشترك له. وتصرف كل من بيجين والسادات بأحسن ما فى وسعهما ، لدرجة أن كارتر أعتقد بأن بيجين قد خفف من موقفه ازاء التشدد فى وثيقة السادات ، التى

وصفها لعدة أيام بعد ذلك بانها دليـــل على الموقف غير المنطقى من جانب المصريين .

وفى اليوم الثالث ، وبعد التشاور مع زملائه ، رفض بيجين الوثيقة تماما ، وابلغ كارتر بأن ذلك يحمل رائحة دولة منتصرة تفرض النصر على الطرف المهزوم وقال ان هذه الوثيقة لا تمثل أساسا صحيحا للمفاوضـــات . وكان الســـادات يريد سلاما مع اسرائيل لا يكون هشا فحسب وانما يكون تدريا ايضا . وفيما برهن على انه آخر جولة وجها لوجه فى قمة كامب ديفيد ، قام بيجين بتشريح مقترحات السادات فقرة فقرة . ورد السادات على ذلك قائلا انكم تريدون الارض ، ومصر تقدم لاسرائيل الامن ، وليس الارض . وقال كارتر « لقد زال التحفظ واحمرت الوجوه وانتهت المجاملات واللغة الدبلوماسية . ولقد اغفلوا فى أغلب الظن أننى كنت موجودا » . وقبل أن ينفضوا من اجتماعهم بعد ثلاث ساعات من المناقشة المكثفة ، اشتكى السادات من ان المشاعر الرؤية التى تحققت بعد زيارته للقدس قد تلاشت » لانه لم يعد هناك حد ادنى من الثقـــة منذ أن تصرف بيجين بنية سيئة « وعند استئناف الاجتمـــاع فى وقت لاحق من النهار ، تبادل الزعيمان المحادثات بسرعة انتهت الى طريق مسدود بشـــان المستوطنات . وقال السادات ان الشعب المصرى لن يقبل ابدا اى انتهـــاك لاراضيه أو لسيادته ، واجاب بيجين بانه ليس هناك سبيل يستطيع به اقنـــاع حكومته أو شعبه بازالة المستوطنات ان نقل المستوطنين من شأنه ان يعنى سقوط حكومته . وعند ذلك وقف السادات وهدد بالانسحاب من الاجتماع ومن مؤتمر القمة . واعترض كارتر طريقه الى البـــــاب وطلب من كليهما وقف المحادثات . ووافق بيجين على الفور ، ووقف السادات وهو يستشيط غضبا قبل أن يومىء برأسه ، ثم خرج بدون ان ينطق بكلمة اخرى . وراى الامريكيون الآن بصورة اكثر وضوحا من ذى قبل . انه يتعين عليهم الامســـاك بزمام المبادرة . وظل السادات فى حجرته الخاصة وهو عابس الوجـــه ، وابلغ مستشاروه بريجينسكى بأن الرئيس يفكر فى العودة الى الوطن . ورغم بيجين التزحزح بشأن القضيتين الرئيسيتين المتعلقتين بمستوطنات سيناء وتطبيق القرار رقم ٢٤٢ على الضفة الغربية وقطاع غزة ، الا أنه تخلى عن ما اعتبره كارتر بمثابة تلميح بالمرونة عندما قال للرئيس الامـــريكى : «اننى لن أوصى شخصيا أبدا بازالة المستوطنات القائمة فى سيناء » .وليس هذا مثل القـــول بأنه لن يذعن أبدا لازالتها . الا ان بيجين كان مصمما على موقفه بشأن الاراضى الفلسطينية المحتلة . وهاجم كارتر فى نقطة ما رئيس الوزراء بقوله : « ان ما تريد أن تفعله هو أن تجعل الضفة الغربية جزءا من اسرائيل » واجاب بيجين على ذلك قائلا : « ان الحكم الذاتى شىء والسيادة العربية شىء آخر . ولن تشـــمل مبدأ القــــرار ٢٤٢ الذى ينص على عدم جواز الاستيلاء على الارض بالحرب » . وقال نقلا عن المزامير « اوه يالقدس لو انساك » . وقال بيجين

لكارتر شلت يمينى قبل ان أوقع على مثل هذه الوثيقة » . وعلى الرغـــم من التعب المتزايد ، اعدالامريكيون مشروع اتفاقهم فى اليوم الخامس . وفى اليوم التاسع ادركوا انه لن يصدق عليها أى من الجانبين بدون ادخـــال تعـديل كبير عليها . وقدم بيجين بيانا موجزا غير اسلسى اوحى فيه بانهم قد يعودون جميعا الى بلادهم . وحينذاك اتخذ كارتر خطوة غير تقليدية ادت فى النهـــابة وان كانت ببطء وتذبذب الى التوصل الى اتفاق . فقد انشأ فريق عمل يضـمه هو وسيروس فانس وآهرون باراك المدعى العلم الاسرائيلى واسامة البـــاز وكيل وزارة الخارجية المصرية للشئون الخارجية . ولم يتم السماع عن قيـام رئيس دولة بالتفاوض حول التفاصيل بهذه الطريقة مع خبيرين فنيين ، كان عليهما حينذاك التنقل جيئة وذهابا لاقناع رؤسائهم بالفقرات المتفق عليها . الا ان ذلك كان مجديا .

والى جانب ديان ، ظهر (باراك) كاحد ابطال الفريق الاسرائيلى وفى عام ١٩٧٨ كان استاذا للقانون فى ريعان شبابه فى الواحدة والاربعين من عمره وكان مرشحا بالفعل لمقعد المحكمة العليا لكنه ظل مدعيا عاما طيلة فترة محادثات السلام . وعلى الرغم من أن حكومة حـــزب العمل هى التى كانت قد عينت (باراك) ، فان بيجين كون شعورا غير عادى بالاحترام تجاه مواهبه كعالم ضليع فى القانون . وكان (باراك) مثله فى ذلك مثل ديان ووايزمان متعطشـــا للسلام . وقد استغل كل مهارته ومكانته لكسر مقاومة بيجين ، وتأثر سيروس فانس ، بصفته زميلا له فى المحاماة بنوعية ذهن (باراك) وقال عنه انه رجل على درجة عاليةمن الحساسية والراى الصائب . ولا يمكن تقييمه بشىء فى كثير من النقاط الصعبة فى المفاوضات . وهو لديه موهبة عجيبة فى اســـتخدام الكلمات ، ويستطيع دائما أن يضع نفسه فى مكان الشخص الآخر ، ثم يحاول أن يجد سبيلا لارضاء حاجة ذلك الشخص الاخر بدون أن يضر بالمصـــالح الحيوية لبلاده . وساتفق انا وديان على طريق الالتفاف حول المشكلة ، وسيجد (باراك) بدوره الكلمات اللازمة لتوفير الطريق للالتفاف حول العقبـــة أو تخطيهـــا .

ووجده (ويليام كوانت) خبير الرئيس لشئون الشرق الاوسط اسرائيليا تعلم بنجاح كبير كيفية التاثير على الموجات الطويلة لبيجين .. لقد عمل بلباقة فى المضمون والصياغة ولعب فى الاغلب لعبة تلمودية فى تغيير العبـــارات ، بدون ان يكون قلبه فى الحقيقة حاضرا فيها . ولم يكن يعتقد فى الواقـــع ان هذه الاشياء من الامور التى تستحق الخلاف حولها الا أنه ادرك ايضا انه امر هام للغاية اقناع بيجين . وهو على استعداد لان يقوم بالكثير من الصـــياغة واعادة الصياغة والتفكير فى الصيغ التى قد يقبلها بيجين .

ى ديبلوماسى امريكى آخر يعرف بيجين وباراك بأن كارتر استغل باراك بالاتفاق وبالمرونة . وقد أوضح ذلك بقوله :

« اقنع الرئيس الامريكى (باراك) بالتقدم بسبل للتعبير عن المفاهيم والمضامين الغامضة بلغة قانونية وعندئذ يستطيع باراك أن يبررها لبيجين بلغة قانونية ويقنعه بان هناك تفسيرا قانونيا . ومشروعا من شأنه ان يحمى موقف بيجين رغم ما يكتنفها من غموض . وهناك عدة مواضيع فى النص تتجلى فيها قدرة (باراك) على ان يفسر لبيجين كيف يمكن تفسير احدها بحيث أصبح معناه (اكس) فى حين انك ربما تعتقد من شكله الظاهرى أنه يعنى (واى) ، الامر الذى أعطى لبيجين تبريرا ليسمح له بتقديم هذه التنازلات ، عندما قرر تقديمها بدلا من فقدان الاتفاق . وليس بوسع اى شخص آخر ان يفعل ذلك . وفى الوقت نفسه ، كان ديان يناقش الاسباب الديبلوماسية أو السياسية لقبول مثل هذه الامور ، الا أن بيجين لابد ان يكون لديه تبرير قانونى لارضاء نفسه ونظرته الخاصة للمبادىء القانونية » .

وساهم ايضا المدعى العام فى تحقيق التقارب مع المصريين ، بالرغم من من انهم لم يكونوا متأكدين مثل الامريكيين من مدى نفوذه . وقال (بطرس غالى) ان (باراك) نجح فى خلق جو من الثقة القانونية » ، مثلما خلق وايزمان جوا من الثقة الانسانية » . لقد وثقنا فى باراك عندما قال « اننى اريد هذه الكلمة فى المادة الرابعة من اجل كذا او كذا » .

وعلى الرغم من ذلك لم يتخل بيجين ابدا عن السيطرة على الاستراتيجية للمفاوضات . وقد حدد القضايا التى يمكن أن يتوقفوا عندها . وقرر الوقت والسبيل لتقديم تنازلاتهم تلك التى يمكن ان تعطى . وقال احد الشهود الامريكيين أن (بيجين) اظهر شعورا رائعا بالوقت . وقد كان متمكنا من معرفة عنصر التوقيت ومتى تحين اللحظة الاخيرة للتوصل الى حل وسط . وقد حقق مقابل تقديم تنازل صغير اكثر مما يستطيع أن يحقق مفاوض آخر من اى نوع مقابل تقديم ما هو اكثر من ذلك . ويتذرع رئيس الوزراء بصبر العالم كله وفى بعض الاحيان يبدو أنه يلعب لعبة الاستنزاف لذاتها ، ويفقد منظر الغابات من أجل الاشجار . ولقد وجده كارتر صارما وغير خيالى . وذكرت (روزالين) زوجته لبريجينسكى أن الرئيس قد اطلق على بيجين اسم (المعتوه) ، وهو لفظ كان كارتر امينا جدا لدرجة انه لم ينكره عند مواجهته به على شاشة التليفزيون الاسرائيلى خلال زيارته الخاصة للقدس فى شهر مارس عام ١٩٨٣ .. الا انه فى نهاية محنة كامب ديفيد التى استغرقت ١٣ يوما لم يشك احد فى أن ثمة منهجا فى جنون بيجين . ويصف فانس بيجين بانه .. واحد من ابرع لاعبى البوكر فى العالم الذين شهدهم .

وهو يستطيع ان يعرض قلبا جريحا بطريقة مؤثـرة للغاية : وقـد اظهر كل مشاعر الالم وعدم التصديق عندما قال : « كيف يمكنك أن تتوقـع منا قبول موقف من هذا النـوع ؟ » ، وحينـذاك يجلس هنـاك دون ان يسجل على وجهه شيئا . انه يحـاول ويصمد فى وجه خصمه حتى النهـاية ، وهو عنيف يستطيع البقاء بعد اى شخص آخر على الجانب الآخر للمنضـدة اذا استلزم الامر وهذه جميعا صفات المفاوض الماهر ، او لاعب البوكـر الماهر للغـاية .

وكان بيجين واضحا جدا فى اهدافه ودقيقا للغاية فى تفكيره وقد قـدم بعض المطالب التى كان على استعداد للتضحية بها . واستطيع ان اتذكر عددا من مرات عندما قال فيهـا أن ذلك شىء لن نتفق ابدا على حـل وسـط بشـأنه ، وفى وقت لاحق من نفس اليوم ، بعـد أن دق على المـائدة ، غير تفكيره . وقد اكتشفت ذلك فى وقت مبكر الى حـد ما ، ولذلك لم اقبـل ابدا تصريحاته التى يقول فيهـا : « اننى لن استسلم ابدا بشـأن هذه النقطة » ، وخلصت الى ان ذلك جزء من اسلوبه وهو لا يعنيه .

رفض بيجين التفاهم بشـأن ثلاث قضايا وهى : مسـتوطنات سـيناء وصياغة القرار ٢٤٢ (الاستيلاء على الارض بطريق الحرب) واخيرا القدس . وعلى الرغم من التقدم الذى احرزته مجموعة العمـل التى انشأها كارتـر والفريق المماثل الذى يضـم وزراء الخارجية تحـت اشراف بريجينيسكى ، اوشك اجتماع القمة على الانهيار مرة اخـرى فى اليوم العاشر واليـوم الحادى عشر . وظهـر الاسرائيليون كجبهـة موحـدة من اجـل الابقـاء على المستوطنات ، فى حين رفض المصريون السماح ببقائها ، وبدا كارتـر فى اعداد خطط لانهـاء المؤتمر وتقليل الضرر الى الحـد الادنى وقد حـدد يوم الاحد ١٧ سبتمبر على انه الموعد النهـائى . والاعتراف بالفشل أفضـل من السماح لاجتماع القمة بأن يمـوت ببطء . وحـزم السادات ومساعدوه حقائبهم وطلبوا من الامريكيين توفير طائرة هليكوبتر لهم . وتبادل الرئيس المصرى حديثا حادا مع ديان ، الا انـه استجاب لآخـر نداء شخصى من جانب كارتر . وشـعر بعض الامريكيين المتشككين بان السـادات يمارس التمثيل . وهو لا يحتاج الى الكثير لاقناعه . وقال ا ويليـام كواندت ا أن هناك جزءا فى السادات يتقمص شخصية الممثل . » وهو يعلم ان كارتـر سريع التأثر بذلك النزع من ندائه العاطفى » .

وحدثت بعض المفاجآت على المسرح . فقد تنازل وايزمان ، الذى تمثل دوره حتى ذلك الحين فى الابقـاء على توهج الجمرات ، عن المطارات العسكرية

فى سيناء مقابل تعهد من جانب (هارولد براون) وزير الدفاع الامريكى ببناء بدائل لها فى صحراء النقب . واتفق (باراك) واسامة الباز على ازالة عبارة « عدم جواز الاستيلاء على الارض بالحرب » من النص الرئيسى ، ونشر القرار كاملا على انه ملحق بـه ملحوظة فى المقدمة بأن كلا الطرفين يوافق على القرار ٢٤٢ بجميع أجزائه . « وتجرع (بيجين) عبارة » الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى » التى كان قد أصر من قبل على أنها ستمثل خطرا مميتا لاسرائيل . وبعد محاضرة ادلى بها على رفاقه حول الاصل اللاتينى لكلمة « مشروع » تساءل قائلا « هل يمكن ان يكون الحق غير مشروع ؟

الا أن النزاع حول مستوطنات سيناء لا يمكن حله بدون حدوث معجزة . وظهرت هذه المعجزة فى الشكل المروع والمستبعد لاريل شارون ، وهو بطل الحرب المحبب الى بيجين والمسئول عن الاستيطان . واقترح الجنرال افراهام تامير قائد التخطيط العسكرى فى عهد وايزمان الاتصال تليفونيا بشارون واعطائه تقريرا عن أزمة كامب ديفيد واقناعه بحث بيجين على الجلاء عن المستوطنات . وكان (وايزمان) يساوره الشك فيما اذا كان (شارون الروح المحركة خلف برنامج الاستيطان ، سيتعاون أم لا ، الا انهم لن يخسروا شيئا . وفوض لتامير بأن يجرب حظه).

« وبعد ذلك ببضع ساعات قليلة ، كان بيجين البالغ التأثر يبلغ الوفد الاسرائيلى بان آريل شارون قد اتصل به تليفونيا . والشىء الذى ادهشه ان شارون كان يحبذ اجلاء المستوطنات اذا كانت هى العقبة الاخيرة فى طريق تحقيق اتفاقية السلام . وقال شارون لرئيس الوزراء .. اننى لا ارى اى اعتراض من الناحية العسكرية على اجلائها .

وتأثر بيجين ، الا أنه كان مازال رافضا بشأن التخلى عن المستوطنات . وان حجته فى الابقاء عليها قد بنيت على اسس امنية وكان نتوء (رفح) يمثل منطقة عازلة لها قيمتها بين سيناء التى ستتم اعادتها الى مصر وبين اللاجئين الفلسطينيين فى قطاع غزة البالغ عددهم ٤٠٠٫٠٠٠ شخص ، وهى ارض تجنيد خصبة للارهابيين . ولكن الامن لم يكن اهتمامه الوحيد ، اذ ان رئيس الوزراء ، مثله فى ذلك مثل الكثير من الاسرائيليين من مختلف المذاهب السياسية يشعر بانزعاج لفكرة استئصال المستوطنين من جذورهم . ويتعارض ذلك مع المزاج الوطنى . وهو متأفف من ان يضع سابقة للضفة الغربية ومرتفعات الجولان . الا انه فى المقام الاول كان بيجين يخشى من ان يؤدى التخلى عن المستوطنات الى حدوث انقسام فى صفوفه ، الامر الذى حدث بالفعل على وجه السرعة .

وعندما اجتمع الرئيس كارتر فى اليوم الثانى عشر ، كان (بيجين) مازال يحـاول جاهدا الفوز . واقترح التفاوض مع السادات بشـأن كل مسالة اخرى معلقة لتحقيق معاهدة للسلام فى غضـون ثلاثة شـهور . وحينذاك سيطرح مسالة الاستيطان على الكنيست . وابلغـه كارتر ان ذلك امل ميئوس منه ، ولن يقبله السـادات ابـدا . وكتب الرئيس يقول .. من الواضـح ان ذلك كان مؤلمـا جدا بالنسبة لرئيس الوزراء مناحـم بيجين .. ، وكان يصيح بكلمات مثل .. انذار « مطالب مبالغ فيها » و « انتحـار سياسى » ومع ذلك فى النهـاية وافق بيجين على ان يطرح على الكنيست فى غضـون اسبوعين القضية التالية : « اذا تم التوصل الى اتفاق بشـأن جميع قضايا سـيناء الاخرى ، هل سيتم سحب المستوطنين ؟ » ورفض طلب كارتر بان يتخـذ موقفا محايدا خلال هذه المناقشة ، لكنه تعهد باجـراء تصويت حر .

كان بيجين يأمل فى الفصل بين التصويتين بحيث يكون احدهما حـول اتفاق السلام بينما يكون الآخـر حول المستوطنات وتوقع اغلبية برلمانيـة ساحقة للتصويت لصالح اتفاق السلام واغلبية اصغر ضد ازالة المستوطنات . الا ان مناوراته باءت بالفشـل على يد حـزب العمل المعارض الذى كان يحتـاج الى تأييده والذى اصر على اجراء تصويت واحـد يشـمل كلا من الاتفـاق والجـلاء عن المستوطنات . ومن غير المتصور ان يتوقع برلمانى لـه خبرة بيجين بالموافقة على حل التصـويت الواحـد على المشروعين دون عواقب وخيمة ، او انه كان سيرضى المصريين او الامريكيين . الا ان تدخـل حـزب العمل قدم له عذرا . ولم يقايض مناحم بيجين بالمستوطنات اليهودية فى حين فعلت المعارضـة ذلك . ان ذلك لم يقنع احـدا لا يريد ان يقتنع ، الا انه انقـذ ضمير بيجين وربما كان ذلك هو المقصود تحقيقه .

والتزم بيجين بكلمته . وتم اجلاء مستوطنات رفح ، بما فى ذلك مدينـة (ياميت) النموذجية ـ بتكلفة عاطفية ومالية كبيرة ، فى الموعد المقرر فى شهر ابريل عام ١٩٨٢ . وانتهى بصورة اقل ودية المطلب الامريكى الذى يطالب بتجميد النشاط الاستيطانى الاسرائيلى فى الضفة الغربيـة . وقضى كارتـر وفانس اكثر من ست ساعات مساء يوم السبت الثانى عشر وهما يناقشـان قضيتهم مع بيجين وديان وباراك . ومن العسير التوقع بأن يأخذ العـرب مفاوضات الحكم الذاتى ماخذا جديدا اذا استمر الاستيطان اليهودى بلا ضوابط ورفض الاسرائيليون التوقيع على مثل ذلك التعهد مع السادات كجزء من اطار الحكم الذاتى من اجل السـلام . واصروا على ان الاسـتيطان فى الضـفة الغربية ليس من شان مصر . وفى النهاية وافق بيجين على ان يكتب خطابا الى كارتر يتم نشره بين وثائق المؤتمر . وبعد ذلك بخمسة اعوام ، مازالت الاطراف المتبقية تجرى مناقشات مع ماتعهد به رئيس الوزراء . هل هو تجميد طويل

الامد ، ام انه تجميد محدد لمدة ثلاثة شهور ؟ وهل يرتبط بمفاوضات الحكم الذاتى او بمفاوضات التوصل الى معاهدة ســلام اسرائيلية ؟ . واقتنع كل من كارتر وفانس بأن بيجين قد خدعهما . وكلا الجانبين لديه شهود موثوق بهم ، الا يروون قصصا عكسية تماما .

وطبقا للرئيس ، تم الاتفاق على انه لن يتم انشاء اية مستوطنـــات اسرائيلية جديدة بعد التوقيع على « اطار السلام » وعلى ان قضية المستوطنات الاضافية ستحلها الاطراف المعنية خلال المفاوضات ، ويؤكد فانس الذى سجل ملاحظات خلال الاجتماع ، التفسير الذى قدمه كارتر .

فطبقا لمذكراتى ، فان هذا الاطار كان مرتبطا بمفاوضات الحكم الــذاتى ولم نفترض ان المفاوضات الخاصة بمعاهدة السلام والحكم الذاتى ستنتهى فى آن واحد وفى وقت قصير نسبيا . وكان هناك امل فى ان نستطيع احـــراز تقدم بشأن الحكم الذاتى اكبر مما حدث بالفعل ، الا اننا ادركنا جميعا انهـــا ستكون مهمة شاقة جدا . وجذور المشكلة اعمق من ذلك بكثير . وقد شهدنا استمرار المفاوضات فى خط متواز وان كان منفصلا.وهى لم تتوقف على بعضها البعض .

وتلقى هارولد سوندرز ، خبير وزارة الخارجية الامريكية لشئون الشرق الاوسط تقريرا موجزاعلى الفور بعد الاجتماع الذى انعقد مساء يوم السبت. اذ قدم له فانس مذكرة تلو الاخرى حول هذا الموضوع . وقد وضع المناقشـــة التى دارت فى هذا الاجتماع فى السياق التالى :

توجه كارتر وفانس الى الاجتماع وهما يعلمان مايريدان ويعرفان ايضا مصير نتيجتهما المفضلة التى توصلا اليها بشأن تجميد الاستيطان وما هو طبيعة تراجعهما . واختيارهما المفضل هو تجميد الاستيطان طوال الفترة الانتقاليـــة البالغ مدتها خمسة اعوام (للفلسطينيين) والتراجع هو الى تجميد بنــــاء المستوطنات اثناء « هذه المفاوضات » الا انهما اشارا الى محادثات الحـــكم الذاتى ، على اساس النظرية التى تفيد بانه اثناء محادثات الحكم الذاتى يكون على المتفاوضين معالجة تجميد الاستيطان خلال الفترة الانتقالية .

وعلى اية حال فانهما كانا يتحدثان فى تلك اللحظة حول فقرة فى هــذه الوثيقة التى اصبحت اطارا للسلام ، وبكلمة اخرى الوثيقة التى تعـــالج اساسا المفاوضات المتصلة بالضفة الغربية وقطاع غزة . والعبارة التى كانوا يركزون عليها هى عبارة فى فقرة تتعلق بالمفاوضات المتصلة بالحكم الذاتى ثم بالوضع النهائى للضفة الغربية وقطاع غزه .

وقال مناحيم بيجين رئيس الوزراء انه لايســتطيع الموافقة على وثيقــة بشأن تجميد الاستيطان يوقع عليها الرئيس السادات . ان ذلك امر تقــرره

الحكومة الاسرائيلية ، وهو ليس بالامر الذى يكون للحكومة المصرية فيه اى راى . وكان حل هذه المشكلة هو نفس حل المشاكل المماثلة بشأن قضايا اخرى . وهو يجب ان يكون هنك خطاب جانبى . ونسر (فانس) ذلك لى بعد الاجتماع وطالبني بأن اضع مسودة خطاب من رئيس الوزراء مناحيم بيجين الى الرئيس كارتر اشرح فيه موقف رئيس الوزراء ، ولذلك حذفت هذه العبارة من النص ووضعتها فى خطاب جانبى .

وسجل بارك ملاحظات كثيرة على الجانب الاسرائيلى . وكان قاطعا فى قوله ان النسخة الامريكية غير صحيحة .

« الشيء الذى تم الاتفاق عليه هو ان يكون تجميد المستوطنات لمدة ثلاثة شهور وان يرتبط بالمفاوضات الخاصة بابرام معاهدة سلام مع مصر . وهناك قيدان فى هذا الشأن (أ) انه فى اطار معاهدة سلام مع مصر . (ب) وان مدته ثلاثة شهور . وهو لا يرتبط بالمرة بمفاوضات الحكم الذاتى .

واستشهد الاسرائيليون ايضا ببيان للسادات وهم يقدمون تقريرا للمراسلين الامريكيين فى واشنطون يوم ١٩ سبتمبر ، اى اتفقنا على تجميد انشاء المستوطنات فى الثلاثة شهور القادمة ، وهى الفترة التى من المفترض ان يتم خلالها ابرام اتفاق السلام . ومع ذلك ، يدفع الامريكيون بان السادات لم يكن حاضرا عند التوصل الى اتفاق ولم يكن طرفا فيه . وعلى الرغم من ذلك فان مافهمه من اولئك الذين كانوا حاضرين يؤيد ما تقوله الرواية الاسرائيلية .

وبعد ان تحدث كارتر فى واشنطون عن تجميد لمدة خمسة اعوام ، طالب المراسلون فى مطار بن جوريون من ديان ان يقدم لهم تفسيرا ، . وكان عائدا على التو الى اسرائيل مع وايزمان تاركين بيجين فى الولايات المتحدة . ويبدو ان الرد الذى قدمه وزير الخارجية يستهدف طمس المسألة وليس توضيحها .

ان تقديرنا وتقدير رئيس الوزراء هو ان فترة استمرار المفاوضات حول موضوع يهودا والسامرة يجب لا تستغرق فترة تزيد عما يتراوح بين شهرين الى ثلاثة شهور .. فى حين تم تحديد فترة استمرار المفاوضات حول القضية المصرية الاسرائيلية ثلاثة شهور ، اما فترة استمرار المفاوضات الخاصة بالقضية الفلسطينية فلم يتم تحديدها بالمرة . لكن لنفترض انها ستستغرق بالفعل ما يتراوح بين شهرين وثلاثة شهور . فخلال هذه الفترة من المفاوضات بعد ان اوضحنا الامور مع اسرائيل (من كامب ديفيد) ، ظهر انه لا توجد فى الحقيقة اية قضية ملحة لانشاء مزيد من المستوطنات خلال شهرين او ثلاثة شهور ، وربما بعد هذه الفترة ايضا . وذلك أمر كان قائما حتى اذا لم يكن هناك اتفاق وحتى اذا لم يتم طرح المسألة .. اما فيما يتعلق بفترة الخمسة اعوام ، ففى حدود ما اعرفه ، ليست هناك عبارة فى هذا الشأن فى الاتفاق ».

وزاد الارتباك والحيرة سوءا ، ولكن لعل الكلمة الاخيرة للفصل فى هذه المسألة مع صمول نينوويتز ، الذى عمل بعد ذلك رئيسا للفريق الامريكى فى مفاوضات الحكم الذاتى . قال : « لقد قرأت جميع الملاحظات التى دونها كارتر عندما تم تعيينى كمبعوث خاص فى الشرق الاوسط . ولقد تأثرت بالاجهاد الذى كانوا يعملون فى ظله ، وباحتمالات سوء الفهم ، ولاسيما بشأن مسألة معقدة مثل المستوطنات .

ومن العسير ان نتصور أن بيجين كان سيذعن عن دراية لتجميد غير محدد النهاية فى الضفة الغربية ، ولاسيما بعد أن استسلم فى سيناء . أن ذلك من شأنه أن يتعارض مع غرائزه ومع اهتماماته كزعيم لحزب اثقلته بالفعل مبادرة السادات . بل انه من المتصور تماما أن يتلاعب هو وديان بالمسألة .

وبحلول فجر اليوم الثالث عشر الموافق يوم ١٧ سبتمبر ، كان كارتر قد اقتنع بأن الصفقة مضمونة . وقدمت كامب ديفيد اطارين ، أحدهما بشأن معاهدة السلام بين مصر واسرائيل والاخر بشأن السلام فى الشرق الاوسط . وسيحتاج ملء الاطارين الى الكثير من المساومة الصعبة الا ان اجتماع القمة قد حقق مهمته . وانتصرت الولايات المتحدة ، مثلما نصح بريجنيسكى بانها يجب أن تنتصر . غير ان اليوم الثالث عشر جلب معه عقبة فى اللحظة الاخيرة . وكان من المتفق عليه عدم الاشارة الى قضية القدس البالغة الحساسية فى النص نفسه . وفى احدى المراحل ، عندما اقترح الامريكيون ان ترفرف راية عربية أو مسلمة على المسجد الاقصى ، الذى يوجد فى موقع المعبد اليهودى ، حذرهم بيجين من أن نفس الفكرة اثارت فيه ارتجافات قلبية . وفى يوم ١٧ سبتمبر كان الامريكيون لا يتحدثون الا عن تبادل الرسائل التى احتفظ فيها الزعماء الثلاثة — كارتر وبيجين والسادات — بمواقفهم العادية بشأن المدينة المتنازع عليها . وتبنت النسخة الامريكية لغة البيانات التى ادلى بها المندوبون المتلاحقون فى الامم المتحدة ، ورفضت الاعتراف بضم اسرائيل لشرق القدس بعد حرب الايام الستة . وبمجرد أن سمع بها بيجين اعلن انه لن يوقع على اية وثيقة ابدا اذا كتبت الولايات المتحدة اى خطاب من هذا القبيل للسادات . وفجاة عادت الاتفاقية برمتها الى بوتقة الانصهار الا ان كارتر لم يكن مستعدا لان يدعها تنتهى فى هذه المرحلة . وحل المشكلة بخليط من عمليات الصياغة (وقد حذف كل اشارة معينة تشير الى الضم الاسرائيلى وقال ببساطة ان المندوبين الامريكيين فى الامم المتحدة قد أوضحوا السياسة الامريكية وطلب بيجين منه التوقيع على بعض الصور الفوتوغرافية الخاصة باحفاده . واصدر كارتر تعليماته الى سكرتيره ليعرف اسماءهم ويوقع على كل صورة على حدة . وعندما حملهم الى حجرة بيجين تأثر الزعيم الاسرائيلى وحكى له بدوره عن كل حفيد منهم على حدة . وبعد ذلك قبل النسخة الجديدة كالحمل . ولماذا

يستطيع الجد الفخور باحفاده ان يفطه خلاف ذلك ، ولا سيما عندما يحقق مـــــــراده ؟

وانتهت كامب ديفيد بمسحة من الارتياح والتصالح . وقام انسادات بزيارة ودية لبيجين ، وكان ذلك أول اجتماع لهما فى غضـــــون عشرة أيام . وحينذاك قام زعيما الشرق الاوسط . واعلن الرئيس ان هذه هى أول مرة يشعر فيها بالسرور وهو يغادر كامب ديفيد الى واشنطون . واخيرا جاءت آلات التصوير والمراسلون ليمارسوا مهامهم . وتم التوقيع على الاتفاقيتين اللتين تمثلان الاطارين ورد رؤساء الدول الثلاثة على الاسئلة باحسن ماق وسعهم وهكذا وقعت اسرائيل ومصر على اول اتفاق للسلام بينهما .

ولقد خاض بيجين مساومة صعبة كما خطط على الدوام ، الا انه قدم نصيبه من التنازلات . ووافقت اسرائيل على الجلاء عن شبه جزيرة سيناء كلها بما فى ذلك حقول البترول والقواعد الجوية والمستوطنات مقابل معاهدة السلام . وكان رئيس الوزراء يشعر فى مشاوراته الخاصة مع موظفيه وفى تصريحاته العلنية ايضا بأن اسرائيل تتخلى عن ارصدة حقيقية وتتلقى شيئا غير حقيقى من مصر . ولهذا السبب اصر بيجين على ضمانات جوهرية قوية للحدود الجنوبية لاسرائيل. وفقد بيجين نتيجة لتضحيته على مضض بمستوطنات سيناء تأييد بعض اصدقائه القدامى المقربين اليه . وانسحب من ذلك الموقف (شمويل كاتز) خبير القانون الدولى الذى ينتمى فى الاساس الى جماعة (ارجون زفاى ليومى) وكذلك فعلت ايضا (جيولا كوهين) آخر اعضاء (جماعة شترن) التى تضاهى عاطفتها تجاه ارض اسرائيل عاطفة بيجين نفسه . وهناك آخرون مثل (يوحنان بادر) المحارب القديم ابتعدوا عن زعيمهم بطريقة اكثر ذكاء .

وفى غضون ايام من التوقيع على اتفاق كامب ديفيد كان بيجين يتباهى للجمهور ، اليهودى الامريكى بانه لم يوافق على تقديم شىء للفلسطينيين اكثر مما قدمه فى الاسماعيلية فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٧ . واثار ذلك الزعيم غضب ادارة كارتر ، التى اعترفت بانه كان يحاول اثناء الاردنيين وغيرهم من العرب « المعتدلين » عن مساندة السادات واثناء الفلسطينيين فى قطاع غزة والضفة الغربية عن القيام بالدور المخصص لهم . وكان بيجين قد قدم فى كامب ديفيد فى الواقع اكثر مما قدم فى الاسماعيلية . ووافق على ان المفاوضات يجب ان تتم على اساس القرار رقم ٢٤٢ فى كافة اجزائه « لحل » المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها » . وكان من المقرر أن تبدأ المفاوضات بعد ثلاثة ايام « لتحديد الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة وعلاقتهما بجيرانهما » وان تنتهى هذه المفاوضات بنهاية الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اعوام . وتعهد بالتوصل الى حل من شأنه أن يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ومطالبه

العادلة » . وتم توجيه دعوة للاردن للانضمام الى هذه المفاوضات وتم السماح له بأن يضم وفده فلسطينيين « كما هو متفق عليه من الطرفين وكان من المقرر ان تنسحب القوات الاسرائيلية من الأراضى وتنتشر وحدات محدودة فى «مواقع امنية معينة » : ولم يتم تحديد المسئولية عن الامن والنظام العام ، بينما اتيحت للفلسطينيين امكانية تشكيل « قوة شرطة محلية قوية ، يمكن أن تضم بين صفوفها مواطنين اردنيين » .

وكان الكثير من هذه النقاط فى صورة تصريحات وبيانات غير دقيقة ، ولم تكن شيكات يتم حملها الى المصرف لصرفها . وكان بيجين قد دونها بغموض وحذر شديد لم يلحظه الامريكيون او المصريون . فعلى سبيل المثال ، فان « السلطة التى ستتولى الحكم الذاتى » والتى سيقوم الفلسطينيون بانتخابها لأنفسهم قد اشير اليها ست مرات فى اطار الاتفاق وفى واحدة فقط من هذه المناسبات الست وهى المناسبة الرابعة اضيفت كلمات «المجلس الادارى» بين اقواس بناء على طلب اسرائيل . الا ان ذلك كان كافيا لان يشير اليها بيجين بعد ذلك على انها « المجلس الادارى » وهو شىء اكثر تواضعا مما كان يريده الامريكيون والمصريون ويعتقد (وليم كوانت) ان الوفد الاسرائيلى تعمد ترك المســـألة الفلسطينية حتى آخر يوم فى كامب ديفيد ليتجنب تقديم التزامات محددة . وقال كوانت ان باراك الذى يتمتع بضمير حى قال انه كان يتعين عليهم اعطاء الضفة الغربية من الوقت مثلما اعطوه لسيناء لكن كل شخص كان يريد العودة الى وطنـــه .

وعلى الرغم من ذلك كله ، اتاحت كامب ديفيد للفلسطينيين افضل فرصة دبلوماسية منذ عام ١٩٤٧ . وكان هناك كل شىء يمكن التفاوض حوله بمساندة المصريين والامريكيين وكان من حسن حظ بيجين انهم لم يدعوه الى تنفيذ وعيده — وانهم سمحوا له ببناء دفاعاته . وكان اكبر خطأ وقع فيه الامريكيون انهم لم يربطوا الضفة الغربية وقطاع غزة بمعاهدة السلام الاسرائيلية المصرية ، بحيث تتوقف كل منها على الاخرى . والقى (بريجينيسكى) اللوم فى ذلك الاخفاق على اذعـــان كارتر للصيغ الغامضة التى استخدمها بيجين . وكتب يقــول ان ذلك سيعود لمطاردتنا ، فى المراحل القادمة من المفاوضات . وكان الاسرائيليون لهم أولوياتهم الخاصة . وقال (الياهو بن — اليسار) الذى كان مكلفا بصفته مديرا عاما لمكتب رئيس الوزراء بصياغة استراتيجية اسرائيلية محكمة لمفاوضات الحكم الذاتى ان بيجين ينظر الى سيناء على انها تعويض عن الوجود الاسرائيلى فى يهودا والسامرا وبانتهاء حكم بيجين فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ ،كان يستطيع النظر الى كامب ديفيد بارتياح . لقد كان السلام مع مصر وان كان فاترا قائما لم يمس ، وكذلك الأمر أيضا بالنسبة لقبضة اسرائيل على أرض اسرائيل .

كان قد تم اقناع المصريين بقبول صفقة كامب ديفيد بالدفع بان كل شيء سيكون مختلفا فى غضون خمسة اعوام . وقال : بطرس غالى أن « روح كامب ديفيد هى نوع من الهدنة ، وان شخصا آخر خلاف بيجين هو الذى سيتخذ القرارات ، لذا اقتنعنا تحت تأثير ديان ووايزمان ان بيجين قبل ذلك للحصول على السلام . وتم تهدئة شكوك الامريكيين بطريقة مماثلة . وطبقا لما ذكره (فانس) ابلغ بيجين الامريكيين بانه لن يشرف ابدا على نقل بوصة واحدة من يهودا والسامرا الى سيادة اخرى ، وان هذه الاراضى ملك لاسرائيل . الا انه اضاف قائلا : « ربما يلقى اخرون بعدى يكون شعورهم مختلفا . وفى نهاية فترة الخمسة اعوام لن اكون موجودا . والشيء الذى لم يذكره رئيس الوزراء هو انه سيبذل كل ما فى وسعه ليتأكد من انه لم يترك شيئا كثيرا ليتم نقله الى الغير .

الفصل العشرون

منح جائزة قبل الأوان

بدلا من الشهور الثلاثة التى كان قد تكهن بها بابتهاج فى شهر سبتمبر ، استغرق الاستنزاف الديبلوماسى ستة شهور لتحويل كامب ديفيد الى معاهدة سلام بين مصر واسرائيل . وحاول كلا الجانبين خدش بعض التنازلات التى ندموا على تقديمها فى استراحة (ميريلاند) . وبدأت اسرائيل برنامج طوارىء « لتدعيم » المستوطنات القائمة فى الضفة الغربية ، بالرغم من ان الكثير من عمليات التوسع كانت مستوطنات منفصلة فى كل شىء الا الاسم وقامت لجنة حكومية فرعيـــة ، يراسها مدير عام مكتب رئيس الوزراء ، (الياهو بن اليسار) بازالة بريق تعريف اسرائيل للحكم الذاتى حتى يقل ما يمكن ان يتفاوض حوله الفلسطينيون . وعلى سبيل المثال ، كان من المقرر ان تبقى اراضى الدولة وموارد المياه تحت السيطرة الاسرائيلية . وذلك من شأنه الابقاء على خيار الاستيطان اليهودى قائما ، فى الوقت الذى يحتفظون فيه باستخدام اسرائيل لحق الفيتو بشأن توسيع القرى والمدن العربية . ولم تتم مناقشة مثل هذه التفاصيل فى كامب ديفيد ، حيث تم النظر اليها على انها متشابكة للغاية بحيث لايمكن ان تشكل اطارا عاما . وسارع الاسرائيليون بملء الفراغ ولاسيما بعد ان جعلتهم محاولة الامريكيين كسب ود الملك حسين واقناعه بالانضمام الى عملية السلام يلتزمون جانب الحذر واصيبت ادارة كارتر بخيبة امل لان السادات اغفل التوقف فى عمان ليقوم بالمهمة بنفسه . وقامت الادارة بالتعويض عن ذلك بتسليم اجابات مكتوبة على الاسئلة الأردنية بشأن دلالات كامب ديفيد ، بالاضافة الى نسخة تم تقديمها لبيجين كدلالة على النـــية الطـــيبة . وشـــــعر بعض الديبلوماســـيين الامريكيين بالاســـف فيـــما بعـــد لان ديبلوماســـيتهم كانت مكشــــوفة الى هـــذا الحد ، الا انه لم يكن بمقدور ســــيروس فانس ووكيل وزارته (هارولد سوندرز) اللذان احضرا الرســـائل الى الشرق الأوسط ايجاد بديل آخر مشرف . ولم يكن هناك شىء فى الاجابات لم تعرفه اسرائيل بالفعل ، الا انهم أوضحوا التفســـــيرات الامريكية بشأن قضايا مثل وضع القدس — التى جاهد بيجين للابقاء عليهـــا خارج وثائق كامب ديفيد . ورد رئيس الوزراء الاسرائيلى على ذلك بالتهديد بنقل مكتبه الى شرق القدس العربية . وعلى الرغم من تودد الولايات المتحدة ، فان الملك حسين والزعامة المنتخبة للضفة الغربية اعطيا ظهرهما لكامب ديفيد . وكانوا يفتقرون الى القوة والجراة التى تمكنهم من القيام بمغامرات السادات . وحاول الرئيس المصرى التعويض عن موقفه بجعل المعاهدة تتوقف على التقـــدم الذى يتم احرازه بالنســـبة

للفلسطينيين ، الا أن بيجـين الذى كان قد تجنب الوقـوع فى ذلك الشرك فى كامب ديفيد لن يقع فيه الآن .

وصدقت الحكومة الاسرائيلية على اتفاقيات كامب ديفيـد التى حصلت على موافقة احد عشر صوتا ومعارضة صوتين وامتنع عن التصـــويت حاييم لاندوا نائب بيجين الاكثر اخلاصـــا . اما الكنيست فقد صـدق علـى الصفقة ، التى تشمل الجلاء عن مستوطنات سيناء ، بعـد مناقشة استغرقت ١٧ ساعة وانتهت فى الساعة الثالثة صباح يوم ٢٨ سبتمبر . وكانت نتـيجة التصويت ٨٤ صوتا ضد ١٩ صوتا وامتناع ١٧ . ومن بين الاصوات الـ ٨٤ التى قالت « نعم » لم يقدم اعضـاء الائتلاف منها سوى ٧٤ صوتا . اعطى الاعضاء الليبراليون فى كتلة ليكود اصواتهم لصالح الاجراء ، الا أن حـزب حيروت قد انقسم على نفسه ولم يعط الا ما دون النصف وما كان بيجـين ليفوز بالتصـويت بدون مساندة حزب العمل المعارض . وسحب عضوان من حزب حيروت كان من المقرر ان يشغلا منصبين رئيسيين فى حكومـة بيجين الثانية ــ وهما اسحق شامير وموشى آرينز تأييدهما وامتنـع عن التصويت شامـير وزير الخارجية فى المستقبل فقـد صوت ضـده وكان شامير فى ذلك الوقت رئيسا للكنيست (فى اسرائيل يظل رئيس الكنيست سياسيا للحزب وله حق التصويت) وكان ارينز يشـغل منصب رئيس لجنة الشئون الخارجية والدفاع فى الكنيست . وهنـاك اشخاص آخرون فى كتلة ليكود امتنعوا عن التصويت من بينهم وزير المالية القادم (ايجـال هورفيتز) وخليفته (يورام اريدور) بالاضافة الى (ايفـان ليفى) رئيس العمليات فى جماعة (ارجـون زفاى ليومى) . وفى واشـنطون ، اشار الرئيس كارتـر فى يومياته الى أن التصويت كان دلالة لافتة للنظر على الشجاعة ، الشجاعة السياسية من جانب مناحيم بيجين رئيس الوزراء ، الذى كان عليه أن ينتهك التزاماته السابقة طوال حياته ويخرج عن اصدقائه وحلفائه الذين قدموا لـه العـون والحماية خلال ايامه الثورية . ولم يكن الرئيس الامريكى سعيدا الى حد كبير بالنتائج . لقد اظهرت عمليات الانشقاق مدى الضغط الذى شـكله اتفاق كامب ديفيد على ولاء حيروت للقائد القديم . كما رفض بيجين وامنـاء حزبه طلبا بتقديم الاتفاقيات للجنة المركزية قبل عرضها على الكنيست الا ان ثقل الانشقاق فى صفوفه دعم احترام الرئيس الا يتقدم شبرا واحدا عما وقع عليه فى يوم ١٧ سبتمبر . وكبح جماح عملية السـلام واصر على توسيع نطاق المسئولية الى اكبر حـد ممكن فى الحكومة بالنسبة للقرارات التى يتم اتخـاذها فى المسـتقبل .

ومع ذلك ، من الناحية الرسمية ، مهدت الاصوات فى الحكومة والكنيست الطريق امام استئناف المفاوضات . وكانت الحكمة التقليدية السائدة هى انـه

تم حـل ٩٨ ٪ فقط من المشكلة ، مع ترك ٢ ٪ ليتم تسويتها قبل التوقيـع على معاهدة السلام . وتوجه موشى ديان وعزرا وايزمان الى واشنطون لحضور مؤتمر (بلير هاوس ، الا أنهما سرعـان ما وجدا انه ليس امامهما ولا أمام المصريين المقابلين لهما حرية للمنـاورة . وتدخلت الحـكومة فى القدس فى كل مرحلة . وبعد اتفاق كامب ديفيد انخفضت درجة ثقة زملائهم فى وزير الخارجية ووزير الدفاع اكثر من أى وقت مضى . وكانت تتم اعادة كل نقطة الى قاعدتها الاصلية . وبرهنت القضـايا المستعصية على انها تتمثل فى وضـع تاريخ محدد لانشاء نظام للحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وربط معاهدة السلام بالحكم الذاتى ، واستمرار حصول اسرائيـل على بترول سـيناء ، بالاضافة الى اصرار بيجين على ان تكون لمعاهدة السلام اولوية على التزامات مصر بالنضال الى جانب اشقائها العرب فى اى حرب تنشب فى المستقبل مـع الدولة اليهـودية .

وفى منتصف شهر نوفمبر ، بعد مرور عام واحـد على زيارة السادات الى القدس قبلت اسرائيل المشروع الامريكى الاول ، اما مصر فكانت مازالت تتمسك بالرفض . وأدت نسبة الـ ٢٪ الاخيرة المتبقية من المشـكلة الى نقـل المفاوضات الى شتاء ١٩٧٨ ــ ١٩٧٩ الكئيب . وتم ايفاد سيروس فانس للشرق الاوسط للقيام بدبلوماسية مكوكية . وذهب ديان الى بروكسـل لاجراء محـادثات مع مصطفى خليل رئيس الوزراء الذى كان قد عـاد فى ذلك الحين مـرة اخرى الى كامب ديفيد . ورفض بيجين دعوة للذهاب الى واشـنطون لاجراء محادثات مع مصطفى خليل واصر على الا يتعامل الا مع السـادات . وعلى الرغم من المنصب الذى كان يتمتع به مصطفى خليل فهو لم يكن الطـرف المناظر له . واخيرا امكن اقناع بيجين بزيـارة كارتر على امل ان يلحق به السادات ، بينما استمر ديان فى محادثاته مع رئيس الوزراء المصرى بالتدقيق فى كل فقرة فرعية . وأثار (بيجين) مخاوف فى وزارة المالية عنـدما تعهـد فى احدى لحظاته الخيرة على شاشة التليفزيون الامريكى بأن اسرائيل ستقوم بالسـداد حتى آخر سنت من الثلاثة بلايين دولار التى من المقرر ان تتلقـاها اسرائيل من الولايات المتحـدة لاعـادة نقل توزيع قواتهـا من سـيناء الى النقب . وكانت وزارة المالية تعتمد فى حساباتها على ان يتخـذ ثلث اجمـالى ما تحصل عليه على الاقل شكل منحة وليس شكل قرض . وكانت الايماءات تعنى لبيجين الكثير على الدوام أكثر مما تعنيه الارقام .

وقبل أن يستطيع اى فرد ان يكون واثقا من النجاح بفترة طويلة ، اعلنت لجنة نوبل انها تمنح جائزة السلام الخاصة بعام ١٩٧٨ لكل من مناحم بيجين وأنور السادات . وكان النرويجيون على الاقل مازالوا يراهنون على كامب

ديفيد . وتلقى الزعيم الاسرائيلي الانباء مساء يوم الجمعة الموافق ٢٦ أكتوبر ، الا انه لم يرد علانية حتى نهاية يوم السبت عندما كان يستضيف (ارتور روبينشتين) عازف البيانو على الشاي في مقره في القدس في ملتقى شارعي بلفور وسمولينسكين ، وتبادل السادات وبيجين التهاني تليفونيا . وكانت الجائزة هي الوسام النهائي للاعتراف الدولي لرئيس الجماعة السرية ، الا انها جاءت في وقت حرج بالنسبة للسادات ، الذى يدرك بعدم ارتياح عزلته في العالم العربي وحساسية موقفه في مصر .

وطار بيجين واليزا الى اوسلو يوم ٩ سبتمبر ومعهما حاشية من الأقارب والاصدقاء وشخصيات اسرائيلية ويهودية امريكية . وبقى السادات في منزله ، وارسل سيد مرعى مساعده الخاص ليتسلم الجائزة نيابة عنه . وكسب الديبلوماسي المصرى المرموق قلوب مضيفيه النرويجيين عندما وقف عند مطار اوسلو في درجة حرارة أقل من ١٨ درجة مئوية وشكرهم على استقبالهم الحار . اما عائلة بيجين فقد تم نقلهـا من المطار الى القصر الملكى في طائرة هليكوبتر حمراء وبيضاء اللون تحرسها طائرتا شرطة هليوكوبتر مسلحتان . ولم ينتهز النرويجيون هذه الفرصة ، فقد بقى الفائزان بجائزة نوبل للسلام بصورة طبيعية في أحد الفنادق وتلقيا جائزتهم في قاعة جامعة اوسلو . وفي ذلك العلم بقى بيجين وزوجته في القصر الملكى وجرى الاحتفال في اليوم التالى في حصن (اكرشوس) الذى يعود الى القرن الرابع عشر والقصر والحصن من اكثر الاماكن تحصينا في البلاد . اما سيد مرعى فقد بقى في جراند اوتيل .

واستضاف الملك (اولاف الخامس) عائلة بيجين على العشاء في جناحه الخاص من القصر وكان أعضاء العائلة المالكة قد قرأوا كتاب « الليالى البيضاء » وكانوا تواقين لسماع تجارب بيجين في معسكر العمل السوفيتى (وعلى اية حال كان الكتاب أكثر أمنا من كتاب التمرد) . الا ان حيوية المناسبة قد انقضت نتيجة لوفاة جولدا مائير في اسرائيل ونتيجة للشعور بأن الجائزة هي شيء تافه سابق لاوانه . وقال معلق اسرائيلى يحب التماثيل والايقونات ان الشيء الذى يريده شعب اسرائيل ليس جوائز السلام وانما هو السلام نفسه وتساءل قائلا « اين الطفل ثمرة الاتفاق » وفي القلعة النرويجية الكئيبة التى ينتشر في شرفاتها حراس مسلحون وكلاب بوليسية ، لم يثر حديث الموافقة على الاتفاقية الذى ادلى به بيجين دهشة احد ، وهو رابع حديث يقرأه من نص مكتوب في غضون ثلاثين عاما من الخطابة الارتجالية المتدفقة . ارتفعت نبرة الكلمات وهو يتذكر الستة ملايين شخص الذين راحوا ضحية الابادة ، وحظى (جابوتينسكى) و (جاريبالدى) ما يستحقانه من تكريم . واصر بيجين على أن شعب اسرائيل فاز ايضا بالجائزة وليس فقط رئيس وزرائه .

ـ ـ ورفع يده ممسكة بحقه فى الجائزة ومقدارها ٨٨.٠٠٠ دولار معلنا تبرعه به لمؤسسة اسرائيلية تقدم منحا للطلبة المتطوعين الذين يقومون بتعليم الاطفال المتخلفين .

وفى الخارج فى الشارع الملىء بالصقيع ، تقدم عدة آلاف من الشباب النرويجى فى عملية احتجاج يحملون فيها المشاعل خلف اثنى عشر شخصا من العرب يحملون رايات فلسطينية . وكان كثير من هؤلاء الشباب النرويجى يرتدون الكوفية على رؤوسهم وكانوا يهتفون قائلين : «بيجين ارهابى ساندوا منظمة التحرير الفلسطينية » ! .

ونجا السادات بصورة أو بأخرى من غضبهم . ورفضت وزارة الخارجية النرويجية باعلانها جيدها الخاص بمنطقة الشمال ، السماح للمتظاهرين بعقد اجتماع للتعبير عن الاحتجاج فى قاعة جائزة نوبل التقليدية بالجامعة ، الا انها اوردت نبأ المسيرة فى بيانها الرسمى حول احداث اليوم .

وكانت زيارة الرئيس جيمى كارتر لكل من القاهرة والقدس فى شهر مارس عام ١٩٧٩ محاولة اخيرة يائسة كان الرئيس يقامر بمكانته فى التوصل الى اتفاق . وقد ازعجه عدم الثقة المتبادل وعدم الانسجام الشخصى بين بيجين والسادات . وكان بيجين فى أكثر حالاته بخلا عندما ذهب الى واشنطون فى بداية الشهر وفى اول اجتماع لهم فى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض وجد كارتر رئيس الوزراء الاسرائيلى «قويا للغاية وسلبيا وواثقا من نفسه فيما يبدو » وحذره من النتائج العكسية للفشل ومن الخطر النهائى الذى سيهدد اسرائيل اذا سمح بيجين لبلاده بان تصبح معزولة عن العالم بسبب تعنتها او قيامها بأعمال عدوانية أو القاء بيانات « وذهبت الولايات المتحدة الى اقصى ما تستطيع عمله بتقديم لغة وسط ، الامر الذى تحسر عليه الرئيس ووصفه بأنه «رد غير ايجابى من الناحية العملية من جانب اسرائيل» وقال بيجين فى اليوم التالى انه لم يخلد الى النوم ليلة امس نتيجة لشعوره بالقلق تجاه النقد القاسى الذى صدر من الرئيس. وكانت النتيجة التوصل الى حل وسط بارع بشأن أولوية التزامات مصر (تجاه اسرائيل والعرب) وهو الامر الذى يعنى شيئا للقدس بينما يعنى عكسه للقاهرة .. وكان إذعان بيجين بمثابة اعتراف تكتيكى بأنه على الرغم من أن القضية نفسها حرجة ، الا أنها لن تتقرر بقصاصة من الورق .. واذا حدث أن اضطرت مصر للاختيار بين السلام والتضامن العربى القومى ، فلن تتأثر بفقرة فى المعاهدة . واذا انضمت الى جبهة الحرب ، فستنتهى المعاهدة نفسها .

وسافر كارتر الى القاهرة وهو يدرك تماما أن الرحلة التى لا تحقق شيئا ستجسد الفشل ، الا انه ليس بوسعه أن يرى طريقا افضل الى الامام .

وكان السادات مستعدا لتقديم المساعدة وعرض تبادل السفراء مع اسرائيل مقابل الارض واشار الى اتفاق لبيع البترول عن طريق الامريكيين . وكانت المقارنة أكثر وضوحا عندما ذهب الرئيس الى القدس . وابلغ بيجين كارتر بأنه لن يوقع حتى بالحروف الاولى من اسمه على الاتفاق بدون أن يعرضه أولا على الحكومة والكنيست وسأله الرئيس عما اذا كان يريد السلام حقيقة.
وكتب يقول في مذكراته .. لقد كان انطباعي أنه فعل كل شيء بوسعه لعرقلة التوصل الى اتفاق باستساغة واضحة » وكان بيجين فيما يبدو يعـــرقل المساعدة وبدء محادثات الحكم الذاتي » . وكان كل همه الاحتفـــاظ بكافة الاراضي المحتلة باستثناء سيناء ، وبدا غير مكترث بمأســــاة العرب الذين يعيشون محرومين من الحقوق الاساسية في ظل الحكم الاسرائيلي .

وكان بيجين متوترا بصورة لا مثيل لها ، ومؤمنا بالقـــدر ومصمما على الا يملى احد عليه شيئا عندما جاء كارتر لالقاء حديث في اجتماع خاص للحكومة في صباح اليوم التالي . ووقف منتصبا ليلفت الانتباه ومعه اثنان من مساعديه ينتظرون الترحيب بالضيف عند باب مبنى مكتبه . وسمعه احدهم وهو يغنى بلا نغم من بين اسنانه المطبقه قائلا (آني ما أمين) وهي الترنيمة اليهودية للايمان وتعني (انني أؤمن) وهي نفس الترنيمة التي كان يغنيها الآلاف من ضحايا هتلر وهم يدخلون غرف الغـــاز . وذهب كارتر في نفس اليوم الى (ياد فاشيم) وهو النصب التذكاري للابادة في جانب جبل (هيرتزل) . وخلال اجتماع الحكومة صرح الرئيس للوزراء الاسرائيليين بأنه يتعين عليهم أن يوافقوا . وحينذاك قاطعه بيجين قائلا : « سنوافق على ما اتفقنا ان نوافق عليه » . وطبقا لما ذكره شاهد اسرائيلي أجاب كارتر بقوله : « نعم أنهم » وانتهى الاجتماع بوصول اسرائيل والولايات المتحدة الى طريق مسدود بشأن مسألتين : وهما مبيعات البترول المضمونة وطلب مصر الخاص بفتح مكتب اتصال في غزة ، التي كانت تحكمها في الفترة من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧

وتجلى نفاد صبر الرئيس في حديث ادلى به بعد ظهر ذلك اليوم امام الكنيست وقال فيه ان « شعب البلدين على استعداد الآن للسلام » . « ولم يبرهن الزعماء بعد على اننا على استعداد للسلام لدرجة تدفعنا لانتهـــاز هذه الفرصة » . وتم تقديم هذه النقطة ببراعة ، لكن لم يكن هناك احد في المجلس يساوره اي شك بشأن اي الزعيمين الذي كان يدور في خلده . وكان رد بيجين يتعرض لمقاطعة مستمرة من أقصى اليسار واقصى اليمين . وتم طرد (جيؤلا كوهين) ناقدته الوطنية الشديدة الصخب من الكنيست بعد رفضها السماح لرئيس الوزراء بالمضي قدما . وصاحت وهي على البـــاب تقول « سأواصل نضالي » وشعر الامريكيون بالصدمة نتيجة للضجة بالرغم من انهم تظاهروا بأنهم تأثروا بحيوية الديمقراطية الاسرائيلية . وقال سيروس

فانس « لقد شهدنا البرلمان البريطانى » ، لكن ذلك أســــوأ من البرلمان البريطانى ، وكان ذلك يوما مفعما بالضجيج » .

ولاحظ الصحفيون الذين يتسمون بالتبصر أن موشى ديان غادر بـــاب المجلس وصعد الى أعلا ليهمس الى وزير الخارجية فى قاعة الزوار المرموقين. لقد جاء ليعتذر عن هذه الضجة التى يمكن تفسيرها بأنها اعمال مخطة موجهة للرئيس . الا أن مهمته التى قام بها الى الدور العلوى كانت أيضـــا بدايـــة لمبادرة خاصة أدت فى غضون ٢٤ ساعة الى اتفاق ومعاهدة ســـلام ، واقترح وزير الخارجية اجراء حديث هادىء فى وقت متاخر من النهار ووافق سيروس فانس . وعلى اية حال كان من المقرر ان يجتمعا فى لقاء آخر بين الحكومـــة والامريكيين (وهذه المرة بدون الرئيس) . وطلب ديان من بعض رفاقه البقاء بعد مغادرة الامريكيين . واتفق الوزراء معه على أن اسرائيل لا يسعها أن تترك الرئيس يعود الى الوطن خاوى الوفاض من رحلته . وطبقا لما ذكـــره (نافتالى لافى) المتحدث باسم ديان ، فان ديان لم يكن يريد أن يثير عـــداء كارتر . وفى المقام الاول ، لم يكن يريده ان يشعر بأن اسرائيل هى السبب فى اخفاقه » . وقد كان يرى أيضا فى افكار كارتر بعض الضوء ، وشىء يمكن تطويره وهو التزام امريكى بضمان امدادات البترول ووضع غزة . وشـــعر ديان بأنه يستطيع الفوز باتفاق ، وطلب من شمويل تامير وزير العـــدل ان يصيغ عبارة من شأنها ان تلزم الولايات المتحدة بشأن امدادات البترول .

وعندما ذهب ديان ليرى فانس فى غرفته بالفندق بعد ذلك الاجتمـــاع الحكومى ، عرف كلاهما أن الخلافات الحقيقية ليست هامة للغاية ، الا أنه من الصعب لم شمل الاجزاء معا مرة اخرى . وطبقا لما ذكره احـــد موظفى بيجين ، كان ديان أحد الرجال القليلين الذين يستطيعون اقناع رئيس الوزراء بقوة الحجة بتغيير تفكيره ، الا أن وزير الخارجية فضل التسلل فى هذه المرة . وقال فانس « اننى أعلم أنه حصل من بيجين على بعض من حرية التصرف لكننى شعرت بأنه من المرجح كان يلح على التحرك على نطاق أوسع . واننى مقتنع بأن عليه أن يقنع بيجين بأفكاره بعد ذلك . وفيما يتعلق بقضية غـــزة اقترح ديان اقناع المصريين بعدم الاشارة فى هذه المرحلة الى مكتب الاتصال. وهم يستطيعون على الدوام اقتراح اجراء انتخابات مبكرة فى غزة اثنـــاء مفاوضات الحكم الذاتى . وأكد ايضـــا على انه بمجرد ان تبدأ اسرائيل فى الانسحاب من سيناء وتسود العلاقات الطبيعية سيصبح بمقدور كل مصرى السفر الى غزة بتأشيرة اسرائيلية . وقبـــل فانس ذلك بشرط أن تلتقى اسرائيل مع السادات فى منتصف الطريق بشأن مبيعات البتـــرول . وكان المصريون يشعرون بحساسية تجاه مكافأة اسرائيل على سيناء ببيع بترولها بسعر منخفض وأدرك ديان مشكلتهم . وبعد ذلك درس هو وفانس دلالات

الضمان الامريكى . واصر ديان على فقرة فى معاهدة السلام تنص على ان اسرائيل من حقها شراء البترول مباشرة من مصر ، وخلاف ذلك تظل مصر تحترم المقاطعة العربية . وستقتنع اسرائيل بحق شراء البترول المصرى باسعار السوق . بالاضافة الى ضمان امريكى مدته عشرين عاما للتعويض عن العجز اذا توقفت الامدادات . وبناء على اقتراح وزير الخارجية وجه كارتر دعوة اليه والى بيجين لتناول الافطار فى فندق الملك داود فى اليوم التالى . وتقررت الصفقة اثناء تناول عصير البرتقال وبدلا من المقامرة بازعاج بيجين ، ترك ديان لفانس ان يحتل مكان الصدارة فى تقديم افكارهما . واعاد وزير الخارجية الى الاذهان ما يلى :

« لقد اخذنا على عاتقنا فى صباح ذلك اليوم بحث الموضوع كما لو كنا نمسك بزمام المبادرة ، واعتقد أن هذه هى الطريقة التى كان يريدها موشى ديان . وفى تقديرى فانه من المرجح انه قدم ما توصلنا اليه الى بيجين باعتباره مبادرة امريكية الى حد كبير . وقد تركت له الامر ليقدمه الى بيجين بالطريقة التى يفضل تقديمه بها » .

واتت استراتيجية ديان بشأن المبيعات بثمارها . ففى حفل توديع الرئيس فى مطار بن جوريون تمتم بيجين الى كارتر قائلا : « لقد نجحتم . واجتمع الرئيسان الامريكى والمصرى فى مطار القاهرة ، ووافق السادات بالفعل على تبادل السفراء فى وقت مبكر (وهى ايماءة للعلاقات الطبيعية ، ووافق على مد خط للانابيب من حقول البترول الى اسرائيل والكف عن الدعاية المناهضة لبيجين (المناهضة للسامية فى اغلب الاحيان) فى الصحف المصرية . ولم يشعر مستشارو السادات بالثقة تجاه الصفقة ، الا انه قطع عليهم الطريق كالمعتاد بقوله « ذلك مرض بالنسبة لى » . واتصل كارتر ببيجين تليفونيا وتم الاتفاق على ان يجتمع الزعماء الثلاثة معا من جديد حاملين معهم انباء طيبة لحضور حفل التوقيع على المعاهدة فى البيت الابيض يوم ٢٦ مارس . وفازت اسرائيل باول معاهدة سلام لها ، وكان من الجائز الا يصل بيجين ابدا الى هذه النقطة بدون ترتيبات ديان ووايزمان وباراك ، الا انه كسب الثقة بالقيام بالمخاطرات السياسية وبتحديد التضحيات التى سيقدمها والتى لن يقدمها . وعلى الرغم من الصور الفوتوغرافية المبتسمة الا انه لم يكن سوى عدد يسير من الاصدقاء على الطريق . وكان تعليق كارتر على هذه المشاركة المثيرة للسخط هو « اننى لم اتمتع فى الغالب ابدا بمفاجأة سارة فى معاملاتى معه » .

وكان السادات اكثر سخاء بمجرد ان صدق بيجين باعادة العريش ، العاصمة المغبرة لسيناء ، الى مصر فى يوم ٢٥ ابريل . وطبقا لما ذكره

بطرس غالى نائب وزير خارجية مصر الدائم فان السادات حينذاك فقط بدا يثق فيه . وقدم بيجين ما التزم به . وتمت مكافاته بصورة مناسبة فى حملة انتخابات عام ١٩٨١ عندما قبل السادات دعوة لحضور اجتماع قمة فى شرم الشيخ كان من شانه ان يكون عملا استعراضيا صرفا . وقال غالى : كان السادات يؤيد اعادة انتخاب بيجين . وفى تقديره فان فوز بيجين سيكون أفضل بالنسبة لمصر ، كانت أولويته هى الانسحاب من سيناء . وقد أعتقد انه بدأ العملية مع مستر بيجين ومستر بيجين قدم فى المرة الأولى وسيقدم فى المرة الثانية . وكان لطيفا مع بيجين ليضمن استكمال الانسحاب من سيناء .

وترك آخر جندى ومدنى اسرائيلى الارض المصرية يوم ٢٥ابريل عام١٩٨٢ أى بعد مرور ثلاثة أعوام على اعادة العريش . وفى ذلك الحين كان السادات قد اغتاله المتعصبون المسلمون وحل محله نائبه حسنى مبارك. اما مناحيم بيجين فكان لايزال رئيسا لوزراء اسرائيل، ومازال يحكم الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة . واندثرت فى الرمال مفاوضات الحكم الذاتى . وكانت المصالحة الاسرائيلية المصرية اشبه ببرعم أوقف الصقيع نموه وظلت الحدود مفتوحة ، الا ان المرور كان فى اتجاه واحد ونادرا ماكان السائحون المصريون يزورون اسرائيل اما التجارة فكانت مجمدة ، وتلاشت العلاقات الثقافية . الا ان معاهدة السلام اجتازت اختبار الحرب اللبنانية عام ١٩٨٢ . وبعد مذبحة مخيمى صابرا وشاتيلا ، استدعى حسنى مبارك الى الوطن سفيره فى اسرائيل لاجراء مشاورات غير محدودة . ومع ذلك ، لم يتم اغلاق السفارة والحدود ولم تصلصل مصر بالسلاح وظلت « اولوية الالتزامات » سارية المفعول . وفى شهر نوفمبر عام ١٩٧٧ كان الناس فى شوارع القدس يأملون فى شىء أكثر .

الفصل الواحد والعشرون

غرق تمد

كان مناخ بيجين مخلوطا متقلب المزاج . وكانت الحكومة تتأرجح مثل البترول بين اليأس والرجاء ، وبين الشلل والنشاط المحموم طبقا لحالة رئيس الوزراء العقلية والجسدية ، ولقد شهدت السنتان المتدتان بين معاهدة السلام مع مصر والانتخابات العامة فى ٣٠ يونيو عام ١٩٨١ هذا التذبذب فى أشد صوره ٠ وظل بيجين الشخصية المسيطرة ولم تكن الحكومة لتستطيع أن تفعل شيئا بدونه ٠ وكذلك فان الحكومة لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا وهو على راسها . ولقد استقال اشد الوزراء استقلالية فى الفكر وهما موشى ديان وعزرا وايزمان فى اكتوبر عام ١٩٧٩ وفى مايو عام ١٩٨٠ على التوالى . فلم يعد بيجين فى حاجة لديان لخبرته أو لشهرته . فهو لم ينس خروج ديان على النظام اثناء مفاوضات السلام . وسرعان ما ادرك ديان انه لم يسمح له بعد ذلك بان يمارس دبلوماسيته الخاصة . ولقد هاج وايزمان وغضب وثار وماج وتزايد شقاؤه لان بيجين كان يعرض السلام للخطر بنظرته الصارمة لموضوع الحكم الذاتى الفلسطينى وكتب وزير الدفاع فى خطاب الاستقالة يقول : « بالنسبة لشعب اسرائيل كانت ايام مليئة بالثراء والامل فى فترة توليكم رئاسة الحكومة . ولقد امن الشعب بالحكم وامن بالسلام . ولم يكن الشعب هو الذى توقف عن الايمان بالسلام .

وفى نفس الوقت فان فشل سمحا ارليخ فى سياسته الاقتصادية القائمة على السوق الحرة ، قد أصبح فشلا يزداد وضوحا يوما بعد يوم . وحل بيجال هورفتز محل وزير المالية وهكذا انفجرت الاسطورة القائلة بان رجال الاعمال الاحرار كانوا يعرفون كيف يرعون ويعتنون بالاقتصاد . وكانت لدى هورفتز الذى تحول بسرعة وثبات ناحية اليمين بعد أن اختلف مع الحركة العمالية فى بداية عهد بن جوريون ، الشجاعة لان يفرض القيود الضرورية على الانفاق العام . وقد عرف باسم « ليس عندى » أو « لا املك شيئا » . لكن جهوده لم تثر الا سلسلة من الازمات داخل الحكومة . وكانت تنقص هورفتز القدرة على اجبار زملائه فى الحكومة على الموافقة على اسلوبه . أما رئيس الوزراء فكان غير مبال . لقد كان شغل بيجين الشاغل هو النضال من اجل ارض اسرائيل » ومعركة من اجل الحفاظ على الوفاق بين الائتلاف وحزبه .

وفى النصف الثانى من عام ١٩٨٠ غرق بيجين فى واحدة من دوامات اليأس . وكان فى هذه المرحلة قد عانى من ثلاث أزمات قلبية ومن حالة

شلل خفيفة . وقد برزت آثار هذه الازمات . واخـذ الوزراء يشتكون من عجزه عن القيادة . ووجـده الزائـرون فاتر الشـعور غـير مبال ومنعـزلا وعاطفيا . وفى اغلب الاحيـان كان لا يعرف من هم هؤلاء الزوار ولا لمـاذا أتوا . وجـاء وفد من « رابطة الصحافة الاجنبية » يسجل دور بيجين بصفته قائما باعمال وزير الدفاع بعد استقالة وايزمان ، ولكنه خرج من مكتبه فى حالة احباط واشفاق . وقد اقتنعوا تماما بأن بيجين كان يخبو نجمه بسرعة كبيرة .
وقد اكد الشهود العسكريون ما أشيع فى الصحافة الاسرائيلية بأنه كان ينام اثنـاء مناقشاته معهم . والقول بأنه كان يعانى من الاثار الجانبيـة للادوية التى تعاطاها لمعالجة قلبه قول بعيد عن الدقة . لقد كان بيجين يتعاطى بانتظام علاجا مضادا لتجلط الدم . وعندما سأل أحـد مساعديه دكتور ميرفن جوتسمان طبيب رئيس الوزراء الخاص عن اثر هذا العـوج اجابه الطبيب بان هـذه الادوية لا تؤثر فى قدرة بيجين العقلية . لقـد كان متعبا بسبب مرضـه واكثر ما يمكن أن تفعله هذه الادوية هو أن تصيبه بالنعاس . وقد نصـحه الاطباء بان يقصر عمله اليومى على أربع ساعات فقط . وقال أحـد رجـال مكتب بيجين ان رئيس الوزراء قد استمر فى تسيير الامـور الهامة للدولة وهـو على فراشـه فى المستشفى بعد اصابته بأزمة قلبية .

« انه ابدا ما بلغ من العجز الى حد الاستسلام . وفى احـدى المـرات وكان فى المستشفى بعـد اصابته بسكتة خفيفة ، أخبرنا الاطبـاء انـه ليس من المحتمل استعادة قوة ابصاره فى عينـه اليسرى . ولكنه ظـل يملى المذكرات والخطابات . وبعد شهرين ، وفجأة وهو فى مكتبه برئاسـة الوزراء استعاد بصره قوته السابقة وقال : « اننى اسـتطيع أن ارى — بوضـوح تـام » . ولم يكن هنك ما يـدل على انه كان واقعـا تحت تأثير الادويـة والعقاقير . انه رجـل يخضع لاحواله المزاجية والتى تسـير جنبا الى جنب مع كيانه العاطفى . اننى لم أره قط وهـو اثنـاء عمله اليـومى خاضـعا لنظام ادوية مكثف وصارم . واننى لم اره قط ينظر الى ساعة ليتناول جـرعة دواء كل ساعتين » .

وفى اثناء أحد اجتماعات مجلس الوزراء وعندما غرق فى حالة من حالات الوسوسة اقر وزير الداخلية يوسف بورج ورقة لاحـد زملائه جـاء فيهـا : « اذا كان هذا ما تفعله هذه الحبـوب فاننى أريد مثلهـا لى » . وفى مناسبة أخرى ، وعندما كان بيجين فى أسـوأ حالاته دخـل الى قاعـة الكنيست واتجـه فورا الى مقعد زعيم المعارضة والذى ظـل يشغله حتى عام ١٩٧٧ . وجـاء احد رجال الكنيست واوضح له فى لطف الخطـأ الذى وقع فيه وقـاده الى مقعده الحقيقى كرئيس لمجلس الوزراء .

كانت حكومة مناحم بيجين هى الاولى فى التاريخ البرلمـانى الاسرائيلى التى تواجـه فيه اجراء انتخـابات مبكرة وباختيارها . وقد اتخـذ هـذا

القرار فى يناير عام ١٩٨١ وذلك بعد ان اعترف هورفتز بالهزيمة فى محاولته خفض ميزانية التعليم ونقل مجموعة رافى التى يراسها وتتكون من ثلاثة رجال الى جانب المعارضة . وكانت اغلبية الحكومة قد انخفضت الى ثلاث أصوات فى تصويت الثقة قبل ذلك التاريخ بشهرين فقط . وعندئذ فضل بيجين ان يرجع الى الشعب بدلا من أن يتشبث بالبقاء تحت رحمة الجماعات المنشقة والانتهازيين . وبالرغم من احتجاجات المعارضة فانه حدد موعد الانتخابات يوم ٣٠ يونيو وخرج رئيس الوزراء من اجتماع خاص لمجلس الوزراء وهو يبدو اكثر اشراقا ومرحا من اى وقت منذ عدة أشهر . ولكن احتمالات تشكيل بيجين لحكومة جديدة بدت قائمة وغير محتملة ووضعت قياسات الرأى العام حزب العمل فى مركز متقدم كثيرا حتى ان مستر شيمون بيريز ظهر وكانه سوف يكون بعد نهاية الانتخابات اول زعيم اسرائيلى يحقق اغلبية ساحقة . لقد خسر بيجين وزيرين للمالية فى غضون ثلاثة عشر شهرا . كان بيجين فى سنة ١٩٧٦ قد هاجم حكومة اسحق رابين المترنحة لانها تركت التضخم يصل الى ٣٥ ٪ ووعد بان يخفض هذه النسبة الى النصف .

وفى عام ١٩٨٠ ارتفعت اسعار السلع الاستهلاكية بمعدل ١٣٢٫٩ ٪ واخذت الفجوة بين الاغنياء والفقراء فى الاتساع واشارت الدراسات الى ان ما لا يزيد عن ٣٠ ٪ من اليهود الشرقيين الذين ادلوا باصواتهم فى صالح بيجين سنة ١٩٧٧ يزمعون تأييده هذه المرة . أما المنشقون عليه فانهم لم يكونوا راضين عن أداء حكومته فى الناحية الاقتصادية والاجتماعية بالرغم من انهم كانوا لا يزالون يؤيدون سياسته الامنية وسياسته الخارجية وسياسته ازاء المستوطنات . والشىء الذى جذب قليلا من الانتباه فى يناير هو ان ٣٧٪ من مجموع الناخبين لم يكونوا قد قرروا بعد أى المرشحين ينتخب . واوضح قياس للرأى العام نشرته صحيفة ها ارتز اليومية انه بالرغم من ان ٥٥ ٪ يريدون تغييرا فوريا للحكومة ، الا أن ٣٩٫٧ ٪ من الناخبين لم يكونوا يعتقدون ان حزب العمل فى امكانه ان يكون أحسن حالا فى المجال الاقتصادى . لقد كان الاسرائيليون قد تحرروا من سحر بيجين ولكنهم لم يتكتلوا وراء بيريز . لقد كان امام ليكود ما يحاربون من اجله وامامهم متسع من الوقت يبلغ ستة اشهر .

ان احياء ليكود لم يضع اساسه بيجين انما الذى وضعه خليفة هورفتز وهو يورام اريدور وهو من جيل سابق سنة ١٩٤٨ . وكان اريدور أول وزير مالية اسرائيلى يحمل درجة علمية فى الاقتصاد . ولكن هذا لم يمنعه من أن يقدم برنامجا انتخابيا دفع بالتضخم الى اعلى اكثر من ذى قبل ويصل بميزان المدفوعات الى الخط الاحمر . ولا شك ان اساتذته قد

علاوة انه لا يمكن علاج التضخم عن طريق تشجيع المستهلكين بالاندفاع نحو شراء السلع الكمالية . ولكنه كان سياسيا يدرك ان هذا هو السبيل نحو كسب الاصوات . وادت التخفيضات فى الضرائب الى خفض سعر التليفزيون الملون بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٥ فى المائة وخفض سعر السيارات الجديدة بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٧ فى المائة . وخفض الاسعار بنفس النسبة المئوية على الادوات والمعدات المنزلية والاثاث . واعلن وزير المالية ان ضريبة الشراء المفروضة على النبيذ الحلو سوف تخفض الى النصف فى أول يوليو . وهو اليوم السابق للانتخابات . وفى خلال شهر اعلنت لغرف التجارية أن الاسرائيليين قد تقدموا بطلبات شراء ٨٠٠٠ سيارة جديدة و ٦٠٠٠٠ جهاز تليفزيون .. وجميع هذه السلع مستوردة من الخارج . واستأجر تجار الجملة طائرات الجامبو لمواجهة هذه الطلبات . ولقد ارتفعت مبيعات السيارات وحدها بنسبة ٤٠٠ فى المائة . وكتب ماتى جولان فى صحيفة ها ارتز يقول ان سياسة اريدور قد نجحت :

« لقد بدأ الناس يسألون انفسهم هل سيدفعون غاليا بعد الانتخابات بسبب سياسة اريدور الاقتصادية الانتخابية كما يقول لهم خبراء الاقتصاد وكانوا ينصتون لما يقوله هؤلاء الخبراء ويهزون رءوسهم فى شك . فالاسرائيلى العادى لا يفهم كثيرا فى شئون الاقتصاد وهو بالتأكيد لا يفهم السياسات الاقتصادية طويلة الاجل . واليوم تنخفض الاسعار وهذا هو مايهمه . وحزب العمل لم يكن يعرف كيف يتصرف . فكيف له أن يقف ضد خفض الاسعار ولم يكن يعرف كيف يقف فى وجه هذه السياسة الاقتصادية غير المسئولة وغير الملجمة والتى وضعت من اجل الانتخابات » .

وسمع أحد المشترين فى القدس وهو يقول : « ان كل فرد يعلم اننا سوف ندفع الثمن فى نهاية الامر ولكن رغم ذلك فاننا نشترى . وربما لن تكون هناك فرصة كهذه الا فى الانتخابات القادمة . وبدت سياسة اريدور هذه تنعكس على قياسات الراى العام . وفى منتصف شهر مارس بدأ حزب ليكود يستعيد الاصوات التى كان قد فقدها بينما كان حزب العمل يناضل من اجل الاحتفاظ بمواقفه . ولكن لا زالت الهوة بين حزب العمل وحزب ليكود واسعة، الا ان خطا جديدا قد بدأ يظهر . وبدأ الناخبون الشرقيون فى حسم موقفهم . ولقد اعطاهم اريدور الفرصة للعودة الى حظيرة ليكود . ولما تردد الاستراتيجيون فى حزب العمل فى الظهور فانهم بذلك قد أتاحوا الفرصة للحكومة لتأخذ المبادرة فى يدها .

وعند هذه النقطة من الحملة الانتخابية برز بيجين الى الوجود مرة اخرى كاثوى ما يكون منذ عودة لازاروس . ففى مقابلة اذاعية بمناسبة ذكرى

الثالث والثلاثين لمولد اسرائيل تفاخر بيجين بانه يشعر انه افضل من اى وقت مضى خلال السنوات الاربع الماضية ومنذ ان تولى رياسة الحكومة وقال معللا ذلك « لاننى فى قلب المعركة الآن » . كان حزب ليكود قد احـــرز النصر فى انتخابات سنة ١٩٧٧ معتمدا على اسم بيجين ولكن بدون ظهور الرجل نفسه ذلك لانه فى الشهرين الاخيرين من انتخابات عام ١٩٨١ حارب الحزب معتمدا على اسم بيجين وبشروط بيجين . ولجأ بيجين الى منبر الخطابة للمرشحين فى الانتخابات حيث اخذ يطعن اعداءه القدامى الواحد تلو الآخر بدءا بالحركة العمالية التى عاملته هو ورفاقه بالاحتقار لقرابة تســـــعة وعشرين عاما والالمان الذين قتلوا ستة ملايين يهودى والشـــيوعيين الذين بعثوا به الى معسكرات الاعتقال (الجولاج) والبريطانيين الذين علقوا مقاتلى جماعته فى المشانق . وكان رد فعل دائرته الانتخابية فى الاحياء الفقيرة فى المدن وفى المدن النامية المبعثرة مشوبا بالعاطفة وعنيفا فى معظم الاحيان . لقد كان بيجين ملكا لاسرائيل والخروج عليه ضرب من الخيانة . وكتب احد محررى الصحف فىاسرائيل يقول : « يمكنك ان تقول لى انك لن تشترى سيارة مستعملة من بيريز اما انا فانى لن استأجر بيجين ليلاعب طفلى لانه سوف يخنقه » .

وكان اول عمل من اعمال التهديد وقع فى احتفال للجالية اليهــــودية المغربية فى حديقة فى القدس فى نهاية عيد الفصح لقد جاء بيريز لكى يقـــدم تحيات حزب العمل للجالية اليهودية القادمة من شمال افريقيا لكن الشـــبان اخذوا يهزاون من ذكر اسمه والقوا عليه البرتقال والطماطم بمجرد ان صعد الى منبر الخطابة . واجبر على ترك المكان قبل ان ينطق بكلمة واحـــدة . وانتشر العنف فى طول البلاد بينما تجاهل بيجين جميع الدعوات التى وجهت اليه ليكبح جماح اتباعه . واشعلت خطبه النار وزادت من تأججهـــا وفى اجتماع شعبى لحزب العمل فى بتاح تكفا فى منتصف شهر يونيو اخذ ما يقرب من ٢٠٠ شخص من اتباع ليكود يصيحون فى وجه بيريز قائلين « بيجين ، بيجين ، ملك اسرائيل » . واخذوا يدحرجون البراميل المملوءة بالنفـــايات والمشتعلة ويدفعون بها الى وسط الحشد البالغ عشرة آلاف ، واخـــذوا يحطمون النوافذ فى المقر المحلى لحزب العمل . واصيب ثمانية عشر شخصا والقى القبض على ٢٦ شخصا . وفى مواجهة مماثلة وقعت فى القـــدس تم تهديد احد مندوبى الصحف الاسرائيلية اذا ما ذكر اسم زعيم الجماعة التى رفضت السماح لبيريز بالحديث . واصبح العنف والكراهية هما المحـــور الرئيسى فى الحملة الانتخابية . واستغل حزب العمل صورة لاحد مؤيـــدى حزب ليكود وهو يلوح بمطواة فى اجتماع حضره بيجين . واعادوا طبع صور الهجوم الذى وقع عام ١٩٥٢ على الكنيست . لقد قسم بيجين ، اليهودى البولندى ، البلاد الى شرق وغرب ولم تكن قد انقسمت كذلك من قبـــل . وقويت الكراهية والاحقاد على الجانبين . وبالنسبة لليهود الغربيين كان

اليهود الشرقيون يشكلون تهديدا بدائيا للديمقراطية الاسرائيلية . وبالنسبة لليهود الشرقيين فان اليهود الغربيين متغطرسين ادعياء يخشـون فقـدان امتيازاتهم ، وهم أوربيون غرباء فى الشرق الاوسط . لقد كان صراعا بين الثقافات السياسية المختلفة كما هو صراع بين هذه الاصـول العرقية والعنصرية المختلفة . ولقد اتهم شلومو هيلل ، وهو زعيم عمالى ولد فى العراق ، رئيس الوزراء بأنه يدفع البلاد نحو الفاشية لقد كان هناك جو من التحفـز الاجتماعى الاشتراكى. وقد علمتنا التجارب بأن هذين العنصرين اذا ما امتزجا أديا الى الفاشية . ولقد كان بيجين يناشد القطاع الادنى من الجماهير

وبنفس هذه النشوة المتصاعدة دفع رئيس الوزراء بخطبة اسرائيل الى حافة الحرب مع سوريا وبعث بقواته الجوية لقصف المفاعل النـووى العراقى . وانتشى بهذين الحدثين كبرهان على أنه هو الوحيد الذى يعرف كيف يتعامل مع العرب . وفى ابريل شنت ميلشيا الكتائب اللبنانية والتى دربتها اسرائيل ، هجوما فى شرق لبنان مهددة المواقع السورية بالقرب من مدينـة زحلة الاستراتيجية . وكان رد فعل السوريين القصف المركز واعلن بيجين ان اسرائيل لن تقف مكتوفة اليدين فى وجه هذه الافعال الاجرامية من الدولة المجاورة لبنان . وضربت قواته الجوية قواعد الفدائيين الفلسطينيين فى جنوب لبنان . وفى ٢٨ ابريل اسقط طائرتين هليكوبتر سوريتين وقد وصنت هاتان الطائرتان بأنهما من طائرات الهليكوبتر المهاجمة وان كان بيجين قد اعترف بعد ذلك بأسبوعين بأنهما كانتا تنقلان قوات واسلحة . وبرر التدخـل الاسرائيلى بأنه نتاج التجارب التاريخية وأثر من آثار اليهودية .

ولقد سأل السفير الامريكى صموئيل لويس ما اذا كان قد قرأ كتـاب آرثر مورس بعنوان « بينما ملت ستة ملايين » والذى سجل عدم اكتـراث العالم الحر لعملية افناء يهود أوروبا واخبر رئيس الوزراء لجنة الشـئون الخارجية والدفاع فى الكنيست بأنه قرأ هذا الكتاب ست مرات وقال :

« فى كل مرة قرأت فيها هذا الكتاب لم أكن أخجل من انسياب الدموع من عينى عندما كنت اتخيل كيف اهمل شأن شعبنا اليهودى وترك وحده . لقد تناهم الالمان لكن العالم تركنا نلقى مصيرنا . وقلت للويس » اريد ان اقول لك اننا دولة يهودية ولنا تجاربنا الخاصة بنا ، واننا لن نسمح تحت اى ظـرف من الظروف ، للسوريين محاولة تحويل المسيحيين فى لبنان الى ما كان عليه اليهود فى أوروبا فى الاربعينات . ان السوريين مع الارهابيين يعاملون المدنيين تماما كما كان يفعل النازيون . انهم لا يهتمون اطلاقا بالرجال أو النسـاء او الاطفال » .

وعلق اثنان من سياسي حزب العمل ، والاثنان كانا رؤساء اركان سابقين في الجيش، وهما اسحاق رابين وحاييم بارليف قائلين في تعجب ان مافعله السوريون لايشبه في شيء النازية . ولم يكن هذا القياس او التمثيل ناجحا . واصر بيجين على انه بالرغم من أن السوريين لم يقيموا غرف الغــاز للمسيحيين اللبنانيين الا ان دباباتهم ومدفعيتهم تقوم بنفس العمل . وكان مناسبا لاهداف بيجين ان ينسى ويتجاهل ان اسرائيل هي التي سلحت الكتائبيين وانهم هم الذين تسببــوا في هذا القصف . وكان يتكلم وكأن الحرب الاهلية اللبنانية لم تقع ابدا . ورد السوريون على اسقاط طائراتهم الهليكوبتر بأن دفعوا بصواريخ سام ـ ٦ المتحركة الى وادى البقاع . وكانت هذه هي اول مرة يضعون فيها هذه الصواريخ في الاراضي اللبنانية وطلب بيجين بسحب هذه الصواريخ قائلا انها تهدد حرية عمليات القوات الجويــة الاسرائيلية فوق لبنان . ومما اثار قلق العســكريين المحترفين انزلاق لسان بيجين فقد اعلن وسط حماس الجماهير في اجتماع ليكود انه مالم يعمل السوريون على ازالة هذه الصواريخ فان اسرائيل سوف تبعث بقواتها الجوية لتدميرها . واصاب المسئولين عن الامن الذهول . وكتب هيرشي جودمان المراسل العسكرى لصحيفة جيروسالم بوست يقول :

« لماذا اخطر بيجين السوريين بان رد فعل اسرائيل سيكون عن طريق الجو ؟ لقد كان السوريون قد آكملوا لتوهم نشر بطارية مسلحة الى جــانب صواريخهم على الحدود السورية اللبنانية ـ ذلك لانهم لم يكونوا يعرفون ما اذا كان الهجوم المحتمل سيأتى عن طريق البر او الجو او عن طريق الاثنين معا »

وفي اليوم التالى ضاعف بيجين الاساءة عن طريق الكشف في الكنيست عن ان الاوامر قد صدرت الى القوات الجوية بان تقتلع بطاريات صواريخ سام ٦ في ٣٠ ابريل لكن هذه المهمة قد الغيت بسبب السحب الكثيفة . لقد كان بيجين رئيس للوزارة وفي نفس الوقت قائما باعمال وزير الدفاع فان معلوماته كانت دقيقة وايضا مدمرة . وقال رئيس سابق لمخابرات القوات الجوية وهــو العمــيد ياشياهو باركت في مقابلة تليفزيونية انه خلال خدمته في الجيش لمدة خمسة وعشرين عاما لايذكر ان اسرار العمليات قد نشرت بهذه الصورة . وان اى فرد في الجيش لو فعل ما فعله بيجين لوجهت اليه تهمــة الاخلال الخطير بالأمن . ونقل عن ضابط آخر قوله : «لقد قدم للعدو وعلى طبق من ذهب ماكان سوف ينفق على الحصول عليه سنوات ملايين الجنيهات وحتى لو فعل ذلك كانه لن يكون متأكدا من صحة ما حصل عليه من معلومات . والخطأ الذى ارتكبه بيجين انه بتحليله للطقس في اليوم الذى كان مفروضا فيه ان تدمر القوات الجوية الاسرائيلية الصواريخ السورية ، مكن السوريين من معرفة الظروف الجوية التى في ظلها تستطيع القوات الجوية الاسرائيلية ان تعمل ومتى لاتستطيع ذلك . وبذلك تم

الكشف عن حدود عمل الطائرات الاسرائيلية وكذلك عن عشرات من حالات اخرى من التفاصيل التى يمكن استنتاجها من هذه المعلومة . ومثل هذه المادة كانت تراقب مراقبة دقيقة فى الصحافة الاسرائيلية . ولم يكن رد الفعل لزلة بيجين وحماقته مجرد نشوب الجدل السياسى حولها ، بل ان اداء القوات الجوية ضد السوريين بعد ذلك بعام يبين أن الضرر قد وقع بصورة سريعة جدا.

وبعد الساعة الثالثة مباشرة من عصر يوم احد الموافق السابع من يونيو انطلقت مجموعة من ست عشرة طائرة من الطائرات الحربية الاسرائيلية المتقدمة فى طيران منخفض وسريع من قاعدة عصيون بالقرب من ايلات ، وقصفت المفاعل النووى العراقى خارج مدينة بغداد وعلى بعد ستمائة ميل وعادت الى قوعداها سالمة دون أية خسائر وكانت هذه الغارة واحدة من الغارات الجوية الدقيقة التخطيط والتنفيذ والتى اشتهر بها الاسرائيليون منذ حرب ١٩٦٧ وعملية عنتيبى وهكذا تراجعت فرص العراق لبناء قنبلة ذرية عربية بمساعدة فرنسا وايطاليا الى الوراء عدة سنوات . وقد خططت هذه الغارة على عجل لتكون انجازا انتخابيا .ثيرا . وكانت حكومة بيجين قد اتخذت هذا القرار من حيث المبدأ فى اكتوبر الماضى واختير بعض من افضل الطيارين الاسرائيليين للتدريب منذ ذلك التاريخ . وقد تم اختيار الطائرات وادخلت التعديلات على التكتيك الذى سوف تتبعه هذه الطائرات بصورة تقلل من مخاطر اكتشافها واعتراضها اثناء عبور طائرات اف ـ ١٦ المقـــاتلة وطائـــرات اف ـ ١٥ للصـــحراء العـــربية وكانت طائرات اف ١٦ المقاتلة متعـــددة الادوار تحدد الهدف وتصيبه بقنابل زنة ...٢٠٠ رطل بينما كانت طائرات اف ـ ١٥ المقاتلة المتقدمة تقدم مظلة واقية لحماية هذه الطائرات . واعلن بيجين عن هذه العملية بعد يوم واحد من وقوعها . وكان يوم احتفال الحصاد اليهودى المسمى « شافوت » تعد ان اتهم الاردنيون الطائرات الاسرائيلية بمساعدة ايران فى حربها ضد العراق حليف الاردن . وبالرغم من انه لم يكن هنك اى ذكر للمفاعل الا ان بيجين اتخذ من هذا ذريعة كاذبة للاعلان عن قصة تدمير المفاعل العراقى وقد تكون هناك ميزات دولية فى اخفاء اسرائيل تورطها فى هذه العملية لكن بيجين كان دائما يميل الى العلانية . وكان توقيت العملية متاثرا بقرب الانتخابات .

وقد تم اخطار الامريكيين والاصدقاء الذين تساءلوا عن هذه العملية ان بيجين قد نفذها فى يونيو لانه لم يكن متأكدا من الفوز فى الانتخابات وكان لايثق فى خلفائه من حزب العمل ان يقوموا بتنفيذها ان هم فازوا فى الانتخابات وكان هذا احد هذه الاعتبارات . كذلك فان ما اثار قلق رئيس الوزراء هو تهديدات المفاعل العراقى . فلم يكن يراود الاسرائيليون اى شك فى ان الرئيس صدام حسين يزمع صنع قنبلة ذرية . ولكن الشهود المقربين من بيجين قالوا كان يريد عملية كهذه لاغراض انتخابية . وكانت الاغلبية من المستشارين الخبراء يعتقدون ان

هذا المفاعل لن يكون تهديدا حقيقيا قبل مرور ثلاث سنوات ولكن الاقلية من هؤلاء الخبراء ومستشارى الحكومة كانت توافق على ان هذا المفاعل سوف يكون كذلك فى يوليو عام ١٩٨١ . اما الراى السائد بين رجال المخابرات فى واشنطن فكان يرى ان ذلك سوف يحدث بعد عام واحد . وكان بيجين مقتنعا بان قصف المفاعل بعد ان يشكل تهديدا حقيقيا سوف يترتب عليه الالاف من الضحايا نتيجة للاشعاع فى بغداد .. ولم يكن مستعدا لتحمل مسئولية كهذه . وعلى اية حال فان كلمة واحدة من خبير اسرائيلى يقول فيها ان تهديد المفاعل قد يبدأ بعد شهر واحد كافية لان يتخذ رئيس الوزراء قرارا بقصفه .

وقال له المخططون العسكريون أن مخاطر الفشل ضئيلة جدا . وعلى أسوأ الظروف فقد تضطر هذه الطائرات الى العودة أو أن تصاب واحدة أو اثنتان منها وهى فى طريق عودتها أو من الصواريخ المنصوبة فى بغداد وكانت القوات الجوية واثقة من أن فى استطاعتها حل مشكلة المدى (وهى مشكلة الوصول الى بغداد والعودة على ارتفاع منخفض الحاجة الى اعادة تزويدها بالوقود) . واذا ما كان هؤلاء المخططون على صواب فعندئذ تصبح مخاطر فشل هذه العملية على الانتخابات غير ملموسة . وكذلك استبعدت مخاوف وشكوك مدير المخابرات العسكرية ، جنرال يهوشوا ساجوى ، من أن تؤدى هذه العملية الى تعميق الفجـــوة والازمة بين اسرائيل والولايات المتحدة . وكذلك لم يأخذ برأيه القائل بأن العراق فى حاجة الى خمس سنوات قبل ان يستطيع انتاج قنبلة نووية ، وعندئذ سيكون امام اسرائيل متسع من الوقت لمحاولة الوسائل غير العســــكرية . وكان جنرال ساجوى يلقى تأييدا لرأيه هـذا من الأغلبية فى القيادة العسكرية ولكن ثلاثة من مؤيدى التنفيذ المبكر للعملية كانت لهم الغلبة وهم مناحم بيجين ، ووزير الزراعة ارييل شارون . ورئيس الاركان المعروف بقوة شكيمته جنرال رافائيل ايتان . ولكى يحيد اثر التحفظـــات السياسية داخل الحكومة فان بيجين حول اتخاذ قرار بالنسبة للتوقيت الى لجنة فرعية ثلاثية مكونة منه ومن شارون ومن وزير الخارجية اسحق شامير وثلاثتهم من الصقور المتشددين .

وما ان اخبروه بما قاله الأردنيون اصدر بيجين تعليماته الى المتحدث الرسمى الناطق باسمه أورى يورات بأن يعلن عن نجاح العملية الاسرائيلية ، وكان يورات جديدا فى هذه الوظيفة حتى ان المحـــرر المسئول فى الاذاعة الاسرائيلية لم يتعرف على صوته . ولذلك تردد فى اذاعة القصة حتى قلم رئيس قسم الاخبار باذاعة اسرائيل ايمانوئيل هالبرن وهو قريب لبيجين بالتأكد من القصة من رئيس الوزراء وانها ليست خدعة . واذيعت القصة كنشرة اخبارية خاصة فى الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر .

وفى مؤتمر صحفى فى اليوم التالى استبعد بيجين الشجب العالمى للغارة مصرا على ان اسرائيل قد تصرفت من منطلق الدفاع القومى عن النفس واتهم الرئيس صدام حسين بالتآمر لتركيع اسرائيل ولتدمير وجودنا ومستقبل وطننا . وزعم انه باستطاعة العراق ان يدمر تل ابيب الكبرى ومركز الصناعة الاسرائيلية والحياة الزراعية والثقافية والتجارية بثلاث قنابل فقط مما القيت على هيروشيما فى سنة ١٩٤٥ . وقال ان ما يقرب من ستمائة الف ضحية سوف تقع فأين هو هذا البلد الذى يمكن ان يحتمل مثل هذا الخطر ؟ انه لن تكون هناك اية مذبحة أخرى فى تاريخ الشعب اليهودى .. انها لن تقع قط .. اننا سوف ندافع عن شعبنا ضد اى عدو . ان كابوس آرثر مورس لن يتكرر ثانية . لم يكن بيجين دائما هكذا مع الارقام التى يدلى بها . ولقد تقابل مع مراسل لوكالة رويتر فى حفل فى السفارة البريطانية واخبره بأن القنابل الاسرائيلية قد دمرت معملا سريا على بعد اربعين مترا تحت سطح الأرض . وعندما ظهرت الدهشة على الوجوه كرر بيجين هذا الزعم ، وعندما سئل لماذا لم يكشف عن ذلك من قبل اجاب : « ولماذا اعطيكم كل شىء مرة واحدة ؟ وشرح المتحدث باسم رئيس الوزراء اورى بورات ان العراقيين كانوا يفعلون الاشياء التى لا يريدون اكتشافها فى حجرة تحت الأرض . وفى اليوم التالى اتصل بيجين هاتفيا بمراسل رويتر باتريك مس واعتذر له عن تضليله وقال له انه قد علم الآن ان المعمل كان يقع على بعد اربعة أمتار تحت سطح الارض . وثمة مواقف اخرى حرجة . فقد ناشد بتزاك هوفى رئيس المخابرات العامة (الموساد) الساسة الاسرائيليين علنا بألا يفشوا اسرار اتصالات اسرائيل بأجهزة المخابرات الأجنبية ويكشفوا عن معلومات سرية أمكن الحصول عليها منها . ولم يكن فى حاجة الى تحديد اسماء هؤلاء الساسة . كما أخطأ وزير الخارجية فى الاستشهاد بأقوال صدام حسين فى بيان وزع على الصحافة والبعثات الاسرائيلية بالخارج . ولكن لم يكن هناك ادنى شك فى أن الغارة على المفاعل الذرى قد رفعت من صورة بيجين كزعيم يستطيع فى ان يتخذ القرارات الشجاعة وتنفيذها على الفور . وكان الاسرائيليون يشاركونه الرأى فى ان تهديد المفاعل الذرى قد تمت ازالته وبقى حزب العمل فى شجار وجدل حول التواريخ التى يمكن ان يصبح فيها هذا المفاعل تهديدا واقعا ، وهذا الجدل لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للناخبين .

وفى قياس للرأى العام فى أواخر مايو وقبل الغارة على المفاعل باسبوعين استطاع حزب ليكود ان يتجاوز حزب العمل . واخذ التأييد للحكومة يتزايد فى السياسة الداخلية والخارجية والامن . وكان التأييد والتعاطف مع ايريل شارون فى تزايد بالنسبة لحملته لاقامة المستوطنات فى الضفة الغربية والتى كان التليفزيون التجارى يذيعها وفى الجولان التى تقوم بها القوافل فى الأراضى (المحتلة) والتى يديرها الوزير نفسه وتحت عنوان : « اننا على الخريطة » وزادت عملية بغداد من تقدم حزب ليكود لكن حزب العمل تراجع فى الأيام

الاخيرة القليلة من الحملة الانتخــابية . وركزت المعارضـــة على العنف فى الانتخابات وهذا دفع الكثيرين من الناخبين الذين يقفون فى منتصف الطريق الى اعادة تقييم ما يؤمنون به من اسبقيات . فاذا ماكان هدفهم الرئيسى هو اخراج حزب ليكود فانهم لن يستطيعوا تحمل التصويت لصالح أحد الاحزاب الصغيرة من اليسـار او الوسط . واستطاع بيريز ان يرتفع بموقعه نتيجــة لادائه الطيب فى مناقشة تليفزيونية مع بيجين وعن طريق ضم منافسه اسحق رابين الى فريق رئاســة الحزب . وكانت المحصلة هى حدوث سباق متقارب بين الحزبين الكبيرين لم يحدث مثله فى تاريخ اسرائيل . وفى لحظة مبكرة عندما كانت نتائج الانتخابات تدخل الى كمبيوتر التليفزيون ظهر بيريز وكأنه هو الفائز . وحصل حزب ليكود على ٤٨ مقعـــدا مقابل ٤٧ لحزب العمـــل . وكان فارق الاصوات هو ١٠,٠٠٠ صوت فى انتخابات أدلى فيها ما يقرب من مليونين بأصواتهم . وكان الفارق العرقى والعنصرى أكثر وضوحا عن سنة ١٩٧٧ . وقال محلل الانتخابات هانوش سميث :

« لقد حقق تحالف العمل مكاسب كبيرة فى جميع المدن التى بها اغلبية من اصل اوروبى . وعلى عكس ذلك فان اصوات حزب ليكود ظلت كما هى دون تغيير . وكان نمط التغييرات فى المكاسب الكبيرة التى حققها حزب ليكود فى المدن التى تسكنها اغلبية آسيوية — افريقية . وهذا يدل على ان زيادة مقاعد حزب ليكود من ٤٥ الى ٤٨ ترجع الى كسب جديد فى أصوات الناخبين من الآسيويين والافريقيين وخاصة فى المدن النامية » .

وكان قيام تآلف هذه المرة أكثر صعوبة مما كان عليه عام ١٩٧٧ لـــكن بيجين كان مستعدا مرة اخـــرى لأن يدفع الثمن فى صورة حـــزب اجودات اسرائيل الأرثوذكسى المتطرف والحزب القومى الدينى وحزب شمال افريقيا الجديد المسمى « تامى » واصبح اكثر سهولة على طلبة مدارس اليشـــيفا (مدارس التلمود) والمعلمين فى هذه المدارس تجنب الالتحـــاق بالجيش أو فى الاحتياطى . واجبرت شركة الطيران « العال » على ان توقف طيرانها فى أيام السبت . وبالنسبة لبيجين فان تأييد الاحزاب الدينية له يستحق كل « شاقل » (العملة اليهودية) ولأول مرة قد فاز فى الانتخابات عن طريق غريزة الجماهير وعن طريق مهارته القديمة فى الحملات الانتخابية وبقى وكلاء الاعلانات فى اماكنهم . لقد حقق المستحيل ولم يفته النصر .

الفصـــل الثانى والعشرون

خيـــار الحـــرب

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاحـــد الموافق الســـادس من يونيـــو عام ١٩٨٢ شنت اسرائيل هجوما شاملا برا وبحـــرا وجـــوا على معاقل الفلسطينيين فى جنوب لبنان من البحر الابيض المتوسط حتى سفوح جبـــل الشيخ ...

وفى خلال ساعات انتقلت أخبار القتال من الميناءين القـــديمين صيدا وصـــور وما أن حل صباح اليوم التالى حتى رفرفت نجمة داوود على قلعة بيفورت ، وهى قلعة للصليبيين اقاموها فوق مدخل نهر الليطانى ، والتى منها كان الفدائيون التابعون لياسر عرفات يلقون بظلهم على لسان الجليل وبذلك كانوا يعيدون المحاولات السابقة لاقتلاعهم من هذا المعقل .

وفى خلال أسبوع واحد كانت الدبابات الاسرائيلية عند ابواب بيروت . وهكذا تصاعدت هذه الغزوة الانتقامية الى حرب وصفها بيجين بأنها « حرب الخيـــار » ولاول مرة لم يحـــاول زعماء اسرائيل الاختفاء وراء شعار « ليس لدينـــا الخيـــار » .

لقد خططوا وانتظروا واختاروا الفرصة عندما لاحت لهم ولم تكن هـــذه حرب فتح واستيلاء على الاراضى كمطمع نهائى بـــل كانت حربا جلبت على رئيس الوزراء أشـــد العقاب .

لقد كانت المدرعات الاسرائيلية قد عبرت الحدود فى غضب قبـــل ذلك بأربع سنوات كانتقام لمذبحة ذهب ضحيتها اثنـــان وثلاثون مدنيا فى عمليـــة اختطاف قافلة للسائحين على الطريق الساحلى بين تل أبيب وحيفا .

وكانت « عملية الليطانى لعام ١٩٧٨ » عملية تمت على عجل وفى غير نظـــام فى معظم الاحـــوال اكتسحت قواتها جنوب لبنان وقامت بتطهير حزام ملتو ضيق تم فتح هذا الحزام لصديق اسرائيل الرائد سعد حـــداد . وحتى ذلك الوقت كان الفدائيون ـ الفلسطينيون على مرمى البصر من القـــرى الاسرائيلية ولذلك فانهم قد جعلوا الحيـــاة غير محتملة بالنسبة لجيرانهم من المسيحيين والشيعة المسلمين اللبنانيين .

هذا الاقتحام الاول قد تمخض عن قدر من السلام . وكان على المتسللين أن يتحدوا قوات الامم المتحدة المعسكرة فى المنطقة الفاصـــلة ، وكذلك ميليشيات سعد حداد المحلية وايضا دوريات الحدود الاسرائيلية (التى كان بعضها يعمل

داخل لبنــان) او ان يغامروا بشن الهجوم من البحر . ولقــد اوضحت حرب استنزاف ثابتة ومصغرة وكانت قد تمخضت عن ازمة الصواريخ السـورية فى صيف سنة ١٩٨١ ان الفلسطينيين كانوا قريبين جدا من اسرائيل ويهددون راحتهـــا .

وكان فى استطاعة قطع المدفعية السوفيتية الصنع من عيار ١٣٠ م . م وكذلك قاذفات صواريخ كاتيوشا المتحركة والتى كان فى استطاعتها ان تطلق اربعين صاروخا فى المرة الواحدة ، ضرب مدن وقرى الحــدود كلما ارادوا ذلك .

واثناء حملة الانتخابات عام ١٩٨١ وعد بيجين بأنه لن تســقط بعد ذلك اية صواريخ كاتيوشا على مدينة كريات شيمونة وهى مدينة متطورة فى الجليل اصبحت رمزا للخــوف ورمزا للحياة المعطلة الممزقة .

وبعد شهر من اعادة انتخابه ادى هجوم جديد اعنف من اى هجوم سابق الى اجبار نصف سكان المدينة على هذا الحصول على عطلة مفروضة واجبـــر النصف الاخر على أن يبقى فى المخابىء .

وهكذا تحول الاسرائيليون الى لاجئين فى ارضهم . ووضع الجيش الخطط لابعاد مدافع الفلسطينيين ، لكن هذه الخطط قــد وضعت على الرف عنــدما استطاع الوسيط الامريكى فيليب حبيب التوصــل الى وقف لاطلاق النار . وهكذا برزت بذور الغزو الذى تم عام ١٩٨٢ .

واكد تعيين ارييل شارون وزيرا للدفاع بعد انتصار ليكود فى الانتخابات ان هذه الخطط لن يتراكم عليها التراب . وكان بيجين قد قاوم كثيرا هذا الخيار لمــا عرف عن شارون من جموح وتصلب فى الراى .

وكان كل من وزير الدفاع الجديد ورئيس الاركان رافائيل ايتان على اقتناع تام بأن لديهما الرد العسكرى على مشكلة منظمة التحــرير الفلسطينية . وكانا يقولان أن — اسرائيل فى استطاعتها تدمير قوة عرفات وقاعدته فى لبنان وهى البلد الوحيد الذى لازال فى استطاعته العمل منه — بصورة مستقلة — ضـــد الدولة اليهودية ومن ثم يرفعون قبضتهم من على العــرب الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

وفى نفس الوقت يمكن اقامة حكــومة صديقة فى بيروت برئاسة الزعيم الكتائبى بشير جميل والذى كانت اسرائيل قد رعته منذ منتصف السبعينات .

ولقى هذا المشروع استجابة لدى بيجين من الناحية الايديولوجية والناحية المزاجية . وبذلك تستطيع اسرائيل ان تؤكــد قوتها ضد اخر اعدائهـــا الذين يريدون تدميرها . وعندئذ سوف يأخذ اليهـــود مصيرهم فى أيديهم .

ان رئيس الوزراء كان قد حصل على جائزة نوبل للسلام ولكنه لم يتخل عن جابوتنسكى . فهو ليس بالقديس وليس ايضا من معارضى الحرب ورافعى راية السلام .

وكان بيجين هو الذى عرض خطة الغزو على الحكومة فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٨١ ، وذلك بعد اسبوع واحد من ضم اسرائيل للجولان . وكان السوريون فى حالة غضب شديد وفضل رئيس الوزراء ان يواجههم فى لبنان بدلا من مواجهتهم على المرتفعات . وانصت الوزراء فى دهشة فى حين بدأ شارون ثم ايتان فى شرح أهداف « عملية شجر الارز » والتى نصت على اختراق اسرائيلى حتى طريق بيروت - دمشق وحصار بيروت ، والاتصال بالكتائبيين المسيحيين اليمنيين فى الشمال والنزول فى ميناء جونيه على بعد خمسة عشر كيلو مترا خلف العاصمة . وضغط بيجين للحصول على قرار بالتنفيذ لكن كثيرا من الوزراء عارضوا المشروع الامر الذى اضطره الى سحبه دون التصويت عليه .

وفى نفس الوقت عرض شارون مشروعه الكبير هذا مرتين على المسئولين الامريكيين وطبقا لما قاله أحد الذين استمع اليه : « لقد أعطى وجهه نظر شخصية ودقيقة لما يريد أن يفعله بالنسبة لمشكلة لبنان وقال بعناية أن هذه وجهة نظره بالفعل » .

ويزعم الدبلوماسيون الامريكيون أنهم على الفور حذروا وزير الدفاع من مثل هذه الامور . وكلما امكن لواشنطن رصد اية علامة عن حشود عسكرية اسرائيلية فى الشمال كانت تبعث برسائل تحذيرية قوية الى بيجين عن طريق سفيرها فى تل أبيب صموئيل لويس . وقد ساعدت هذه الرسائل على كبح جماح اسرائيل فى مناسبات أربع فى النصف الاول من عام ١٩٨٢ عندما تعرضت حكومة بيجين لاغراء شن الحرب .

كان رئيس الوزراء من بين الاغلبية فى الحكومة التى كانت تعارض شن حرب انتقامية على نطاق واسع ردا على غارة للفدائيين على مستوطنة محولا ، والتى تقع فى وادى الاردن ، وذلك فى نهاية شهر يناير ، وكذلك اعترض مرة أخرى فى شهر مارس عندما اقترح كل من شارون وأيتان اتخاذ مبادرة فى لبنان لاختبار نوايا المصريين قبل الجلاء النهائى من سيناء . ولكنه انضم الى الصقور فى نهاية الشهر عندما قتل احد الجنود الاسرائيليين من انفجار قنبلة يدوية فى غزة .

وعلى أية حال فقد كان بيجين وشارون يمثلان أقلية من اثنين ولم يحدث شىء وأدرك الامريكيون أن البندول يتذبذب تجاه اتخاذ عمل ما . ولم تنشر قط شروط فيليب حبيب لوقف اطلاق النار ولكن الاسرائيليين قالوا ان الهدنة تنسحب على العمليات الارهابية فى الداخل وفى الخارج ولا تقتصر فقط

على تلك التى تقع عبر الحدود اللبنانية ولكن الفلسطينيين كانوا يجادلون فى هذا المفهوم وكذلك فعلت الولايات المتحدة ولكن هذا المفهوم ظل عقيدة وايمانا بالنسبة لبيجين وشارون ٠

ومرة اخرى اقترح وزير الدفاع ما وصف بأنه « مشروعه الكبير وذلك فى اوائل ابريل بعد أن قتل دبلوماسى فى باريس ولم يخف أبعاد هذا المفهوم الحقيقية عن مجلس الوزراء وان كان قد عزم على البدء بشن غارات جوية على قواعد الفلسطينيين ٠ وقد تم تخطيط الحملة على أن تستغرق ثمان واربعين ساعة للوصول الى بيروت وطريق بيروت ـ دمشق وأن يبقى الجيش فى لبنان لمدة اسبوع واحد ولكن عندما عرض الامر على زعماء المعارضة قدر اسحق رابين أن اسرائيل سوف تحتفظ بكل لبنان لمدة تصل الى ستة أشهر ٠ وعندما سأل رئيس الوزراء السابق الرئيس الحالى مناحم بيجين عما اذا كان على استعداد لقبول هذا الاحتمال أجاب بيجين بالنفى ووضع هذا المشروع على الرف مفضلين عليه القصف الجوى ٠

وبعد تأجيلات متعددة أرسلت القوة الجوية فى العشرين من ابريل وذلك بعد أن قتل ضابط فى الجيش نتيجة لانفجار لغم وهو يقوم بدورية فى جنوب لبنان ٠ ولم ترد منظمة التحرير الفلسطينية ولكن بعد اسبوعين قصفت منطقة الجليل كرد على موجة ثانية من الغارات الجوية الاسرائيلية ـ وكانت هذه اول عملية انتهاك فلسطينية على هذه الجبهة منذ الهدنة ٠ واقترح بيجين عملية انتقامية واسعة المدى بالرغم من أن القصف كان على نطاق ضيق رمزى ولم يصب الاهداف بصورة متعمدة وكانت الحكومة منقسمة بالتساوى بين مؤيد ومعارض ٠ ووافق بيجين على تأجيل العملية ٠

ولكن تقرر أنه اذا ما قتل احد اليهود أو جرح على يد الارهابيين فى أى مكان من العالم فعندئذ سوف تعمل اسرائيل ٠

ومرة أخرى عرض بيجين وشارون على زعماء المعارضة نوايا الحكومة ولكن عملية حجب المعلومات قد بدأت وسأل رابين وزير الدفاع شارون عما اذا كانت الخطة تتضمن صيدا التى تبعد ستين كيلو مترا شمالى الحدود وقدم وزير الدفاع ثلاثة ردود مختلفة وبعد ذلك بعام كتب رابين يقول :

« لقد كان واضحا انه لا يريد أن يقول الحقيقة ولقد أجاب هكذا : (اعتقد ذلك) ثم قال بعدئذ : (لا اتذكر على وجه التحديد) ٠ وبعد ذلك قال : (سوف أذهب وأراجع الخطة)٠ وترك الحجرة فى وسط الاجتماع للتحقق من وجود صيدا فى الخطة ٠ وعاد الينا ليقول (أنها تدخل فى الخطــة) وسألته عن بيروت لكن أريل اعطانا الانطباع بأن صيدا هى الحد وعندما سأله عما اذا ما كانت

بيروت ضمن هذه الحدود وجاءت الاجابة (لا) وهكذا خدعت ، ولكن لم آكن أنا وحدى الذى خدع • لقد خدعت الحكومة وربما للحصول على موافقتها » •

وفي العشرين من مايو ذهب شارون الى واشنطن حيث تقابل مع وزير الخارجية الكسندر هيج، ومرة أخرى عرض شارون خطته لسحق الفلسطينيين وان كان لم يحدد الى أى مدى سوف يذهب الهجوم الاسرائيلى •

ويقول الدبلوماسيون الامريكيون أنه لم يذكر بيروت • لقد كان كل اهتمامه هو الا تشكو حكومة ريجان بعد العملية من أن اسرائيل قد فاجأتها كما فعلت بالنسبة للغارة على المفاعل العراقى وهيج مثل شارون جنرال متشدد قد تحول الى سياسى ولذلك فانه كان متعاطفا لقد كان يسعده كثيرا ان يرى منظمة التحرير الفلسطينية والتى كان يمقتها لانها اداة فى يد الكرملين ، وقد تمزقت أربا ، وفسر الاسرائيليون موقفه على أنه تشجيع بالسير قدما فى تنفيذ مخططهم • وقرأ أحد كبار المسئولين والذى كان ضد مشروع شارون ، بشىء من القلق برقية أرسلها الى القدس سفير اسرائيل فى أمريكا موشيه أرينز حول اجتماع شارون ـ هيج وكان رد فعل هذا المسئول هو « يا الهى ! انهم اعطونا الضوء الاخضر » •

وكان هذا قبل أن يصبح هذا التعبير أمرا شائعا وانكر هيج أعطاء موافقة على غزو لبنان لكن كبير مساعديه وهو وودى جولد بيرج قد اعترف بأن وزير الخارجية قد قال بالفعل انه ليس من حق أى مسئول أمريكى أن يخبر حليفا لامريكا كيفية الدفاع عن نفســـه .

وقال أيضا : « ان أى شخص أصيب بدهشة من جراء تحرك اسرائيل فى لبنان أنما هو لم يكن يتابع الانباء عن كثب • وقال كذلك أنه اذا ما قـــررت اسرائيل أن تذهب فعليها أن تتأكد من أن رد الفعل سوف يكون مناسبا لاى استفزاز أثار وتسبب فى رد الفعل هذا » •

ويعترف مسئولون أمريكيون أخرون بانه ما أن بدأت الحرب حتى تحرك الجانب العسكرى فى شخصية هيج وادرك المزايا التى يمكن تحقيقها • لقد كان يريد لهذه الحرب أن تنتهى فى وقت قصير ولكن أن تنتهى بنجاح •

وقال أحد الدبلوماسيين فى شهادته : « أن هيج لا يكن أدنى حب لمنظمة التحرير الفلسطينية • وكان متعاطفا مع الفكرة القائلة بانه يجب اخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان • وكان يعارض اى وقف لاطلاق لنار يقع مبكرا اذا ما بدأت الحـــرب اننـا لم نرسم أى خطـــوط أو حدود ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام متعاطفا مع فكرة مهاجمة أو قصف بيروت » •

ومرة أخرى انعكس حماس وزير الخارجية على البرقيات الدبلوماسية بين واشنطن والقدس · وفى احدى هذه البرقيات التى تم تبادلها وانتشارها على نطاق واسع بين المسئولين الاسرائيليين والمخططين العسكريين ما اقتبسه موشيه أرينز على لسان هيج حيث قال : « أنكم تقومون بعمل عظيم فى لبنان وانه لعمل يهم كل فرد .

وأيا كانت نوايا وزير الخارجية فان اجابته « بلا » تبدو فى أذن الاسرائيليين كما لو كانت اجابة « بنعم » ومن الصعب الاختلاف مع زيف شيف عميد المراسلين العسكريين الاسرائيليين فى القول بأنه حتى اذا لم تكن هناك مؤامرة اسرائيلية امريكية فهناك مشاركة ضمنية بينهما ·

« فالامريكيون وقد تلقوا معلومات مسبقة عن نوايا اسرائيل اختاروا أن ينظروا الى الناحية الاخرى ، مبدين تعليقات غامضة حول لبنان بحيث تستطيع اسرائيل تفسيرها على الوجهة التى تريدها ·

وقد لخص احد المخضرمين فى وزارة الخارجية الامريكية هذا بقوله : « اذا لم يكن هيج قد اعطى الضوء الاخضر فانه قد اعطى ضوءا كهرمانيا مشوبا بالاخضرار » .

وفى اوائل صيف عام ١٩٨٢ كان الوضع فى لبنان هو حالة حرب تنتظر المبرر لبدئها . وقبل منتصف ليلة يوم الخميس الموافق الثالث من يونيو بقليل قدمت الحركة القومية لتحرير فلسطين ، وهى جماعة متطرفة منشقة بزعامة صبرى البنا (ابو نضال) هذا المبرر . فقد قام احد الفلسطينيين المسمى حسن السيد والبالغ من العمر الثالثة والعشرين ويعيش فى قرية بالقرب من مدينة نابلس بالضفة الغربية باطلاق النار على السفير الاسرائيلى فى لندن شلوموارجوف ، ثلاث مرات فاصاب راسه والجزء العلوى من جسمه بمسدس أوتوماتيكى بولندى الصنع عيار ٦٣ بينما كان خارجا من عشاء فى فندق دور شستر .

وكان الفريق الذى اطلق النار بقيادة نواف روسان وهو تاجر ولد فى الاردن . وقد عرف فيما بعد بأنه ضابط كبير فى المخابرات العراقية . وكان الاعتقاد السائد بأن السفارة العراقية هى التى امدته بالاسلحة . وعندما وصلت الانباء الاولى لمحاولة القتل الى القدس وكان بيجين نائما. وعندما تأكدت الاخبار ايقظه مساعدوه وأخبروه بما حدث وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى تكلم رئيس الوزراء هاتفيا مع جراح لندن هونورمان جرانت · وقد ذكرت الانباء أنه قد انتهى لتوه من اجراء عملية للسفير المصاب وعندما سأله بيجين عن حال السفير أجاب الطبيب : « لا أستطيع ان اعدك باى شىء » ، ولا استطيع ان اقول لك ما اذا كان سيعيش أم لا واذا ما عاش فكيف سيكون · »

ولقد واجه شلوموا ارجوف ساعات حرجة امتدت من اثنتى عشرة ساعة الى أربع وعشرين ساعة وفى بطء بدأ السفير يفيق ولكنه ظل مشلولا طريح الفراش . وكانت حياته بالغة السوء .

واستدعى بيجين الحكومة الى اجتماع عاجل وطارىء فى الساعة الثامنة والنصف صباحا . وكان قد قرر بالفعل أن اسرائيل لا تستطيع أن تدع هذا الاستفزاز يمر ... وقال أن السفير قد تم اختياره كهدف يهودى ولانه اسرائيلى ولانه رمز لدولة اسرائيل .

ان الرصاصة التى اصابت رأسه قد صوبت الى راس دولة اسرائيل . وكان شارون فى الخارج فى مهمة سرية ولكن جنرال ايتان عرف ما هو متوقع منه . وبدعوة من رئيس الوزراء اقترح على الحكومة أن تقوم القوات الجوية بقصف تسعة اهداف فلسطينية فى بيروت وسبعة أهداف فى جنوب لبنان .

وعبر العديد من الوزراء عن تخوفهم من قصف العاصمة انهم يذكرون الضجة التى أحدثتها عمليات قصف سابقة فى العام السابق . ووعد رئيس الاركان بأن تكون الاهداف مختارة بعناية لتجنب وقوع اصابات بين المدنيين . وبناء على اقتراح بيجين تم الاتفاق على خمسة أهداف وهى : ثلاثة قواعد للتدريب فى الجنوب وموقعان فى بيروت هما استاد رياضى حيث يضم مخزنا كبيرا للاسلحة الفلسطينية وآخر يضم تسهيلات تدريبية . وأدرك الوزراء انهم ربما يكونوا قد صوتوا كمقدمة تمهيدا لشن حرب . وحتى الحمائم فهم قد شعروا بأنهم لا يستطيعون مخالفة بيجين المرة . وشرح ذلك احدهم قائلا : « لقد قلنا مرات عديدة من قبل (لا) أما الآن ففى وجه هذه الدراما العالمية وفى وجه حالة بيجين العقلية المضطربة لا تستطيع أن ترفض » . اننا فهمنا ايضا أنه لا يمكن اغضاء الطرف عن محاولة القتل دون الرد عليها . اننا لم نكن متحمسين ، ولكننا كنا ندرك أن كرة الثلج لم يعد من الممكن وقفها .

وفى الفترة الاخيرة من ذلك اليوم قصفت الطائرات الاسرائيلية اهدافها وكما كان متوقعا جاء رد الفلسطينيين مماثلا .

وهذه المرة كانوا يصوبون ليصيبوا لا ليخفقوا فى اصابة الهدف . وانهالت أكثر من ثمانمائة قذيفة وصاروخ كاتيوشا على شمال الجليل . وسقط أحد هذه الصواريخ على كريات شيمونة بالقرب من سيارة يعقوب مريدور وزير التنسيق الاقتصادى واصابتها عدة شظايا واتصل مريدور برئيس الوزراء لينقل اليه المطالب المحلية بأن يفى بوعده الذى قال فيه « أنه لن تكون هناك كاتيوشا بعد الآن » وأجاب بيجين « انك تستطيع

أن تقــول لهــم أن كل شيء ســوف يكون على ما يرام ولكنــه حثــه على الا يضيف شيئا ولكن مريدور أدرك أن ميزان العمليات يتجه نحــو القيــام بعملية برية .

وأسرع شارون عائدا من أوروبا الى اسرائيل وتمت دعوة الحــكومة الى الانعقــاد فى الساعة التاسعة من مساء يوم السبت وأطلع ايتان الوزراء على صورة مصغرة من عملية شجر الصنوبر وهى عبارة عن هجوم ثلاثى الشعب لابعــــاد مدفعية الفلسطينيين ورد شـــارون على تساؤلات زملائه من المتشككين قائلا أن العملية قد صممت لتحقيق السلام فى الجليل وليس لغزو بيروت .

وفهم الوزراء انه يتكلم عن حدود لا تتعــدى على وجه التقـــريب أربعين كيلو مترا وهذا ما أكــده بيجين الذى اكد لهم انه ما دعــت الحاجــة الى الذهاب الى ابعد من ذلك فسوف تقرر الحكومة ذلك . وتم الاتفاق على ضرورة بذل كل جهد لتجنب المواجهة مع السوريين الذين لهم ما يصـــل الى ٣٠٫٠٠٠ جندى يرابطون فى شمال وشرق لبنان .

لكن كان اغراء السوريين على الانسحاب يشكل جزءا من خطة شارون ايتان وذلك لانهم كانوا يشكلوا مظلة واقعية لمدفعيــــــــة الفلسطينيين . وقال شارون أن القوات الاسرائيلية ســوف تصل الى خط الاربعين كيلو متر فى خلال اربع وعشرين ساعة وأن العملية سوف تنتهى فى خلال ثمان وأربعين ساعة . واعطى الوزراء موافقتهم الجماعية على الضربات الجــوية وذلك فى خلال اجتماع يوم الجمعة . ولكن ثلاثة فقط احجمــوا عن الموافقة على الغزو .

وهؤلاء الثلاثة هم نائب رئيس الوزراء سمحا ارليش ، ووزير الطاقــة اسحق برمان والاثنان من أحرار الليكود ، أما الثـــالث فهو يوسف بورج من الحزب الدينى القومــــى .

وانهى بيجين المناقشة بخطاب عاطفى . لقد قال انه لم يقدم اقتراحــــه بقلب مسرور وقال انهم يرسلون بجنودهم الى المعركة وان كل شىء سوف يبذل لمنع وقوع اصابات لكن المعركة معناها وقوع خسائر والخسائر معناها حدوث ثكلى وايتــــام .

والبديل غير المقبول لذلك هو حدوث ما حدث فى معسكرات الاعتقال فى اوشوتز وبينما كان بيجين يترك مكتبه ليطير الى الشمال الى مركز قيادة ،تقدم سمعه مساعدوه وهو يتمتم بكلمات وكانه يصلى : « ادعو الا تقع خسائر » ان اصداء هذه العملية سوف تؤرقه لعدة شهور فيما بعد ..

وبناء على اقتراح من بيجين اطلق على هذه العملية اسم « عملية السلام فى الجليل » وقال البيان الذى صدر بعد بدء العملية ان الجيش قد صـــدرت اليه التعليمات بوضع السكان المدنيين فى الجليل بعيدا عن مرمى نيران الارهاب فى لبنان . ولم يكن هناك اى اشارة محددة لحدود الاربعين كيلو متراً . ولقد ذكرها شارون فيما بعد وكذلك ايتان عندما بدأ التشهير بها لاندفاع الجيش الاسرائيلى بعيدا الى الشمال ولم يكن يساور الوزراء ادنى شك فى أنهم وافقوا فقط على حدود اربعين كيلو متراً .

وقد قال بيجين مثل هذا فى خطاب للرئيس ريجان فى نفس اليوم وهو يوم الاحد السادس من يونيو لقد قال .

« لقد صدرت التعليمات للجيش بأن يبعد الارهابيين الى مسافة اربعين كيلو متراً الى الشمال حتى يمكن تحرير جميع المدنيين فى منطقة الجليـــل من التهديدات الدائمـــة لحياتهم .

ومنذ الطلقة الاولى لم يكن شارون ولا ايتان يزمعان الوقوف بالعملية عند حدود الاربعين كيلو مترا وقال ضباط من الاحتياط ان قائدا كبيرا قد اخبرهم فى أول يوم بأن الهدف هو قطع طريق بيروت ـ دمشق واقامة نظام جديد فى لبنان ورفض وزير الدفاع انكار هذه المزاعم عندما ساله احد نواب حزب شينو وهو موردخاى ويرشوبسكى .

وكان شارون قد حدد أهداف الحرب فى التليفزيون الاسرائيلى فى الخامس والعشرين من يونيو بأنها : القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية واخـــراج الجيش السورى وعقد اتفاقية مع لبنان . ولم يقل شيئا عن حدود الجليل .

وفى الاول من اغسطس وفى خطاب امام خريجى مدرسة عليـــا كانوا سيلتحقون بالجيش قال :

« لقد ذهبنا الى الحرب ضد الارهاب ، ولازالة العائق الذى يهدد ويمنع التوصل الى وفاق بيننا وبين عرب أرض اسرائيل ، لقد ذهبنا للحرب حتى يمكننا ان نعيش فى سلام ، اليهود والعرب فى القاهرة وبير سبع ، فى يهودا والسامرة ، حتى يرفرف السلام بيننا فى اقرب وقت وعلى جانبى الاردن » .

وكان رئيس الاركان اقل دبلوماسية . ففى أوائل شـــهر يوليـــو اخبر الضباط ـــ والرجال فى وحدة على خط الجبهة ان القتال قد خلق الفرصـــة الوحيدة فى هذا الجيل لتغيير الأوضاع لصالحنا فى الصراع من اجـــل ارض اسرائيـــل . وقـــال :

أن تدمير واقتلاع القواعد الارهابية فى لبنان سوف يضعف المعارضـــة الفلسطينية للوجود اليهودى فى ارض اسرائيل .

وفى مقابلة مع دوف جولد شتين فى صحيفة معاريف اعترف شارون بان مجلس الوزراء وافق على الخطتين اللتين عرضهما تواضعا . ولكن قال انه كان يعلم أن هناك امكانية لان يتم فى النهاية تنفيذ الصيغة الاكثر طموحـــا من الخطتـــين .

وفى مقابلة اخرى مع نفس الصحفى اعترف ايتان بأن الحرب لم يكن يقصد منها مجرد تأمين قطاع يمتد الى اربعين كيلو مترا شمال الحدود وقال :

« لقد اصدر مجلس الوزراء تعليماته لجيش الدفاع الاسرائيلى بان يبعد ــ الارهابيين عن الحدود الشمالية لاسرائيل وان يدمر الارهابيين ويدمر مقـــار قيادتهم وتسهيلاتهم فى لبنان . وهناك ثلاثة أشياء لم يرد ذكرها فى تعليمات مجلس الوزراء : موضوع الاربعين كيلو مترا ، وموضوع بيروت ، وموضوع طريق بيروت ــ دمشق وعندما عرضت خطة الحرب على مجلس الوزراء عرضت الخطة بأكملها بما فيها محاصرة بيروت وقطع طريق بيروت ــ دمشق . واقرت الحكومة هذه الخطة ولكنها اصرت فى تعليماتها للرئيس بأن يكون التحرك من مرحلة الى اخرى فى الحرب خاضعا للقيادة السياسية . وهكذا فقد تم تنفيذ كل مرحلة من الحرب وكل تحرك من مرحلة الى اخرى عن طريق أخذ موافقة القيادة السياســـية .

لم يكن هذا هو ما ظهر للحكومة . فمنذ اليوم الثالث للحرب شك منتقدو شارون فى انه قد تم التغرير بهم وتضليلهم . ولم يكونوا مقتنعين بتأكيـــدات رئيس الوزراء ــ المتكررة بأنه فى هذه الحرب لن يحدث شىء ما دون أخذ الموافقة عليه بخلاف ما حدث فى الحروب السابقة . وانضم موردخاى زيبورى ، وزير المواصلات من حزب حيروت الى هؤلاء المتشككين . لقد كان عسكريا محترفا وصل الى رتبة قائد لواء واشترك فى حكومة بيجين الاولى كنائب لوزير الدفاع وعندما كرر ايتان مزاعمه بعد ذلك بعام واحد بان الحكومة هى التى فوضت الجيش منذ البداية لان يتعدى حدود الاربعين كيلو مترا اتهمه زيبورى بالكذب .

وفى اجتماع لمجلس الوزراء فى الحادى عشر من سبتمبر عام ١٩٨٣ نقـــل زيبورى من وقائع آخر اجتماع سبق الحرب ما يكذب مزاعم رئيس الاركان . وقال انه فى ليل يوم السبت اطلع ايتان الوزراء على حدود الاربعين كيلو مترا على خريطة وانه طلب الموافقة على عملية محدودة قائلا انها لن تستغرق سوى يومين لاتمامها . وقال زيبورى أن كلا من شارون وبيجين قد قالا نفس هـــذا الكـــلام .

كان شـارون عندئذ وزيرا بدون وزارة وكان حاضرا اجتماع سبتمبر عام ١٩٨٣ ، ولم يجادل فى ما قاله زيبورى . واكد سكرتير مجلس الوزراء دان مريدور

ما قاله زيبورى وقال « لقد قدم وزير الدفاع ورئيس الاركان خطة للقتال وطرد الارهابيين بعيدا الى خط اربعين كيلو مترا (وهو مدى المدفعية) من حدودنا الشمالية .

وهذه هى الخطة وهذا هو المدى الذى وافق عليه مجلس الوزراء فى اجتماع ليلة السبت .

وفى مقابلة فى تليفزيون اسرائيل وقبل وفاته بسبب هبوط فى القلب فى يونيو عام ١٩٨٣ قال سمحا ارليش : « لقد كانت هناك تفسيرات لقرارات مجلس الوزراء تمتد من القرار الذى اتخذه مجلس الوزراء والتنفيذ الفعلى فى الجبهة وفى بعض الاحيان كان هناك خروج مقبول ومحتمل ولكن كانت هناك ايضا اخطاء غير مقبولة وغير محتملة . واتهم شارون بأنه كان دائما يريد الخروج على قرار الاربعين كيلو مترا .

واستغل شارون نقص الخبرة العسكرية عند زملائه وكانت من الوسائل المحببة لديه محاولة الحصول على موافقة زملائه على تقدم صغير وتكتيكى ثم يعود بعد ذلك وبعد ان يكون قد حقق هذا التقدم ليشرح لزملائه ان هناك حاجة لمزيد من التقدم لبضعة كيلو مترات لتأمين ما قد تم احرازه بالفعل ولتحسين الاوضاع والمواقع . وفى احدى المرات ساله اسحق برمان وهو من اشد ناقدى وزير الدفاع : « ماهى المنطقة التى سوف يطالب منا بعد غد الموافقة عليها من اجل حماية الوحدة التى وضعتها فى الموقع الذى سوف تستولى عليه غدا والذى تمت الموافقة عليه ؟ وأجاب شارون وهو يكشر غاضبا » ياسيد برمان أن لك حاسة عجيبة للدعاية والفكاهة « وكان برمان يشكو من أن العمليات الصغيرة لا تتم ابدا بدون موافقة مسبقة ولكن لا ينطبق ذلك على العمليات الكبيرة فدائما ما يخيم الضباب على العمليات الكبيرة وعلى سبيل المثال منطقة شرق بيروت المسيحية فلقد علمنا فجأة أن هناك قوات اسرائيلية فى شرق بيروت وكأن ذلك معلومة بديهية .

وفى الحقيقة ليست كذلك فلم يكن هناك ابدا قرار حكومى بالنسبة لدخول شرق بيروت .

أن اختراق شرق بيروت والتغلغل فيه والذى كان أمرا واضحا لكل من زار العاصمة اللبنانية ، يعتبر من الحالات الصارخة . ففى الثالث عشر من يونيو ، وفى نهاية الاسبوع الاول من الحرب الاسرائيلية فى شرق بيروت ، وفى المطار الدولى وحول بعبدا وهى الحى الذى يضم القصر الجمهورى ، ومسكن وزير الدفاع . وتلقى الوزراء اجابتين : ان القوات الاسرائيلية ليست

فى بيروت . وان بعبدا والمطار يقعان خارج حدود المدينة وان هذه القوات عندما دخلت بيروت نفسها فانها فعلت ذلك ردا على خرق الفلسطينيين لوقف اطلاق النيران وكان على جيش الدفاع الاسرائيلى أن يسكت مصادر الخطر التى تهدد القوات الاسرائيلية وقالت صحيفة معاريف :

« سوف يتلقى الوزراء مكالمات تليفونية وهم فى منازلهم من الجنود والضباط بما فيهم كبار الضباط يخبرونهم عن قصص مختلفة لانتهاكات وخرق وقف اطلاق النار من جانب العدو وفتح الجيش الاسرائيلى النيران وكذلك القول بأن الجانب الاخر هو الذى بدأ بفتح النيران كما يقول راديو اسرائيل . وكذلك هنا شكوى من الاوضاع فى الميدان وهى اوضاع تختلف تماما عما تذكره الاذاعة ومن خلال سكرتيره ـ العسكرى الكولونيل أزريل كان بيجين يسمع التقارير عن خرق الاسرائيليين لوقف اطلاق النار وعن استفزازات جيش الدفاع الاسرائيلى » .

وعندما كان رئيس الوزراء وغيره من الوزراء يسألون عن تفسير ذلك كانوا يخبرونهم بأن جيش الدفاع الاسرائيلى لم يكن يرد دائما فى المكان الذى تعرض فيه لاطلاق النيران ففى بعض الاحيان ولعدة اسباب فانه كان يرد فى قطاع آخر مختلف . والجندى الذى تصدر اليه الاوامر باطلاق النار قد لايكون مدركا أن العدو هو الذى بدأ بفتح النيران فى مكان آخر وبينما لم يقبل معظم الوزراء هذا الايضاح الا أنهم كانوا يقفون عاجزين امام الزعم بأن العدو هو الذى بدأ بخرق وقف اطلاق النار .

أن حجم المكالمات التليفونية التى كان يتلقاها السياسيون والصحفيون الاسرائيليون والتى غالبا ما تكون من غرباء لم يسبق لها مثيل فى أثناء الحرب . انها تعكس قلق الامة فى خوض حرب من اختيارها ولقد عمقت هذه الحرب شعور الحكومة بأنها تساق رغم انفها ! وكتب هيرشى جودمان الذى حارب فى قوات الصاعقة فى حربين كبيرتين يقول : « لاول مرة فى تاريخ اسرائيل الغنى بالصراع كان هناك تصدع كامل بين هؤلاء الذين يصدرون الاوامر وأولئك الذين يطلب منهم أن يضعوا أرواحهم وأرواح رجالهم على خط المواجهة .

وكانت بيروت مجرد مثال واحد . وجاء قطع طريق بيروت ـ دمشق مثالا آخر ولقد توجه بيجين الى واشنطن للتشاور مع ادارة ريجان وكان ايرليش يقوم بأعمال رئيس مجلس الوزراء . وفى الثانى والعشرين من يونيو بدا جيش الدفاع الاسرائيلى فى مهاجمة المواقع السورية والفلسطينية بالقرب من بحمدون شرق بيروت . وسمع ايرليش عن هذا الهجوم لاول مرة فى الراديو المثبت فى سيارته وهو فى طريقه من تل ابيب الى القدس . وما ان وصل الى الكنيست حيث كان الوزراء وزعماء المعارضة يطلبون المعلومات عن هذا الهجوم حتى بدأ فى الاتصال بشارون . وطلب منه ايرليش ان يخبره بما يجرى . وعلى طريق

بيروت ــ ودمشق واجاب ايتان ان التقارير التى اذاعها الراديو ليست دقيقة . ان الجيش قد رد على نيران العدو فحسب .

واضاف يقول أنه ليست هناك تحركات للقوات الاسرائيلية . وبعد ذلك بيومين تم قطع الطريق وتم الحصول على موافقة على هذه العملية وهى موافقة بأثر رجعى . وصدق ايرليش ما سمعه ونقل تأكيدات ايتان الى زملائه . ولم يمض وقت طويل ليدرك انه قد غرر به . وقال فى مقابلة تليفزيونية فى يونيو عام ١٩٨٣ : « لقد قدمت لى معلومات ثبت بعد ذلك انها ليست دقيقة » .

وهكذا تم الالتفاف حول الوزراء بالنسبة لقرار الاشتباك مع السوريين والفلسطينيين فى شرق لبنان . وقد تجاهل شارون حتى رئيس أركان جيشه الذى اقلقه كثرة الاصابات التى فاقت مايكن لاسرائيل أن تتوقعه . واثار جيش الدفاع الاسرائيلى الخلافات والصدام وطلب وزير الدفاع من مجلس الوزراء أن يسمح له باقتلاع صواريخ سام ــ ٦ التى لاتزال متمركزة فى البقاع . وألح قائلا انه لا يمكن ترك القوات الاسرائيلية دون غطاء جوى . وألح شارون على ضرورة اتخاذ قرار سريع حتى تستطيع القوات الجوية أن تضرب قبل حلول الظلام ولم يكن امام مجلس الوزراء سوى الموافقة . وفى وجه انذار نهائى أمريكى بوقف اطلاق النار اصدر شارون اوامره بمزيد من التقدم برا .

وبالرغم من الشكوى المتكررة من شارون وايتان من انهما عوملا ككبش فداء من قبل مجلس الوزراء الذى ينبغى عليه ان يتحمل نصيبه من المسئولية عن كل ماحدث فى لبنان ، كان هناك دليل مناسب عن ابعاد الوزراء عن مباشرة الاشراف على سير الحرب ولكن ماذا عن رئيس مجلس الوزراء ؟ .

لقد قال بيجين نفسه بمرارة : « اننى اعلم عن كل التحركات ولكن احيانا قبل أن يتم تنفيذها واحيانا اخرى بعد أن يكون قد تم تنفيذها . وكان يرحب بالأهداف ــ العظام لمشروع شارون ــ ايتان .

وفى بعض الأحيان كان اكثر تصلبا من الحكومة . ففى نهاية شهر يوليو على سبيل المثال ــ ايد رئيس الوزراء بشدة عملية لاقتطاع وفصل معسكرات الفلسطينيين ــ وما جاورها عن جنوب غرب بيروت وحتى منطقة تضم ٦٠٠٠ مبنى وعشرات الالاف من السكان بين مدنيين ومقاتلين .

واقترح رئيس الاركان قصفا مكثفا عن طريق المدفعية وعن طريق الطيران لاضعاف العدو والاقلال من الاصابات بين الاسرائيليين والتى قدرها ما بين عشرين وثمانين وكان الكولونيل ايلى جيفا قائد فيلق مدرع قد طلب اعفائه من منصبه لكى يتجنب مهاجمة بيروت الغربية وقد قال لبيجين

أنه يقدر الخسائر بـ ٢٥ قتيلا اسرائيليا . وشعر العديد من الوزراء بالانزعاج من احتمال القتال فى مناطق مزدحمة بالسكان وكذلك بالانزعاج من ردود الفعل الدولية لهذا القتال وتمت الموافقة باغلبية واحد فقط اى تسعة أصوات مقابل ثمانية لكن بيجين رفض اعطاء موافقته بسبب ضعف الاغلبية الضئيلة .

وكانت هناك أوقات دافع فيها بيجين عن شارون امام منتقديه وهذا يعنى أن رئيس الوزراء لم يكن رافضا كلية لخطوات وزير الدفاع . وقد قال مرة لشارون : « من الافضل أن يمتطى الانسان جواد سباق تستطيع أن تسيطر عليه من ان تمتطى جوادا لا يستطيع الركوض » ولكن هناك بعض الحالات التى لم يكن يعرف بيجين ما يجرى فيها وفى خطاب فى الكنيست فى الثامن من يونيو وبعد يومين من بداية الحرب قال بيجين :

« اننا نريد شيئا واحدا فقط : وهو الا يلحق احد الضرر بمستوطناتنا فى الجليل بعد اليوم ولا ان يضطر مواطنونا فى مستوطنات الجليل الى الاختناق فى المخابىء ليل نهار . والا يعيشوا تحت تهديد الموت الفجائى من الصواريخ كتيوشا . هذا هو ما نريده . اننا لا نريد أى صراع مع الجيش السورى » .

واننا اذا ما وصلنا الى خط الكيلو الاربعين الى الشمال من حدودنا فان المهمة تكون قد انتهت وعندئذ يتوقف القتال .

وفى الواقع فان مجلس الوزراء كان قد اعطى شارون بالفعل موافقته على تنفيذ عملية تطويق القوات السورية من الشمال والشرق فى البقاع وهذا يعنى عبور خط الاربعين كيلو مترا . واعطيت الموافقة للقوات المدرعة بتحسين مواقعها ، وهو الامر الذى يعنى المخاطرة بوقوع صدام .

وقد خضع شارون لاستجواب عسير عندما عرض وزير الدفاع الموضوع على لجنة العلاقات الخارجية والدفاع بالكنيست فى نفس اليوم فيما بعد .

وحتى لو لم يكن بيجين محركا لما يحدث فى الميدان ، الا أن المعارضة العمالية والتى تضم ثلاثة من رؤساء الاركان السابقين وهم رابين وبارليف وجور كانت تدرك ذلك تماما وأكد بيجين لكل من بيريز ورابين اللذين كانا قد ارسلا اليه للتوسط فى الخلاف انه لم يتم اتخاذ اى قرار بالاشتباك مع السوريين فى معركة وفى نهاية الاسبوع فى يومى السادس والسابع من اغسطس وبينما كانت بيروت تحت الحصار وكانت الولايات المتحدة تحاول بالسة التفاوض على اجلاء الفلسطينيين عن العاصمة أصدر شارون أوامره بالتعبئة على نطاق واسع للاحتياطى وبدون اخطار رئيس الوزراء وبدون أخذ تفويض بذلك من مجلس الوزراء وبدلا من ذلك كان وزير الدفاع قد خطط

لشن هجوم وقالى اجهاضى على غرب بيروت المسلحة وسمع بيجين عن هـذه التعبئة من مكالمة تليفونية فى منتصف الليـل من يوسف بورج وكان ابراهام ابن يوسف بورج ضابطا من ضباط الاحتياطى وهو من زعماء حمـلة معاداة الحرب وقال بيجين مندهشا لوزير الداخلية يوسف بورج :

« اننى لم أوافق على استدعاء الاحتياطى » .

وعندما سئل شارون عن هذا الموضوع فى اليوم التالى قال انه طالمـا قد تم الاتفاق على شن عملية فى بيروت ليلا أصبح من الواضح لدى أن اعلن دعـوة الاحتيـاطى .

ولم يكن من السهل تهدئة رئيس الوزراء الذى قال متسـائلا : « ماذا يعنى بقوله انه اصبح من الواضح لدى ؟ انك لا تستطيع أن تقـدم على خطوة كهذه دون موافقة — هكذا يعلم كثير من الاشخاص عن هـذه التعبئة بينمـا لا يعلم رئيس الوزراء عنها شيئا ! وقبل شارون هذا التوبيخ وقدم اعتذاره .

وانتقد بيجين وزير دفاعه علانية فى اجتماع لمجلس الوزراء فى الثـانى عشر من اغسطس وهو اليوم اللاحق لاعنف واقسى قصف اسرائيلى لبيروت .

فلقد هاجمت الامواج تلو الامواج من الطائرات المناطق السكانية لمـدة احدى عشرة ساعة متصلة وبدون انقطـاع . وزعم ضابط كبير فى القـوات الجـوية أن معظم التفجيرات كانت قنابل صوتية ولكن لم يكن هـذا هـو الوضع بالنسبة للسكان على البر أو مشاهدى التليفزيون فى العالم كله .

كان الرئيس ريجان من بين هؤلاء واتصل هاتفيا ببيجين مرتين وطلب أن توقف اسرائيل هذه المذبحة . ورد بيجين قائلا ان الرئيس ريجان لا يعرف معنى هذه الكلمة لكن شارون تعرض لنيران ثقيلة فى مجلس الوزراء من دانيـد ليفى نائب رئيس حزب حيروت — ومن بورج الـذى خشى أن يؤدى هـذا القصف الى عرقلة التوصل الى اتفاقية للجلاء فى اللحظة الاخيرة وأن يوجـه اللوم فى ذلك الى اسرائيل . واتفق بيجين معهم على أن — القصف لـم يعـد يخـدم اى هدف نافع مفيد وأن اسرائيل سوف تتلقى نقـدا شـديدا من الولايات المتحدة . وتساءل بيجين قائلا : « وكيف سيكون موقف اسرائيـل أمام العالم اذا ما تم استدعاء فيليب حبيب من مهمته لوقف اطلاق النار وعندما حاول شارون الرد اكد رئيس الوزراء — غاضبا — سلطته ووافـق مجلس الوزراء على توصياته بالا تتخذ مبادرات بعد اليوم لحمـاية الجنـود الاسرائيليين بدون موافقة مجلس الوزراء والا يحـدث اى قصـف من البر أو البحر أو الجـو بدون علم رئيس الوزراء وموافقته .

وبالرغم من أن بعض الوزراء رأى فى ذلك تصويتا بسحب الثقة من شارون الا أن رئيس الوزراء لم يتخل عن وزير دفاعه . وفى الاجتماع التالى لمجلس الوزراء بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ اقترح بيجين نسيان الماضى . وكان عليهم أن يتحدوا معا ويسيروا جنبا الى جنب فى مهمتهم . وقال رئيس الوزراء : « محظوظة تلك الدولة التى يعمل فيها شارون وزيرا للدفاع » .

وكان بيجين بعد ذلك تلقى التقارير بصورة منتظمة من شارون وكانت هذه التقارير تصل الى ٥ أو ٦ تقارير فى اليوم الواحد . ولكن لما كانت هذه الحملة التى قدر لها ثمان واربعين ساعة قد امتدت طوال شهر يونيو ثم يوليو واغسطس حتى سبتمبر بدأت الشكوك تثار حول قدرة بيجين على البقاء .

لقد قام بزيارة واحدة للقوات الاسرائيلية فى لبنان وذلك فى اليوم التالى عندما ذهب ليهنىء وحدة المشاة التى استطاعت الاستيلاء على قلعة بيفورت وحاول أن يأخذ يوم عطلة نهاية الاسبوع فى بلدة نهاريا على الشاطىء الشمالى الا أن هذا لم يتم نتيجة لزيارة بشير الجميل ووزير الدفاع الامريكى كاسبار واينبرجر له .

وما هى المعلومات التى كان شارون وايتان يطلعانه عليها وما هى المعلومات التى كان يحجبانها عنه ؟ والى أى قدر كانا يحاولان الاتصال برئيس الوزراء أثناء فترات الازمات .

ان مصرع بشير الجميل وما تبع ذلك من مذبحة صبرا وشاتيلا يقدم الرد على هذا السؤال كانت مذبحة مخيمات الفلسطينيين فى صبرا وشاتيلا نقطة تحول فى كل العملية الاسرائيلية فى لبنان .

وكان بشير الجميل عندئذ الرئيس المنتخب للبنان قد قتل فى ليلة الرابع عشر من سبتمبر عندما دمرت قنبلة زمنية مكاتب الحزب فى شرق بيروت .

وتشاور بيجين تشاورا تاما وكاملا مع شارون وايتان اللذين اخبراه بالشائعات والشائعات المضادة حول مصير الجميل بينما كان رجال الانقاذ يحفرون وسط الانقاض وفى حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا عندما تأكد مصرع الرئيس جميل أشار بيجين على شارون بأنه ينبغى على جيش الدفاع الاسرائيلى أن يسيطر على نقطة العبور بين شرق وغرب بيروت للحيلولة دون وقوع فوضى واراقة للدماء وللفصل بين السكان والذين يحاولون بعضهم العداء . هذا هو على الاقل ما قاله رئيس الوزراء للجنة كاهان التى شكلت للتحقيق فى مذبحة صبرا وشاتيلا ووضع الجيش فى مظهر مخالف بناء على هذا القرار الذى اتخذه بيجين وشارون فى هذه الحالة الطارئة . وفى

غمرة قلق لبنان أعلن المتحدث العسكري في اليوم التالي انه سيكون موقفا لا اخلاقيا لو أن اسرائيل لم تساعد علي المحافظة علي السلام .

ان مصرع الرئيس المنتخب بشير الجميل هذا المأسوى يشير الى رغبة لدي عناصر معينة للعودة عن طريق العنف الي حالة الفوضى السابقة . وفى ظل مثل هذه الفوضى يتفشى الارهاب المعادي لاسرائيل ويزدهر وان اسرائيل لن تسمح بأن يحدث هذا مرة أخرى . ان التحركات الحالية للقوات الاسرائيلية تؤكد ان الهدوء سوف يسود وانه سوف يتم القضاء على الفوضى .

وأكد كل من بيجين ووزارة الخارجية أن اسرائيل قد تصرفت اثناء الليل للحفاظ على السلام . واستغل شارون وجيش الدفاع الاسرائيلى فرصة اغتيال الجميل لتمشيط الفدائيين الفلسطينيين وحلفائهم من اللبنانيين اليساريين الذين بقوا فى غرب بيروت بعد جلاء منظمة التحرير الفلسطينية فى نهاية اغسطس ودخلت حاملات الجنود المدرعة نقاط العبور الاستراتيجية فى الاراضى التي يسكنها المسلمون والفلسطينيون حيث واجهت مقاومة على نقاط صغيرة لكنها مقاومة نشطة وفي يوم الخميس الموافق السادس عشر من سبتمبر دخلت ميليشيات الكتائبيين معسكرى اللاجئين لمطاردة الفدائيين الفارين كما كان واضحا . وقد تم تنسيق دخولهم مع الجيش الاسرائيلى الذى ساعدهم عن طريق الاضواء الكاشفة وعن طريق التغطية بنيران المدفعية . وكان هذا كما لو وضعت ثعلبا فى حظيرة للدواجن وكما يمكن ان يتنبأ اى فرد له معرفة – ولو بسيطة – بتاريخ لبنان الحديث الملطخ بالدماء ، فان الكتائبيين قد نسوا كل شيء عن الارهابيين واخذوا يقتلون كل فلسطينى يعثرون عليه سواء كان رجلا أم امرأة ام طفلا . واعترف بيجين فى استجوابه من قبل لجنة كاهان انه لم يعلم اى شيء عن قرار نشر الكتائبيين حتى اخطر به اجتماع طارىء لمجلس الوزراء فى ليلة السادس عشر . انه لم يتم استشارته او اخطاره .

ومرة اخرى استند شارون الى تفويض بأثر رجعى زاعما ان نشر الكتائبيين قد تم بناء علي قرار اتخذ فى الخامس عشر من يونيو قبل ذلك بثلاثة اشهر . وان الجيش اللبنانى والكتائبيين وليس جيش الدفاع الاسرائيلى هو الذى سوف يستولى علي غرب بيروت وكان دافيد ليفى هو المعترض الوحيد وحتى هو لم يجد ما يبرر التصويت ضد ما حدث بالفعل .

وفى يوم الخميس دخل الكتائبيون المعسكرات ولكن لم يعلم العالم بما فعلوه حتى يوم السبت الموافق الثامن عشر من سبتمبر . واثيرت الشكوك حول القادة الاسرائيليين المحليين يوم الجمعة . لقد اصدروا اوامرهم للكتائبيين بوقف عمليتهم ولكنهم لم يجبروهم علي ترك المعسكرات قبل

صباح يوم السبت ولكن طبقا لشهادته هو ، لم يهتم احد بإخطار رئيس الوزراء . وكان يوم السبت هو يوم بداية السنة اليهودية الجديدة . ولكن كان فى الامكان ارسال مبعوث الى داخل المعبد بكل سهولة . وبدلا من ذلك علم بيجين بالمذبحة عن طريق الاذاعة البريطانية فى الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم السبت — انه لم يخطر بعد الحادث ولم يشر عليه احد بشىء عن المخاطر مسبقا وعندما سأله آهرون باراك عضو لجنة التحقيق وهو الآن قاض بالمحكمة العليا عما اذا كان ينبغى على أجهزة الامن ان تحذره اجاب بيجين : « ان ما ينبغى عليهم اخطارى به متروك اساسا لمبادرتهم الشخصية » .

كان سلوك بيجين وهو واقف فى المكان المخصص للشهود يتصف بعدم النظام وكان بيجين يبدو بخلاف اللجنة وكانه لم يؤد واجبه المنزلى . ولقد دهش عندما واجهه كبير القضاة اسحق كاهان بنسخ من وثائق اجتماعات مجلس الوزراء وبالمحادثات التى جرت مع مبعوث ريجان الخاص موريس دايبر وكان اعضاء مكتبه يعرفون أن اللجنة قد تلقت هذه الوثائق . ولم يكن فى استطاعته أن يتذكر اشياء هو وغيره قد قالوها بما فى ذلك بيان ادلى به جنرال ايتان جاء فيه ان الكتائبيين يسنون اسلحتهم من اجل الانتقام بعد مصرع بشير الجميل .

وبالرغم من انه كان يدل بشهادته بعد اقل من شهرين بعد المذبحة الا انه لم يكن دائما يفهم ما وجه اليه من اسئلة . وكان الانطباع هو ان رئيس الوزراء قد فقد قبضته على الامور . وعلق أمنون دانكيز فى صحيفة هاآرتس قائلا : « لقد رسمت الصورة عن رئيس وزراء لا يهتم بالتفاصيل وانه فى بعض الاحيان يكون متباعدا ومعتمدا على وزير الدفاع رئيس الاركان دون أن يحثهم على اطلاعه على ما يجرى .

وكان الانهيار فى التنظيم كما كان فى الاتصال . لقد استقال العميد افرايم بوران كسكرتير عسكرى لبيجين فى عام ١٩٨١ وبناء على توصية من شارون تم تعيين ضابط صغير بدلا منه وهو أزريل نيفو . واستغنى شارون نفسه عن ضابط كبير يعمل مساعدا عسكريا له وذلك عندما اصبح وزيرا للدفاع شارحا ذلك بانه ليس فى حاجة الى وسيط بينه وبين القيادة العامة وعلى نفس الشاكلة فانه يريد ان يكون حلقة الاتصال بين بيجين والجيش .

ولقد كان ازريل نيفو جنديا له مستقبل فى الجيش ولكنه لم يكن من العمر ولا من الرتبة العسكرية ما يمكنه من خدمة رئيس الوزراء وأن يصبح عينيه واذنيه كما كان يفعل سابقه لقد كان بوران جنديا مخضرما من حرب التحرير سنة ١٩٤٨ وكان يعرف القادة كزملاء وانداد له .

ولم يكن فى حاجة لان يستخدم القنوات التقليدية للحصول على المعلومات . وكان فى استطاعته ان يتوجه مباشرة الى الرجل المسئول فى موقعه . وهؤلاء الذين كانوا يعرفونه كانوا مقتنعين بأنه وان كان لا يستطيع منع المذبحة من الوقوع كان فى استطاعته ان يخطر بها رئيس الوزراء بدلا من السماع عنها من الاذاعة البريطانية .

ان الصراخ الذى اثارته صبرا وشاتيلا جعل رئيس الوزراء يلجأ للدفاع عن نفسه . وفى مذبحة فندق الملك داوود ، ومذبحة دير ياسين ، ومذبحة المعسكرات فى بيروت لم يثر فقدان الارواح غير اليهودية اى شعور بالمرارة . وقال بيجين : « ان الجوييم » « غير اليهود » يقتلون غير اليهود ثم يلقون باللائمة على اليهود » . قال ذلك فى اجتماع طارىء لمجلس الوزراء يوم الاحد الموافق التاسع عشر من سبتمبر . واتهم بيان اصدره المجلس وقعه رئيس الوزراء العالم بتوجيه تهمة سفك الدماء للدولة اليهودية وللحكومة اليهودية ولقوات الدفاع الاسرائيلية .

وقال البيان ان القوات الاسرائيلية لم تكن متمركزة فى المعسكرات وقت وقوع المذبحة التى نفذتها وحدة لبنانية .

وقال ايضا ان القوات الاسرائيلية قد وضعت حدا للقتل واجبرت اللبنانيين على ترك المعسكر . وبدون تدخل جيش الدفاع الاسرائيلى لكان عدد القتلى قد زاد زيادة كبيرة .

ان جميع الاتهامات المباشرة والضمنية بان جيش الدفاع الاسرائيلى يتحمل اللوم عن هذه المأساة الانسانية لا اساس لها من الصحة تماما . وان حكومة اسرائيل ترفض هذه الاتهامات بكل الاحتقار الذى تستحقه .

وبالرغم من الآثار الداخلية فاننا ندعو شعب اسرائيل الى الاتحاد حول حكومته المنتخبة انتخابا ديمقراطيا فى نضالها من اجل امن اسرائيل وسلامتها وامن وسلام كل مواطن اسرائيلى . ولا يجوز لاحد ان يعلمنا الاخلاق واحترام حياة الانسان وهى قيم تطعمناها وشببنا عليها وسوف نستمر فى تلقينها للاجيال القادمة من المقاتلين الاسرائيليين .

وكما اوضح تقرير لجنة كاهان فان المسائل الاخلاقية لم تكن بهذه البساطة ، لقد كان بيان الحكومة بمثابة قضية دفاع اقيمت على اساس من معلومات محددة . لقد تضمن ابسط تعبير رمزى عن الاسف والحزن لموت مئات من الفسطينيين . ورفض بيجين ان يصدر اى بيان شخصى بالاسف تماما كما استبعد قلق ايلى جيفى من جراء وقوع اصابات بين المدنيين عندما وقفت دبابات العقيد جيفى فى مواجهة غرب بيروت . وبعد ان شرح العقيد جيفى لرئيس الوزراء انه راى الاطفال من خلال نظارته

المكبرة عندما اتجه ببصره الى المدينة اجلب بيجين : « هل تلقيت تعليمات بقتل الأطفال ؟ واجاب جيفى بالنفى وعندئذ سأله بيجين : « وفيم شكواك اذن ! وقد اثار سكوت رئيس الوزراء على المذابح التى وقعت فى معسكرات اللاجئين غضب الرئيس اسحاق نافون الامر الذى دفعه الى الظهور على شاشة التليفزيون بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل ليقدم تعازيه ومواساته للأسر الثكلى مشيرا الى ان بعضهم هم من العرب الاسرائيليين او الفلسطينيين الذين يعيشون فى ظل الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

وتحت الضغوط المتزايدة من جانب الصحافة الاسرائيلية ومن جانب الرأى العام الاسرائيلى اضطر بيجين الى تشكيل لجنة استقصاء مستقلة للتحقيق فى تورط اسرائيل فى المذبحة . وحاول اول الامر أن يحدد سلطاتها فى نطاق استدعاء الاشخاص وطلب المستندات لكن المؤسسة القانونية استطاعت أن تحبط محاولته هذه مدعمة من قبل مؤتمر شعبى ضم ٤٠٠٫٠٠٠ اسرائيلى انعقد فى ميدان تل ابيب احتجاجا على هذه الاعمال .

وقد منحت لجنة كاهان المكونة من قاضيين وجنرال متقاعد كافة السلطات القانونية ولقد تمخضت تحقيقاتها المتأنية عن تقرير محدد واضح عن كل ما جرى فى صبرا وشاتيلا وعن كل ما كان ينبغى الا يقع أو يحدث .

وبالرغم من أنها برأت اسرائيل من المسئولية المباشرة الا انها اعتبرت اسرائيل مسئولة مسئولية غير مباشرة .

« ان قرار دخول الكتائبيين معسكرات اللاجئين قد اتخذ بدون اعتبار للمخاطر التى كان منفذو القرار قد رأوها محتملة الوقوع وهى أن الكتائبيين سوف يرتكبون مذابح وعمليات اضطهاد ضد سكان المعسكرات ، كما اتخذ هذا القرار بدون دراسة لوسائل منع هذا الخطر ·· وبصورة مماثلة فقد كان واضحا بين تتابع الاحداث أنه عندما بدأت الانباء ترد عن اعمال الكتائبيين فى المعسكرات لم يلتفت اليها التفاتا مناسبا ولم تستخلص النتائج الصحيحة من هذه الانباء ولم تتخذ اية اعمال نشطة ومباشرة لكبح جماح الكتائبيين ووضع حد لاعمالهم » .

وانحت اللجنة باللائمة على شارون لتجاهله اخطار المذبحة ولفشله فى اتخاذ الخطوات المؤدية الى منع وقوع المذبحة .

واوصت بلغة غير مباشرة — تسببت فى اثارة المتاعب لرئيس الوزراء — بأن يستقيل شارون من وزارة الدفاع أو أن يطرد من الوزارة .

ووجهت نقدا شديدا للجنرال ايتان والحت اللجنة بأنه لو لم يكن رئيس الاركان على وشك الاحالة الى الاستيداع لكانت قد أوصت بعزله · وادين كل

من ملجور — جنرال يوشوا ساجوس مدير المخابرات العسكرية وكذلك القائد المحلى فى بيروت العميد اموس يارون لتقصيرهما .

واوصت لجنة كاهان بعدم اتخاذ اى اجراء ضد بيجين ولكنها انحت عليه باللائمة لتجاهله اخطار المذبحة عندما دخل الكتائبيون المعسكرات وفشله فى متابعة ما جرى بعـــد ذلك .

« فقد يفترض أن اظهار الاهتمام من قبل رئيس الوزراء فى هذا الموضوع بعد أن علم بدخول الكتائبيين كان فى الامكان أن يزيد من حـــالة تنبه وزير الدفاع ورئيس الاركان الى الحاجة الى اتخـــاذ الاجـــراءات المناســـبة لمواجهة هذا الخطر المرتقب بأن تصور رئيس الوزراء عن الاندماج والمشاركة فى المشكلة باكملها يلقى عليه قدرا معينا من المسئولية ؟

ووجه النقد لوزير الخارجية اسحق شامير لعدم قيامه بما يكفى بمراجعة تقرير تلقاه من زميله مردخاى زيبورى ويلفت انتباه وزير الدفاع الى الشائعات بأن الكتائبيين يقتلون المدنيين غير المحاربين .

وبشعور بالحس القانونى الاصيل كان بيجين يدرك منذ اللحظة الاولى التى شكل فيها لجنة كاهان ان عليه أن يقر توصياتها وينفذها مهمـــا كانت قاسية . فنتائجها سوف تكون ملزمة اخلاقيا حتى لو لم تكن ملزمة قانونيا . لكنه كان عازما عزوفا تاما عن طرد شارون اذا مارفض وزير الدفاع أن يخرج فى هـــدوء .

وعلى اية حال فان ما يهم رئيس الوزراء هو أن اسرائيل قد برئت تماما من المسئولية المباشرة . فجنود اسرائيل لم يقتلوا اللاجئين فى صبرا وشاتيلا. وشارون يستحق مصير افضل من أن ينهى حياته العسكرية والسياسية نهاية مشينة لمجرد وقوع مذبحة قام بها المسيحيون اللبنانيون وعلاوة على ذلك فلم يكن يراود بيجين الشك فى أن أولئك الذين يريدون اسقاط شارون انما يريدون ايضا اسقاطه هو نفسه .

وعندما زار شارون بيجين فى صباح يوم نشر التقرير ساله رئيس الوزراء ماذا ينبغى عمله . واجاب شارون ان بيجين يمكن أن يقبل هذا التقرير أو يرفضه ان وزير الدفاع لن يستقيل ولكن بيجين يستطيع ان يفصله . واجاب رئيس الوزراء : « انني لن اطلب منك أن تستقيل » .

وكان المضمون واضـــحا . « واذا ما استخلص شارون النتائج الشخصية » كما جاء فى كلمات التقرير . فان بيجين لن يقف فى طريقه . لكن شارون لم يكن على استعداد لان تسير الامور فى سهولة . فانه لن يقبل أن يوصم بمحض اختياره بوصمة « قابيل » وقال بيجين انه اذا ثبت شارون فى مكانه فالاختيار الوحيد أمامه هو أن يذهب الى الرئيس ويقدم استقالتـــه

بالاصالة عن حكومته كلها ويطلب اجراء انتخابات فى وقت مبكر . وكان يؤمن بأن الشعب يقف معـــــه .

فالغالبية رفضت تقرير كاهان لانه شديد القسوة . وبضربة واحــــدة يكون قد فعل الشىء المناسب وكسب تفويضا جديدا من الشعب ولكنه كان مستعدا لان يترك الحكومة بعض الوقت قبل ان ينفذ هذا المخطط .

واجتمعت الحكومة ثلاث مرات فى ثلاثة أيام . واخذت تناقش التقريـــــر ونتائجه لمدة احدى عشرة ساعة متصلة . وفى الاجتماع الثالث والذى استمر خمس ساعات فى مساء العاشر من فبراير اصدرت الحكومة بيانا مقتضبا قالت فيه ان مجلس الوزراء قرر قبول توصيات اللجنة » .

وكانت نتيجة التصويت ١٦ صوتا مقابل صوت واحد . وكان شارون هو الوحيد الذى صوت ضد هذا القرار . وقال وزير العدل موشيه نســـيم للصحفيين : » ينبغى تنفيذ كل فقرة . واذا لم تنفذ فقرة من الفقرات فـــان مجلس الوزراء سوف يجد الوسيلة لتنفيذه . وارتقى القرار الى مرتبة الانذار النهائى فاما أن يسارع شارون بالخروج أو يدفع بقوة .

واكد سكرتير مجلس الوزراء دان مريدور انه ليس هناك من احد يلعب بالالفاظ وقال مسئول آخر كبير أنه يأمل فى الا يتعين عليه ان يجلس مرة اخرى للاشتراك فى مناقشة صعبة كهذه .

وخرج شارون من مكتب رئيس الوزراء فى تحد ولكن دون أن يتصل باحد وفى اليوم التالى انحنى للقرار الذى لا يمكن تجنبه واتصل ببيجين هاتفيا وقدم استقالته وكتب بقول انه سوف يحترم قرار مجلس الوزراء بابعاده من منصبه كوزير للدفاع ولكنه لن يستقيل من الحكومة . وبعد أن قال المدعـــى العام اسحق زامير أنه يكفى أن يخرج شارون من وزارة الدفاع وافق المجلس على الاكتفاء بذلك وابقاء شارون فى الحكومة كوزير بلا وزارة وبعد ذلك باسبوع اعيد تعيينه فى اللجنة الوزراية للدفاع ووجهت المعارضة نقد شديدا لبيجين لاحترامه كلمات والفاظ تقارير كاهان دون احترام روح التقرير وجوهره . لكن تقرير اللجنة كان غير دقيق فى توصيته بصورة متعمدة وكان من حـــق بيجين أن يقول أنه نفذ التزاماته .

الفصـــل الثالث والعشرون

« لا اســـتطيع الاســـتمرار »

ان ضعف الجسد والروح البطيء الذى كان يعانى منه مناحيم بيجين ، والذى وصـــل الى الذروة باستقالته فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ ، كان قد بـــدأ قبل ذلك بعامين فى الاغلب يوم ٢٦ نوفمبر عـــام ١٩٨١ .

وكان رئيس الوزراء يقرأ فى ذلك اليوم الاوراق الرسمية التى كان قـــد تم ارســـالها الى مقره فى ركن شارعى (بلفـــور) و (سموليتسلين) فى منطقـــة (طالبية) بالقدس . وبعـــد أن قرأ بيجين آخر برقية لديه ، ذهب ليغسل يديه قبل أن يلحق بزوجته وابنته (ليه) لتنـــاول العشاء الا أن قدمه زلت بين الحوض وقضيب المنشفة وسقط بقوة على أرضية الحمام .

وسردت هذه الاحداث التى وقعت يوم الخميس هـــذا وفقا لتسلسلها الزمنى لحظة بلحظة فى خطاب مفتوح غير عادى أرسله بعد ذلك بأسبوع الى (يوئيل ماركوس) المحرر بجريدة هـــــا آرتس الذى كتب مقالا ينتقد فيه زعمـــاء اسرائيل ومستشاريهم للشئون الطبية لاخفاء الحقيقة بشأن العلل التى يعانون منها عن الجمهور . وكتب مناحيم بيجين يقول :

« لقد ظللت ملقيا على الارض أحاول النهوض وكنت أتنهـــد من الالم . وحاولت ان انادى زوجتى لتأتى لمساعدتى ، لكنها لم تسمع نداءاتى لان صوت المذياع الذى كان معى كان مرتفعا .. لقد جاءت هى أيضا بمحض الصـــدفة لتغسل يديهـــا ، عندما فتحت الباب وجدتنى راقدا على الارض . وتســـاءلت قائلة : ما الذى حدث لك ؟ وأجبتها قائلا : « لقد وقعت » وقالت حينذاك .. « انهض » وقلت لها : « لا أستطيع » فقالت انتظر سأحضر « ليـــــه » . وجاءت « ليــــه » وتساءلت ماالذى حدث لك يا أبى وأجبـــت « وقعـــت » ولا أستطيع النهوض ، دعينى راقدا برهة وسأحاول النهوض ، وتشـــــاورت حينذاك زوجتى وابنتى معا واتفقا على أن يرفعونى من على الارض ويضعونى فوق الفراش المجاور . وسمعت الحديث الذى دار بينهما وقلت لهمـــــــــا « لا » ، لا تفعـــلا ذلك « فليست لديكما القـــوة وستضطران لتحريكى والحـــركة ستسبب لى آلاما رهيبة واعتقد انى كسرت فى شيئا ، احضرا الى اثنين من حراسى وسأذكر لهما ما يجب أن يفعلاه معى » .

وبعد برهة قصيرة جاء اثنان من شبابنا الرقيق ، وطلبت منهما أن يفعلا الآتى ضعا أيديكما تحتى ، دون أن تحركا (أعضائى) واحملانى فى ذلك الوضـــع

الى الفراش وضعوني عليه واقترب حارسا الامن مني وفعلا بالضبط ما طلبته منهما . شكرا لهما فقد رقدت على فراشى على جانبى الايمن وكان الالم شديدا لكن محتمل » .

وتم استدعاء اثنين من كبار الاطباء من مستشفى (هداساه) كان من بينهما (مرقين جوتسمان) ، الطبيب الشخصى لمناحيم بيجين ، وطلب سيارة اسعاف لتحمله الى المستشفى فى منطقة (عين كريم) على الطرف الغربى من المدينة ، حيث أثبتت أشعة اكس أنه يعانى من كسر فى فخذه اليسرى ، وكلما اسرعوا باجراء عملية جراحية له كان أفضل وفى حجرة العمليات قيل لبيجين انه سيكون مستيقظا طوال الوقت حيث لم يتم اعطاؤه الا عقارا مخدرا موضعيا .

لقد كانت الالام شديدة ولكنها لم تتزايد ، وقد شهدت استعدادات الجراحين وكيف ارتدوا ملابسهم ، وكيف تمت مساعدتهم فى ربط أحزمة اروابهم وكان جميع الموجودين فى الحجرة يرتدون اقنعة على وجوههم ، وكان من بينهم (البروفيسور جوتسمان) وأحد رجال الامن وبدأ التخدير ، وحقننى البروفيسور فلوريلا (ماجورا) عدة مرات بالقرب من عمودى الفقرى ، وبدأ التخدير تدريجيا فى الجانب الايسر من جسدى .

وجاءت اللحظة التى شعرت فيها باننى مجمد ثم اختفت الآلام وشعرت بتحسين كبير واصدر البروفيسور (مير) ماكين اوامره بوضع ستارة بين النصف الاعلى من جسدى وبين الجزء الذى ستجرى فيه العملية . وقيل ان ذلك مطلوب حتى لا تصل الجراثيم التى تنبعث مع تنفسى الى منطقة العملية .

وقبلت ذلك التفسير ، الا اننى اعتقدت انهم قد لا يريدون أن ارى كل ما يفعلوه وبالفعل لم أر شيئا .

وبدات العملية ، ولم اشعر بانها بدأت . وتحدثت الى البروفيسور (جوتسمان) الذى كان بجانبى وتحدث هو الى .

ولم اكن اشعر بأى الم . وفجأة سمعت دق مطرقة على مسمار وزاد الدق ولم اشعر بشىء ولم احسب العدد ولكنى أعتقد أننى ميزت تسع أو عشرة دقات متقطعة . وبعد برهة قيل لى ان العملية ستنتهى على التو وأن كل شىء سار على ما يرام . وبعد قليل ذكروا أنها انتهت . وازاحوا الستار ورايت قفاز البروفيسور (ماكين) وكان عليه بعض الدماء ، وأزالها وجاء وقال لى : لقد تم كل شىء بصورة طبية وتم وضعى فى نقالة واعادتى الى جناح البروفيسور (جوتسمان) الخاص بالعناية المركزة .

وفى هذه الليلة لم تعاودنى الآلام ولكن فى يوم الجمعة وقد زال على الارجح أثر المخدر الموضعى ، بدأت الآلام . وكانت شـديدة الا انها كانت محتملة لانهم سمحوا لى بالبقاء فى الفراش وعدم الحركة لمـدة يومين » .

وتم شفاء عظمة الفخذ ، العظمة التى توصل الفخذ بالحوض ، وخرج بيجين من المستشفى بعد ذلك بثمانية عشر يوما . الا انه ظـل يعانى من الم شـديد وعدم الشعور بالراحة لمـدة شهور بعد ذلك وعندما قام الرئيس الفرنسى (فرانسوا ميتران) بزيارة رسمية لاسرائيل فى شهر مارس عام ١٩٨٢ ، ألقى بيجين خطابا فى الكنيست وهـو جالس على مقعد متحـرك وفى أواخـر شـهر مايو ، اعتذر عن القاء بيان أمام لجنـة الشئون الخارجية والدفاع بالكنيست لان ساقه المكسور مازال يؤلمه وقال لهيئة مكتبـه انه لم يتعرض لمثل هذا الالم فى حياته . وتخلى رئيس الوزراء عن مكتبه الذى وجـده غير مريح ، وباشر عمله اليومى وهو جالس على اريكة وعلى مائدة لتنـاول القهوة وبعد ذلك بفترة طويلة واصـل المشى مستعينا بالعصا .

لقد هز سقوطه ثقته بنفسه وذكره بأنه اصبح مسنا . واعترف بأنه يخشى من السقوط مرة أخرى .

وكوسيلة لتدعيم موقفه استغل بيجين اصابته كدعاية فكان يقول للجماهير اليهـودية الامريكية الصاخبة عندما كانت ادارة ريجـان تهدد بممارسـة ضغط على اسرائيل لقد كسرت ساقى لكن لم تنثن ركبتى .

وعلى الرغم من ذلك فان هذه الاصابة جعلته يشعر بانه مريض مثلمـا لم تفعل ابدا حالة قلبه . وسأل ذات مرة زميـلا له فى مرض القلب « هـل تشعر بأنك رجل مريض » ؟ وبالرغم من أن بيجين لم يسافر ابدا بدون طبيبه المخلص (جوتسمان) فانه لم يشعر بأنه عرضـة للخطر على نحو خاص .

وخلال زيارته للقاهرة فى عام ١٩٧٩ كان يقفز حول الاهرامات وهو يرتدى حـلة وربطة عنق فى درجة حرارة أكثر من ٤٠ درجة مئوية ومع ذلك بـدأ يبدو ضعيفا بساقه المكسورة وكان يحتاج الى مساعدة .

وفى الاغلب ، كان بيجين قد بدأت تظهر عليه — منذ توليـه منصب رئيس الوزراء — الاعـراض التقليدية للمس والانقبـاض وقد انغمس فى الاكتئاب والكسل لمـدة شهور ، فى المرة الواحدة ، وحدث ذلك فى عام ١٩٧٨ ثم حدث مرة أخرى فى عام ١٩٨٠ . وكان يعود الى النشاط فى كل مرة بسبب نشوب قتال أو تعرضه لاهانة او استغلال فرصـة لصنع التاريخ . وفى الاثنين وعشرين شهرا التى تلت سقوطه فى حمامه بالقدس ،

كان بيجين يتعرض لسعادة الحياة ولنحسها ، الا ان الدافع على العمل ضعف بالتدريج واصبحت الفترات الانقباضية اقل عدد أو اقل مدة .

وبدات تضعف المرونة التى اتصف بها فى (الجولاج) وفى الحركة السرية وكذلك ازدرائه للمعارضة الدائمة وتجارب الحكم . كان الاتجاه السائد هو الانحدار الشديد .

لم يكن شيء من ذلك واضحا عندما خرج بيجين من مستشفى الهداساه يوم ١٤ ديسمبر . لقد خرج بهمة ونشاط كبيرين كما لو كان يريد أن يظهر انه من السابق لاوانه القضاء عليه .

وانقضى يوم الاثنين الطويل ، الذى خرج فيه رئيس الوزراء محوطا بكل ما تتصف به عملية ينفذها رجال العصابات : المفاجأة والسرية وسرعة التنفيذ .

وقد بدا ذلك اليوم فى الساعة السابعة والربع صباحا عندما كان بيجين مازال يرتدى ملابس المستشفى . واتصل تليفونيا بارييل شارون وسأله عن خططه بالنسبة لذلك اليوم وأجاب وزير الدفاع الذى غضب بعض الشيء للاتصال فى هذه الساعة بأنه سيذهب الى « ياميت » فى شمال سيناء . واقترح بيجين عليه ان يتخلى عن الذهاب الى ياميت ويحضر الى القدس . وتم أيضا استدعاء اسحاق شامير وزير الخارجية . وتساءلا ما هى المسألة ؟ وأجاب بيجين « سأبلغكم عندما تحضرون » وكان هذان الوزيران وهما أقدم رفيقين له فى حزب حيروت أول من يحاطان علما لكن حتى هما لم يخمنا أن رئيس الوزراء كان يعتزم الاحتفال بخروجه من المستشفى بضم مرتفعات الجولان ، التى تم الاستيلاء عليها من سوريا فى حرب ١٩٦٧ ، ودعى مجلس الوزراء الى عقد جلسة طارئة فى وقت الظهيرة فى شارع بلفور . وكان بيجين فى بيته مشغولا .

كانت الصحف تعلم أن هناك شيئا فى الافق لكن ما هو ؟ وانفض اجتماع مجلس الوزراء قبل الغداء ، واعلن أنه سيصدر بيان فى الكنيست بعد الظهر وبدات التساؤلات : هل بيجين مريض أكثر مما كنا نتصور ؟ . هل سيقدم استقالته ؟ هل هى عملية عسكرية ، ضربة ربما يتم توجيهها الى الصواريخ السورية نصف المنسية فى شرق لبنان ، لقد اظهر الامر كله سطوة بيجين وميله للتآمر .

كان رئيس الوزراء قد اتخذ قراره وعلى وشك اعلانه وأيا كانت هواجس مجلس الوزراء فقد جرفه التيار وأجبر الكنيست على صياغة مشروع قانون بتطبيق القانون الاسرائيلى والتشريع الاسرائيلى والادارة

الاسرائيلية على المرتفعات بثلاث قراءات وعرضه على لجنة قبل منتصف الليل وقد يجادل المحامون العالميون بشأن المصطلحات الفنية الصحيحة، الا انه بالنسبة للعالم اجمع كان قد ضم الـ ١٧٦٧٥ كيلو متر مربع بما فيها من سكان دروز يبلغ عددهم ١٣٠٠٠ نسمة وسكان يهود يبلغ عددهم ٦٦٠٠ فى اربع قرى واقعة فوق التلال و ٣١ مستوطنة على التوالى . وذيل رئيس الوزراء المبادرة بنهاية درامية بالذهاب الى الكنيست فى مقعده المتحرك ، وتقديم التشريع من مكانه المخصص لرئيس الوزراء ، والدخول فى معركة حامية مع الاعضاء البرلمانيين المعارضين .

وكان قد تم الايذان بالضم فى الخطوط الارشادية التى وضعها الائتلاف للكنيست فى دورته العاشرة لكن لماذا اختار بيجين ذلك اليوم للاعلان عنه وهذه الوسيلة ؟

يقول مساعدوه ان أولويته الاولى كانت اسكات مدافع (جويلا كوهين) وحزب (تحيا) الجديد الذى فاز بثلاثة مقاعد فى انتخابات عام ١٩٨١ والذى كان يتربص الدوائر لكتلة ليكود من اليمين . لقد حاولت مرة مسز كوهين التى انشقت عن حزب حيروت بعد كامب ديفيد دفع الخطى نحو الجولان وهددت بأن تفعل ذلك مرة أخرى بينما صمم بيجين الذى كان بطيئا فى العفو عن المنشقين على حرمانها من ارضائها فلا يهز الكلب الذيل .

وكان هناك ايضا شعوره المسرحى باستغلال الفرصة والرغبة الملحة فى السيطرة على اضواء المسرح . الا أن الظروف قد اجتمعت لجعل هذا الوقت مثاليا للضم . وكان العالم مشغولا بأزمة بولندا . وكانت سوريا تعمل لصالح اسرائيل بالادلاء بتصريحات متعنتة بصورة متزايدة حول«خيانة»ارتكبت لتحقيق السلام مع اسرائيل . وكان الرئيس السورى حافظ الاسد قد صرح فى اليوم السابق مباشرة بأنه لن يعترف ابدا بالدولة اليهودية . حتى اذا قبل الفلسطينيون أن يفعلوا ذلك .

وقام (ديفيد كيمنش) مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية بتبرير تلك الضربة التى قام بها بيجين لاجهزة الصحافة العالمية بأنها اجراء وقائى لحماية النفس . وقال اذا لم نستطع تحييد مرتفعات الجولان بمعاهدة للسلام فذلك هو السبيل الذى يتعين علينا أن نحققه .

ووبخ بيجين المعارضة البرلمانية متهما اياها بعقلية الجيتو وقال ان الظاهرة التى تتكرر فى التاريخ اليهودى من جيل لاخر هى اتهام الذات، فلابد أن يقع اللوم على اليهودى ، واذا تعرض اليهودى لمذبحة فان اللوم يقع عليه واذا سفكوا الدماء فاليهودى ايضا هو الملوم . ويقول اعضاء الكنيست الان : لن تتفاوض سوريا معكم واللوم يقع فى ذلك على الحكومة اليهودية. وكان رئيس الوزراء يؤكد

ان السوريين وبالتالى اتباعهم الفلسطينيين قد ظلوا فى معسكر الرفض ، الذى منه لن يشكلوا اى خطر على الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة . لقد أقدم بيجين على هذه الضربة ايضا قبل الموعد النهائى لانسحاب اسرائيل من سيناء فى شهر ابريل حتى يقلل من رد الفعل المصرى .

وقال ان القاهرة لن تفعل شيئا من شأنه ان يعرض للخطر استعادة اراضيها السليبة ، وبحلول شهر ابريل ستكون قضية الجولان قد ماتت .

وكان بيجين على صواب فيما يتعلق بالمصريين ، الا أنه قلل من قـوة رد الفعل الامريكى ، فلم تشعر واشنطن بالغضب فقط لان اسرائيل ضمت أراضى سورية محتلة ولكن ايضا لانها فعلت ذلك بدون اشعار سابق ، وناهيـك عن التشاور فهذه ليست الطريقة التى يجب أن يتصرف بها الحـليف ، ردت ادارة ريجان على ذلك بارجاء العمل بمذكرة التفاهم الاستراتيجى التى كان شارون قد تفاوض بشأنها مؤخرا بمنع المكاسب المالية التى كان قد تم التعهد بها لاسرائيل وكانت هناك شكوك فى الولايات المتحدة وفى اسرائيل حول القيمة العملية للمذكرة الا ان بيجين وشارون قد حققا الكثير منها . وكان ارجاء العمل بها ضربة لمكانتهما وكان رد رئيس الوزراء على ذلك شفويا اذ لم يكن لدى اسرائيل شىء ذو اهمية يمكن أن تحرم الولايات المتحدة منه ، الا انه فى نطاق هـذه الحدود أخـذ بيجين يهدد بالكلمات كما لو كانت اسرائيل هى الدولة العظمى وامريكا هى التابع المحاصر . ووجه ذلك الارجاء طعنة لمبدئه الخاص بالتحالف المتوازن ولكبريائه فى الاستغلال اليهودى . وكان بيجين يعامل الكلمات على الدوام كالاسلحة ولابد أن تأتى الخطبة المملة التى القاها على السفير الامريكى سيىء الحظ « صموئيل لويس » فى مصاف أكثر الهجمات قسوة يوجهها شريك صغير الى راع ثرى وقوى .

لقد استدعى رئيس الوزراء (لويس) الى شارع بلفور ووجده السفير ما زال يعانى من ساقه المكسور ويلتزم بالصرامة فيما اتضح انه مناجاة للنفس استغرقت خمسا وخمسين دقيقة وكما لو كان يريد أن يظهر ان غضبه ليس موجها الى لويس ، خرج بيجين عن سبيله لتبـادل المجاملة بشأن صحتهما وعائلاتهما قبل الدخول فى الموضوع وبعد ذلك كما لوكان يضىء نورا ، قال بيجين : والان يا سيادة السفير عندى تصريح أريد الادلاء به وقال انه رسالة شخصية يريد نقلها على الفور الى الرئيس ووزير الخارجية ولاحظ لويس وجود حزمة من الاوراق الى جانب بيجين الا ان رئيس الوزراء لم يشر اليها .

واشار بيجين الى ان هذه هى المرة الثالثة خلال ستة اشهر « تعاقب » الادارة الامريكية فيها اسرائيل . وكانت المرة الاولى بعد تدمير اسرائيـل للمفاعل العراقى ، أما المرة الثانية فكانت عندما قصفت اسرائيل بيروت فى صيف عام ١٩٨١ .

منذ أسبوع أقر الكنيست قانون الجولان ، ومرة اخرى تعلنون انكم تعاقبون اسرائيل ، ما هذا الحديث « تعاقبون اسرائيل هل نحن دولة تابعة ، هل نحن جمهورية تافهة ، هل نحن صبية فى الرابعة عشر من العمر بحيث اذا لم يلتزموا فى تصرفهم يتم تهشيم مفاصل أيديهم وأرجلهم · اننى سأتحدث اليكم عمن تتألف منهم هذه الحكومة . انها تتألف من رجال قاتلوا وخاطروا بأرواحهم وعانوا انكم لا تستطيعون أن تخيفونا ولن تخيفونا بالعقوبات والتهديدات · لقد عاش شعب اسرائيل طيلة ٣٧٠٠ سنة بدون مذكرة للتفاهم مع أمريكا وسيستمر فى العيش بدونها لمدة ٣٧٠٠ سنة أخرى .

واتهم بيجين الادارة الامريكية بأنها اخلفت وعد الرئيس بفرض «عقوبات مالية عليها » ما الذى يريدون أن يفعلوه ؟ هل يريدون ضرب اسرائيل فى جيبها (اقتصاديا) ! .

فى عام ١٩٤٦ كان يقيم فى نفس ذلك المنزل جنرال بريطانى اسمه (باركر) وهكذا فاننى أعيش اليوم فى ذلك المنزل · وعندما ناضلنا وصفتمونا بأننا ارهابيون وواصلنا النضال . وبعد أن نسفنا مقر قيادته فى الجزء المنعزل من فندق الملك داوود قال (باركر) انكم لا تستطيعون معاقبة ذلك الجنس الا بضربة فى جيبه » .

واصدر أمرا الى جنوده البريطانيون بحظر دخول كافة المقاهى اليهودية وكانت فلسفة (باركر) هى ضربنا فى جيوبنا .

ودافع رئيس الوزراء عن حق اليهود الامريكيين واصدقائهم فى الكونجرس فى الحديث بوضوح من اجل اسرائيل دون ان تخيفهم الدعاية المناهضة للسامية أو اتهامهم بتفضيل بيجين على ريجان على نحو لا يتسم بالوطنية .

لن يخيف احد الجالية اليهودية الحرة فى الولايات المتحدة وستقف هذه الجالية الى جانبنا فهذه ارض أجدادهم . ومن حقهم ومن واجبهم مساندتها . وهناك اولئك الذين يقولون انه يجب الغاء القانون الذى اقره الكنيست . وكلمة الغاء هى مجرد مفهوم انتقل الينا من عهد محاكم التفتيش . وفضل اجدادنا الموت على الغاء عقيدتهم أما نحن فلن نموت . واننى اشكر الله ، اذ لدينا قوة تكفى للدفاع عن استقلالنا والدفاع عن حقوقنا ومن فضلك قل لوزير الخارجية ان قانون الجولان سيظل سارى المفعول ، وليست هناك قوة فى العالم يمكن أن تلغيه .

وفيما يتعلق بالاتهام الخاص باحراج الولايات المتحدة ، اصر بيجين على أن اسرائيل تصرفت بسرية على وجه التحديد حتى لا تحرج الرئيس وقال .. اننا لا نريد أن تقولوا لا ثم نطبق نحن القانون على مرتفعات الجولان » .

ولم يخفف ذلك عن صموئيل لويس ، الذى ادهشه ان يرى الحكومة باكملها مجتمعة فى حجرة الانتظار ، ومستعدة لسماع نفس مناجاة الذات مرة اخرى باللغة العبرية . بل شعر السفير بدهشة اكبر عندما سمع تقريرا شفويا فى مذياع السيارة قبل أن يكون لديه الوقت للذهاب الى تل ابيب وارسل .. رسالة للبيت الابيض وشعر بأن ذلك انتهاك كبير للياقة الدبلوماسية بين بلدين صديقين ، لقد قال بيجين الكثير عندما اتيحت له الفرصة ولم يشعر رئيس الوزراء بأى ندم حتى عندما أشارت الصحف الاسرائيلية الى أن الجنرال باركر كان يعيش بالفعل فى المنزل المجاور .

وسببت المواجهة التى حدثت حول ضم الجولان انخفاضا فى مؤشر العلاقات الاسرائيلية الامريكية ، واعتقد الاسرائيليون فى واشنطن أن (جيمس ريستون) كان يعكس تفكير الرئيس عندما كتب فى عموده فى صحيفة نيويورك تايمز أن كبار المسئولين الاسرائيليين يشعرون بأن بيجين كارثة مؤكدة على اسرائيل وبقية العالم وأشار الى انهم ينتظرون لان يفعل الشعب الاسرائيلى شيئا تجاه ذلك .

ولم تظهر تنهما للقضية الاسرائيلية سوى صحيفتين فقط من بين احدى وأربعين صحيفة امريكية رئيسية علقت على موضوع الجولان .

واثناء عودة (كاسبار واينبرجر) وزير الدفاع الامريكى الى وطنه بعد جولة فى الشرق الاوسط فى شهر فبراير عام ١٩٨٢ سئل عما اذا كان هنـــاك جهد منسق لتتباعد الولايات المتحدة عن اسرائيـــل وتتقارب من العـــرب . فأجاب قائلا : أجل لن تصبح الولايات المتحدة رهينة لاسرائيل فى السياسة العسكرية » .

وانصح واينبرجر الـــذى كان ينظر اليه بيجين على انه مسيحى مضطر للتعايش مع اسمه اليهودى للمراسلين بأن الادارة تعتزم كسب تأييد فى الكونجرس لبيع صواريخ هوك متحركة للدفاع الجوى وطائرات مقاتلة متقـــدمة طراز (اف ــ ١٦) الى الاردن وعلى الفور قامت اسرائيل بتعبئة اصدقائها للتصدى للصفقة الاردنية ، التى دفعت بأنها ستعمل على تغيير التوازن الاستراتيجى ، الا أن واشنطن لم تعمل على تصعيد الازمة بصورة كبيرة ، وكان ريجان لايريد أن يعطى ذريعة لاسرائيل للتراجع عن الجلاء عن سيناء ، الذى كان من المقرر أن ينتهى يوم ٢٥ ابريل . وفى سلسلة من الخطابات والتصريحات اكـــد الرئيس من جديد التزامه بالحفاظ على المزية النوعية التى تتفوق بها اسرائيل على الجيوش العربية ورفضه الحديث مع منظمة التحرير الفلسطينية مالم تعترف بحق اسرائيل فى الموجود فى حدود آمنة ومعترف بها .

ويبدو انه قد ثبت ــ مرة أخرى ــ صحة اقتناع بيجين بأن الامريكيين سوف يعودون مرة اخرى فى النهاية الا ان التوتر قد أخذ حقه مساهما بنصيبه فى الانتهاك

ايضا الانسحاب من سيناء الذى قبله بارتباك شديد والذى تعارض مع قدراته كلها . وكان اليهود قد استقروا فى شبه جزيرة سيناء لان الحكومات المتلاحقة ذكرت ان اسرائيل تحتاجهم هناك وبعد ثلاثة شهور من تولى السلطة حصل بيجين على عضوية شرفية فى مستوطنة (نيوت سيناء) وهى مستوطنة تقع بين العريش وياميت انشأها اعضاء تنظيم شباب حيروت ، وتعهد بأن يعتزل هناك فى الوقت المناسب ويكتب مذكراته ووافق على أن يدفع للمستوطنين البالغ عددهم ٣٠٠٠ شخص تعويضا كبيرا مقابل جلائهم طواعية بدلا من أن يثير « حرب اليهود » واصدر تعليمات لتجنب حدوث معركة فاصلة عنيفة مع عدة مئات قليلة من المتعصبين ، الذين لم يعش معظمهم أبدا فى سيناء والذين يرابطون هنك فى الوقت الذى اقترب فيه الموعد النهائى . وفى النهاية تم اجلاء المستوطنات الثمانية عشر كلها بعد وقوع اشتباكات رمزية الا أن ذلك خلق سابقة وكان بيجين يعرفها . وبالتالى فلن يفكر حاكم عربى بعد ذلك فى السلام بدون ان يطالب بمستوطنات .

وبعد مرور ستة أسابيع على الانسحاب من سيناء ، كانت اسرائيل فى حرب فى لبنان . وكان بيجين يؤمن بأهدافها ، لكنه كان يريدها ان تنتهى بسرعة وبثمن زهيد وفى الوقت الذى كان يزداد فيه سلاح الدفاع الاسرائيلى غرقا فى المستنقع اللبنانى ويزداد فيه عدد الخسائر فى الارواح اسبوعا بعد اسبوع لاكثر من اثنى عشر شهرا كان رئيس الوزراء يزداد حزنا . وبدت كل خسارة فى الارواح اتهاما شخصيا ، وعندما كان(أزريل نيفو)يحمل اليه انباء حدوث ضحية أخرى، كان العاملون معه من هيئة مكتبه يرون الضيق على وجهه . وقال (بيهيس كاديشاى ان هذه الانباء تجعل الحزن يتراكم على وجهه وقال (يونا كليمو فيتزكى) سكرتيره الخاص ، بعد أن قدم استقالته ، انه شعر بالخيانة من جانب بعد الاشخاص الذين كان يثق فيهم لقد حمل على الاعتقاد بأننا سندخل لبنان ثم نخرج منها على وجه السرعة .

ومن المعتقد أن بعض الاشخاص الذين اشار اليهم هم وزير الدفاع ورئيس الاركان ولاحظ الاسرائيليون أن بيجين لم يحضر أية جنازة عسكرية ولم يزر ابدا المصابين فى المستشفى . ويبدو أن ذلك كان محنة كبيرة بالنسبة له . وفى يوم ١٥ سبتمبر وهو اليوم الذى ارسل فيه خطاب الاستقالة الى الرئيس (حاييم هيرتزوج) كان سلاح الدفاع الاسرائيلى قد دفن ضحيته رقم ٥١٨ من الجنود الذين راحت أرواحهم ضحية للحرب اللبنانية ، كان جنديا برتبة عريف يبلغ من العمر ٤٩ عاما اصابته قذيفة بازوكا فى كمين بالقرب من صور .

وازداد العبء الذى يقع على كاهله نتيجة للمذبحة التى حدثت فى مخيمات اللاجئين فى بيروت وأثرت فيه المظاهرات الضخمة والحملات الصحفية والاتهامات بالقتل التى وجهت اليه وكان بيجين ووزراؤه وجنرالاته تحت المحاكمة طيلة

ستة شهور تقريبا وابتداء من شهر نوفمبر كانت هناك تسع شخصيات عامة ، من بينهم بيجين وشارون وشامير تحت اشعار بانهم قد يضطرون للمشاركة فى تحمل اللوم .

ولفتت لجنة كاهان نظرهم الى انهم فى خطر واعطتهم فرصة للدفاع عن انفسهم ولم ينسب تقريرها الذى تم نشره فى شهر فبراير الا قدرا محدودا من المسئولية لرئيس الوزراء ، وهى اخطاء تتعلق بالاهمال وليست اخطاء ارتكبها . الا ان بيجين بعقليته القانونية وشعوره بالكرامة لم يكن بمقدوره أن يغفل هذه الوصمة . واضطرته الازمة التى نشبت حول استقالة شارون الى تاكيد سلطته ، لكنه فعل ذلك بقلب منقبض وفى الوقت نفسه فى خريف عام ١٩٨٢ كان يتصدى لمشروع ريجان الذى استهدف جر الاردن الى عملية السلام . ورفض بيجين المشروع باعتباره خطرا آخر على وحدة ارض اسرائيل وكان يجب الا ينزعج ، لان الملك حسين لن يتصرف بدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية وقد مارس الفلسطينيون مرة اخرى مع ذلك حقهم فى الفيتو .

وحدث ذلك كله فى ظل تدهور صحة (اليزا بيجين) ثم وفاتها يوم ١٣ نوفمبر عام ١٩٨٢ . وقد عانت زوجة رئيس الوزراء من ربو مزمن لعدة سنوات . وفى شهورها الأخيرة كانت تتنفس بصعوبة كبيرة وطبقا لما ذكره احد اصدقاء العائلة ، فان ٣٠٪ فقط من كمية الأوكسيجين الطبيعى هى التى كانت تصل الى رئتيها . ولم يكن بوسع الاطباء ان يفعلوا شيئا سوى الابقاء على حياتها بمساعدة الأجهزة الطبية .

كان بيجين يزورها كل يوم فى مستشفى الهاداساه بل واحيانا مرتين فى اليوم ويتصل بها تليفونيا عندما يتسنى له ذلك . وقبل وفاتها باسابيع قليلة ارسل (ارماند هامر) قطب شركة البترول اليهودية الامريكية وهاوى الفن الذى استخدم صلاته بالكريملين لمساعدة بيجين فى الحملة من اجل اليهود السوفييت ، اثنين من المتخصصين لفحص حالتها ، وقد اوصيا بعلاج جعل تنفسها اكثر سهولة لبعض الوقت . وشعرت انها فى حالة طيبة تمكنها من أن تحث رئيس الوزراء على أن يقبل دعوة لزيارة واشنطن لعقد اول اجتماع له مع الرئيس ريجان منذ خمسة شهور . وفى الطريق الى واشنطن كان من المقرر أن يدلى بخطاب فى حفل عشاء لجمع التبرعات فى لوس انجلوس . وقام ابنه (بنيامين) بنقل انباء وفاة (اليزا) الى جناح بيجين فى الفندق هناك . وتلقى الرسالة (بيهيل كاد يشاى) الا انه اراد أن يكون الدكتور جوتسمان موجودا عندما يبلغ رئيس الوزراء بالنبأ . وكان ذلك بعد ظهر يوم السبت فى كاليفورنيا وكان الطبيب قد ذهب الى احد المعابد اليهودية ، واتصل به السكرتير السياسى لمناحم بيجين بطريق المذياع . وفى الوقت الذى كان فيه (جوتسمان) فى طريقه عائدا الى الفندق ، كان بيجين قد أرتدى ملابس السهر وربطة عنق اسود لتناول العشاء . وكان حاضرا أيضا (هارت

هاستين) وهو يهودى امريكى مخضرم من حزب حيروت وزوجته بالاضافة الى (ليه) ابنة بيجين والمضيفة الأرضية التى اصطحبتهما فى الرحلة وانفجرت (ليه) فى البكاء عندما نقل النبأ لها ولوالدها وتم اعداد الترتيبات لعودتهما الى الوطن على متن طائرة بوينج ٧٠٧ من السلاح الجوى الاسرائيلى مخصصة لرئيس الوزراء وقال (كاديش) ان عدم وجوده الى جانب زوجته فى الساعات الأخيرة من حياتها قد سبب له الما كبيرا .

ولم يخرج بيجين من كابينة نومه الصغيرة المزودة بالستائر خلال الرحلة التى استغرقت ست عشرة ساعة من لوس انجلوس الى تل ابيب وظل على متن الطائرة عندما توقفوا لاعادة تزويدها بالوقود فى نيويورك . وكان يتجرع حزنه وحده معظم الوقت .

وعندما عاد بيجين الى شارع بلفور ، اقام حدادا على « عروس شبابه » لمدة سبعة أيام حسب التقاليد وظل بدون حلاقة لاكثر من شهر واقتنع اصدقاؤه العاملون من هيئة مكتبه بأن وفاة (اليزا) بعد زواج دام ٤٣ عاما هو القشة الاخيرة التى قصمت رغبته فى الحكم . وقال احدهم ان بيجين مر بأوقات قبل اتخاذه قرارات حياة أو موت ولكنه لم يشعر باليأس ابدا ولم يفقد قدرته على الزعامة .

لقد اصبح شخصا وحيدا ، بعد وفاة (اليزا) وهو ليس رجلا ثرثارا ، حتى لو كان يستطيع أن يكون خطيبا ساحرا بكلماته . وهو يتحدث الى الناس وليس معهم وباعتباره شخصية مهيمنة فهو لم ينقل المسئولية ابدا الى الآخرين . وكانت زوجته هى الشخصية الوحيدة التى يستطيع التحدث معها واشراكها فى مسئولياته ومشاكله وكانا قريبين للغاية من بعضهما . وبعد ان توفيت كان يعود الى بيته ولا يجد أحدا يتحدث اليه . لقد كان فى حرب وكان الناس يموتون ولم يكن معه احد ليشاركه فيها .

وحاول بنيامين ابن بيجين ان يملأ الفراغ وكان قريبا جدا من رئيس الوزراء ــ شخصيا وسياسيا ، وكان يتواجد فى المكتب فى معظم الأحيان عندما يتم اتخاذ قرارات حاسمة ــ الا ان (بنيامين) لم يستطع ابدا ان يملا مكانة أمه ، فقد كانت له زوجة وستة أطفال بالاضافة الى وظيفته كجيولوجى وكان يكره خروجه على الملأ ويقول أحد اصدقائه ان بنيامين فعل ما فى وسعه لكن الأمر كان مختلفا ومنذ نهاية عام ١٩٨٢ وبعد مرور شهر بالكاد على وفاة (اليزا) بدأ بيجين يفقد وزنه وقوته . ولم يكن يتناول طعامه بصورة طبية ، وعلى مائدته المفضلة فى صالة تناول العشاء فى الكنيست لم يكن يتناول سوى طبق صغير من الخضروات . وقد توقف عن طلب طبق الدجاج والشوربة ، الذى كان يمثل طعامه الرئيسى . واصبح وجهه ورقبته غائرين وهزيلين وعندما الح عليه أحد مستشاريه ليتناول الطعام ، رد قائلا : لم تعد عندى شهية .

وعلى الرغم من تدهوره الواضح اصر كبار المسئولين فى العلانية وفى السر على انه لا يتلقى اى علاج خاص سواء كان طبيا او نفسيا . الا ان حالة الاكتئاب كانت تزداد سوءا وقال احد مستشاريه المقربين « لقد كان يتعامل مع الاشياء الكبيرة اكثر من تعامله مع الاشياء الصغيرة ولم يكن يقرا الصحف بنهم كعادته . وقنت اجتماعاته واصبح هرما . وشعر دبلوماسى امريكى يعرف بيجين جيدا انه لم يعد يستمتع بكونه رئيس وزراء اسرائيل ، فقد اصبح ذلك بالنسبة له عملا روتينيا بل عملا شاقا وكان يشترك فى المفاوضات ويفهم ما يجرى مناقشته الا انه ترك جانبا كبيرا من التمثيل الاسرائيلى لرفاقه وولت هيمنته وسيطرته . وفقدت مشاركته شرارتها الخلاقة ولم يعد يتطلع الى صيغ جديدة وطرق للالتفاف حول المشاكل وقلت المناسبات التى يتأمل فيها ورابطت حركة (السلام الان) اربعة شهور خارج مقر رئيس الوزراء ومعها لوحة بالقتلى يطاردونه بها عند خروجه أوعودته . ورد (مائير كوهين) العضو البرلمانى بكتلة ليكود على ذلك بالاضراب عن الطعام وظهر بيجين ليطلب منه الاقلاع عن اضرابه . الا انه سار كانسان آلى فى اتجاه خاطىء . فأخذه احد رجال الامن من كتفه وقاده الى الطريق السليم وعندما استقبل مجموعة من أصدقاء اسرائيل من الشباب الامريكى المسيحى ، سأله زعيمهم عما اذا كان رئيس الوزراء لديه اية رسالة لهم ليحملوها عند عودتهم الى الوطن ، رد عليه بيجين بالنصيحة التى اعتاد ان يقدمها ليهود الشتات وهى « تعلموا العبرية واقدموا وعيشوا فى اسرائيل » .

وعلى الرغم من أن المتحدثين المخلصين له زعموا حتى آخر لحظة ان بيجين مازال يدير دولاب العمل الا ان قبضته على ناصية الامور قد ضعفت وقد شعر بالحرج من دعوة له بزيارة الرئيس ريجان فى نهاية شهر يوليو ، بالرغم من انه كان يلح عليها بشدة فى وقت مبكر من العام . ومنذ اللحظة التى سلم صموئيل لويس فيها رسالة الرئيس كان بيجين يبحث عن مخرج . وقال لموظفيه اننى لست قادرا على الوقوف امام الجمهور وطلب السفير ردا عاجلا لان البيت الابيض يريد الاعلان عن الزيارة فى اليوم التالى يوم الجمعة ، لكن بيجين طلب بعض الوقت وقال له : ومن فضلك أن تبلغ الرئيس بأننى سارد عليه فى بداية الاسبوع القادم .

وبمساعدة يهودا افنر الذى يتولى مراسلاته المكتوبة باللغة الانجليزية قبل بيجين الدعوة فى الاسبوع التالى الا انه دس عبارة كمخرج له . وقال انه سيكون سعيدا لان يزور واشنطن . ويتوقف ذلك على قدرتى على مغادرة البلاد فى ذلك اليوم وكانت هنك ثلاثة اسابيع لا تزال امام الزيارة ، وحققت له الرسالة فترة سماح مدتها أسبوعين الا ان ذلك لم

يحقق شيئا ، ما زال بيجين غير قادر على مواجهة العالم وتمت صياغة عدد مختلف من الخطابات الدبلوماسية ، الا ان رئيس الوزراء قرر أن السبيل الوحيد هو الاتصال تليفونيا بالرئيس ريجان ويطرح أسبابه الشخصية للتأجيل ومما بعث الراحة فى نفوس الاسرائيليين ان البيت الابيض اصدر اعلانا لبقا استخدم فيه تلك الكلمات لاسباب شخصية بدون اى تفسير اكثر من ذلك . وامسك به مكتب رئيس الوزراء كما لو كان بيانا مشتركا متفقا عليه . وكانت الاسباب الشخصية مناسبة للقدس مثلما كانت مناسبة لواشنطن .

وفى اسرائيل لم يظهر بيجين على منصة الخطابة او على شاشة التليفزيون ولم يعط اية احاديث وكان الاقتصاد فى حالة فوضى وكان الوزراء يتجادلون بحدة حول اجراء خفض فى الميزانية ، واصاب الخدمات الطبية شلل بطىء نتيجة لاضراب الاطباء الذى استمر ١١٧ يوما ولم يكن هناك من سبيل للخروج من لبنان وانزوى بيجين بعيدا معظم الوقت ومع ذلك لم يتول احد سلطته . وتوفى (سيمحا ارليك) نائب رئيس الوزراء المسن فى شهر يوليو ، وبدا الرئيس بدون هدف أكثر من أى وقت مضى وتم ترك الامر الى (اهرون بوزان) الذى ينتمى الى حزب (تامى) الصغير الثائر ليكسر مؤامرة الصمت . وقال (اوزان) وزير الدعاية الاجتماعية وهو فلاح من تونس أن (الحكومة تشبه سفينة بدون قائد) وعلى سبيل المثال فان مناقشة الميزانية قد جرت فى جو من الفوضى لا يمكن تصديقه .

(كانوا يقضون ثلاث ساعات من الساعات التسع يفكرون كيف يتخذون القرار بدلا من اتخاذ القرار وفى النهاية لا يعرفون ما تقرر وكان جميع الوزراء يصطفون فى سكرتيرية الحكومة للنظر فى المحاضر ليعرفوا ماتقرر) .

وبالتأمل فى الاحداث الماضية كانت هناك حتمية حول تقاعد بيجين ، وليس من الممكن اخفاء الحقيقة الى الابد ، وكان يزداد احساسا بعدم قدرته . وقد قال مرارا انه سيتقاعد فى السبعين من عمره ، ومع ذلك فان اعلانه فى نهاية اجتماع روتينى للوزارة يوم ٢٨ اغسطس عام ١٩٨٣ بأنه يعتزم الاستقالة قد ادهش الجميع ، اللهم الا حفنة من المقربين اليه . بل حتى هم لم يكونوا لديهم علم بخطته حتى قبل اجتماع الوزارة مباشرة .

وكما كان يحدث فى معظم الاحيان فى السر وفى الحكومة ، لم يشاور بيجين سوى نفسه واتخذ قراره الخاص وحينذاك ابلغ به ابنه بنيامين وسكرتيره السياسى (ييهيل كاديشاى) وسكرتير الحكومة (دان مريدور) ورفيقه القديم فى جماعة (ارجون) (يعقوب مريدور) وكان الاعلان عن هذا القرار امام الحكومة تمهيدا دستوريا ضروريا قبل الذهاب الى الرئيس .

وقال بيجين لزملائه الذين جاءوا الى حجرته بعد ان انفض اجتماع الوزارة .. « انني اشعر بأنه ليس بمقدوري تحمل مسئولياتي تجاه الامور كما هي عليه ، وبالطريقة التي أودها والطريقة الواجبة » .

ومع ذلك ، وافق على الاستماع الى ممثلين من جميع احزاب الائتلاف الذين كانوا يخشون من النتائج الانتخابية ويأملون في اقناعه باعادة النظر في الموضوع وناشدوه لمدة يومين باسم الله وجابوتينسكي ، في الوقت الذي اصطف فيه مئات من الناخبين في كتلة ليكود خارج منزله ينشدون قائلين : « بيجين ، ملك اسرائيل » . لكن كان ذلك كله بدون جدوى .

ولم يكن ذلك هو بيجين عام ١٩٦٦ الذي كان يثير الفزع في نفوس اتباعه — ويضطرهم الى الوقوف في صف واحد مهددا بالاستقالة . وابلغ (ميريدور) بصورة قاطعة اسكتت المتضرعين اليه « لا استطيع الاستمرار » .

وكخدمة اخيرة لحزبه ، وافق بيجين على الانتظار الى حين ان يتم اختيار خليفة له . وكان متأكدا من الفوز بالتأييد البرلماني قبل ان يبلغ الرئيس هيرتزوج وكانت المناورة السياسية هي التي انتقصت من كرامة رحيله ، ولاسيما عندما بقي أكثر من اللازم ، الا أن تصرفه هذا يتسم بالولاء كان من الممكن أن يفهمه بن جوريون أو جولدا مائير . وكان التوازن بين كتلة ليكود وحزب العمل دقيقا للغاية لدرجة أن ادنى خطأ في التقدير قد يجلب المعارضة .

وتم اسدال الستارة النهائية في دراما الحياة العامة لمناحيم بيجين على مسرح خاو . وانكمش رئيس الوزراء في قوقعته وبات لا يأكل الا قليلا ولم يعد يحلق ولا يرى سوى عائلته ومستشاريه المقربين .

وظل بعيدا عن اجتماعات الوزراة ولم يحضر صلوات العام اليهودي الجديد ولمهتكن لديه رسالة وداع الى البلد ولم يلعب دورا في اختيار اللجنة المركزية لحزب حيروت لاسحق شامير كزعيم جديد لها ولم يرسل أية تهاني .
وفي ظهر يوم الخميس الموافق ١٥ سبتمبر ، أرسل بيجين (دان ميريدور) الى منزل الرئيس باستقالته الرسمية .

وقال متحدث انه لا يريد الظهور على الملأ لانه يعاني من طفح جلدي يمنعه من الحلاقة . وتم الاعتراف فيما بعد بانه كان يستخدم مرهما لحلاقته طيلة ٢٥ عاما ومرة اخرى لم يستطع بيجين ببساطة أن يواجه العالم وبعد ذلك بسبعة أسابيع اقيمت صلوات تذكارية في مدفن جبل الزيتون في الذكرى الاولى لوفاة (اليزا) ولم يحضرها بيجين ، الذي مازال يعيش كما لو كان يعتزل العالم في مقر رئيس الوزراء .

الفصل الرابع والعشرون

البيت الذى شـــيده مناحـــيم

لقد حكم مناحيم بيجين اسرائيل لمدة ست سنوات وثلاثة شهور ، مما جعله رئيس الوزراء الذى يحتل المرتبة الثانية طول مدة الخدمة فى ذلك المنصب بعد (ديفيد بن جوريون) الاب المؤسس للدولة . وقد كشف عن نفسه كرجل معقد ولكنه ليس غامضا . ورجل متناقض فى صفاته الظاهرية وان كان غير لغز . وهو ارهابى لم يسبق له مثيل فاز بجائزة نوبل للسلام ثم شن حربا اخرى .

وهو ديمقراطى ولكنه مستبد . كما أنه زعيم ليس للدهاء وسيد بولندى وبطل شرقى يحظى بالاعجاب . وهو رجل حسن السمعة يجد من الحكمة قراءة الحروف الصغيرة وهو متآمر يجد من العسير الحفاظ على سر .

ووصفه الاسرائيليون بأنه أول رئيس وزراء له أيدلوجية ومن المؤكد أنه أكثر الرجال عزما فى اسرائيل . وكانت الاولوية الكبيرة بالنسبة له هى ضمان الوطن القديم كله فى غرب الاردن للشعب اليهودى . وفى الوقت الذى تقاعد فيه اعترف حتى معارضوه أنفسهم بأن ذلك التقاعد سيأخذ معه زعيما ليس أقـل تفانيا وليس اقل قوة لعودة خطوط التقسيم . وفى شهر مايو عام ١٩٧٧ ، عندما وعد بيجين « الكثيرين فى الون موريه » كانت هناك ٢٢ مستوطنة يهوديـــة فى الضفة الغربية وواحدة فى قطاع غزة وفى شهر ستبمبر علم ١٩٨٣ كانت هناك ١١٢ مستوطنة فى الضفة الغربية وخمس مستوطنات فى غزة . كمـــا ان عدد السكان اليهود الذين يعيشون خلف « الخط الاخضر » القديم قد زاد من ٢٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠ نسمة (بما فى ذلك مدينتا « معاليه أوديم » و « املتويـــل » الجـــديدتين) .

وذلك علاوة على ان نمط الاستيطان قد تغير . وفى ظل حكومة حزب العمل كان التركيز ينصب على نهر الاردن وعلى استيطان الحدود الاستراتيجية . وتم عمدا الابقاء على المستوطنات بعيدا عن منطقتى يهودا والسامرا الواقعتين على التلال حيث يتمركز معظم السكان العرب . ويريد حزب العمل الابقاء على خيار التسوية الاقليمية أما مناحيم بيجين فقد قلب الاتجاه الذى تسير فيه الامور وسحب الموارد بعيدا عن الهوامش الشرقية وجعل المستوطنات متناثرة بين المـــدن والقرى العربيـــة .

وفى أول الامر لم يتطوع سوى الذين لديهم أيديولوجية للاقامة فى تلك المواقع المتقدمة ، لكن بالتدريج تجرعت العائلات العادية الطعم الذى نصبته لهم الحكومة

وانتقلت الى الضفة الغربية لان الاسكان هناك اكثر رخصـــا واصـــبحت المستوطنات على مقربة من القدس وتل ابيب لتكون بمثابة صوامع يمكن الانتقال منها بين المدينة والضاحية .

وبعد سنوات من العند المستمر اعترفت حتى الولايات المتحدة نفسها بأن المستوطنين يوجدون هناك ليبقوا . وفى اليوم الثانى من أغسطس عام ١٩٨٣ ، صرح (شارلز ليتشتنيستين) نائب مندوب الولايات المتحدة فى الامم المتحـدة لمجلس الامـــن بمـــا يلى :

« اننا لا نعتقد انه امر عملى او حتى مناسب المطالبة بازالة المستوطنات القائمة . ان مستقبل المستوطنات يعد من القضايا الرئيسية التى تحتـاج الى معالجة فى المفاوضات . وليس بوسعنا ان نقبل استمرار الدفع الذى يتساءل عما اذا كانت المستوطنات غير شرعية » وهو دفع سيطر ـــ لســوء الحظ ـــ على المناقشات التى جـرت فى الامم المتحـدة حول هذه المســألة مما لم يكن فى صالح القضية الاساسية ، الا وهى كيف يمكن تحقيق حـل عادل وسلمى للنزاع القائم حول الاراضى المحتلة » .

وبكلمة أخرى ، تم خلق حقائق وكانت ادارة ريجـــان واقعيــة للغاية بحيث لا يمكنها ان ترغب فى ازالتهـــا . وفى الوقـــت نفســه فان الحـكم الذاتى الفلسطينى كما هو متصـــور فى كامب ديفيد كان بمثابة خطـــاب ميت . وبعد مرور خمسة اعوام على اتفاق بيجين ـــ والسادات ، لم يكن هنـــاك مجلس للحكم الذاتى فقط بل لم تكن هناك مفاوضات ايضا وبدا الفلسطينيون الذين يرزحـــون تحت وطأة الاحتلال يفقدون حقوقهم بالتدريج كما أن وضـــع المستوطنين قد تدعم واكتسبت صفة الشرعية مع كل شهر يمر .

ومع ذلك لم تلغ مصر معاهدة السلام لقـــد كان ســـلاما فاترا على كلا الجانبين ، الا انه سمح لبيجين ان يشن حربا فى لبنان بدون أن يتزعج بلا داع حول جناحه الجنـــوبى .وسمح له بالمضى قدما فى كسب معركته من أجـــل أرض اسرائيل .

وفى عيد الميلاد السبعين لرئيس الوزراء ، كتبت صحيفة « التايمـــز » الصـــادرة فى لندن والتى لم تعتبر ابدا من بين معجبيه تقول ما يلى :

« على اية حال فان بيجين لديه الان وهو فى السبعين من عمـــره مبرر للشعور بالارتياح ان السياسات التى انتهجتها تشكل ضغوطا على المجتمـــع الاسرائيلى وعلى اقتصـــاده .

الا انه يمسك الان فى يده بزمام المبـــادرة الاستراتيجية ضـــد جيرانه ، وهم يعرفون ذلك . وذلك موقف غير عادى بالنســـبة لاسرائيـــل ولا يحظى

بترحيب بالنسبة للعرب ، وهو ايضا موقف غير مريح بالنسبة لجميع الاطراف المتفرجة التى تريد اقحام نفسها فى الامر » .

ويعترف العالم بأنه فى ظل حكومة ليكود محت القوات المسلحة الاسرائيلية وصمة العار التى ترتبت على حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ وسواء كان ذلك أمرا طيبا أم سيئا فان موقف اسرائيل قد تأثر كقوة اقليمية عظمى . وادى قصف المفاعل العراقى واخضاع منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت والسوريين فى شرق لبنان الى استعادة الردع الاسرائيلى . ومع ذلك ، ففى غضون أيام من المقال الافتتاحى الذى أوردته صحيفة التايمز ، كان هناك تساؤل مرة أخرى حول مزاعم الصقور بأن بيجين .. « قام بالقصاص واكد من جديد ثقة الاسرائيليين فى انفسهم واقتناعهم بأنهم يستطيعون ، جزئيا على الاقل تقرير الظروف التاريخية » . وكان تجدد الحرب الاهلية فى لبنان بعد ان انسحبت القوات الاسرائيلية من جبال الشوف آخر مسمار فى نعش المخطط الكبير الذى وضعه أرييل شارون . وانهار المحور الاسرائيلى المارونى وكانت سوريا لا تزال الشقيق الاكبر للبنان ، كما بدأ يتسلل رجال المقاومة الفلسطينية وكانت الديبلوماسية العربية هى امل الرئيس امين الجميل الاخير . وفى الصيف الماضى ، طالبت الكتائب اسرائيل بالكثير ، وكانوا يتوقون لذبح الفلسطينيين وليس لمحاربة منظمة التحرير الفلسطينية ومع ذلك ، كان هناك حد للتضحية التى يمكن ان تفكر اسرائيل فى تقديمها لصالحهم والتضحية فى الارواح وفى السمعة . ونتيجة لذلك لم يتم طرد السوريين والفلسطينيين من شرق وشمال لبنان ولم يكن امين الجميل ، الذى حل محل (بشير) الذى قتل لديه نفس ميل شقيقه للرابطة الصهيونية . لقد عقد اتفاق يرقى الى معاهدة سلام بين القدس وبيروت فى بداية عام ١٩٨٣ ، الا أن اللبنانيين لم يصدقوا عليه ابدا وسرعان مازال . وكان هناك حفيف من النقمة فى زيارة قام بها شارون الى حلفائه المسيحيين القدامى فى شهر اغسطس وقد ذكر عند عودته الى تل ابيب ما يلى :

(لقد اجتمعت مع شخصيات رئيسية وقلت لهم عدة مرات انه على الرغم من أن اسرائيل لم تخض حربا لتخلق موقفا جديدا فى لبنان ، أو لتمكنهم من الحكم فى لبنان فمازالت لديهم فرصة اعتقد انها لن تحين مرة اخرى لتكون لهم دولة مستقلة خاصة بهم وهذه الفرصة تختفى تدريجيا . واعتقد ان ايامها معدودة . وقد فقدت لبنان بيديها فرصة فى الوجود كدولة مستقلة) .

ولم يعد اللبنانيون يعطون آذانا صاغية ، وفى اسرائيل كان يقوم بصنع السياسة رجال آخرون اكثر مللا . وكان الاهتمام الاول لموشى ارينز حليف شارون هو الحد من خسائر اسرائيل ، فى الوقت الذى ينفذ فيها الاهداف الاصلية المتواضعة لعملية السلام من اجل الجليل . وعندما قدم

(بيجين) استقالته ، بدا كما لو كان السبيل الوحيد الذى تستطيع اسرائيل ان تضمن به عدم سقوط صواريخ كاتيوشا أخرى على كريات شمونة هو الابقاء على حامية دائمة على طول نهر الاولى .

خلال الاعوام الستة التى قضاها مناحيم بيجين فى السلطة اعاد رسم خريطة فلسطين ، الا انه لم يحل مشكلة الفلسطينيين وكانت ارض اسرائيل التى ورثها لاسحق شامير هى دولة ثنائية القومية تيد الاعداد وارض تضم ثلاثة ملايين ونصف المليون يهودى ومليونين من العرب . وكان الفلسطينيون يوجدون فى الوطن الموسع ولكنهم ليسوا منه . ولم تكن الاطماع الصهيونية لاسرائيل هى اطماعهم . ولم تكن كذلك فى معظم الاحيان ، ديمقراطيتهم أو جيش مواطنيهم أو مؤسساتهم ، التى عرضتهم للخطر نتيجة لعادة الاحتلال . لقد خضع العرب للسور الحديدى الخاص بجابوتينسكى الا انهم لم يذعنوا للهيمنة الاسرائيلية . ان هناك اعداد كبيرة منهم للغاية — فى الاراضى المحتلة وفى اسرائيل الحقيقية لدرجة لا يمكن ان يتم معها استيعابهم كاقلية سلالية كما ان معدل مواليدهم المرتفع جعل الجانب السكانى فى صالحهم . وكان مشروع بيجين للحكم الذاتى اعترافا ضمنيا بالمشكلة الا انه لم يبذل جهدا اكيدا لوضعه موضع التنفيذ ولم تنجح الحرب اللبنانية فى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية كعامل سياسى فى المعادلة مثلما فشلت ايضا فى تغذية زعامة محلية مستقلة مستعدة لتحقيق سلام بشروط اسرائيل .

واصبحت الاراضى المحتلة ساحة للمواجهة بين نقيضين : الارهاب العربى مقابل الارهاب اليهودى ، فى الوقت الذى تعتبر فيه الاحتمالات مشحونة بقوة ضد العرب . ان الرجال والنساء الذين تحدوا الحكومات المتعاقبة لحزب العمل وكتلة ليكود يجلسون الآن فى الوزارة وعلى مقاعد الائتلاف . واصبح الشاذ هو القاعدة وفرض اعضاء لجان الامن الاهلية المسلحون باسلحة قوات الدفاع الاسرائيلى رؤيتهم الخاصة بالانتقام العين بالعين . وعلى سبيل المثال ، عندما تم قتل أحد اليهود فى الخليل فانهم خرجوا فى هياج واحرقوا السوق العربية وشكت قوات الامن من التدخل السياسى عندما حاولوا محاسبتهم . وكان قاطعو الطرق « صبية يهود طيبين » يقومون بالاعمال القذرة وكان يوجد على الدوام عضو برلمانى او حاخام ليذكر الشرطة . وفى ظل الجنرال (ايتان) اصبح الجيش فى الضفة الغربية اداة لحركة (جوش ايمونيم) واصبح تماسكها فى خطر . وقدم الجيش للمستوطنين المزيد من المساعدة والمساندة .

وكتب (يورام بيرى) فى مقال بعنوان « بين المعارك والاقتراع » دراسة للعسكرية فى السياسة . قال فيها :

لم يتم اعفاء المستوطنين الشرعيين من الدعاوى القضائية فقط ، بل كان يصل الامر فى بعض الحالات الى حـد ايوائهم فى معسكرات قوات الدفاع الاسرائيلى وتجاهل الجيش أعمال الاستفزاز والتخريب التى يقوم بهـا المستوطنون ضد السكان العرب فى هذه الأراضى • ومن ناحية أخرى ساعدت قوات الدفاع الاسرائيلى المستوطنين على انشـاء وحداتهم الخاصة بالدفاع عن النفس وتـم تزويدهـم بالاسلحة والسماح لهـم بضبط امنهـم الخاص فى الأراضى •

ومنذ اللحظة التى انحاز فيها رئيس الأركان الى جانب واحـد فى المناقشة العامة مورطا معه قوات الدفاع الاسرائيلى ـ فقد الجيش ميزة التقدير الكبيرة فى نظر المجتمع برمته • ولم يعد يعكس المجتمع كله ، بالرغم من انه أصبح يحظى باعجاب معسكر سياسى واحد ، نظر اليه الجانب الآخر على أنه خصم سياسى • وبذلك أصبحت المرحلة التالية حتمية ـ وهى المرحلة التى تبتعد فيها جماعات معينة تماما عن الجيش •

وعجل بالعملية « خيار الحرب » الذى انتهجه بيجين فى لبنان • فقـد طالب قائد لواء أن يتم اعفاؤه من منصبه وفضلت قوات الاحتياط الذهاب الى السجن عن العمل شمال الحدود • وقام الآباء بمظاهرات ضد استغلال أبنائهم الجنود ، وازدادت شدة الانقسـام الثقافى وادين المنشقون بأنهم متواطئون مع منظمة التحرير الفلسطينية وبذلك هيأوا الجو لعمليات العنف بل والقتل •

وكان بيجين مثله فى ذلك مثل جميع رؤساء وزراء اسرائيل السابقين مشغولا بالامن وبالشئون الخارجية • الا ان عهده عانى من اسلوبه المستبد فى الزعامة • وقد عهد (بن جوريون) بالشئون المالية والداخلية الى ليفى أشكول (أما جولدا مائير) فكان لديها بنحاس سابير وكتابه الاسود الصغير • ولم يعين (بيجين) أى سيد أعلى محلى • وكان يفوض المسئولية دون السلطة • وهو لا يستطيع أن يتسامح مع أى محور منافس للسلطة ومع ذلك لم يكن لديه الميل أو الوقت لتوجيه الجبهة الداخلية بنفسه •

وعلى سبيل المثـال ، فان تجديد المشروعات ، وهو مشروع خيالى لاصلاح الاحياء الفقيرة ومدن التنمية من خلال مشاركة الشتات الاسرائيلى انما هو مشروع من بنات افكار رئيس الوزراء • الا انه بمجرد أن أطلق شرارته فى حمية النصر الانتخابى الخاص بعام ١٩٧٧ تركه لمستقبل غامض فى ايدى مرءوسيه . وفى كل مكان آخر فاته وقع رهينة للسياسـات الاقتصـادية المغامرة الخاطئة (ليورام أريدور) •

وفى الوقت الذى تقاعد فيه (بيجين) كان التضخم قد وصل الى حوالى ١٣٠٪ فى العام وكانت قيمة الشيكل تنخفض بمعدل ١٪ كل يومـين أمام الدولار الامريكى وكـان الركود يخيم على الانتـاج الصـناعى وكـان

الفلاحون يواجهون الافلاس وزادت الواردات على الصـــادرات بدرجة مخيفة وانفجر فوران البورصة · وزاد الدين الخارجي الاسرائيلي ٥٠٠ مليون دولار حتى أصبح اجماله ٢١٫٥ بليون في النصف الاول من عام ١٩٨٣ · وحـــذر المسئولون بالبنك المركزي الحكومة من نشوب ازمة اذا استمر ذلك الاتجـاه · وعلى الرغم من تحدى (بيجين) لاثنين من الرؤساء ، كانت اسرائيل مدينة بالفعل بصورة أكبر للولايات المتحـدة وبالتالي أكثـر عرضة للضغط من اى وقت مضى من جانب الولايات المتحدة التي تحسن اليها ·

واسرائيل التي خلقها مناحيم بيجين في تصوره اكثر يهودية على وجه التحديد واكثر عداء واكثر عزلة · وأصبحت التوترات الاجتماعية والدينية اكثر قربا من السطح الا أنه كما أوضحت لجنة (كاهان) فان الحكومة كانت ولا تزال مسئولة امام الشعب وكانت الديمقراطية وحكم القانون لا يزالان سائدين ونشيطين · ولم تسكت الصحافة النداءات الى الوطنية · وفي خريف عام ١٩٨٣ ، اظهر التحرر من مشاكل لبنان أن الاسرائيليين يدركون حدودهم وجوانب قوتهم ولم يكن ذلك هو التراث الذي قصد رئيس الوزراء السادس أن يتركه لشعبه ، الا أنه تراث يستحق الاعزاز ·